

سلسلةُ زادِ المناسبات



زادُ السُّلُخَاتِ

الجزءُ التَّاسِعُ



الْبَحْثَةُ وَالْمُسْتَشَارَةُ التَّرْوِيَّةُ

مِيَا سَبْجَا

مُنَاسِبَاتُ شَهْرِ شَوَّالٍ

مَعْهَدُ الْأُسْرَةِ الْمُسَلِّمَةِ | مَعْهَدُ الْأَسْرَةِ الْأَمِيرِيَّةِ

زادُ المبلِّغاتِ
الجزءُ التَّاسِعُ
مُناسِبَاتُ شَهْرِ شَوَّالٍ

زاد المبلّغات



كتاب: زاد المبلّغات - الجزء التاسع

تأليف وإعداد: الباحثة مياسة شبع


تصميم: مياسة شبع

الناشر:


الطبعة:

عدد الصفحات: ٤١٤ صفحة

مركز التوجيه والإرشاد الأسري

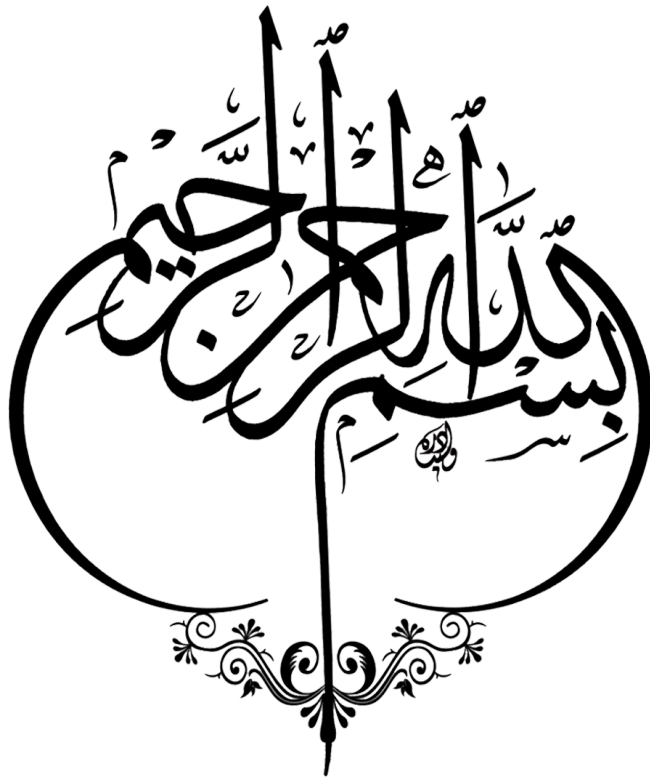
٠٠٩٦٤٧٧٦٣٦٩٥٠٨٠ - ٠٠٩٦٤٧٨٠٠٢٦٢٤١٣  counselingcenter2015@gmail.com

معهد الأسرة المسانمة

٠٠٩٦٤٧٧٣٣٣١٩٥٥ - ٠٠٩٦٤٧٨٢١٧٨٦٠٥٨  familyinstitute2017@gmail.com

تراجم النبغات

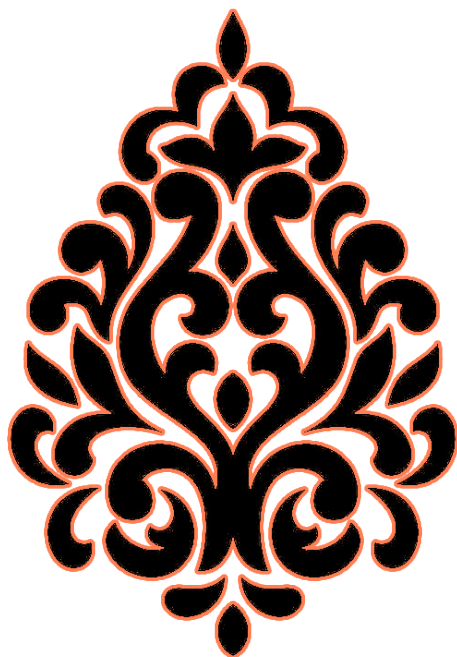
الجزء التاسع



فَهْرِسُ الْمُنْتَوِيَاتِ

٧ المقدمة
١٠ يَوْمُ ١ سُؤَالٍ: عِيدُ الْفِطْرِ الْمُبَارَكِ
١٢ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (١): الْفَرَحُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الْهَدَايَةِ وَالْإِنْحِرَافِ
٤٥ يَوْمُ ٣ سُؤَالٍ: مَعْرَكَةُ الْخَنْدَقِ
٤٧ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٢): الْحِجَابُ وَكَرَامَةُ الْمَرْأَةِ
٧٧ يَوْمُ ٤ سُؤَالٍ: بَدَايَةُ الْغَيْبَةِ الْكُبْرَى لِلْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ (عج)
٧٩ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٣): أَسْبَابُ الْغَيْبَةِ
١٠٩ يَوْمُ ٥ سُؤَالٍ: وَصُولُ سَفِيرِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ إِلَى الْكُوفَةِ
١١١ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٤): صِيَانَةُ صَلَةِ الرَّحِمِ مِنَ الْقَطِيعَةِ
١٤٢ يَوْمُ ٥ سُؤَالٍ: تَوَجُّهُ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صِفِّينَ
١٤٤ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٥): الْإِسْتِعَاذَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ
١٧٩ يَوْمُ ٦ سُؤَالٍ: غَزْوَةُ حُنَيْنٍ (هَوَازِنَ)
١٨١ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٦): الْعِنَادُ: أَسْبَابُهُ وَعِلَاجُهُ
٢١٩ يَوْمُ ٨ سُؤَالٍ: هَدْمُ قُبُورِ أَيْمَةِ الْبَقِيْعِ
٢٢١ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٧): فَاجِعَةُ هَدْمِ قُبُورِ الْبَقِيْعِ
٢٥٤ ١٥ سُؤَالٍ: مَعْرَكَةُ أَحُدٍ وَشَهَادَةُ حَمْزَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٢٥٦ مَوْضُوعُ الْمَحَاضِرَةِ (٨): الْإِسْلَامُ دِينٌ عِزٌّ وَسَلَامٌ، لَا ذِلَّةَ وَلَا عُدْوَانَ

- يَوْمُ ١٧ سُؤَال: مُعْجِزَةُ رَدِّ الشَّمْسِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٨٧
- مَوْضُوعُ الْمُحَاضَرَةِ (٩): عَلِيُّ مِيزَانِ الْأَعْمَالِ ٢٨٩
- يَوْمُ ٢٥ سُؤَال: شَهَادَةُ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣١٧
- مَوْضُوعُ الْمُحَاضَرَةِ (١٠): أَوْجُهُ الشَّبهِ بَيْنَ اللَّبَّاسِ وَالْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ ٣١٩
- يَوْمُ ٣٠ سُؤَال: وَفَاةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ٣٥١
- مَوْضُوعُ الْمُحَاضَرَةِ (١١): إِثْبَاتُ الْمَعَادِ بِالْعَقْلِ وَالْوَحْيِ ٣٥٣
- الهَوَامِشُ ٣٨٣



المُقَدِّمَةُ

الحمد لله الذي هدانا بنور الهداية، ووفّقنا لمعرفة الحق والسير فيه، والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد وآله الطيبين الطاهرين، الذين أخرجوا الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان.

أما بعد ...

فإن العمل التبليغي يُعد من أشرف الأعمال وأعظمها أثرًا، لأنه امتداد لرسالات الأنبياء، وتجسيد عملي لنهج أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في هداية الإنسان وبناء وعيه وإصلاح قلبه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١).

فالمبلِّغ والمبلّغة يملان أمانة عظيمة، ليكونا صوت الحق في زمن الفتن، ودليلاً للناس حين تختلط المفاهيم، وطبيباً يعالج أمراض القلوب قبل أن تستفحل.

ونحن اليوم نعيش في زمنٍ تشتد فيه الحاجة إلى التبليغ أكثر من أي وقت مضى؛ بسبب ما يواجهه الدين من حملات مضادة تُستخدم فيها وسائل إعلامية متطورة، وأساليب مؤثرة تسعى لإضعاف القيم، وتشويه المفاهيم، وإبعاد الإنسان عن هويته الإيمانية. وفي خضم هذا الواقع، يتحدد مستقبل الأمة: إمّا وعيٌ يحفظ الدين ويصونه، أو انجرارٌ وراء ثقافات تُفرغ الإنسان من محتواه الحقيقي.

ومن هنا، برزت الحاجة إلى إعداد زادٍ علمي ديني وتربوي يُعين المبلِّغين والمبلِّغات على أداء رسالتهم بوعي وثبات، ويمنحهم أدوات التأثير الصحيح في الفرد والأسرة والمجتمع، ويُسهّم في إحياء المناسبات الدينية بأسلوب

هادف ومؤثر.

ولأجل تحقيق هذا الهدف، عمد معهد الأسرة المسلمة، التابع للعتبة الحسينية المقدسة، إلى تأليف كتاب (زاد المبلّغات) ضمن سلسلة (زاد المناسبات)، في خمسة عشر جزءاً. يتناول كل جزء أبرز المناسبات الدينية لكل شهر بحسب التاريخ الهجري.

وقد روعي في هذا العمل أن تُطرح المحاضرة أولاً، ثم تُربط بالمناسبة الدينية عبر أسلوب الكوريز، بما يُعين على ترسيخ الفكرة وتفاعل الحاضرين معها. كما أُتيح للمبلّغ أن يختار المحاضرة المناسبة، ويربطها بأي مناسبة دينية أخرى بحسب حاجة المجتمع وظروفه، ووفق ما يراه محققاً لهدف الإصلاح. وقد ارتأينا أيضاً أن نعرض في هذا الكتاب قدرًا واسعًا من المادة العلمية ضمن مباحث متعددة، ليكون للمبلّغ مساحة أوسع في الانتقاء، فيأخذ منها ما يناسب مقامه، اختصارًا أو تفصيلاً، بحسب ما يحقق الغاية المرجوة.

وقد رُوعي في إعداد هذا الزاد جملة أصولٍ منهجيةٍ، تمثل روح هذا المشروع وعمقه:

أولها: الارتباط بالواقع؛ إذ لا قيمة لخطابٍ منفصلٍ عن هموم الناس، فالمبلّغ الحقّ هو الذي يُشخّص مواضع الداء، ويضع الدواء حيث الحاجة، فيعالج الظواهر المنحرفة معالجةً واعيةً، بأساليبٍ حكيمةٍ ومؤثرةٍ، لا تُساوم على الحقّ، ولا تُجامل على حساب الرسالة. ولنا في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة، حيث وصفه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: «طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه.. يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمى، وأذان صم، وألسنة بكم.. متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة»^(٢).

وثانيها: الشمول والتوازن؛ حيث روعي تنوع الموضوعات لتشمل مختلف جوانب الحياة: العقائدية، والولائية، والأخلاقية، والاجتماعية، والزوجية، والتربوية، والمهدوية، وقضايا الجهاد وسائر شؤون الإنسان، ليكون الخطاب متكاملًا يُغذي العقل والروح والسلوك، كما تُغذي المائدة المتوازنة الجسد بكل ما يحتاجه من عناصر الحياة.

وثالثها: مراعاة المتلقي؛ إذ ينبغي أن يصل الخطاب إلى جميع الحاضرين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم، بلغة واضحة مؤثرة، تُخاطب العقول بقدرها، وتفتح القلوب لاستقبال الحق، فيتحقق الفهم، ويطرس الأثر، ويثمر التغيير.

ورابعها: الإحكام في العرض؛ بأن تكون المحاضرة وافيةً بالعرض، محددةً في وقتها، متوازنةً في طرحها، تؤدّي رسالتها دون إطالة مملّة أو اختصارٍ مُخلّ، ليبقى الأثر حيًّا في نفس السامع، واضحًا في فكره، ممتدًّا في سلوكه.

إنّ هذا العمل ليس سوى محاولة متواضعة لخدمة هذا الطريق الشريف، نرجو أن يكون لبنة صالحة في بناء الوعي، وخطوة مباركة في نصره الدين، وأن يجعله الله خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لعباده، مقبولًا عنده.

ونسأل الله تعالى أن يتقبّل هذا الجهد بأحسن القبول، وأن يجعله موضع رضا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وأن يكتب به الهداية والنور لكل من يسلك هذا الطريق.



اَشْوَال

عِيدُ الْفِطْرِ الْمُبَارَكِ

كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ

الْمُنَاسِبَةُ:

عِيدُ الْفِطْرِ الْمُبَارَكِ

القصيدة للشاعر: مثنى إبراهيم دهام

كُلَّ عَامٍ وَنَحْنُ لِلدَّهْرِ عِيدُ

وَالضَّحَايَا عَنْ كُلِّ حَقٍّ تَذَوُدُ

الْأَيْدِي وَنَرْتَجِي فَيَجُودُ

رَاعَهَا الظُّلْمُ وَالظَّلَامُ الشَّدِيدُ

حَيْثَمَا لَاحَ صَبَحْنَا الْمَوْعِدُ

مَا لَيْلٍ مَهْمَا اسْتَطَالَ خَلُودُ

رَغْمَ كُلِّ الْخُطُوبِ.. عِيدٌ سَعِيدُ

هَآ هُوَ الْعِيدُ بِالرَّجَاءِ يَعُودُ

رَغْمَ كُلِّ الْخُطُوبِ نَبْقَى بِخَيْرِ

كُلَّ عَامٍ وَنَحْنُ نَرْفَعُ لِلَّهِ

مَا لَنَا غَيْرَهُ فَمَنْ لَشُعُوبِ

رَبِّ فَالطَّفُ بِالْبَائِسِينَ الْحِيَارِي

يُولَدُ الْفَجْرُ بَعْدَ أَلْفِ عَجَافِ

إِنَّهُ الْعِيدُ فَلتَكُونُوا بِخَيْرِ

المُحَاضِرَةُ الأُولَى

الفرحُ في الإسلامِ بين الهدايةِ والانحرافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣).

في هذه المحاضرة نتعرّف على الفرح في الإسلام: هل هو مطلق أم منضبط؟ فالإسلام لم يأت بأوامر فقط، بل جاء ليبيّن الإنسان فكراً ومشاعر وسلوكاً، ليصل إلى القرب من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

ولم يقتصر على تنظيم الأفعال، بل وجّه المشاعر؛ لأن السلوك ينبع من الداخل، فأمر بمحبة الله ومحمد وآله، لتبقى القلوب على الطريق الصحيح. ومن أهم هذه المشاعر: الفرح، فهو فطري، لكن ليس بلا حدود، بل يحتاج إلى ضبط حتى لا يتحول إلى غفلة أو معصية. فالإسلام لا يمنع الفرح، بل يوجّهه ليكون بطاعة الله، لا بعيداً عنه. ومن هنا نسعى إلى فهم حقيقة الفرح وحدوده، ليكون طريقاً يقود إلى رضا الله تعالى.

المبحث الأول: الفرح في المنظور الإسلامي

المطلب الأول: موقف الإسلام من الفرح

الفرح هو انشراح النفس وسرورها عند حصول محبوب، أو توقع نفع، أو إدراك نعمة، أو الظفر بمطلوب. وهو في نفسه ليس ممدوحًا على الإطلاق، ولا مذمومًا على الإطلاق، بل حكمه يدور مع متعلقه، وسببه، وطريقة التعبير عنه، والآثار المترتبة عليه.

إنَّ الفرح في الشريعة ليس شيئًا مستقلًا عن الإيمان والسلوك، بل هو مندرج ضمن منظومة العبودية لله تعالى، ولهذا ينبغي أن يكون للمؤمن ميزان يزن به أفراحه كلها: لماذا أفرح؟ وبماذا أفرح؟ وكيف أعبّر عن فرحي؟ وهل يقربني هذا الفرح إلى الله أم يبعدني عنه؟

رُبَّ تساؤلٍ يرد: هل الإسلام يمنع الفرح أم يدعو إليه؟

الجواب:

إن الإسلام لا يمنع الفرح، بل يدعو إلى الفرح الحقيقي الذي يحقق للإنسان سعادته الدائمة، لا المؤقتة الزائفة. وقد دلَّ على ذلك أمر الله تعالى بالفرح في كتابه، حيث قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٥). أي أن الفضل والرحمة يشملان كل ما يمن الله به على عباده من نعم مادية ومعنوية، في الدنيا والآخرة، مما يهديهم ويسعدهم، ولذلك أمروا أن يفرحوا بها دون غيرها^(٦).

فالمؤمن الحقيقي يفرح إذا وُفق للصلاة، ويفرح إذا ختم القرآن، ويفرح إذا تاب بعد زلة، ويفرح إذا هداه الله إلى طريق مستقيم، ويفرح إذا أصلح قلبه، ويفرح إذا عاش في ظل ولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لأن هذه النعم ليست

عابرة، بل هي زاد الدنيا والآخرة. وهذا النوع من الفرح يرفع الإنسان، ولا يهبط به. يطهّر القلب ولا يفسده، يربطه بالله ولا يقطعه عنه.

ودلّت العديد من النصوص الروائية على مشروعية الفرح، ولا سيما ما حثّ على إدخال السرور على قلوب المؤمنين، وجعل له أجراً عظيماً عند الله تعالى؛ فقد جاء في الرواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سأل أحد أصحابه: «كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليل، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: هلاًّ تفعلوا! فإن المداعبة من حسن الخلق وإنك لتدخل بها السرور على أخيك ولقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يداعب الرجل يريد أن يسره»^(٧).

وفي رواية أخرى عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله: «من سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ الله»^(٨).

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «في ما ناجى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن قال: «إن لي عبداً أبيعهم جنتي وأحكمهم فيها، قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: من هؤلاء الذين أبحثهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال: من أدخل على مؤمن سروراً»^(٩).

فهذه النصوص تدل بوضوح على أن الإسلام يريد من المجتمع المؤمن أن يكون مجتمعاً فيه بشاشة، ومودة، ورحمة، وسرور مشروع، لا مجتمعاً كئيباً غليظاً يضيّق على الناس في كل شيء.

المطلب الثاني: أقسام الفرح في الإسلام

عند التأمل في القرآن الكريم نجد أن الفرح ذُكر على أنحاء متعددة. فتارة يمدحه القرآن، وتارة يذمه، وتارة يذكره في مقام التحذير من الإفراط والاعتدال.

لذا يمكن تقسيم الفرح إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الفرح الممدوح

الفرح الممدوح هو سرورٌ قلبيٌّ ينشأ من إدراك نعمةٍ إلهيةٍ أو توفيقٍ للطاعة أو ظهورٍ للحق، ويكون هذا الفرح منضبطاً برضا الله تعالى، دافعاً للإنسان إلى مزيدٍ من القرب منه، لا إلى الغفلة عنه أو التجرؤ على معصيته. فهو فرحٌ يرتبط بالله سبباً وغايةً.

ويتجلى هذا الفرح في صورٍ متعددة، من أبرزها ما يأتي:

١. الفرح بفضل الله ورحمته

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(١٠). أي الفرح الحقيقي يكون بالهداية والإيمان والتوفيق للطاعة، لأنه يقرب الإنسان من الله ويحقق له النجاة.

٢. الفرح بالطاعة

إن الفرح بالطاعة مطلوب، وهو يدفع الإنسان للاستمرار في الخير ويشعره بحلاوة العبادة. رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»^(١١). وفرحة الإفطار ليست مجرد فرحة بطعام وشراب، بل هي أيضاً فرحة بالتوفيق لإتمام عبادة عظيمة.

٣. الفرح بنصر الله

إنَّ الفرح بانتصار الحق، أو الانتصار على النفس، من أعلى أنواع الفرح لأنه ليس فرحاً أنانياً شخصياً، بل فرحٌ بقيمة عظيمة يجبها الله. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾^(١٢).

٤. الفرحة بالمناسبات الدينية

الفرحة بالمناسبات الدينية كالفرحة بمواليد النبي وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبالأعياد كعيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الغدير، رُوي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال عن عيد الغدير: «.. إنه يوم عيد وفرح وسرور ويوم صوم شكرًا لله تعالى..» (١٣).

وهو فرح مشروع؛ لأنه مرتبط بنعمة الهداية والولاية، وليس مجرد مظاهر، بل هو تعبير عن الشكر وتجديد الصلة بالله وأوليائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٥. الفرحة بإدخال السرور على المؤمنين

من أجمل صور الفرحة في الإسلام أن يفرح الإنسان لأنه أدخل السرور على قلب مؤمن. كأن يواسي فقيرًا، أو يعين محتاجًا، أو يصلح بين متخاصمين، أو يهنئ بصدق، أو يخفف همًّا، أو يزور مريضًا، أو يفرج كربة.

رُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من سر مؤمنًا فقد سرني، ومن سرني فقد سر الله عز وجل» (١٤).

القسم الثاني: الفرحة المذمومة

الفرحة المذمومة هو سرورٌ قلبيٌّ ينشأ من أمرٍ يخالف رضا الله تعالى، أو يجرُّ إلى معصيته، أو يوقع الإنسان في الغفلة والكبر، فيتحول هذا الفرحة إلى سببٍ لبعده عن الله لا قربه منه. فهو فرحٌ يرتبط بالباطل سببًا وأثرًا. ويتجلى هذا الفرحة في صورٍ متعددة، من أبرزها ما يأتي:

١. الفرحة بالمعصية

هذا من أخطر أنواع الفرحة؛ لأن صاحبه لا يكتفي بارتكاب الذنب، بل يفرح به، ويأنس له، ويستحليه، ويتفاخر به أمام أصدقائه وربما دعاهم

إليه، أو ضحكك عند فعله، أو تفاخر به كالمرأة التي تفرح بتبرجها أمام الأجنبي. وقد رُوي عن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إياك والابتهاج بالذنب، فإن الابتهاج به أعظم من ركوبه»^(١٥).

أي احذر أن تفرح بالذنب، لأن الفرح به أخطر من فعله. فالذي يعصي الله ثم يتألم ويندم، ليس كمن يعصي ويضحك ويفرح. الأول ما زال في قلبه بقية حياة، أما الثاني فقد دخل في مرحلة خطيرة من التبلد والقسوة والاستهانة بحرمات الله.

٢. الفرح بالدنيا على وجه الكبر

ليس المال في نفسه مذمومًا، ولا البيت، ولا الثوب الجديد، ولا النعمة، لكن المذموم هو أن يفرح الإنسان بها فرح الغافل المغرور المتكبر، الذي ينسى الآخرة، وينسى حقوق الله، وينسى أن النعمة امتحان لا تشريف مطلق. ولهذا قال تعالى في قصة قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾^(١٦)؛ لأن قارون لم يكن فرحه فرح شاكر، وإنما فرح مختال متكبر، نسب النعمة إلى نفسه، وطغى بها على الناس.

وقد يتلى بعض الناس بهذا اللون من الفرح في المناسبات، فيتحول الفرح إلى استعراض، والتزين إلى كبر، والوليمة إلى مباحة، والمال إلى باب لإذلال الآخرين أو إثقال كاهل الزوج أو الأسرة. وهذا كله انحراف عن مقصود الشرع.

٣. الفرح بإيذاء الناس والشماتة بهم

من أسوأ صور الفرح المذموم أن يفرح الإنسان بمصيبة غيره، أو يتلذذ بأذية الناس، أو يسرّ لتعثرهم، أو يسعد بإحراجهم، أو يجعل مناسبة الفرح وسيلة لتعطيل الطرق وإزعاج العوائل ورفع الأصوات وإطلاق ما يؤذي الناس.

وقد ذم الله هذا المسلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾^(١٧). فهذا فرح المنافقين ومرضى القلوب، لا فرح المؤمنين.

٤. الفرح الذي يُنسي الهدف من الحياة

من الناس من يعيش للفرح الدنيوي فقط، وكأن خلق ليأكل، ويلهو، ويُمَتِّع نفسه، ويملاً أيامه بالضجيج، فإذا قيل له: اتق الله، قال: نريد أن نفرح. وإذا قيل له: لا يجوز، قال: العمر مرة واحدة. وإذا قيل له: هذا حرام، قال: قليل لن يضر. ويعبر بعضهم عن هذا المعنى بقوله: «ساعة لربك وساعة لنفسك».

وهذه العبارة إن كان المقصود بها التوازن بين الطاعة والمباح فلا إشكال فيها، أما إذا أُريد بها تخصيص الساعة التي لنفسك بالمعصية، فهذا تفكير خطير؛ لأنه يجعل الإنسان يقسم نفسه بين طاعة الله ومخالفة أمره، فيتحول من عبدٍ لله إلى تابع لهواه.

وقد رسم القرآن الطريق الصحيح بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٨)، أي إن حياة المؤمن كلها لله، يفرح بالمباح، لكنه لا يجعل الفرح سبباً لمخالفة أمر الله.

القسم الثالث: الفرح المباح

وهو الفرح بالأمور الدنيوية المباحة في أصلها، كفرح الإنسان ببيت، أو مال، أو زوج صالح، أو ولد، أو نجاح، أو شفاء، أو مناسبة سعيدة، وبغير ذلك من النعم، بل هذا من مقتضى الفطرة. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١٩)، هذه الآية تدل على أن الانتفاع بنعم الدنيا والفرح بها في أصلها أمر مباح، بل هو من نعم الله

التي أباحها لعباده، لكن هذا الفرح يحتاج إلى ثلاثة أمور:
أولها: أن يعتقد أن النعمة من الله تعالى، لا من حوله وقوته.

ثانيها: أن يشكر الله عليها، وأن لا يستعملها في الحرام أو يجعلها وسيلة لمعصيته.

ثالثها: أن لا تتعلق بها نفسه تعلقاً يلهيه عن الله أو يشغله عن الآخرة.

فإذا وُجدت هذه المعاني، صار الفرح المباح باباً من أبواب القرب إلى الله، أما إذا غابت، انقلب الفرح المباح إلى مذموم.

المبحث الثاني: الضوابط الشرعية لمجالس الفرح

بعد بيان أقسام الفرح، يتضح أن الإسلام أباح الفرح الممدوح والمباح، وحذّر من الفرح المذموم لما له من آثار سلبية.

لكن المهم أن الحكم لا يتعلق بنوع الفرح فقط، بل بالوسائل التي يُعبّر بها عنه؛ فقد يكون الفرح جائزاً في أصله، لكنه يتحول إلى حرام بسبب طريقة التعبير.

لذلك كان من الضروري الالتزام بالضوابط الشرعية في الفرح، لننال رضا الله تعالى، ونفرح بطاعته وفق ما يرضيه، ومن أبرز هذه الضوابط:

١. اجتناب الاختلاط

من الضوابط المهمة في مجالس الفرح أن يُجتنب الاختلاط المفضي إلى النظر المحرّم أو الفتنة أو تليين القلوب لما لا يرضي الله.

والاختلاط ليس أمراً شكلياً بسيطاً، بل قد يكون باباً واسعاً للانزلاق،

خصوصاً إذا اقترن بأجواء الزينة والانبساط وارتفاع الأصوات وضعف المراقبة. ولهذا فإن الفصل بين الرجال والنساء في المناسبات من أسباب حفظ الكرامة والطهارة وسلامة القلوب.

ولا يكفي أن يقال: نحن أهل، أو نحن نعرف بعضنا. فكم من الحرام يبدأ من باب التساهل، وكم من الفتنة تولد من لحظة ظن الناس أنها آمنة. وإليكم نموذجاً من الأسئلة الفقهية الواردة في هذا المجال، والموجهة إلى مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظله:

السؤال: هل يجوز إقامة عقد قران مختلط بوجود رجال ونساء في مكان واحد مع مراعاة الحجاب؟

الجواب: لا يجوز الاختلاط المثير، والإثارة أمر طبيعي في مجالس العرس فلا بدّ من التفريق بين الرجال والنساء.^(٢٠)

٢. لباس الحضور

مجالس الفرح ليست مبرراً للتساهل في اللباس، بل يبقى الالتزام الشرعي حاضراً حتى في لحظات السرور. فإذا وُجد اختلاط أو احتمال دخول رجال أجانب، فلا يجوز للمرأة أن ترتدي ما يلفت الأنظار أو يُظهر مفاتها، كالثياب الضيقة أو الشفافة أو المزينة، بل يجب أن يكون لباسها ساتراً، واسعاً، غير واصل ولا مثير، لأن المؤمن يحافظ على وقاره في كل حال، ولا يجعل فرحه سبباً لتجاوز حدود الله.

وفيما يأتي مثال لسؤال وُجّه إلى مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظله:

السؤال: ما حكم دخول الرجال الذين لهم صلة قرابة بالعروس كأبيها وأخيها وخالها وعمها على النساء في المكان الذي يقام فيه الزواج لفترة

معينة؟

الجواب: يجوز مع التحفظ والحجاب، وأمّا إذا ترتبت عليه مفسدة فلا يجوز. (٢١)

أما إذا كان المجلس خاصّاً بالنساء، فيجوز لها أن تلبس ما تشاء وتزين بما تحب، لكن ضمن حدّ معقول، بحيث يكون ساتراً للعبورة وغير مثير، كما ورد في جواب مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظلّه:

السؤال: ما حكم لبس النساء ملابس غير محتشمة في مجالس الأعراس النسائية؟

الجواب: لا يجوز إذا كان موجباً للإثارة أو كان بقصدها ولو كان الناظر مماثلاً. (٢٢)

فالجمال في الإسلام ليس مرفوضاً، لكنه جمال منضبط، تُقدّمه المؤمنة في موضعه الصحيح، دون إفراط أو تجاوز، ليبقى فرحها نقيّاً مقبولاً عند الله.

٣. التبرّج

من الظواهر السلبية المنتشرة في أغلب مجالس الفرح هو تهاون بعض النساء في مسألة التبرّج أمام الرجال الأجانب، بإظهار الزينة ومساحيق التجميل وكأن الفرح لا يكتمل إلا بذلك، مع أن الله تعالى نهى عن هذا السلوك بقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (٢٣)، وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ (٢٤)، بل قد تكفي المرأة بستر شعرها عند دخول الرجال، مع بقاء الزينة ظاهرة من لباسٍ ضيقٍ أو مساحيق ملفتة للنظر، وتغفل أنه من التبرّج المحرّم.

وإليكم نموذجاً من الأسئلة الفقهية في هذا المجال، الموجهة إلى مكتب

ساحة السيد السيستاني دام ظلّه:

السؤال: ما حكم وضع النساء والفتيات المكيّاج بغض النظر عن كمّيته أو نوعه على الوجه أمام الرجال الأجانب؟

الجواب: لا يجوز الظهور به أمام الأجانب. (٢٥)

في حين يجوز لها التزيّن والتبرّج إذا كان المجلس خاصّاً بالنساء، ولا يحضره رجال أجانب ولا حتى الأطفال المميّزون.

ومن صور الخلل أيضاً أن تبالغ المرأة في إظهار جمالها في المناسبات، بينما تُهمّل التزيّن لزوجها في حياتها اليومية، مع أن الشريعة أكّدت على عكس ذلك، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وعليها أن تتطيب بأطيب طيبها وتلبس أحسن ثيابها وتزيّن بأحسن زينتها وتعرض نفسها عليه غدوة وعشيّة». (٢٦)

وقد ساهم الإعلام في ترسيخ هذا المفهوم الخاطيء، حين جعل قيمة المرأة في إظهار جمالها أمام الآخرين، فصار الاهتمام بالمناسبات يفوق الاهتمام بالحياة الزوجية.

٤. تصوير مجالس الفرح

الأصل في التصوير أنه جائز، لكنّه يتحول إلى محرّم إذا استلزم أمراً مخالفاً للشرع، مثال ذلك:

♦ لا يجوز نسخ وتوزيع صور الأشخاص من دون إجازتهم إذا استوجب ذلك أذيتهم.

♦ لا يجوز إنتاج ونسخ وتوزيع الصور المفسدة والمحركة للشهوات.

♦ لا يجوز عرض الصور التي لا يراعى فيها الحجاب لغير المحارم، حتى

لو كانوا من الأقارب. (٢٧)

وفي مجالس النساء خاصة، يشتدّ الخطر؛ لأن المرأة قد تكون في حال من الزينة واللباس لا يجوز إظهاره لغير المحارم، ومع انتشار الهواتف وسهولة التصوير، قد تلتقط صور تُنقل لاحقاً إلى من لا يحلّ له رؤيتها، فتقع المخالفة من حيث لا يُلتفت إليها في البداية.

ولهذا، فإن الحذر في هذا الباب ضرورة، فليس كل ما يُمكن تصويره يجوز، ولا كل لحظة تستحق أن تُحفظ إذا كان ثمنها كشف الستر أو تعريض الآخرين للحرَج. ومن هنا، ينبغي تنظيم هذا الأمر داخل المجلس، ووضع ضوابط واضحة تحفظ خصوصية الحاضرات، ليبقى الفرح في حدوده المشروعة، بعيداً عن الندم والمفسدة.

٥. اجتناب الإسراف والتبذير

من أبرز الأخطاء التي وقعت فيها بعض مجالس الفرح في زماننا، تحويل المناسبة إلى ميدان للمبالغة في الإنفاق، حتى صار الفرح يُقاس بكثرة المصاريف لا ببركته... قاعات باهظة، وملابس تُلبس مرة أو مرتين، ونفقات زائدة في الكماليات، ثم تنتهي المناسبة بديون تثقل كاهل الأسرة وتفقد الفرح معناه الحقيقي.

وقد نهى الله تعالى عن هذا المسلك بوضوح، فقال: ﴿وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا * إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (٢٨)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٢٩)، فالمطلوب هو الاعتدال، لأن البركة في رضا الله لا في كثرة الإنفاق.

ومن صور الإسراف الشائعة، الإصرار على التكاليف الزائدة كاستئجار القاعات المكلفة أو شراء ملابس جديدة لكل مناسبة تُستعمل مرة واحدة،

مع أن ذلك لا يُعدّ من النفقة الواجبة على الزوج. وقد بين الفقهاء ذلك في الرسائل العملية، ومنهم سماحة السيد السيستاني دام ظلّه في كتاب منهاج الصالحين ما نصه:

«لا تقدير للنفقة شرعاً، بل الضابط القيام بما تحتاج إليه الزوجة في معيشتها من الطعام والإدام والكسوة والفراش والغطاء والمسكن والخدم وآلات التدفئة والتبريد وأثاث المنزل وغير ذلك مما يليق بشأنها بالقياس إلى زوجها، (إلى أن يقول سماحته) ... نعم ما تعارف عند بعض النساء من تكثير الألبسة النفيسة خارج عن النفقة الواجبة، فضلاً عما تعارف عند جمع منهنّ من لبس بعض الألبسة مرّة أو مرّتين في بعض المناسبات ثمّ استبداله بآخر مختلف عنه نوعاً أو هيئة في المناسبات الأخرى». (٣٠)

وقد أكدت النصوص الشرعية هذا المعنى، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ... لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (٣١)، ورؤي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أيما امرأة أدخلت على زوجها في أمر النفقة وكلفته ما لا يطيق، لا يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً إلا أن تتوب وترجع وتطلب منه طاقته» (٣٢).

كما أن الإسراف ممّا يبغضه الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٣)، وهو سبب للضيقة والمشاكل، وقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى» (٣٤).

فالمؤمننة الواعية تضبط فرحها بالاعتدال، ولا تجعله باباً للإسراف أو التكلّف، بل تقدّم رضا الله على مظاهر الناس، لتبقى مناسبتها مباركة، خالية من الديون، مليئة بالطمأنينة والبركة.

٦. الرقص

ومن الضوابط الشرعية التي ينبغي مراعاتها في الفرح ترك الرقص، لأن الفرح في الإسلام ليس فوضى سلوكية، ولا انفلاتاً من حدود الحياء والوقار، بل هو فرح منضبط بأحكام الشرع وآداب العفة. فرُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أنهى أمتي عن الزفن...»^(٣٥)، والزفن هو الرقص.

ومن المؤسف أنه شاع في بعض البيئات التساهل في هذا الأمر، حتى صار الرجل يرقص أمام النساء من غير خجل ولا حياء، أو ترقص المرأة أمام إخوتها ومحارمها، أو أمام الأجانب، أو حتى أمام النساء في بعض الصور المحرمة، مع أن الشريعة المقدسة لم تترك هذا الباب من دون بيان. وإليكم أبرز أحكام الرقص وفق فتاوى سماحة السيد السيستاني دام ظله:

أولاً: الرقص أمام الجنس المماثل

الحكم: لا يجوز على الأحوط لزوماً رقص الرجل أمام الرجل. وأما رقص المرأة أمام النساء ففيه صورتان:

١. أن يكون الرقص مثيراً للشهوة أي يكون الرقص ماجناً وغير مهذب بحيث يثير النساء فهذا القسم حرام مطلقاً.

٢. أن يكون الرقص غير مثير للشهوة، فحكمه على رأي السيد الخوئي (قد) الجواز وأما السيستاني فيحرمه على الأحوط وجوباً^(٣٦).

ثانياً: الرقص أمام الجنس المخالف

الحكم: لا يجوز للرجل أن يرقص أمام النساء ولو كن محارمه. ولا يجوز للمرأة أن ترقص أمام محارمها فضلاً عن الأجانب من غير المحارم.

نعم يجوز للزوجة ان ترقص لزوجها بعيداً عن أنظار الآخرين، بل يستحب إذا كان به إدخالاً للسرور على قلب الزوج وإيناساً له. ولكن لا يجوز سماع الغناء^(٣٧).

ثالثاً: رقص الشخص لنفسه

الحكم: الأحوط لزوماً ترك رقص الشخص لنفسه سواء كان أمام المرأة أم لا، وسواء قصد به الرياضة أم لا^(٣٨).

٧. الغناء والموسيقى

ومن الضوابط الشرعية التي ينبغي التأكيد عليها في مجالس الفرح، أن تخلو من الغناء والموسيقى المحرّم.

إلا أن المؤسف في واقعنا أن كثيراً من الناس ما زالوا يقعون في هذا الانحراف، فيظهرون الفرح بالغناء والموسيقى، مع أن البدائل المشروعة المفرحة متوفرة، ويمكن أن تُقيم الفرح في إطارٍ يرضي الله ولا يُغضبه.

🌸 فأما ما يتعلق بالموسيقى فهي فن من الفنون الإنسانية كثر انتشارها هذه الأيام، وهي على نوعين:

١. الموسيقى المحلّلة: هي الموسيقى غير المناسبة لمجالس اللهو واللعب، ويجوز الاستماع لهذا النوع كالموسيقى العسكرية والجنائزية والأحوط الأولى الاجتناب عنها.^(٣٩)

٢. الموسيقى المحرّمة هي الموسيقى المناسبة لمجالس اللهو واللعب. ولا يجوز الاستماع لها.

ملاحظة: ليس المقصود من عبارة (مناسبة الموسيقى لمجالس اللهو واللعب) هو كون الموسيقى أو اللحن الغنائي موجباً لترويح النفس، أو

تغيير الجو النفسي، فإنَّ ذلك جيد، بل المقصود بها أن السامع للموسيقى أو للحن الغنائي - خصوصاً إذا كان خبيراً بهذه الأمور - يميّز أن هذا اللحن مستعمل في مجالس اللهو واللعب، أو أنه مشابه للألحان المستعملة فيها.^(٤٠)

وإذا كانت الآلات الموسيقية تنبعث منها الموسيقى المناسبة لمجالس اللهو واللعب، لم يجز التعامل بها، ولا استعمالها من قبل المكلفين^(٤١).

ويستفاد من بعض الأحاديث أن أول من استعمل المعازف لأجل اللهو هو إبليس لعنه الله، فقد روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «لَمَّا مَاتَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَمِتَ بِهِ إِبْلِيسُ وَقَابِيلُ فَاجْتَمَعَا فِي الْأَرْضِ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ وَقَابِيلُ الْمُعَازِفَ وَالْمَلَاهِيَّ شَهَاتَةً بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكُلُّ مَا كَانَ فِي الْأَرْضِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الَّذِي يَتَلَذَّذُ بِهِ النَّاسُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ ذَاكَ»^(٤٢).

❁ وأما فيما يتعلق بالغناء، فنظراً لانتشار هذه الظاهرة وخطورتها، فإن الأمر يقتضي بيان حقيقتها وأحكامها بصورة أوضح، والوقوف على أبرز أضرارها، وذلك ما سيتم عرضه في المبحث الآتي:

المبحث الثالث: الغناء في مجالس الفرح

المطلب الأول: تعريف الغناء وأدلة حرمة

الغناء في المعنى الاصطلاحي هو الكلام اللهوي الذي يُؤدَّى بالألحان المتعارفة عند أهل اللهو واللعب، والعبرة بالصدق العرفي^(٤٣).

وهو من الكبائر التي يترتب عليها دخول النار، فقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغناء مما أوعده الله عليه النار»^(٤٤).

الحكم الشرعي: الغناء حرام فعله واستماعه والتكسب به^(٤٥).

لقد استدللّ الفقهاء على حرمة الغناء بالآيات القرآنية الكريمة والسنة الشريفة، ونذكر منها الآتي:

١. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٤٦).

وقد ورد في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن (هو الحديث) يشمل الغناء، فقد رُوي عن الوشاء قال: سمعت أبا الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: سئل أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الغناء؟ فقال: «هو قول الله: ومن الناس من يشتري لهو الحديث...» (٤٧).

ولهو الحديث هو كل كلام يلهي الإنسان ويصرفه عن الحق، كالغناء وسائر ما يجرّ إلى اللهو والفساد، فيمنعه من تدبّر القرآن والعمل به، ويقوده إلى الغفلة والإعراض عن هدى الله.

٢. قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٤٨).

وقد فسّر (قول الزور) في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالغناء، فقد رُوي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ قال: قول الزور الغناء (٤٩).

٣. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٥٠).

وقد فسّر (اللغو) في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالغناء، فقد رُوي عن محمد بن أبي عمار - وكان مشتهراً بالسمع وبشرب النبيذ - قال: سألت الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ عن السماع؟ فقال: لأهل الحجاز رأي فيه، وهو في حيز الباطل واللهو، أما سمعت الله عز وجل يقول (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)! (٥١)

٤. رُوي أن الغناء سنة شيطانية، فقد رُوي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كان إبليسُ أوّلَ مَنْ تَغَنَّى» (٥٢).

المطلب الثاني: الغناء في الأعراس

اختلف الفقهاء في جواز الغناء في الأعراس، فمنهم من حرّم ذلك على الأحوط وجوباً كسماحة السيد السيستاني (حفظه الله).

وإليكم جواب مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظله على السؤال الآتي:

السؤال: ما حكم الاحتفال في الأعراس بالأغاني واستخدام الطبول وغيرها كالدبّة وما شاكل ذلك؟

الجواب: لا يجوز للنساء الغناء في الأعراس على الأحوط، وأما الضرب بالآلات الموسيقي فإن لم يكن بنحوٍ يناسب مجالس اللهو واللعب فلا مانع منه، وكذا لا مانع من الضرب بالأواني ونحوها. (٥٣)

ومن الفقهاء (٥٤) من أجاز الغناء في الأعراس بشرط مراعاة عدد من الأمور:

١- أن يكون العرس للزفاف أي ما يسمّى في عرفنا «النقّلة»، ففي غير هذه المناسبة لا يجوز الغناء مطلقاً.

٢- أن يكون التّعنيّ خاصاً بالنساء فقط.

٣- أن لا يسمع أصواتهنّ الرجال.

٤- أن لا يتسبّب الغناء في مفاسد أخرى كحصول الرقص الخليع المثير للشّهوات.

ولا يجوز استماع الأغاني والموسيقى اللهوية من خلال الأشرطة المسجلة حتى في الأعراس (٥٥).

المطلب الثالث: أضرار الغناء وآثاره في حياة الإنسان

ومن الأسئلة التي تُطرح في هذا المقام: لماذا حرم الله تعالى الغناء؟ وهل هو مجرد تقييد، أم أن وراءه أضرارًا حقيقية تمس الإنسان في دنياه وآخرته؟

الجواب:

لقد بينّا أن الإسلام لا يُحارب الفرح بإطلاق، بل يُفرّق بين الفرح المذموم فيحرّمه، والفرح الممدوح فيحثّ عليه، ويُميز الفرح المباح، على أن تكون وسائل التعبير عن جميع ذلك خالية من المحرّمات.

فالإسلام دين يهدف إلى إدخال السرور على النفوس ورسم البسمة على الوجوه، لكنّه في المقابل يحرم الفرح المذموم كالفرح بالمعصية، ويحرّم الوسائل التي تُفسد النفس وتُبعد الإنسان عن الله، ومنها الغناء، لأنّ الله تعالى لا يحرم شيئاً عبثاً، بل لحكمة تقوم على جلب الخير ودفع الضرر، وأن لم تدركها عقولنا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتَيْتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥٦).

قد يظنّ أحدكم أنّ الغناء يريجه، لكن هذا الارتياح مؤقت ومخادع، وقد بينّ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ موقفًا واضحًا حين قال: «لا خير فيه، لا تفعلوا»^(٥٧). وهذا يدلّ على أن أي منفعة متوهمة لا تُقارن بما فيه من أضرار.

وقد أشار القرآن إلى هذا الميزان في الخمر بقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾^(٥٨)، أي إنّ غلبة الضرر كافية للحكم بالتحريم.

وبالتأمل في النصوص الشرعية يتبيّن بوضوح أنّ لسماع الأغاني آثارًا خطيرة على نفس الإنسان وسلوكه وحياته وصحته، وقد تم بيانها في كتاب «زاد المبلغات» الجزء الرابع^(٥٩)، ويمكن اختصار هذه الأضرار كما يأتي:

أولاً: الأضرار الدنيوية الظاهرة

تشمل ما ينعكس على الجسد والسلوك. فقد اثبتت الدراسات أن الغناء يؤثر سلباً على الأعصاب ويزيد التوتر، ويسبب الصداع واضطراب الضغط، كما يضعف الإرادة ويجعل الإنسان أقل قدرة على ضبط نفسه. كما يؤدي إلى الخمول والكسل عن تحمّل المسؤولية وأداء الواجبات، كالصلاة، نتيجة تراكم الذنوب على القلب؛ فيثقل ويضعف، حتى يصبح كالأغلال التي تقيّد الإنسان وتمنعه من أداء الحق، وكالسدّ الذي يحول بينه وبين رؤية الحق، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٦٠). ومن أخطر آثاره الأخلاقية أنه يفتح باب الانحراف، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الغناء رقية الزنا»^(٦١)، أي أنه طريق يبيئ الإنسان للوقوع في الفاحشة، إذ يثير الشهوات ويضعف الضبط النفسي.

يقول السيد عبد الحسين دستغيب في كتابه: «الذنوب الكبيرة»: «وحيث إن الغناء هو صوت لهوي ينبع من الشهوة واللذة الحيوانية، لذا فإن من آثاره السيئة تحريك شهوة القارئ والسامع، فيغفلان عن ذكر الله بنحو يهينهما لارتكاب الفحشاء»^(٦٢).

ثانياً: الأضرار الباطنية (الروحية)

وهي أخطر؛ لأنها تُصيب القلب دون أن يشعر الإنسان. فقد رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «استماع اللهو والغناء يُنبت النفاق كما يُنبت الماء الزرع»^(٦٣)، أي إن الإنسان يُظهر الإيمان، لكن سلوكه يكشف خلاف ذلك؛ لتعارضه مع تعاليم الشريعة، كالتهاون بالصلاة وعدم الالتزام بالحجاب

الشرعي الكامل.

كما يورث قسوة القلب، ويمنع استجابة الدعاء، ويُبعد الملائكة، ويزيل البركة من البيت، حتى يصبح الإنسان محروماً من التوفيق الإلهي. وأيضاً يجلب الفجيعة، فقد رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بيت الغناء لا تُؤمن فيه الفجيعة». (٦٤)

ثالثاً: الأضرار الأخروية

وهي نتيجة طبيعية للإصرار على هذا الذنب، فقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغناء مِمَّا وَعَدَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ» (٦٥)، وُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى اللّهُو يُذَابُ فِي أُذُنِهِ الْآنُكَ». (٦٦)

الخلاصة: الغناء ليس مجرد صوت، بل طريق يؤثر في القلب والعقل والسلوك، ويقود الإنسان تدريجياً إلى الانحراف والبعد عن الله. وما يبدو راحةً هو في الحقيقة ضررٌ متراكم، ولذلك كان تركه حمايةً للإنسان في دنياه وآخرته.

المبحث الرابع: الوقاية من الفرح المذموم ومعالجته

المطلب الأول: الوقاية من الفرح المذموم

لما كانت الوقاية خيراً من العلاج، كان من المهم بيان أهم الوسائل التي تحفظ وتحمي الإنسان من الوقوع في الفرح المذموم، وإليكم أبرز تلك النقاط:

١. تصحيح مفهوم الفرح

من أهم خطوات الوقاية أن يدرك الإنسان أن الفرح في الإسلام ليس متروكاً بلا ضوابط، بل هو شعور منضبط بما يرضي الله. فليس كل ما يُفرح النفس جائزاً، ولا كل ما اعتاده الناس في مناسباتهم صحيحاً.

فالفرح الحقيقي هو ما كان في طاعة الله أو في المباح المنضبط، أما ما اقترن بالغناء، أو التبرج، أو الاختلاط المحرّم، أو الإسراف، أو إيذاء الآخرين، فليس فرحاً محموداً، ولو اعتاده الناس أو زيّنوه بالمجاملات.

وكثيراً ما يظن الإنسان أن نجاح المناسبة يكون بهذه الأمور، لكنها قد تنتهي بمشكلات أو ندم أو آثار سلبية تبقى في القلب زمناً طويلاً.

٢. تذكّر نظر الله تعالى وعاقبة المعصية

من أهم وسائل الوقاية أن يستحضر الإنسان أن الله يراه في كل لحظة، حتى في لحظات الفرح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٦٧). فهذا الشعور يضبط السلوك ويمنع الانفلات. كما ينبغي أن يتذكّر عاقبة الفرح المذموم، وما يترتب عليه من غضب الله وآثار مؤلمة في الدنيا والآخرة. وقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ يَكُ رَشْدًا فَأَمْضِهِ، وَإِنْ يَكُ غِيًّا فَانْتَهُ»^(٦٨).

فوسائل الفرح المحرّمة كالغناء ونحوه ليست مجرد لحظة عابرة، بل لها أضرار سبق بيانها، وقد تتحول إلى عادة يصعب تركها. وكم من فرح قصير أورث ندماً طويلاً، أو أدخل الإنسان في معصية بقي أثرها في قلبه وحياته.

٣. تجنّب مجالس الفرح المشتملة على المعصية

من أهم وسائل الوقاية من الفرح المذموم أن يحرص المؤمن على تجنّب

الأماكن التي يُعصى الله فيها، حتى لو كانت مجالس فرح كالأعراس؛ لأن حضور هذه المجالس قد يعرضه للوقوع في الحرام، أو يضعف إنكاره، أو يجعله جزءاً من بيئة تُشجّع على المعصية.

فإذا علم أن المجلس يشتمل على محرّم، كالغناء أو غيره، فالأصل أن يبتعد عنه حفاظاً على دينه وقلبه، لأن السلامة لا يعدلها شيء. فلو علم الإنسان بوجود مرضٍ معدٍ في مجلس، لتجنّب الحضور حرصاً على صحته، فكيف يعرض قلبه وإيمانه لمواطن المعصية؟

وإن تمكن من النصح أو الإنكار بالأسلوب المناسب كان ذلك أولى؛ لأن السكوت قد يفهم منه الرضا أو التشجيع. وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يُعصى الله فيه، ولا يقدر على تغييره»^(٦٩).

فإن استجابوا فذلك خير، وإلا إذا لم يكن متمكناً من إبداء التذمّر والانزعاج، أو تأجيل المباركة لوقت آخر، واضطر إلى الحضور، فعليه أن يقتصر على الحد الأدنى، بأن يؤدي واجب الحضور في التهئة، مع اجتناب الاستماع، أي أن لا يتعمّد الإصغاء إلى الحرام، وأن لا ينسجم مع أجواء المعصية. أما مجرد السماع من دون توجهٍ وإصغاء فلا يكون محرّماً.

وفيما يأتي مثال لسؤال وُجّه إلى مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظله:

السؤال: هل يجوز الحضور في واحدة من تلك الحفلات مع العلم المسبق بوجود اغان وموسيقى، وما الوظيفة الشرعية ان فوجئ الحاضر بعد حضوره بوجود مثل ذلك؟

الجواب: الحضور في تلك المجالس مع السكوت عما يجري فيها من المنكرات ربما يعدّ نحوامضاً لها بل ونوع تشجيع على ارتكابها، بالإضافة

الى ان مقتضي وجوب النهي عن المنكر في ظرف تحقق شروطه هو القيام بما يوجب الردع عنها، وإذا فوجئ الحاضر باشتغال الحفل على شيء من المحرّمات لزمه النهي عن المنكر مع توفر شروط وجوبه المذكورة في الرسالة العملية^(٧٠).

٤. ضبط البيئة المحيطة بالمناسبة

غالبًا ما يكون الفرحة المذموم نتيجة تأثير البيئة لا اختيار الفرد وحده، فحين تُشجّع الأجواء على الحرام وتُهوّنه، يضعف الإنسان أمامها. لذلك من المهم ضبط البيئة مسبقًا، بوضع حدود واضحة تمنع الانحراف، ليبقى الفرحة ضمن الإطار المشروع.

ومن التطبيقات الواقعية النافعة: أن تُبلّغ الأسرة المدعوين مسبقًا أن المجلس خال من التصوير، وخال من الموسيقى اللهوية، وأن اللباس ينبغي أن يكون منضبطًا، وأنه لا مجال لاختلاط يوقع في الحرام. فهذا الوضوح من البداية يرفع الحرج، ويمنع الفوضى، ويعطي المناسبة طابعًا محترمًا نظيفًا، ويجعلها نموذجًا يُحتذى به.

٥. البعد عن رفقة السوء

من أقوى أسباب الفرحة المذموم ضغط الأصدقاء والقرناء؛ لأن الإنسان قد يكون في نفسه مترددًا، لكن رفقة السوء تزين له المخالفة، وتجعله يستحيي من الالتزام، وتصور له المعصية على أنها ذوق وانفتاح. ولهذا فإن من وسائل الوقاية المهمة أن يختار الإنسان من يعينه على الطاعة، لا من يجره إلى التهاون.

ومن النماذج الواقعية: شاب لا يريد أن يجعل فرحة مشتملاً على حرام،

لكن أصدقاءه يسخرون منه، أو يقولون له: لا تعقد الأمور، أو هذه مجرد ليلة. وفتاة تريد الالتزام باللباس الشرعي في مناسبة، فتضغط عليها صديقاتها بحجة أن المناسبة لا تتكرر. فهنا يتبين أثر الصحبة في تثبيت الخير أو جرّ الإنسان إلى الانحراف.

المطلب الثاني: علاج الفرحة المذموم

لما كان أغلب الناس قد وقع في الفرحة المذموم، فإن تكليفهم يحتم عليهم السعي إلى علاجه وتصحيح مسارهم، وفيما يلي أهم النقاط التي ينبغي مراعاتها في علاج الفرحة المذموم:

١. القناعة بالخطأ شرط العلاج

إن نجاح علاج الفرحة المذموم لا يتحقق إلا بتوفر شرطين أساسيين في نفس الإنسان، أولهما: القناعة الجازمة بأنه واقع في خطأ يحتاج إلى تصحيح، وثانيهما: وجود إرادة صادقة وسعي حقيقي لتغيير النفس. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٧١)، ما يدل على أن بداية الإصلاح تنطلق من الداخل، من وعي الإنسان بحاله واستعداده للتغيير.

فإن من يعتقد أنه على صواب، مع كونه واقعاً في الباطل، لن يُقبل على تطبيق أي توجيه علاجي، ولن ينتفع بأي نصيحة تُقدّم له؛ لأنه لا يرى في نفسه خللاً يحتاج إلى معالجة. ومثله كمثل المريض الذي يظن نفسه سليماً، فإذا قصد الطبيب وأرشد إلى تناول الدواء واتباع التعليمات، لم يلتزم بها، فلا يرجى له شفاء.

ومن هنا، فإن الخطوة الأولى في علاج الفرح المذموم تتمثل في توجيه الإنسان بلطف وحكمة، وإقناعه بموضع الخطأ الذي وقع فيه، حتى يتهيأ نفسياً لتقبل العلاج والسير في طريق الإصلاح بثبات ووعي.

٢. تصحيح الأفكار المنحرفة

يُعدّ تصحيح الأفكار من أهم وسائل علاج الفرح المذموم؛ لأن مشاعر الإنسان، من فرح أو حزن أو غيرهما، لا تنشأ من فراغ، بل تتكوّن غالباً من أفكار راسخة في داخله تُوجّه نظرتَه إلى الأحداث والناس.

ولتوضيح ذلك: قد يرى الإنسان شخصاً متميزاً متفوقاً عليه، وقد اتجهت إليه الأنظار بالإعجاب والتقدير، فيتولد في نفسه شعور بالغيرة والحسد، فينظر إليه نظرة سلبية، ويتمنى زوال نعمته، فإذا أصابه مكروه فرح بذلك، وهذا من الفرح المذموم.

أما إذا صحّ فكره، ونظر بعين الحق، فأدرك أن ما عند ذلك الشخص نعمة من الله، وأنه جدير بالاحترام لما وهبه الله من فضل، وأن المؤمن ينبغي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فإنه سيندم ويتوب، وتتبدل مشاعره، ويزول ما في قلبه من ضيق أو حقد، بل قد تتحول إلى محبة صادقة ودعاء له بالخير.

ومن هنا يتبين أن تهذيب الفكر هو الأساس في تهذيب المشاعر؛ لأن الفكرة إذا استقامت استقامت آثارها. ولذلك ينبغي للمؤمن أن يبني أفكاره على الحق المستمد من علوم محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لا على الباطل، وللتمييز بين كون أفكاره حقاً أو باطلاً، ينبغي عليه سؤال مرجع تقليده الجامع للشرائط.

٣. التوبة والتوقف الفوري عن الوسيلة المحرّمة

ينبغي عدم الاستخفاف بالغناء، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أن رجلاً كان يسمع صوت غناء الجوّاري من بيت جيرانه صدفةً، فاستأنس به وأطال الاستماع، فنهاه الإمام عن ذلك وبين له مسؤوليته عن سماعه. ثم قال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: « قم فاغتسل وسل ما بذالك فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم ما كان أسوأ حالك لو مت على ذلك احمد الله وسله التوبة من كل ما يكره فإنه لا يكره إلا كل قبيح والقبيح دعه لأهله فإن لكل أهلاً» (٧٢).

إن التوبة ليست كلمة تُقال باللسان فقط، بل هي رجوع القلب إلى الله تعالى مع ندم صادق على المعصية. وقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» (٧٣).

ولكن الندم الصادق والحقيقي يستلزم الإصلاح، فقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤).

فمن عبّر عن فرحه في مجلس مختلط بوسائل محرّمة كالتبرّج، أو لباس غير شرعي، أو سماع الأغاني، أو الرقص، فإن أول العلاج هو إيقاف الخطأ والوسيلة المحرّمة فوراً، لا تبريرها ولا تأجيلها. فالتوبة لا تبدأ من الندم فقط، بل من ترك الذنب في الحال.

ومن عبّر عن فرحه المذموم بنشر صورٍ أو مقاطع أو شجّع على أمر محرّم في مناسبة، لا يكفي أن يستغفر سرّاً، بل ينبغي أن يسعى أيضاً لإزالة ما نشره، والاعتذار إن ترتب على فعله أذى للآخرين، وأن يعزم على عدم تكرار ما فعل.

٤. إعادة بناء الذوق الإيماني

أحياناً يعتاد الإنسان على نوع من الفرح الخاطيء، فيصبح هذا الفرح عنده هو الشيء الطبيعي، حتى لو كان فيه معصية. ومع مرور الوقت، قد يشعر أن الفرح الشرعي ممل، ويظن أن الطاعة لا فيها متعة، وأن السعادة لا تكون إلا فيما اعتاد عليه من سماع الأغاني والاختلاط المحرم والرقص وما شابه ذلك. وهذا في الحقيقة علامة على أن ذوقه الإيماني-أي إحساسه الداخلي الذي يجعله يحب ما يرضي الله ويكره ما يغضبه-قد تأثر بكثرة الاعتياد على المعصية، وأصبح بحاجة إلى إصلاح.

ولذلك، فإن من أهم خطوات العلاج أن نُعيد تربية هذا الذوق، فنُعَلِّم القلب أن يفرح بما يُرضي الله، وأن ينفر مما يُغضبه. وهذا لا يحدث في يومٍ واحد، بل يحتاج إلى صبر واستمرار.

فكلما أكثر الإنسان من ذكر الله، وقراءة القرآن، والجلوس مع أهل الخير، وحضور المجالس النافعة، والتفكير في سيرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بدأ قلبه يتغيّر شيئاً فشيئاً، وأصبح يشعر بلذة الطاعة، ويأنس بالفرح الحلال، حتى يصبح أحبّ إليه من الفرح المحرم.

٥. استبدال الفرح المحرم ببدائل مباحة

من أهم أبواب العلاج أن لا يُترك فراغ في النفس؛ لأن النفس إذا مُنعت من شيء كانت تميل إلى بديل. فإذا لم توفر لها البديل المباح، رجعت إلى البديل المحرم. ولهذا ينبغي أن يوجّه الإنسان إلى صور الفرح المشروعة التي تحقق له السرور من دون مخالفة.

وإليكم بدائل متعددة، مشروعة، ومجربة تربوياً، وموافقة لمنهج أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

أولاً: الفرح بالطاعة والإنجاز الروحي.

أن يربط الإنسان فرحه بأعمال تقربه من الله، كإتمام صلاة بخشوع، أو صيام يوم، أو قراءة جزء من القرآن. هذا الفرح عميق وثابت، بخلاف الفرح المحرّم الذي يزول سريعاً ويترك أثراً سلبياً.

ثانياً: الفرح بصناعة الخير للآخرين.

مثل إدخال السرور على قلب إنسان، أو مساعدة محتاج، أو قضاء حاجة مؤمن. وقد ورد عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التأكيد على عظيم أثر إدخال السرور في القلوب، وهو من أرقى مصادر الفرح النقي.

ثالثاً: الفرح بالمناسبات الدينية بأسلوب مشروع.

كإحياء الأعياد الدينية، أو المناسبات المرتبطة بالنبي وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، من خلال الإنشاد الهادف، أو إحياء المجالس الحسينية، أو البرامج العائلية الهادئة التي تخلو من المحرّمات.

رابعاً: الفرح بالاجتماع العائلي النظيف.

كالجلوس مع العائلة أو الأصدقاء في أجواء محترمة، مع أحاديث لطيفة، أو مسابقات مفيدة، أو ألعاب مباحة، مما يحقق الأُنس دون الوقوع في الحرام.

خامساً: الفرح بالإنجازات الشخصية.

كأن يضع الإنسان لنفسه أهدافاً بسيطة فيحققها، أو ينجز أمراً نافعاً كالتفوق في دراسته أو تعلم مهارة جديدة، فيفرح بذلك ويكافئ نفسه بطريقة مباحة، مما يعزز ثقته بنفسه ويعوده على الفرح المنضبط.

سادساً: الفرح بالجمال المباح في الحياة.

كالخروج إلى الطبيعة، أو التأمل في خلق الله، أو ممارسة رياضة مباحة. هذه

الأمر تريح النفس وتمنحها سعادة هادئة.

سابعًا: الفرح بالفنون المباحة.

كالأنشيد الهادفة الخالية من المحرّمات، أو الكتابة، أو الرسم، أو التصوير المباح. فهي تعطي الإنسان متنفسًا جميلًا دون مخالفة شرعية.

ثامنًا: الفرح بالتقرب من سيرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

كقراءة قصصهم، أو حضور مجالسهم، أو تمثيل مواقف من حياتهم بأسلوب تربوي، مما يربط الفرح بالقدوة الصالحة.

تاسعًا: الفرح بالمشاركة في أعمال جماعية نافعة.

كالمشاركة في نشاط تطوعي، أو حملة خيرية، أو تنظيم برنامج نافع، حيث يشعر الإنسان بقيمته وتأثيره.

عاشرًا: استبدال الغناء بالأنشيد والقصائد الهادفة.

من البدائل المهمة لعلاج الفرح المذموم أن يستبدل الإنسان سماع الغناء بالأنشيد والقصائد الدينية أو الحماسية، كالأنشيد والمدائح التي تُحيي سيرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أو تُعبّر عن القيم النبيلة وحب الوطن، بشرط أن تُؤدّى بأسلوب خالٍ من الألحان المتعارفة عند أهل اللهو واللعب على الأحوط.

وأيضًا لا يجوز أن يقرأ القرآن المجيد والادعية والاذكار ونحوها بالألحان المتعارفة عند أهل اللهو واللعب، فقد روي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، فإنّه سيجيء بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية، لا يجوز تراقيهم،

قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم»^(٧٥).

وبهذا يكون الإنسان قد حافظ على بهجته، لكن في إطارٍ نقيٍّ يقربه إلى الله بدل أن يبعده عنه.

٦. إصلاح تربية الأسرة على الفرح المشروع.

من أهم خطوات علاج الفرح المذموم إصلاح بيئة الأسرة، لأن المشكلة لا تُعالج فردياً إذا كان البيت نفسه يُشجّع على الفرح الخاطيء. فلا بد أن يُربى الأبناء على أن الفرح لا يعني التفلّت، وأن المناسبة لا تُبيح الحرام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٧٦).

فالأسرة التي تعود أبناءها على الفرح النظيف في حياتهم اليومية تكون أقدر على ضبطهم عند المناسبات، بخلاف من يتركهم يعتادون صور الفرح الفاسد ثم يستغرب سلوكهم لاحقاً.

ومن هنا، فإن من أهم معالم الإصلاح أن يحرص المربي على توجيه الأبناء وتعريفهم بحقيقة الفرح الممدوح، خاصة في المناسبات الدينية كالأعياد، كعيد الفطر الذي يحلّ في اليوم الأول من شهر شوال بعد انقضاء شهر رمضان مباشرة.

فَيُرَبُّونَ عَلَى أَنْ الْعِيدَ لَيْسَ مَجْرَدَ مَظَاهِرٍ وَزِينَةٍ، وَلَا هُوَ فِي الْأَكْلِ وَالْهَدَايَا، بَلْ هُوَ يَوْمُ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى التَّوْفِيقِ لِلطَّاعَةِ، وَرَجَاءٍ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. فالعيد الحقيقي هو صفاء القلب وأمان من غضب الله، كما قيل: «ليس العيد لمن لبس الجديد، إنما العيد لمن أمن الوعيد». فالسعيد حقاً هو من نال رضا الله، لا من اكتفى بالمظهر الخارجي للفرح.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «إنما هو عيد لمن قبل الله صيامه، وشكر قيامه، وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو يوم عيد»^(٧٧).

إن يوم العيد يوم فطر^(٧٨)، ويوم زكاة، ويوم رغبة الى الله وإلى ما يرضيه، فهو يوم اجتماع على طاعة الله، يوم توحيد الله وتمجيده، يوم عبادة وتضرع ودعاء، يوم الجوائز الكبرى، يوم اتحاد المسلمين وإظهار شوكة الإسلام.

هو يوم إدخال السرور على الفقراء والمساكين، ويوم التآخي ونبذ الخلافات، يوم المحبة والإحسان، يوم الشكر والدعاء، يوم صلة الأرحام، ويوم الشفقة على الأيتام الذين يفتقرون لحنان الأمهات ولحماية الآباء. وبكلمة، إن يوم العيد هو يوم الله فلنرضي الله فيه.

ونستطيع أن نفرح يومياً فرحاً ممدوحاً حينما نتورع عن محارم الله، فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه قال: «اليوم لنا عيد، وغدا لنا عيد، وكل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد»^(٧٩). وصدق الشاعر^(٨٠) حينما قال:

كلّ عامٍ ونحن للدهر عيدُ
والعطايا للصائمين تزيدُ
الأيادي ونرتجي فيجودُ
ما للليلٍ مهما استطال خلودُ
رغم كلّ الخطوب.. عيدٌ سعيدُ

ها هو العيدُ بالرجاءِ يعودُ
كلّ عامٍ ونحن في ألف خيرٍ
كلّ عامٍ ونحن نرفع لله
يولدُ الفجرُ بعد ألفٍ عجافٍ
إنه العيدُ فلتكونوا بخيرٍ

وإن كان العيد يوم فرح للمؤمنين، فإن فرحة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تكتمل فيه، لما يرونه من ضياع حقهم وابتعاد الأمة عن نهجهم. فقد روي عن عبد الله بن دينار، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «يا عبد الله ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلا وهو يجدد لآل محمد فيه حزنا، قلت: ولم ذاك؟ قال: لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم»^(٨١). فكيف تكتمل فرحتهم وحقهم مسلوب، وإمامهم غائب، وآلامهم تتجدد؟! وكيف تكتمل فرحتنا ونحن نعيش حزنهم ومنتظر فرجهم؟!!

إن الموالى الحقيقي، كلما مرّ عليه عيد الفطر، استحضر عيد سنة ٤٠ هـ، حين فجع الحسنان وزينب وأم كلثوم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمصاب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فصار العيد عندهم دمةً مكتومة، وجرحاً نازفاً، وأنيباً يسبق كل فرح... فكيف كان حالهم بعد ضربة التاسع عشر، وكيف انقضى يوم العشرين وهم يرون أباهم بين الألم والرحيل؟!!

قال الراوي: لما حملوه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى البيت كان الحسين يبكي ويقول يا أبتاه من لنا بعدك ولا يوم كيومك إلا يوم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من أجلك تعلّمت البكاء يعز والله عليّ أن أراك هكذا.

فناداه أمير المؤمنين يا حسين يا أبا عبد الله ادن مني، فدنا وقد خرجت أجفان عينيه من البكاء فمسح الدموع من عينيه ووضع يده على قلبه وقال يا بني ربط الله على قلبك وأجزل لك ولأخوتك عظيم الأجر فسكّن روعتك واهدأ من بكائك فإن الله قد أجرك على عظيم مصابك ثم أدخل في حجرته فأقبلت زينب وأم كلثوم حتى جلستا معه على فراشه وهما تندبان وتقولان يا أبتاه من للصغير حتى يكبر ومن للكبير بين اللئام يا أبتاه حزنا عليك طويل وعبرتنا لا ترقأ^(٨٢).

(مجردات)

ابو احسين ما تم اصيامه لفه العيد وولاده يتامه
او صاحت زينب او لظمت الهامه فگدك صعب يا راعي الشهامه
الله اويك يا حلو الجهامه عزنه راح من راحت أيامه
وأما بناته فإنهن ألقين بأنفسهن عليه ونادين وا أبتاه وا عليها^(٨٣).

(مجردات)

اجه العيد ريته لا اجانه اولاً بيّن اهلاله ابسامه
احنه ابمياتمنه او بچانه من المصاب الي دهانه

اليه انفگد منه حمانه



٣ شَوَّال

تَعْرَاةُ الْحَنْدِ

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

الْمُنَاسِبَةُ:

مَعْرَكَةُ الْخَنْدَقِ

القصيدة للشاعر: السيد حسين بركة الشامي

اذ ذاك جاء الخبرُ الأكيدُ
خلفها الأعرابُ والأحلافُ
يبغونَ هدمَ معقلِ رساله
فكان حفرُ (خندق) الأمانِ
عرّفهُ نبينا للأمه
فوقعت معركة (الأحزابِ)
إلا علياً ابن (شيبِ الحمد)
عاجله الضربَ بذِي (الفقارِ)
فضربةٌ عند أبي (الحسينِ)
ف قيل لا سيفَ سوى السيفِ الجليِّ
وكانت اليهودُ في الحصونِ
بنو (قريظة) وأل (المصطلق)
ثم استقرت دولةُ الاسلامِ
رغم جموع الغيِّ والنفاقِ

تجمّعت قريشُ واليهودُ
والهمجُ الرعاع والاجلافُ
بقتلهم (محمدًا) وآله
بفكرة عصماء من (سلمانِ)
(سلمانُ منا أهل بيتٍ لرحمه)
مخيفةً لأشجع الأصحابِ
مشى (لعمري بن عبدِ ودِّ)
وهو لعمري عيبةُ الأسرارِ
قد عدلت عبادةَ الثقلينِ
في كفه (ولا فتى الا عليّ)
تؤججُ الاحقادَ بالضغونِ
الفُ يهوديٌّ على الحقد انغلق
وثبتت قواعدُ النظامِ
وزمرة اليهود والشقاقِ

المَحَاضِرَةُ الثَّانِيَّةُ الحِجَابُ وَكَرَامَةُ الْمَرْأَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. (٨٤)

المبحث الأول: الكرامة في ميزان الإسلام

موضوع الكرامة من الموضوعات العميقة التي يحتاجها كل إنسان، ولا سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه وسائل الإغراء، وتنوعت فيه صور امتهان النفس، حتى صار الإنسان أحياناً يسيء إلى نفسه بيده، ويحسب أنه يحسن صنعا. فالحديث عن الكرامة ليس ترفاً فكرياً، ولا بحثاً نظرياً مجرداً، بل هو حديث عن أصل من أصول بناء الشخصية المؤمنة، وعن الحصن الداخلي الذي إذا ضعف، سهل على الإنسان أن يبيع نفسه بأبخس الأثمان.

ولو تأملنا واقع الناس اليوم، لرأينا أن كثيراً من صور السقوط ترجع في حقيقتها إلى ضعف الإحساس بالكرامة. فهناك من يذل نفسه من أجل مال، وهناك من يذل نفسه من أجل منصب، وهناك من يذل نفسه من أجل لذة عابرة، وهناك من يذل نفسه من أجل إعجاب الناس، أو ثناء المتابعين، أو شهرة زائفة لا تبقى له إلا الحسرة بعد انقضائها. وكأن المشكلة الكبرى عند بعض الناس أنهم لم يعرفوا حقيقة أنفسهم، ولم يدركوا قدرها عند الله، فهان عليهم أن يعرضوها للإهانة، أو يضعوها في مواضع الاستخفاف.

ولقد كشفت وسائل التواصل الاجتماعي في هذا العصر عن صور كثيرة

من امتهان النفس، حتى صار بعض الناس يرضى أن يُضحك العالم كله عليه في مقابل دقائق من الشهرة، أو أرقام من المتابعات، أو كلمات من الإعجاب. فنرى من يتعمد الكلام الساقط، أو الحركات التافهة، أو المواقف المذلة، أو عرض نفسه بصورة تثير السخرية أو الشهوة أو الاستخفاف. وكل هذا ليس حرية حقيقية، ولا شجاعة، ولا نجاحًا، بل هو في حقيقته ضعف في معرفة الإنسان بكرامة نفسه.

وهكذا الحال في باب المرأة أيضًا، فإن من أخطر ما أصاب كثيرًا من النساء في هذا الزمان أن بعضهن صرن يُربِّين على أن قيمة المرأة تقاس بمدى جاذبيتها، أو بمقدار ما تكشفه من مفاتها، أو بعدد من يلتفت إليها، أو بمقدار ما تناله من عبارات الإعجاب. وهنا تبدأ الكرامة بالانهيار شيئًا فشيئًا، لأن المرأة في هذه الحال لا تعود تبحث عن قيمتها في عقلها، ولا في إيمانها، ولا في طهارتها، ولا في أخلاقها، بل تبحث عنها في خارجها، وفي ردود أفعال الآخرين عليها. وهذه خسارة عظيمة.

السؤال الذي ينبغي طرحه في هذا المبحث هو:

ما معنى الكرامة في المنظور الإسلامي؟ وما معيارها الحقيقي؟

الجواب:

الكرامة في أصل معناها هي (امتلاك الإنسان - بما هو إنسان - للشرف والعِزَّة والتوقير).^(٨٥) فالإنسان ليس كائنًا مهملاً في هذا الوجود، ولا مخلوقًا رخيصًا يجوز له أن يستهين بنفسه، بل هو مخلوق كرمه الله ورفعته، ومنحه من الخصائص ما يجعله جديرًا بالتوقير والاحترام. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا **بَنِي آدَمَ**﴾^(٨٦)، وهذا التكريم يشمل الرجل والمرأة معًا، لأنها يشتركان في أصل الإنسانية، ويشتركان في أصل هذا التشريف الإلهي. وليس في القرآن

ما يدل على أن المرأة أقل إنسانية من الرجل، أو أقل أهلية للكرامة منه، بل الميزان الذي تُقاس به كرامة الإنسان، أو الأساس الذي يُحدّد من خلاله مقدار الشيء وقيّمته هو (التقوى) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٨٧).

أي أن هذه الكرامة تزداد أو تضعف بحسب قرب الإنسان من الله أو بعده عنه. فالإنسان مكرم في أصل خلقته، لكن كمال كرامته يكون بالتقوى، أي بالملكة المانعة من ارتكاب المعاصي... بطاعة الله وترك المعاصي، ولذا فللمؤمن المتقي الأولوية في حفظ كرامته والاتصاف بالعزة والرفعة والشرف، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨).

ولذلك لم يجعل الإسلام معيار الكرامة الجمال أو المال أو الشهرة أو السلطة أو الحسب والنسب، بل التقوى. روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا كرم كالتقوى». (٨٩)

فالإنسان الذي يكون عبداً لشهواته ولهواه ولشيطانه وللنفس الأمّارة بالسوء لا كرامة له، قَالَ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ». (٩٠)

وقد عبّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قيمة النفس بقوله: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها» (٩١)، أي أن من عرف قدر نفسه لم يرض أن يذلها بمعصية أو شهوة أو طلب إعجاب الناس.

ولتقريب المعنى، لو أن إنساناً كان يحمل في يده جوهرة ثمينة جداً، وفي يده الأخرى شيئاً لا قيمة له، ثم دخل مكاناً مزدحماً، فهل سيتعامل معها بالدرجة نفسها من الحرص؟ بالطبع لا. بل سيتعلق قلبه بالجوهرة، ويشدّ حرصه عليها، لأنه يعرف قيمتها. أما الشيء التافه، فإنه لا يحملهم هم نفسه تجاهه. وكذلك النفس الإنسانية، فمن عرف قيمتها، لم يرض أن يلقي بها

في مواطن الهوان، ولم يسمح للشهوة أن تقوده، ولم يبع نفسه بلذة عابرة أو إعجاب زائف.

ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ». (٩٢) لأن من أدرك قيمة نفسه لم تستعبده المغريات.

وعليه، فالكرامة وعي بقيمة النفس يدفع الإنسان إلى حفظها من الابتذال، وعدم التفريط بها في سبيل أي هوى، وهذا هو الأساس لفهم علاقة الحجاب بكرامة المرأة.

المبحث الثاني: الكرامة بين الظاهر والباطن

بعد أن اتضح لنا أن الكرامة الحقيقية في الإسلام مرتبطة بالتقوى، وأن التقوى ليست كلمة تقال باللسان، بل حالة عملية تظهر في سلوك الإنسان واختياراته، نصل إلى نتيجة مهمة، وهي أن الحجاب الشرعي للمرأة ليس أمراً منفصلاً عن الكرامة، بل هو من أبرز مظاهرها العملية؛ لأنه يعكس طاعة المرأة لأمر الله تعالى.

فالحجاب واجب شرعي ثابت أكد عليه فقهاء المسلمين، بوجوب ستر المرأة بدنها عن الأجنبي عدا الوجه والكفين بشروط. قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ (٩٣)، وقال تعالى: ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ (٩٤).

أما التبرج والسفور فهما معصية محرمة، بل من الكبائر لما فيها من مخالفة صريحة للحكم الإلهي وإشاعة الفتنة في المجتمع.

وعليه، فإن المقصرة في الحجاب لا تُعد متقية، لأن التقوى تعني الالتزام بأوامر الله وترك نواهيه. فالحجاب ليس مجرد مظهر خارجي، بل هو دليل

على تقوى الباطن، والتفريط فيه يكشف خللاً في هذا الميزان.

فالإسلام لا يريد للمرأة أن تعيش عفيفة في قلبها فقط، ثم تُظهر أمام الأجنب ما يناقض هذه العفة في ظاهرها، بل يريد أن تكون العفة ظاهرة في باطنها وظاهرها، في نيتها ولباسها، في قلبها وسلوكها، في كلمتها ومشيتها وحضورها.

ولهذا لا ينبغي أن يُنظر إلى الحجاب على أنه مجرد غطاء للرأس، أو زي اجتماعي، أو عادة موروثية، بل هو عنوان لطاعة الله، ومظهر من مظاهر احترام المرأة لنفسها، وإعلان واضح بأنها لا تقبل أن تكون موضع عبث، ولا ساحة لتقلب الشهوات، ولا وسيلة لإثارة انتباه الرجال الأجنب. والحجاب بهذا المعنى ليس شيئاً ثانوياً في حياة المرأة المؤمنة، بل هو جزء من شخصيتها الإيمانية، ووجه من وجوه صيانتها ورفعته.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من أتحف العفة والقناعة حالفه العز»^(٩٥). وهذه الكلمة على اختصارها عظيمة المعنى؛ لأنها تربط العفة بالعز، والعز من أوضح معاني الكرامة. فالمرأة كلما ازدادت عفة، ازدادت عزاً وسمواً ورفعة، لأن العفة تحفظها من أن تُستدرج إلى ما يذلها، أو يُنقص من قدرها، أو يجعلها أسيرة لنظر الناس وكلماتهم. ومن هنا نفهم أن الحجاب، بصفته مظهرًا من مظاهر العفة، ليس تقييداً للمرأة، بل تحالفًا مع عزتها.

وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا وَلَمْ يَفَوِّضْ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلًا أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ وَ (لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) فَالْمُؤْمِنُ يَكُونُ عَزِيزًا وَلَا يَكُونُ ذَلِيلًا ثُمَّ قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَعَزُّ مِنَ الْجَبَلِ إِنَّ الْجَبَلَ يُسْتَقَلُّ مِنْهُ بِالْمَعَاوِلِ وَالْمُؤْمِنُ لَا يُسْتَقَلُّ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ»^(٩٦).

رب تساؤل يرد من امرأة: ما علاقة الكرامة بستر جسد المرأة ومفاتها عن الرجال الأجانب، فالكرامة كما ذكرتُم هي (امتلاك الإنسان بما هو إنسان للشرف والعِزَّة والتوقير)، وهذا الأمر متحقق في نفسي وروحي، ولا علاقة له بجسدي؟

وللإجابة عن هذا التساؤل بصورة واضحة ومتكاملة، لا بد من بيان ذلك عبر مطالب متابعة تُجلي المعنى وتدفع الإشكال. ونذكر منها الآتي:

المطلب الأول: شمول الكرامة للظاهر والباطن

الجواب الأول لمن يدّعي: أن الكرامة تقتصر على القلب والروح، وأنها تعني الشرف والعزة والتوقير في الداخل فقط، ولا علاقة لها بالجسد أو السلوك الظاهر!!

إنّ هذا الفهم غير صحيح؛ لأن الكرامة تتعلق بالظاهر والباطن معاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ..﴾^(٩٧)، فهذه الآية جمعت بين الإيمان وهو عمل قلبي باطني، والعمل الصالح سلوك ظاهري، وهذا يدل بوضوح على أن الكمال في الإسلام لا يتحقق بأحدهما دون الآخر، بل لا بد من اجتماع صلاح الباطن مع صلاح الظاهر.

و رُوي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٩٨)، فالحديث نفسه يبيّن أن الله ينظر إلى القلوب والأعمال معاً، لا إلى القلب فقط. وهذا يكشف أن الكرامة في الإسلام ليست باطنًا مجردًا، ولا مظهرًا شكليًا، بل هي حقيقة متكاملة تشمل الروح والجسد، والباطن والظاهر.

فالإنسان في الإسلام ليس روحًا وحدها، ولا جسدًا وحده، بل هو كيان

واحد متكامل، فيه قلب وعقل، وروح وجسد، وسلوك ومظهر. ولا يمكن أن نفصل بين ما في الداخل وما يظهر في الخارج، لأن كل واحد منهما يؤثر في الآخر.

ولهذا شرع الله تعالى أحكامًا تتعلق بالقلب، فأمرنا بالإيمان والإخلاص وحب الله ونهانا عن الحسد وسوء الظن والرياء، وشرع أيضًا أحكامًا تتعلق بالجوارح، كالصلاة والصيام والحجاب، ونهانا عن السرقة والزنا والتبرج والسفور. لأن الظاهر ليس أمرًا ثانويًا، بل هو جزء من بناء الإنسان وصلاحه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بوضوح في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (٩٩)، فالله سبحانه ربط بين الحجاب — وهو أمر ظاهري — وبين طهارة القلوب، مما يدل على أن السلوك الظاهري يؤثر مباشرة في صفاء الباطن. ومن هنا نفهم أن حفظ الجسد وصيانته ليس أمرًا منفصلًا عن الكرامة، بل هو جزء منها؛ لأن الجسد أمانة من الله، وله حرمة، ولا يجوز أن يُجعل وسيلة لإثارة الشهوات أو جذب الأنظار أو العبث به.

فحين نقول إن الحجاب يحفظ كرامة المرأة، لا نعني أن المرأة جسد فقط، بل نعني أن جسدها جزء من كيانها، وأن صيانتها من الابتذال هو في الحقيقة صيانة لكرامتها الإنسانية.

وعليه، فمن الخطأ أن يُقال: ما دام القلب طيبًا فلا يهم الظاهر؛ لأن هذا القول يفتح باب التناقض، إذ يلزم منه تبرير أفعال المنحرفين كالسارق والقاتل والمعتدي بحجة صفاء قلوبهم، وهذا ما لا يقبله عقل ولا شرع. فالإسلام لا يفصل بين الداخل والخارج، بل يربط بينهما ربطًا وثيقًا؛ فصالح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وفساده يؤثر فيه ويقوده إلى الانحراف.

المطلب الثاني: دفع الأذى أساس كرامة المرأة والحجاب وسيلته

الجواب الثاني لمن يدّعي: إن الكرامة أمر قلبي لا علاقة له بالجسد، فلا حاجة لستر الجسد بالحجاب!!

إن الكرامة لا تتحقق بمجرد الشعور الداخلي، بل من أهم مظاهرها أن يُصان الإنسان عن الأذى والابتذال. ومعلوم أن تعريض النفس للأذى ينافي الكرامة، وأن حفظها منه جزء أساسي من كمالها.

ومن هنا شرع الله تعالى الحجاب؛ لأنه وسيلة لحفظ المرأة من الأذى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾^(١٠٠). والأذى ليس نوعاً واحداً، بل أشكال متعددة نراها بوضوح في واقعنا، مثل: النظرات الجارحة التي تلاحق المرأة في الطريق، أو الكلمات غير اللائقة التي تُقال لها، أو التحرش الجسدي الذي تتعرض له، أو حتى أن تُعامل كجسد يُنظر إليه لا كإنسانة مُحترمة.

ولو تأملنا قليلاً، نجد أن المرأة حين تُظهر زينتها أمام الناس، فإنها - ولو لم تقصد - تفتح باباً لنظرات الطامعين وكلام العابثين. فترين مثلاً فتاة تمشي في الشارع، فيلتفت إليها كل من يمر، ويبدأ البعض بالتعليق أو المضايقة، فتشعر بالضيق وعدم الأمان. هذا لون من الأذى.

وفي مثال آخر، قد تُنشر صور امرأة متبرجة في وسائل التواصل، فتُصبح محلّ تعليقات الناس، بين إعجاب وسخرية وابتذال، فتتحول من إنسانة محترمة إلى مادة للنظر والتقييم. وهذا أيضاً أذى، لكنه أذى لكرامتها قبل أي شيء آخر.

وهنا نؤكد أمراً مهماً: أن الخطأ لا يقع على المرأة، بل على من يعتدي أو ينظر أو يسيء، فهو المسؤول أمام الله. لكن الإسلام، وهو دينٌ حكيم، لا يكتفي بعلاج الخطأ بعد وقوعه، بل يضع وسائل وقاية تحمي الإنسان من الوقوع في الأذى، ومن أهم هذه الوسائل الحجاب.

فالحجاب ليس تبريراً للخطأ الآخرين، بل هو حماية للمرأة من أن تُوضع في موضع الابتذال، ومن أن تُعامل كوسيلة إثارة. وهو في الحقيقة يحفظ لها هيبتها، ويجعل الناس ينظرون إليها باحترام، لا بشهوة.

ولو نظرنا إلى واقع الحياة، لوجدنا أن كثيراً من النساء يعشن تحت ضغط كبير بسبب مظهرهن، فتسعى إحداهن لتكون الأجل، وتخاف من النقد، وتفرح بالإعجاب، وتحزن إذا لم تُلاحظ، وكأن قيمتها مرتبطة بنظرات الناس. وهذا في حقيقته نوع من فقدان الكرامة، لأن كرامة الإنسان لا ينبغي أن تكون بيد الناس.

أما الحجاب، فإنه يحرر المرأة من هذا كله ومن هوس التجميل، ويعيد لها قيمتها الحقيقية، فلا تُقاس بجسدها، بل بعقلها ودينها وأخلاقها. ولهذا فإن المرأة حين تلتزم بالحجاب تقول بلسان حالها: أنا إنسانة مكرّمة، لا أحتاج أن أعرض نفسي لأثبت قيمتي.

فالحجاب إذن ليس قيداً، بل حماية، وليس حرماناً، بل كرامة، لأنه يصون المرأة من الأذى، ويحفظ لها احترامها، ويمنع أن تتحول إلى مادة للنظر أو وسيلة للابتذال.

المطلب الثالث: الحجاب حفظ لحرمة جسد المرأة

الجواب الثالث لمن يقول: ما علاقة الحجاب بكرامة المرأة، مع أن الكرامة أمر يتعلق بالقلب؟

إن هذا الفهم غير دقيق؛ لأن الإسلام لم يحصر الكرامة في الباطن فقط، بل جعل لها امتداداً في الظاهر أيضاً. ومن هنا جعل لجسد المرأة حرمة عظيمة، فهو ليس أمراً عادياً، بل له مكانة من الاحترام والتقدير، فلا يُبتذل ولا يُتلاعب به، ولتحقيق ذلك فرض عليها الستر والحجاب.

فمن الناحية الشرعية، جسد المرأة ليس مباحاً لكل نظر أو لمس، بل هو مصون، لا يجوز للرجل الأجنبي أن يلمسه حتى بالمصافحة، ولا أن ينظر إلى مفاتنه بشهوة وريبة. وهذا يدل على أن هذا الجسد محفوظ ضمن حدود تحفظ كرامتها.

وقد بيّن الإسلام عظمة حرمة الإنسان، حيث رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «المؤمن أعظم حرمة من الكعبة»^(١٠١)، وهذا يدل على أن للإنسان مكانة عالية تستوجب صيانته، والمرأة داخلة في هذا التكريم.

ولأجل تقريب هذا المعنى، فإن الإسلام أوجب احترام ما له قيمة، فحرّم لمس القرآن إلا بطهارة، وفرض شروطاً لدخول بعض الأماكن المقدسة، وهذا يدل على أن ما له شأن يُصان ويُحفظ. وكذلك جسد المرأة، فقد جعله الله موضع احترام، فلا يُترك للعبث أو الابتذال، مع الالتفات إلى أن هذا من باب التقريب لا المساواة.

ولهذا لم يترك الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة بلا ضابط، بل جعل لها إطاراً يحفظ الكرامة، وهو العقد الشرعي، حيث يكون النظر واللمس في موضعهما الصحيح، بعيداً عن الفوضى والانفلات.

ومن هنا جاء الحجاب ليكون وسيلة عملية لحفظ هذه الحرمة، فيمنع أن يتحول جسد المرأة إلى وسيلة لإثارة الشهوات أو لفت الأنظار، ويحفظ لها مكانتها وهيبتها.

وهذه الحرمة التي منحها الله للمرأة تدل على قيمتها العالية، وأنها موقرة وعزيرة، فيجب عليها أن تعرف قدر نفسها، وأن تحافظ على كرامتها بالالتزام بأحكام الله، وألا تُنقص منها بالمعصية.

ولتقريب الصورة: الفواكه في الأسواق تُعرض وتُلمس بلا تشدد، أما الذهب فيُحفظ داخل صناديق زجاجية وتحت المراقبة لشدة قيمته. كذلك المرأة؛ فصيانتها بالحجاب دليل على غلائها وكرامتها، لا تقييداً لها.

وهذا المعنى تؤكد حتى بعض الأعراف البشرية، فقد ذكرت المصادر ومنها موقع «برايد سايت» الأمريكي، أن هناك أسراراً خاصة بالطقوس الملكية في بريطانيا، ومنها أنه لا يُسمح للناس العاديين بلمس الملكة حتى أثناء السلام عليها، وذلك من باب التقدير والاحترام والتوقير. ولكن الإسلام لا يحصر هذا التقدير بالملكات، بل يرى أن كل امرأة تستحق هذا التكريم، ولذلك حرّم على الرجال الأجانب لمسها أو مصافحتها، إلا ضمن الإطار الشرعي كالزواج والمحارم.

المطلب الرابع: المرأة الغالية لا تُبتذل

الجواب الرابع لمن يدّعي: إن الكرامة أمر قلبي لا علاقة له بالجسد، فلا حاجة لستر الجسد بالحجاب!!

إنّ الإسلام لا ينظر إلى المرأة نظرة عادية، بل يراها كائناً غالياً وثميناً، لا يجوز أن يُترك عرضة للعبث أو الابتذال.

فقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من كانت له ابنة واحدة كانت خيراً من ألف حجة، وألف غزوة، وألف بدنة، وألف ضيافة»^(١٠٢)، وهذا التعبير يدل على عظمة قيمة المرأة، وأنها ليست شيئاً يُقدَّر بالمقاييس المادية، بل هي أعظم من ذلك بكثير، لا تُقدَّر بثمن.

ولهذا وصف القرآن المرأة العفيفة بأنها: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾^(١٠٣)، أي اللؤلؤ المصون المحفوظ، الذي لا يُترك معرضاً لكل أحد. كما ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنما المرأة قلادة فانظر ما تتقلد، وليس للمرأة خطر، لا لصاحتهن ولا لطاحتهن: فأما صاحتهن - كالعفيفة المحتشمة - فليس خطرهما الذهب والفضة، هي خير من الذهب والفضة، وأما طاحتهن - كالمترجة والسافرة - فليس خطرهما التراب، التراب خير منها»^(١٠٤)، وهذا يعني أن المرأة جوهرة ثمينة، لها قدر عظيم، فيجب أن تُحفظ وتُصان.

ومن هنا نفهم أن المرأة إذا عرفت قيمتها الحقيقية، فإنها لن ترضى أن تُجعل موضع نظر كل أحد، ولا أن تكون وسيلة لفت الأنظار أو إثارة الشهوات، بل تحرص على حفظ نفسها بالالتزام بأحكام العفة والحجاب.

ولتقريب الصورة، فإن الأشياء العادية تُعرض في متناول الجميع، أما الأشياء الثمينة كالمجوهرات فتُحفظ في صناديق زجاجية وتحت رقابة مشددة، لشدة قيمتها. وكذلك المرأة، فإن صيانتها ليست تقييداً لها، بل دليل على غلائها وكرامتها.

ومن هنا كان الحجاب تعبيراً عملياً عن هذه القيمة، فهو ليس حرماناً، بل حماية، وليس تضييقاً، بل صيانة. فالمرأة لا تُحفظ في فترة شبابها فقط، بل تبقى مكرمة في جميع مراحل حياتها، لأن قيمتها ليست في مظهرها، بل في إنسانيتها التي كرمها الله.

وعليه، فإن المرأة كلما أدركت مكانتها في الإسلام، ازداد تمسكها بحجابها، لأنه يمثل حفظاً لكرامتها، وصوناً لقيمتها، وابتعاداً عن أن تكون موضع ابتذال أو استهلاك.

المبحث الثالث: دور الحجاب في حفظ كرامة المرأة

يتجلى دور الحجاب في حفظ كرامة المرأة من خلال وظائف متعددة، تصون إنسانيتها وتحفظها من مختلف وجوه الابتذال. ولأجل بيان هذه الأدوار بصورة واضحة، نعرضها في المطالب الآتية.

المطلب الأول: الحجاب يحمي المرأة من الاستجداء

ومن وجوه حفظ الكرامة أن تحمي المرأة نفسها من ذل الاستجداء، أي من طلب المعونة أو الاستعطاء من قبل الآخرين وبالأخص الرجال الأجانب. ولفهم الأمر، سأقدم موقفين، أخبروني بعدها أيهما حافظ على كرامته وأيها أهان كرامته:

الموقف الأول: أنكم رأيتم في الشارع شاباً يستجدي اموالاً من الناس رغم أنه بصحة وعافية، ولكي يحقق هدفه تعمد ارتداء ثياباً رثّة من أجل لفت انتباه الناس إليه، وأنتم عرضتم عليه عمل يناسب شأنه براتب فرفض، واستمر في الاستجداء.

الموقف الثاني: لو علمتم أن هناك عائلة متعففة، فرغم فقرها واحتياجها إلا أنهم رفضوا الاستجداء، وأصروا على العمل رغم مشقته وقلة مورده.

فأيهما برأيكم لديه عزة وكرامة، أصحاب الموقف الأول أم الثاني؟

الجواب: بالتأكيد الموقف الثاني.

ونحن نريد أن نصارحكم راجين من الأخوات أن يتقبلن النصيحة رغم أنها مؤلمة، رُوي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اتبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش». (١٠٥)

النصيحة هي: إنَّ الموقف الأول للشاب المتسوّل يشابه موقف المرأة المتبرجة، وأما الموقف الثاني يشابه موقف المرأة العفيفة المحتشمة بالحجاب الشرعي الكامل ظاهراً وباطناً... كيف ذلك؟

إنَّ الله تعالى أراد من المرأة أن تكون لديها عزة وكرامة بأن ترفض أن تستجدي من الرجال الأجانب نظرة وكلمة غزل عن طريق التبرج والتزين وكشف المفاتن والمحاسن.

لذا من أخطر ما يصيب المرأة أن تتعوّد على أن تستمدّ شعورها بالقيمة من نظرات الرجال وكلماتهم وإعجابهم. فهذا الشعور يربط نفسها بميزان متقلب، ويجعلها دائماً محتاجة إلى من يؤكد لها أنها جميلة ولافتة ومثيرة. ومع مرور الزمن، لا تعود ترى نفسها إنسانة ذات رسالة، بل تتحول - من حيث تشعر أو لا تشعر - إلى من ينتظر التغذية النفسية من الخارج، من نظرة، أو ابتسامة، أو كلمة، أو تعليق.

والحجاب يقطع هذا الطريق من أصله؛ لأنه يربي المرأة على أن تكون قيمتها في طاعتها لله، لا في التفات الناس إليها. فالمرأة المؤمنة يفترض أن تثق بنفسها، وأن توقن بأن خلقتها حسنة، فتستمدّ هذه الثقة من إيمانها بالله تعالى الذي قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١٠٦)، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ (١٠٧). كما تعتقد بما ورد عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أن «جمال المؤمن ورعه» (١٠٨)، وأن «جمال العبد الطاعة» (١٠٩). ومن هنا، فلا حاجة لها إلى تغيير خلقتها بمساحيق التجميل المبالغ فيها، أو

اللجوء إلى عمليات التجميل، أو ارتداء الملابس الضيقة، لإثبات قيمتها أو لفت الأنظار إليها.

قد تقول المترجمة: (ولكني حينما أتبرج وأتزيّن لا أقصد الاستجداء من الرجال نظرة أو أن يسمعي كلمات غزل واعجاب!!)

نقول: حتى لو لم تكن نيتك وقصدك استجداء النظرة والكلمة من الرجال الأجانب، ولكن الآخرين يفهمون ما ذكرناه؛ لأن الثياب التي يرتديها الإنسان وسلوكه الظاهري له رسالة يوصلها للآخرين قد تعبر عن مهنته أو جنسيته أو ديانته أو مدى التزامه أو انحرافه، بكونه مؤمناً أو فاسقاً، عفيفاً أم مبتذلاً.

مثال ذلك: الشخص الذي يرتدي الرداء الأبيض الذي يرتديه الطبيب يحمل رسالة تعبر عن مهنته بأنه طبيب، والشخص الذي يرتدي الزي الخليجي المتمثل بالثوب الطويل (الدشداشة)، والغترة والعقال يحمل رسالة تعبر عن جنسيته بأنه خليجي، والرجل الذي يرتدي قميصاً مفتوح الأزرار وبنطالاً ضيقاً ويضع مساحيق التجميل على وجهه، يحمل رسالة تعبر بأنه فاسق ومخنث.

وحينما نأتي إلى الثياب والزي الذي ترتديه المرأة فله رسالة أيضاً، وهي على نوعين:

فالثياب المخالفة للضوابط الشرعية والزينة والتبرج الصادر من المرأة المترجمة يحمل رسالة، لسان حالها يقول: (يا رجال أنني جميلة،... هل يوجد من يرغب في جمالي ورقّتي؟!، هلموا إليّ... هذه مفاتيحي ومحاسني أعرضها عليكم.... فأنا أنثى)

بينما الثياب الشرعية التي ترتديها المرأة العفيفة والمحتشمة في سلوكها

وتصرفاتها تحمل رسالة أخرى، لسان حالها يقول: (يا رجال أنني امرأة عفيفة، وقد سترت مفاتيحي ومحاسني كي لا تطمعوا بها... فغضوا أبصاركم فأنا إنسانة)

انتبهوا أن لسان حال المرأة المتعفة يركز على إنسانيتها عندما تكون أمام الرجال الأجانب، بينما تخفي أنوثتها عنهم ولا تظهرها إلا لزوجها - ولو أدى ذلك إلى إثارة الشهوة - أو أمام النساء - بشرط عدم إثارة الشهوة -. أما المرأة المتبرجة، فإن لسان حالها يركز على أنوثتها أمام الرجال الأجانب، وتحاول إظهارها وكشفها لجذب إعجابهم وإثارتهم، حتى تنال ما تريده من إبداء الإعجاب بها عبر النظرات المحرّمة أو سماع كلمات الغزل أو القيام بسلوكيات محرّمة. وهذا يعتبر نوعاً من الاستجداء.

فهل المرأة التي تتمتع بعزة وكرامة توافق على هذا الابتذال؟ بالتأكيد، كل امرأة تخلو من التعصب للأهواء ستقول: «لا أرضى بذلك».

المطلب الثاني: الحجاب رسالة وقار واحترام

لا شك أن الرجل مأمور شرعاً أن يحترم المرأة في كل حال، وأن يغض بصره، وأن لا يعتدي عليها لا بعينه ولا بلسانه ولا بسلوكه. لكن مع ذلك يبقى للحجاب أثر ظاهر في ترسيخ صورة الوقار والجدية والاحتشام في النفوس. فالحجاب له رسالة أخرى صامتة، لكنها مفهومة، كأن مضمونها يقول للناس:

«إن حجابي الشرعي الكامل الظاهري والباطني السلوكي يدل على احترامي لنفسي وللآخرين ومنهم الرجال الأجانب، فأنا قد سترت مفاتيحي كي لا تتأثر بها ولا تثار ولا أؤذيك، ولا أوقعك في الحرام ولا أؤثر على

حياتك الزوجية والأسرية ولا أفسد المجتمع ولأحميك من الأمراض النفسية والصحية، فبالمقابل وجب عليك احترامي وعدم استغلالني».

فهنا الرجل الذي يملك ذرة من الغيرة والحمية سوف يغض بصره عن هذه المرأة العفيفة وسوف يحترمها ويقدرها، ولا يهين كرامتها، ولا يتلاعب بها، ويحملها على حمل الجد.

وهذه الرسالة ليست خيالاً، بل هي أمر يدركه الناس في حياتهم اليومية. فالإنسان يقرأ من مظهر غيره رسائل كثيرة، سواء في اللباس أو الهيئة أو طريقة الحضور. فلباس الطبيب يوحي بمهنته، ولباس طالب العلم يوحي بمساره، ولباس العسكري يوحي بمسؤوليته، وكذلك الحجاب الشرعي الكامل يوحي بالعفة والوقار وعدم الرضا بالعبث. ومن هنا كان الحجاب معيناً على حمل الناس - ولا سيما العقلاء منهم - على التعامل الجاد المحترم.

ومع ذلك ينبغي أن نقول بإنصاف: ليس معنى هذا أن المحجبة لا تتعرض أبداً للأذى، أو أن غير المحجبة لا تُحترم مطلقاً، فهذه تعميمات غير دقيقة. وإنما المقصود أن الحجاب يعزز أسباب الاحترام، ويقلل من دواعي الطمع، ويعلن بوضوح هوية المرأة العفيفة، وهذا في نفسه أثر عظيم.

مثال عن ذلك: لو قارنا بين من يضع على باب بيته لافتة واضحة تقول: «ممنوع الدخول» ويغلقه بإحكام، وبين من يترك الباب مفتوحاً دون إشارة، فإن كلاهما قد يتعرض للتعدي، لكن الأول يقل احتمال التجرؤ عليه، لأن الرسالة واضحة. وكذلك الحجاب، فهو إعلان صريح بالحدود.

المطلب الثالث: الحجاب يحفظ المرأة من الامتهان الإعلاني

من أظهر صور امتهان المرأة في العصر الحديث أن تُجعل أداة للتسويق، ووسيلة لجذب الزبائن، ومفتاحاً لزيادة المشاهدات والمبيعات، حتى لو لم يكن بينها وبين السلعة أدنى علاقة. فيؤتى بالمرأة في الإعلانات، لا لأنها خبيرة بالمنتج، ولا لأنها صاحبة رسالة، بل لأن جسدها أو زينتها أو حركاتها تُستغل لإثارة الرغبة وجذب المستهلك. وهذه في حقيقتها صورة من صور سلب الكرامة.

على سبيل المثال، تُستخدم امرأة مثيرة في إعلان لشامبو، وامرأة جذابة في إعلان لحقيبة أو حذاء، وكذلك تُستخدم في إعلان لعصير أو وسيلة نقل، بل وحتى في إعلان لمطعم، مع أنه لا توجد أي علاقة حقيقية بين جسد المرأة وهذه المنتجات، وإنما المقصود هو جذب الانتباه واستثارة المشاعر لتحقيق الربح.

فالمرأة في هذه الحالة لا تُقدم بوصفها إنساناً كاملاً، بل بوصفها وسيلة تأثير على الغرائز. وبدل أن يُخاطب عقل المجتمع، يُخاطب شهوته، وتُستخدم المرأة في ذلك كأداة. وهذا في غاية الظلم لها، لأن فيه اختزالاً لإنسانيتها، وتغليباً لجانب الجسد على سائر أبعادها، وإشاعةً لثقافة ترى المرأة نافعة ما دامت مثيرة، وقيمتها متى ما جذبت الأنظار.

وقد نبهت بعض الدراسات النفسية والاجتماعية إلى أن الصور الجنسية المبتذلة في الإعلام والإعلان تؤثر سلباً في نظرة المرأة إلى نفسها، وتولد لديها القلق من الجسد، واضطراب الثقة، والمقارنة المستمرة، والاكتئاب أحياناً. (وأظهر تقرير جديد صادر عن جمعية علم النفس الأميركية أن انتشار الصور المبتذلة للفتيات والنساء في الإعلانات وعمليات الترويج التجاري

والإعلام، ضار بصورة المرأة عن ذاتها وبنموها الطبيعي وبصحتها العقلية والبدنية.

وكانت مجموعة الباحثين المكلفة بالتقرير (وهي من جامعة كاليفورنيا) قد وجدت أن تنميط الفتيات والنساء جنسياً في المجلات والتلفزة وألعاب الفيديو والفيديوهات الموسيقية، له آثار سلبية عليهن ما يؤدي إلى افتقادهن الثقة فيما يخص أجسادهن بالإضافة إلى الاكتئاب واضطرابات الشهية للأكل). (١١٠)

نسأل: هل هذه هي الكرامة التي تريدها المرأة؟، بل هل بقي لها من كرامة وعزّة؟!!!

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (إن شخصية المرأة تسقط في مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلة إعلامية يروج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنها أداة لإتباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر!

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!!

ومن المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، وتشتهر وتكسب المال الوفير، وتنحط إلى حد الابتذال في المجتمع، ليرحب بها مسيرو هذا المجتمع المنحط خلقياً، في المهرجانات والحفلات الساخرة؟!!. (١١١)

ومن هنا كان الحجاب موقفاً رافضاً لهذا المنطق كله. فالحجاب يقول: المرأة ليست سلعة معروضة، ولا أداة ترويج، ولا مادة إغراء، بل إنسانة مكرمة. وهذا الوعي من أعظم ما تحتاجه النساء في زمن الإعلام المتوحش،

الذي يريد أن يحول كل شيء إلى سلعة، حتى الإنسان نفسه.

المطلب الرابع: الحجاب يحفظ كرامة المرأة في بيئة العمل

إن من صور الظلم المعاصر أن يُشترط على المرأة -تصريحًا أو تلميحًا- أن تتخلى عن جزء من حياتها أو حجابها أو وقارها كي تُقبل في بعض الأعمال أو البيئات المهنية.

فحينما نأتي للواقع الذي نعيشه نجد أن بعض الشركات والمؤسسات لما تعلن عن حاجتها لموظفة محددة كأن يطلبون سكرتيرة.... ترى ماذا تريد الشركة من السكرتيرة؟

يريد امرأة تقرأ وتكتب، يريد أصابع تملك مهارة في الطباعة على الآلة الكاتبة، أو يضيف امتلاكها لشهادة بتخصص معين...

ولكن بينكم وبين الله هل يكفي لتوظيف سكرتيرة، كاتبة، موظفة عند الدوائر أو الشركات وغيرها من تملك هذه المواصفات فقط؟

كلا... فبعضهم يشترط شرطًا لا يذكرونه وهو أن تكون جميلة ومثيرة ومغرية، متزينة ومتبرجة ذات ملابس ضيقة وقصيرة في مقابل -إسعاد المدير أو الزبائن- حتى تصبح لوحة تمتع نظر الرجال حتى في مجال العمل... بمعنى أنهم يريدون استعباد المرأة بالراتب الذي تتقاضاه، يريدون تنزيلها إلى رتبة بنات الهوى.

وهكذا الحال حينما تتقدم امرأتان إحداهما سافرة متبرجة، أو تضع خرقة على رأسها ولكنها متبرجة، والأخرى محجّبة بالحجاب الشرعي الكامل، فيا ترى أيهما سيقبلون؟، في الغالب يقبلون المتبرجة التي تحقق شهواتهم ورغباتهم ومصالحهم، وهذا ينطبق عليه عنوان «المتاجرة بجسد المرأة».

ففي الظاهر يقال: نبحث عن موظفة، لكن في الباطن قد يبحث بعضهم عن جمال يسر الناظر، أو هيئة تثير الإعجاب، أو حضور أنثوي مسخر لخدمة مصالح الشركة أو أهواء المسؤولين أو جذب الزبائن. وهذا من أبشع صور استعباد المرأة المعاصر.

ومع شديد الأسف، نجد أن بعض النساء يستجبن لهذا الاستعباد، ويتنازلن بسهولة عن أحكام العفة. ولو اطلعت على بعض سلوكهن ﴿لَوَلَّيْتَمِنْهُمْ فِرَارًا وَوَلَّيْتَمِنْهُمْ رُعْبًا﴾^(١١٢) حيث النساء مزيّنات، متبرجات، يركبن الرموش وينفخن الشفاه، ويضعن الأظافر، ويرتدين الضيق، ويظهرن الزينة، ويتمايلن في مشيتهن، ويمزحن مع الرجال في العمل والدراسة، ويضحكن في الشوارع... إلخ

وهذا الأمر تنبأ به الإمام علي عليه السلام حينما قال: « يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة - وهو شر الأزمنة - نسوة كاشفات عاريات، متبرجات من الدين، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات، في جهنم خالدات ». ^(١١٣)

إن الإسلام حين أوجب على الزوج نفقة زوجته، وحين لم يجعل العمل فرضاً لازماً عليها، إنما أراد أن يحفظ لها مساحة واسعة من الكرامة، حتى لا تضطر إلى بيع حياتها من أجل لقمة العيش. وإذا اضطرت المرأة إلى العمل لحاجة حقيقية، فإن الإسلام لا يمنعها من العمل الشريف، لكنه لا يرضى أن تدخل العمل من باب التبرج والابتذال. بل يريد أن تعمل بكفاءتها، وأمانتها، وخبرتها، لا بجسدها ولا بزخرفها.

ومن هنا، فالحجاب الشرعي الظاهري والباطني السلوكي في مجال العمل ليس عائقاً، بل حماية من المساومة على الكرامة. نعم، قد تجد بعض النساء

صعوبة في البداية، وقد يُرفضن في أماكن لا تحترم الحجاب، وقد يمررن بابتلاءات، لكن الثبات على حدود الله من أعظم صور النجاح الحقيقي. وما أكثر النساء المؤمنات اللواتي رفضن أعمالاً تشتت كشف شيء من البدن أو التهاون في الضوابط، ففتح الله لهن أبواباً أكرم وأنقى، وأثبتن أن الرزق لا ينحصر في الحرام، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١٤). فالمرأة المؤمنة حين تترك بحجابها لا تخسر، بل قد تمر بامتحان، ثم يفتح الله لها من أبواب فضله ما لم تكن تتوقعه. وهي في هذا كله مجاهدة في سبيل كرامتها، لا متشدة كما يظن بعض الناس.

المطلب الخامس: الحجاب يحميها من المتاجرة بجسدها

إن المجتمع إذا ضعف فيه الإيمان، وتراجعت فيه القيم، وسادت فيه النظرة الشهوانية إلى المرأة، صار جسد المرأة سوقاً مفتوحاً للاستغلال. وأخطر ما في هذا المسار أنه يبدأ أحياناً بخطوات يراها الناس صغيرة: تهاون في الستر، تساهل في الزينة أمام الأجانب، تطبيع مع لفت الأنظار، ثم يتدرج الأمر حتى يصل في بعض البيئات إلى صور بشعة من التجارة الجنسية، والدعارة، والإباحية، والاتجار بالبشر كما حدث في بعض الدول مثل ألمانيا وهولندا، حيث تُقدّم بعضهن أجسادهن بشكل علني في محلات الدعارة. بل أصبح استغلال أجساد النساء في شتى صور الإباحية تجارة تجلب مليارات الدولارات. فطبقاً لتقارير الأمم المتحدة فإنه في عام ٢٠١٢ م (وصل عدد ضحايا الاتجار بالبشر إلى ٤, ٢ مليون شخص، وتم خطف وبيع أكثر من ٨٠٪ منهم للقيام بأعمال جنسية)^(١٥)، وتصل أرباح هذه الصناعة إلى ٣٢ مليار دولار أمريكي سنوياً.^(١٦)

ولا يصح أن يقال إن كل مجتمع سافر يصل حتماً إلى الدرجة نفسها، ولكن الصحيح أن السفور الواسع والتبرج الممنهج يفتحان الأبواب، ويكسران الحواجز، ويهيئان الذهنية التي تسهل فيها رؤية المرأة كجسد يمكن استثماره. أما الحجاب الشرعي الكامل، فإنه يغلق هذا الباب من أوله، لأنه يقرر أن هذا الجسد ليس مباحاً، ولا معروضاً، ولا قابلاً للتوظيف الجنسي في السوق أو الإعلام أو الترفيه.

وهنا يظهر البعد الحضاري للحجاب، فهو ليس علاقة فردية فقط بين المرأة وربها، بل هو أيضاً جزء من مقاومة الثقافة التي تريد أن تبتلع المرأة وتحولها إلى مادة استهلاك. فالحجاب ليس ثوباً صامتاً، بل موقف أخلاقي عظيم، يقول للعالم: المرأة ليست مشروع شهوة، بل مشروع إنسان.

المطلب السادس: الحجاب يحفظ كرامة المرأة في كل مراحل عمرها

من أشد ما يرهق المرأة في المجتمعات التي تمجد الجسد أن قيمتها تصبح معلقة على شبابها ونضارتها وجاذبيتها. فإذا تقدمت في السن، شعرت أن حضورها الاجتماعي بدأ يضعف، وأن المجتمع لم يعد يلتفت إليها كما كان يلتفت من قبل. وهذا من أكبر وجوه الظلم؛ لأنه يربط قيمة المرأة بشيء زائل بطبيعته.

أما الإسلام، فإنه يكرم المرأة لذاتها، لا لمرحلة معينة من جسدها. فهو يكرمها طفلة، وبتناً، وزوجة، وأمّاً، وعجوزاً. والحجاب يساعد على ترسيخ هذا المعنى، لأنه يجعل قيمة المرأة غير متوقفة على إظهار الجمال الظاهري. فالمرأة المحجبة لا تبني حضورها على مقدار ما تكشفه من مفاتها، بل على ما تملكه من خلق ودين وعقل ووقار. ولهذا يبقى احترامها قائماً عبر مراحل العمر كلها.

وهذا من أعظم وجوه الرحمة في الشريعة؛ لأنها لم تجعل المرأة سجينة لمرآتها، ولا أسيرة لعمرها، ولا متوترة من ذهاب الشباب، بل رفعتها إلى ميزان أبقى وأكرم، هو ميزان التقوى والفضيلة. فإذا فهمت المرأة هذا المعنى، زال عنها كثير من القلق الذي تصنعه الحضارة المادية في النفوس.

المبحث الرابع: تنبيهات عن حجاب المرأة وكرامتها

وفي ختام هذا المبحث، لا بد من الإشارة إلى جملة من التنبيهات المهمة التي تكمل الصورة وتوضح بعض الجوانب المرتبطة بحجاب المرأة وكرامتها. ونذكر منها التنبيهات الآتية:

١. الحجاب لا يكفي وحده إذا غاب الحياء الباطني

من المهم جداً أن ننتبه إلى أن الحجاب الشرعي المطلوب ليس حجاب الثوب وحده، بل حجاب الثوب والسلوك معاً، أو ما نعبر عنه بالحجاب الظاهر والباطني. فقد تضع المرأة غطاء على رأسها، لكنها تتهاون في الكلام أو المزاح أو لفت الأنظار أو طريقة الحضور، فتفرغ الحجاب من جزء كبير من روحه. ولهذا فالحجاب الكامل هو حجاب الظاهر والباطن: ستر في اللباس، ووقار في المشي، وحشمة في الحديث، وحدود في العلاقة مع الرجال الأجانب.

فإذا أردنا أن نربي النساء والفتيات على الحجاب بوصفه كرامة، فلا بد أن نعلمهن أن الحجاب ليس مجرد قماش، بل هو ثقافة عفة وحياء. والحياء لا يعني الضعف، بل يعني الرقي الداخلي، والإحساس بالحدود، والحرص على صيانة النفس عن مواطن الابتذال. والمرأة التي تجمع بين الحجاب

الظاهري والحياء الباطني تكون قد قطعت شوطاً كبيراً في حفظ كرامتها.

٢. كرامة المرأة منظومة متكاملة لا تُختزل في الحجاب

إن كرامة المرأة في الإسلام لا تقوم على الحجاب وحده، بل على توازن دقيق بين حقوق تُصان لها وواجبات تلتزم بها؛ فالله الذي أمرها بالحجاب والعفة، هو نفسه الذي شرع لها حقوقاً عديدة تحفظ كرامتها، منها: حق النفقة، والسكن، والمهر، وحسن المعاشرة، والاحترام، وتحريم ظلمها، واختيار الزوج، والأمان الأسري، وحق الإرث، وصيانة عرضها، ومنع استغلالها، وحفظ خصوصيتها، وغض البصر عنها، ومنع الاعتداء عليها، فمن يقصر في هذه الحقوق يُجاسب أمام الله.

وفي المقابل، فإن كرامتها تكتمل بالتزامها هي أيضاً بما أوجب الله عليها، ومن ذلك: الحجاب، والعفة، وترك التبرج، واجتناب الاختلاط المحرم، والخضوع بالقول، والعلاقات غير المشروعة، وعدم إظهار الزينة للأجانب. وعليه، فلا يفهم الحجاب فهماً صحيحاً إذا طُلب منها الالتزام به، ثم أهملت حقوقها أو قُصّر في حقها، كما لا تكتمل كرامتها إذا طالبت بحقوقها وأهملت ما أوجب الله عليها؛ فالدين لا يُحْمَل طرفاً دون الآخر، بل يجعل كلاً مسؤولاً عن تكليفه، فإذا استقام هذا التوازن، حفظت كرامة المرأة، واستقام المجتمع.

٣. الزهو عزةٌ تحفظ كرامة المرأة

روي عن الإمام علي عليه السلام: «خيارُ خصالِ النساءِ شرارُ خصالِ الرجال: الزهو، والجبن، والبخل، فإذا كانت المرأة مزهوةً لم تُمكَّن من نفسها، وإذا كانت بخيلةً حفظت مالها ومالَ بعلها، وإذا كانت جبانةً فرقت من كل

شيء يعرض لها». (١١٧)

ثم بينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن من فوائد الزهو للمرأة: أنها «لا تُمكن من نفسها»، أي لا تعطي مجالاً لأحد أن يقترب منها أو يستغلها.

ومعنى هذا الكلام ببساطة: أن الإسلام لا يريد من المرأة أن تكون متواضعة مع الرجل الأجنبي كما تتواضع مع أهلها، بل يريد منها أن تكون عزيزة، قوية، عالية النفس، لا تسمح لأحد أن يتجاوز حدودها.

ولتقريب المعنى، تأمل هذا المثال:

إذا كانت المرأة تبتسم للرجل، وتلين في كلامها معه، وتضحك وتمزح معه، فإن بعض ضعاف النفوس قد يفهم هذا السلوك على أنه سماح بالاقتراب، فيبدأ بالتدرج معها بالكلام، ثم المزاح، ثم الغزل، حتى يجرّها إلى الحرام.

أما إذا كانت المرأة جادة، وقورة، لا تعطيه مجالاً للكلام الزائد، ولا تفتح باب المزاح، فإنه يفهم فوراً أنها ليست محلاً للعبث، فينصرف عنها ويحترمها.

ولهذا، فإن «الزهو» الذي قصده الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس تكبراً مذموماً، بل هو عزة تحفظ الكرامة، كأن تقول المرأة بسلوكها: «أنا لستُ مجالاً للحديث ولا المزاح ولا الإعجاب».

لكن ينبغي الانتباه إلى أمر مهم جداً: لا يصح أن تكون المرأة متكبرة في سلوكها، وفي نفس الوقت تلبس لباساً يلفت الأنظار ويثيرها؛ لأن هذا تناقض. كمن يرفع شعار: «لا تقتربوا مني»، لكنه في نفس الوقت يدعو الآخرين بفعله إلى الاقتراب.

فالطريق الصحيح هو: حجاب ساتر + سلوك وقور + زهو وعزة أمام

الأجنبي

فإذا اجتمعت هذه الأمور، وصلت الرسالة واضحة: «أنا امرأة عفيفة، فلا تقرب».

وتذكري دائماً: كلما خرجت من بيتك، أو تعاملت مع الآخرين، أو دخلت إلى مواقع التواصل، اجعلي هذا الحديث حاضرًا في ذهنك، فهو ليس مجرد كلام، بل حماية لك من الانزلاق، وحفظ لكرامتك التي لا تُقدَّر بثمن.

٤. العفة جهاد، وأجرها كأجر الشهيد

حين نريد أن نفهم الحجاب فهماً عميقاً، لا يكفي أن ننظر إليه كقطعة قماش، أو كواجب ظاهري فقط، بل ينبغي أن نراه على حقيقته: جهادٌ عظيم، تعيشه المرأة في كل يوم من حياتها.

وقد بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحقيقة بكلمة عظيمة، فقال: «ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعف، لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة».^(١١٨)

ومعنى هذا الحديث: أن الإنسان إذا تهيأت له أسباب المعصية، وكان قادراً عليها، ثم أمسك نفسه خوفاً من الله، فإنه يكون قد خاض معركة حقيقية مع الهوى والشهوة والشيطان... وانتصر فيها.

ولهذا كان قريباً من مقام الملائكة؛ لأن الملائكة لا شهوة لديهم، أما الإنسان المؤمن المتقي فله شهوة، وله هوى، وتحيط به وساوس الشيطان، ومع ذلك يختار الطاعة.

وفي زماننا هذا، أصبحت المرأة في ابتلاء مستمر في باب العفة، وخصوصاً في الحجاب الظاهري والسلوكي؛ بسبب كثرة خروجها للعمل أو الدراسة، وسهولة الاختلاط، وانتشار وسائل الإعلام ومواقع التواصل، وكثرة المؤثرات التي تزيّن التبرج وتضغط باتجاهه. ولهذا أصبح الثبات على

الحجاب اليوم جهاداً أعظم، يحتاج إلى إيمان قوي، وصبر، وثبات، وشجاعة.
تأملي واقعك ...

قد تسمعين من تقول لك: أنتِ معقدة، أنتِ متشددة، لماذا هذا الحجاب الكامل؟ وقد يأتيك الضغط من صديقة، أو قريبة، أو زميلة، وربما حتى من بعض أفراد العائلة... وترين من تتبرج تُمدح، ومن تلتزم تُنتقد.

فإذا ثبتت على حجابك وعفتك، فأنتِ في جهاد: جهاد مع النفس، وجهاد مع الهوى، وجهاد مع كلام الناس ونظراتهم، وجهاد مع شياطين الإنس قبل شياطين الجن. وهنا تدخل المرأة في معنى هذا الحديث العظيم، وقد يبلغ أجرها أجر الشهيد أو يقاربه... وهذا من أشرف مراتب الجهاد.

لكن الجهاد لا يقتصر على هذا فقط... فهناك نوع آخر عظيم، وهو الجهاد الأصغر، جهاد القتال في سبيل الله، حيث يبذل الإنسان روحه دفاعاً عن دينه.

وأعظم قدوة في هذا الجهاد هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. ومن أبرز مواقفه: معركة الخندق أو ما تُعرف بالأحزاب، التي وقعت في الثالث من شهر شوال سنة خمس للهجرة.

بدأت المعركة عندما تحالفت قريش مع قبائل متعددة، وانضم إليهم من نقض العهد من اليهود، فتجمّع جيش ضخم يقارب عشرة آلاف مقاتل، وتوجّهوا إلى حصار المدينة المنورة.

وكان الموقف شديداً، حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(١١٩) فأشار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم بحفر خندق حول المدينة، وهي فكرة جديدة على العرب، فبدأ المسلمون بالحفر، وكان النبي يعمل

معهم بنفسه، ويقول: «لا عيش إلا عيش الآخرة»^(١٢٠).

واستمر الحصار قرابة عشرين يوماً، دون قتال مباشر، حتى حدث التحول الحاسم. وتمكّن عدد من فرسان المشركين من عبور الخندق، وكان في مقدمتهم عمرو بن عبد ود العامري، أحد أخطر أبطال العرب، فجعل يتحدّى المسلمين: هل من مبارز؟

ساد الصمت... ولم يخرج إليه أحد... إلا علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «أناله يا رسول الله». فقال النبي: «إنه عمرو».

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ بثبات: «وإن كان عمرواً».

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(١٢١).

ومضى الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الميدان، وهو يقول:

لا تعجلنَّ فقد أتاك	مجيبُ صوتك غيرَ عاجزٍ
ذو نيةٍ وبصيرةٍ	والصبرُ منجي كلِّ فائزٍ
إني لأرجو أن أقيمَ	عليك نائحةَ الجنائزِ
من ضربةٍ نجلاءٍ يبقى	ذكرُها عندَ الهزاهزِ ^(١٢٢)

دخل المعركة، لكنه لم يكن مجرد مقاتل، بل كان مجاهدًا بنفسه قبل أن يكون مجاهدًا بسيفه. دعاه أولاً إلى الإسلام، ثم إلى الانسحاب، فلما رفض، قاتله حتى صرعه بضربة عظيمة كانت سبباً في كسر شوكة الأحزاب وبداية النصر.

ولما قُتل عمرو، قال له عمر بن الخطاب: ألا أخذت درعه؟

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إني استحيت أن أكشف سواة ابن عمي».

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أبياتاً في قتل عمرو، منها:

نَصَرَ الحِجَارَةَ من سَفَاهَةِ رَأْيِهِ	وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضْرَابِ
فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكَتُهُ مُتَجَنِّدِلاً	كَالْجَذَعِ بَيْنَ دَكَادِكِ وَرَوَابِي
وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنَّ نِي	كُنْتُ المَقْطَرِ بِزَنِي أَثْوَابِي
لَا تَحْسَبَنَّ اللهُ خَاذِلَ دِينِهِ	وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الأَحْزَابِ (١٢٣)

ولمّا عاد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ظافراً، استقبله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: «لِمُبَارَزَةَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِعَمْرٍو بن عبد ودٍّ أَفْضَلُ من عَمَلِ أُمَّتِي إلى يومِ القِيَامَةِ». (١٢٤)

وفي رواية: «ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القِيَامَةِ». (١٢٥)

قال السروجي بالمناسبة:

ويوم عمرو العامري إذ أتى	في عسكرٍ ملا الفضاء قد انتشر
فكان من خوف اللعين قبل ذاك	محمد لخندي قد احتفر
نادى بصوتٍ قد علا من جهله	يدعو عليّاً للبراز فابتدر
إليه شخص في الوغى عاداته	سفك دم الأقران بالعضبِ الذكر
فعندها قال النبيّ معلناً	والدمعُ في خدِّ كأمثالِ الدرر
هذا هو الإسلام كلّ بارز	إلى جميع الشركِ يا مَنْ قد حضر (١٢٦)



٤ شَوَّال

بِدَايَةُ الْفَصِيَّةِ الْكُبْرَى لِإِسَامِ الْمُهَدِيِّ (عج)

اللَّهُمَّ عَجِّزْ لِي لِيَاكُمُ الْفَرَكِ

المناسبة:

بداية الغيبة الكبرى للإمام المهدي (عج)

القصيدة للشاعر: السيد حيدر الحلي قدس سره

أيها المحيي الشريعة
غير أحشاء جزوعه
وشكت لواصلها القطيعة
قلوب شيعتك الوجيعه
هذه النفس الصريعه
فمتى تكون به قطيعه
هدمت قواعده الرفيعة
وأصوله تنعى فروعه
اليوم حوزته المنيعه
الأرواح مذعنة مطيعه
وإن ثقلت سريره
بكر بلا في خير شيعه
لوقعة الطف الفضيعه
بأمض من تلك الفجيعه
خيلاً العدى طحنت ضلوعه
ظام إلى جنب الشريعة
مخضباً فاطلب رضيعه
بحمية الدين المنيعه
لطلا ذوي البغي التليعه
هذه الأرض الوسيعة (١٢٧)

مات التصبر في انتظارك
فانهض فما أبقى التحمل
قد مزقت ثوب الأسي
فالسيف إن به شفاء
فسواه منهم ليس يُنعش
طالت حبال عواتق
كم ذا القعود ودينكم
تنعى الفروع أصوله
فيه تحكّم من أباح
فاشحذ شياً غضب له
إن يدعها خفت لدعوته
واطلب به بدم القليل
ماذا يُهيجك إن صبرت
أترى تجيء فجيعه
حيث الحسين على الثرى
قتلته آل أمية
ورضيعه بدم الوريد
يا غيرة الله اهتفي
وضبا انتقامك جردي
ودعي جنود الله تملأ

المَحَاضِرَةُ الثَّالِثَةُ أَسْبَابُ الْغَيْبَةِ

رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ:
«إِنَّ لَصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً لَا بَدَّ مِنْهَا، يَرْتَابُ فِيهَا كُلُّ مَبْطَلٍ»..
إِلَى أَنْ قَالَ: «إِنْ وَجَّهَ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بَعْدَ ظَهْوَرِهِ
كَمَا لَمْ يَنْكَشِفْ وَجَّهَ الْحِكْمَةَ فِيمَا أَتَاهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ،
وَقَتْلِ الْغَلَامِ، وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى وَقْتِ افْتِرَاقِهَا». (١٢٨)

إِنَّ قَضِيَّةَ ظَهْوَرِ الْإِمَامِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لِيَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا لَيْسَتْ
فِكْرَةً غَامِضَةً وَلَا اعْتِقَادًا خَاصًّا بِطَائِفَةٍ مَعِيْنَةٍ، بَلْ هِيَ حَقِيقَةٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا
كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَكَّدَتْهَا النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالرُّوَايَاتُ الشَّرِيفَةُ، قَالَ تَعَالَى:
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ﴾ (١٢٩)، وَهُوَ وَعْدُ إِلَهِي بِظَهْوَرِ الدِّينِ الْحَقِّ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ.

كَمَا وَرَدَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُمَلَأَ
الْأَرْضُ ظُلْمًا وَجَوْرًا، فَيُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلِئُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا
مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا». (١٣٠)

وَمِنَ الْعُقَائِدِ الثَّابِتَةِ عِنْدَ الشِّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ أَنَّ الْإِمَامَ الْمَهْدِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مَوْجُودٌ قَبْلَ ظَهْوَرِهِ، لَكِنَّهُ غَائِبٌ عَنِ الْأَنْظَارِ مَدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وَقَدْ صَرَّحَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «الْمَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِي، تَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ،
فَإِذَا ظَهَرَ مَلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا». (١٣١).

وعليه، فإنَّ أصل الظهور ليس موضع إشكال، بل هو وعد إلهي ثابت. ولكن يبقى السؤال الأهم: إذا كان الإمام موجودًا، فلماذا غاب؟ ولماذا لم يظهر إلى يومنا هذا رغم ما يعاينه العالم من ظلمٍ وفساد؟

من هنا تنطلق أهمية هذه المحاضرة، ولا سيما ونحن نستحضر مناسبة عظيمة في تاريخ الأمة، وهي بداية الغيبة الكبرى في الرابع من شهر شوال سنة ٣٢٩هـ، حين انتقل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من مرحلة الغيبة الصغرى التي كان يتواصل فيها مع شيعته عبر السفراء الأربعة إلى الغيبة الكبرى التي انقطعت فيها السفارة، ولا تزال مستمرة حتى يأذن الله تعالى بظهوره المبارك.

المبحث الأول: حقيقة الغيبة وتطورها

المطلب الأول: الغيبة لا تعني عدم الوجود

عندما نتحدث عن غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، نجد أن بعض الناس يستغربون هذه القضية، بل ينكرها بعضهم، فقط لأنه لا يرى الإمام بعينه، ولا يعرف شخصه بشكل مباشر. وكأنهم يريدون أن يؤمنوا فقط بما تقع عليه أعينهم، مع أن كثيرًا من الحقائق في حياتنا لا تُرى ولكننا نرى آثارها فنوقن بوجودها دون تردد.

◆ فنحن لا نرى الجاذبية، ولكننا نؤمن بها؛ لأننا نرى الأشياء تسقط إلى الأرض، ولا تطير في الهواء بلا سبب.

◆ ولا نرى الهواء، ومع ذلك نعلم أنه موجود، لأننا نتنفسه، ونشعر به عندما تهبّ الرياح.

◆ ولا نرى الكهرباء، لكننا نؤمن بها حين تضيء المصابيح، وتعمل الأجهزة

من حولنا.

♦ ولا نرى العقل، ومع ذلك نوقن بوجوده من خلال تفكير الإنسان وتمييزه.

♦ ولا نرى المشاعر كالحب والخوف والفرح، لكنها موجودة بقوة، ونحس بها في داخلنا ونرى آثارها على سلوكنا.

♦ ولا نرى الروح، ومع ذلك نؤمن بوجودها، لأن الإنسان إذا فقدتها صار جسداً بلا حياة.

♦ ولا نرى الموجات التي تنقل الصوت والصورة في الهواتف، ومع ذلك نتحدث مع من هو بعيد عنا آلاف الكيلومترات.

♦ بل إننا لا نرى الله تعالى، لكننا نؤمن به من خلال آثاره في خلقه؛ فدقة الكون ونظامه وإتقان المخلوقات كلها تدلّ على وجود خالق حكيم قادر فإذا كنا نؤمن بكل هذه الأمور، رغم أننا لا نراها، فقط لأننا نرى آثارها، فكيف يُستغرب وجود الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف وهو له آثار وفوائد عظيمة سنشير إليها في المطلب التالي.

إذن، المشكلة ليست في عدم الرؤية، بل في طريقة التفكير. فليس كل ما لا يرى يُنكر، بل العاقل يؤمن بما ثبت بالدليل، ولو لم تره عيناه.

وهنا يأتي توجيه عظيم من أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يفتح لنا باب الفهم، ويزيل هذا الاستغراب من أساسه. فقد شبه الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حال الإمام المهدي بحال نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قال لسدير الصيرفي: «إن في صاحب هذا الأمر لشبهًا من يوسف». قال سدير: فقلت: فكأنك تخبرنا بغيبة أو حيرة؟

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما ينكر هذا الخلق الملعون أشباه الخنازير من ذلك؟ إن إخوة يوسف كانوا عقلاء، البَاء (١٣٢)، أسباطاً (١٣٣)، أولاد أنبياء، دخلوا عليه فكلموه وخاطبوه وتاجروه وراودوه، وكانوا إخوته وهو أخوهم، لم يعرفوه حتّى عرّفهم نفسه، وقال لهم: أنا يوسف، فعرفوه حينئذٍ، فما تنكر هذه الأمة المتحيرة أن يكون الله (عزَّ وجلَّ) يريد في وقت من الأوقات أن يستر حجته عنهم، لقد كان يوسف النبي ملك مصر، وكان بينه وبين أبيه مسيرة ثمانية عشر يوماً، فلو أراد أن يُعلمه بمكانه لقدر على ذلك، والله لقد سار يعقوب وولده عند البشارة تسعة أيّام من بدوهم إلى مصر، فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله يفعل بحجته ما فعل بيوسف، وأن يكون صاحبكم المظلوم المجحود حقه، صاحب هذا الأمر يتردد بينهم، ويمشي في أسواقهم، ويطأ فرشهم ولا يعرفونه، حتى يأذن الله له أن يعرفهم نفسه كما أذن ليوسف حين قال له إخوته: ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ (١٣٤). (١٣٥)

تأملوا هذا المعنى جيداً...

إخوة يوسف كانوا يرونه بأعينهم، يتحدثون معه، ويقفون أمامه، ومع ذلك لم يعرفوه. فهل كان يوسف غائباً عنهم أم أن المشكلة كانت في عدم معرفتهم له؟

إذن، ليس كل ما لا نعرفه يكون غير موجود، وليس كل من لا نراه بوضوح يكون غائباً عن الواقع.

وهنا نفهم أن غيبة الإمام ليست أمراً غريباً كما يتصور البعض، بل هي سنة إلهية لها نظائر في حياة الأنبياء. فالإمام قد يكون بين الناس، يراهم ويعيش معهم، لكنهم لا يعرفونه، حتى يأتي اليوم الذي يأذن الله له فيه أن يُعرّف نفسه، كما عرّف يوسف نفسه لإخوته.

ومن هنا، فإن إنكار وجود الإمام فقط لأننا لا نراه أو لا نعرفه، ليس موقفاً علمياً ولا منطقيّاً، بل هو تكرار لخطأ قديم وقع فيه من قبلنا، حين كانوا يرون الحق أمامهم ولم يدركوه.

فالغيبة إذن ليست غياباً حقيقياً، بل «اختفاء في الهوية لا في الوجود»، وهذا هو المعنى الأول للغيبة في الاصطلاح، وهي جزء من حكمة إلهية عميقة تحتاج إلى فهم وإيمان، لا إلى إنكار واستغراب.

وأما المعنى الثاني للغيبة فهو «خفاء الشخص وعدم رؤيته» أي أن الإمام موجود، لكنه غير مرئي للناس، فلا يُرى جسده أصلاً. ورد أنه سُئل أبو الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ عن القائم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: «لا يرى جسمه، ولا يسمى اسمه». (١٣٦)

وأما المعنى الثالث فهو الجمع بين المعنيين، أي أن الغيبة قد تختلف بحسب الظروف، فقد يكون الإمام ظاهراً غير معروف في بعض الأحيان، وقد يكون غير مرئي في أحيان أخرى، وبذلك يمكن الجمع بين الروايات المختلفة دون تعارض، دون الحاجة إلى ترجيح أحد المعنيين على الآخر.

المطلب الثاني: أسباب انتهاء الغيبة الصغرى وبداية الكبرى

مع أن موضوع المحاضرة هو أسباب الغيبة، إلا أنه لا بد أولاً من بيان أسباب انتهاء الغيبة الصغرى وبداية الكبرى؛ لأن المناسبة مختصة ببداية الغيبة الكبرى، فلا يكتمل الفهم إلا بتوضيح سبب الانتقال من الغيبة الصغرى إلى الكبرى. وأبرز هذه الأسباب هي الآتية:

أولاً: تحقق الهدف من الغيبة الصغرى.

الغيبة الصغرى كانت مرحلة تمهيدية، تعود فيها الناس على عدم رؤية الإمام مباشرة، والتواصل معه عبر السفراء. ومع مرور الوقت، أصبح الناس مستعدين نفسياً لفكرة الغيبة الطويلة، فلم تعد الحاجة إلى هذه المرحلة موجودة.

ثانياً: ازدياد الخطر على الإمام وأصحابه.

في تلك الفترة، كانت السلطات تراقب بشدة كل من له علاقة بالإمام، وتحاول الوصول إليه أو إلى أتباعه. وقد اشتد هذا الخطر جداً، حتى إن السفير الرابع لم يستطع القيام بنشاط واضح، ولم تستمر سفارته إلا مدة قصيرة، مما يدل على صعوبة الوضع.

ثالثاً: صعوبة استمرار السرية مع طول الزمن.

كان خطّ السفارة قائماً على سرية دقيقة للغاية، بحيث لم تُعرف طوال نحو سبعين سنة طريقة اتصال الإمام بالسفراء، ولا كيفية صدور التوقيعات، وهذا يدل على إحكام الكتمان. لكن مع مرور الزمن واشتداد المراقبة، أصبحت هذه السرية مهددة بالانكشاف تدريجياً، فقد رُوي عن الحسين بن الحسن العلوي أنه قال: «انتهى إلى عبيد الله بن سليمان الوزير أن له - أي الإمام - وكلاء وأنه تجبى إليهم الأموال، وسموا الوكلاء في النواحي، فهممّ بالقبض عليهم، فقيل له: لا، ولكن دسوا لهم قوماً لا يعرفونهم بالأموال، فمن قبض منهم شيئاً قبض عليه، فلم يشعر الوكلاء بشيء حتى خرج الأمر - أي من صاحب الزمان - أن لا يأخذوا من أحد شيئاً وأن يتجاهلوا بالأمر، وهم لا يعلمون ما السبب في ذلك، وامتنع الوكلاء كلهم لما كان تقدم إليهم، فلم يظفروا بأحد منهم ولم تتم الحيلة فيهم» (١٣٧).

وهذا كَلِّه يوضّح أن السرية بلغت غاية الدقة، لكنها في الوقت نفسه لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية دون أن تتعرض لخطر الانكشاف، فكان الانتقال إلى الغيبة الكبرى هو الخيار الإلهي الأحكم.

وبذلك انتهت مرحلة الغيبة الصغرى، وبدأت الغيبة الكبرى، حيث انقطع الاتصال المباشر بين الإمام والناس، وبقيت المسؤولية على الأمة في الانتظار والاستعداد.

المبحث الثاني: دور الإمام بين الغيبة والظهور

المطلب الأول: شروط ظهور الإمام

إن معرفة شروط الظهور تبين لنا لماذا لم يظهر الإمام بعد، فتتحول أسباب الغيبة من أمرٍ غامضٍ إلى نتيجة واضحة لعدم اكتمال الظروف المطلوبة للظهور.

ويمكن تلخيص شروط ظهور الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ على النحو الآتي:

أولاً: وجود المنهج الإلهي الكامل للتغيير.

أي وجود شريعة إلهية متكاملة تبين للناس نظام الحياة العادلة، وتكون صالحة لتطبيقها في جميع الأزمنة والأمكنة. وهذا متحقق في الإسلام بالقرآن الكريم وسنة محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بوصفه الدين الخاتم الذي يقدم نظاماً شاملاً يقود البشرية نحو إقامة العدل.

ثانياً: وجود القائد المعصوم الجاهز.

وهو الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه، فهو موجود حيٍّ ومعصوم، ومهيأ لقيادة العالم، لكنه في غيبة، وينتظر تحقق بقية الشروط ليباشر دوره في إقامة العدل.

ثالثاً: وجود الأنصار القادة والقاعدة الشعبية المخلصة.

أي وجود نخبة مميزة من الأنصار القادة عددهم: (٣١٣)، يتمتعون بإيمان عميق ووعي كامل وقدرة قيادية، يشكلون العمود الفقري لدولة الإمام ويقودون مشروع التغيير، إلى جانب وجود قاعدة شعبية واسعة مؤمنة وواعية، مخلصة للإمام ومستعدة لنصرته وعدم خذلانه. فالإمام لا يظهر بين أناس متخاذلين، بل يحتاج إلى قادة متميزين وجمهور صادق يثبت معه.

رابعاً: الإذن الإلهي بالظهور.

أي أن ظهور الإمام مرتبط بإرادة الله تعالى وحده، فلا يكفي توفر بقية الشروط ما لم يأذن الله بذلك في الوقت المناسب، لأن الظهور جزء من التخطيط الإلهي الدقيق.

خامساً: وجود ظرف عالمي مناسب.

أي أن يصل العالم إلى حالة من الظلم والاضطراب وفشل الأنظمة البشرية، بحيث ييأس الناس من الحلول الأرضية، فيتهيأون لتقبل القيادة الإلهية والعدل الحقيقي.

وبذلك يتبين أن الظهور يحتاج إلى اجتماع هذه الشروط كلها، وليس مجرد تحقق علامة أو اثنتين. (١٣٨)

المطلب الثاني: فوائد الإمام الغائب

إن للإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ في غيبته آثاراً عديدة ينتفع بها الناس، كما ورد في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حين سأله جابر بن عبد الله الأنصاري عن ذلك، فقال: «إي والذي بعثني بالنبوة، إنهم لينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن جللها

السحاب» (١٣٩).

ومعرفة هذه الفوائد أمر ضروري؛ لأنها تكشف أن وجوده ليس أمراً شكلياً، بل له دور حقيقي ومؤثر حتى في حال الغيبة، وبذلك تُفهم الغيبة على أنها مرحلة فاعلة ضمن التدبير الإلهي، لا حالة غياب بلا أثر.

وقد تم تفصيل هذا الموضوع سابقاً^(١٤٠)، ونشير هنا إلى أبرز هذه الفوائد باختصار:

١. الإمام أمان لأهل الأرض: وجود الإمام سبب لحفظ العالم من الهلاك، فهو أمان إلهي كما كانت النجوم أماناً للسماء. قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ بَقِيَتِ الْأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ لَسَاخَتْ»^(١٤١).

٢. إتمام الحجة على الخلق: وجود الإمام يقطع عذر الناس، فلا يقول أحد: لم نجد من يدلنا على الحق. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(١٤٢)، والإمام امتداد لهذه الحجة.

٣. استمرار الهداية عبر العلماء: الإمام لم يترك الناس بلا طريق، بل وجههم إلى الفقهاء العدول ليقودوهم في زمن الغيبة. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَارِقَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رِوَاةٍ حَدِيثِنَا، فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَأَنَا حُجَّةُ اللَّهِ»^(١٤٣).

٤. رعاية المؤمنين والاطلاع على أحوالهم: الإمام يتابع شؤون الأمة ويعلم بما يصيبها، وهذه رعاية خفية تحفظها من الانهيار. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّا نَحِيطُ عِلْمًا بِأَنْبَاءِكُمْ وَلَا يَعْزُبُ عَنَّا شَيْءٌ مِنْ أَنْبَارِكُمْ»^(١٤٤).

٥. عرض أعمال الناس عليه: أعمال المؤمنين تُعرض على الإمام، فيكون شاهداً عليهم وداعياً لهم. قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١٤٥)، وفسرت الروايات «المؤمنون» بالأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٦. دعاؤه المستمر للمؤمنين: دعاء الإمام سبب لحفظ الأمة ودفع البلاء عنها، وإن لم نشعر بذلك مباشرة. رُوي عن صاحب الزمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... أنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللاؤاء - أي الشدائد - أو اصطلمكم الأعداء»^(١٤٦)

٧. حفظ الدين من التحريف: الإمام هو الضامن لبقاء الإسلام الصحيح، ولو خفي شخصه، فهدايته باقية. رُوي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «إن الله لم يدع الأرض الا وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان في الأرض فإذا زاد المؤمنون شيئاً ردهم وإذا نقصوا أكمله لهم فقال خذوه كاملاً ولولا ذلك لالتبس على المؤمنين أمرهم ولم يفرقوا بين الحق والباطل». ^(١٤٧)

٨. تسديد العلماء وتصحيح المسار: العلماء وإن كانوا صالحين قد يخطئون، فيتدخل الإمام بتسديدهم حفظاً للدين. قال الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم من العلماء... لما بقي أحد إلا ارتد عن دينه»^(١٤٨).

٩. مساعدته للمؤمنين في الشدائد: من آثار وجود الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يعين المؤمنين في الشدائد بطرق خفية، ضمن التدبير الإلهي، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^(١٤٩). وقد ظهر هذا المعنى في الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قام بأعمال خفية لم تُعرف حكمتها إلا لاحقاً، كما في قصته مع موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

فإذا كان هذا شأن عبد صالح، فكيف بحجة الله في أرضه؟ فلا يُستبعد أن تكون له عناية خاصة بالمؤمنين، يحفظهم ويعينهم من حيث لا يشعرون.

١٠. إعداد الأمة للظهور: زمن الغيبة هو زمن تربية وتمحيص، ليميز الصادق من غيره ويتهيأ لنصرة الإمام. قال الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لتمحصن يا شيعة آل محمد تمحيص الكحل في العين». ^(١٥٠)

١١. بعث الأمل في النفوس: الإيمان بالإمام يزرع الأمل بعدل قادم، فلا يستسلم المؤمن للظلم. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. (١٥١)

إذن الغيبة ليست غياباً بلا فائدة، بل حضور خفي، ورحمة ممتدة، وتدبير إلهي مستمر.

المبحث الثالث: فلسفة الغيبة الكبرى (أسبابها)

بعد أن تبين لنا في المبحثين السابقين حقيقة الغيبة وتطورها، وشروط ظهور الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وأدواره في غيبته، نتقل إلى سؤال جوهرى يتبادر إلى أذهان كثير من الناس، ويحتاج إلى بيان واضح ومقنع:

ما الحكمة من غيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ كل هذه القرون الطويلة، رغم شدة حاجة البشرية إلى حضوره المبارك لإقامة العدل ورفع الظلم؟ وما الحكمة والدوافع الإلهية التي اقتضت استمرار هذه الغيبة إلى هذا الزمن، مع ما يشهده العالم من انحراف واضطراب؟

حينما نتأمل في النصوص الشرعية، نجد أن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد بينوا لنا إشارات واضحة إلى جملة من حكم الغيبة وأسبابها، إلا أن حقيقتها الكاملة تبقى أوسع وأعمق من أن تُدرك قبل تحققها في الواقع. وهذا المعنى قد صرّحت به الروايات، كما ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً لَا بَدَّ مِنْهَا، يَرْتَابُ فِيهَا كُلُّ مَبْطُلٍ»، .. إلى أن قال: «إِنْ وَجَّهَ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِهِ كَمَا لَمْ يَنْكَشِفْ وَجَّهَ الْحِكْمَةَ فِيهَا أَتَاهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ، وَقَتَلَ الْغَلَامَ، وَإِقَامَةَ الْجِدَارِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى وَقْتِ افْتِرَاقِهِمَا». (١٥٢)

وعلى هذا الأساس، نستعرض في هذا المبحث أبرز ما كشفته النصوص من أسباب وحكم غيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، بقدر ما أُذُن لنا بمعرفته، وهي كالآتي (١٥٣):

السبب الأول للغيبة: الخوف من القتل لحفظ المشروع الإلهي

من أهم الأسباب التي ذكرتها النصوص لغيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الخوف من القتل، كما كان الحال في زمن فرعون مع نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين شاع بين الناس أن مخلصاً سيولد لبني إسرائيل لينهي ظلم الطغيان، فاستبدَّ الخوف بفرعون، فراح يقتل أبناءهم الذكور ويستبقي نساءهم، في محاولة يائسة لإيقاف ما قدره الله، قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (١٥٤).

وبنفس الصورة، كانت الروايات المتواترة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تؤكد أن الأئمة اثنا عشر، وأن الإمام الثاني عشر هو الذي سيقضي على دول الظلم ويسقط عروش الطغاة. لذلك عاش حكام بني العباس حالة ترقب وقلق شديدين، ففرضوا رقابة صارمة على الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحاصروه في بيته، وراقبوا نساءه بدقة، طمعاً في القضاء على المولود المنتظر منذ اللحظة الأولى.

لكن إرادة الله اقتضت أن يُخفى أمر هذا المولود، فلم يعلم بولادته إلا خواص الشيعة وثقات المؤمنين. ومع ذلك، تسربت بعض الأخبار إلى السلطة، فداهموا بيت الإمام مراراً بحثاً عنه، إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل. حتى إن أمه السيدة نرجس عَلَيْهِ السَّلَامُ تعرضت للملاحقة والسجن، لكن الله حفظها وصرف عنهم كيدهم.

في ظل هذه الظروف القاسية، كانت الغيبة ضرورة حتمية لحفظ الإمام

المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ من القتل، فهو آخر الأئمة، وبقية حجج الله، والمكلف بإقامة دولة العدل الإلهي في الأرض. فاقترضت الحكمة الإلهية أن يُحفظ وجوده بالغيبة، حتى يأتي الوقت الذي يأذن الله فيه بظهوره لإتمام مهمته الكبرى.

فقد روى الشيخ الطوسي، عن زرارة، قال: «إن للقائم غيبة قبل ظهوره، قلت: ولم؟ قال: يخاف القتل». (١٥٥)

وروى الشيخ الصدوق عن يونس بن عبد الرحمن قال: دخلت على موسى بن جعفر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فقلت له: يا بن رسول الله، أنت القائم بالحق؟ فقال: «أنا القائم بالحق، ولكن القائم الذي يطهر الأرض من أعداء الله ويملاؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، هو الخامس من ولدي، له غيبة يطول أمدها خوفاً على نفسه، يرتد فيها أقوام ويثبت فيها آخرون...». (١٥٦)

وينبغي أن نثير حول هذا السبب جملة من التساؤلات المهمة، نذكر منها هذين السؤالين:

السؤال الأول: كيف يُنسب الخوف من القتل إلى الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الإمام المعصوم الشجاع الذي ينتظر إقامة العدل في الأرض؟ هل هو خوف الضعف، أم خوف المصلح الذي يحمل رسالة عظيمة؟

الجواب: إن الخوف نوعان؛ خوفٌ مذموم يُضعف الإنسان ويمنعه من أداء واجبه، فيسكت عن الحق ويتراجع أمام الباطل، وخوفٌ ممدوح يجعل الإنسان واعياً بالمخاطر، فيحفظ دينه ويصون هدفه ويُحسن التصرف حتى لا تضيع الرسالة.

وخوف الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس خوفاً على حياته الشخصية، فالإمام

عَلَيْهِ السَّلَامُ كحال آبائه وأجداده يتمنون الشهادة ويعدونها فوزاً كما قال أمير المؤمنين عندما ضربه ابن ملجم: «فزت ورب الكعبة»... بل القضية أعمق من ذلك لأنه خوفٌ على الدين والمشروع الإلهي كله. فهو ليس فرداً عادياً، بل هو آخر حجج الله، والقائد الذي سيقيم دولة العدل الإلهي، فإذا قُتل قبل تحقق هذا المشروع، لانقطع طريق الحق، وضاع الهدف الذي لأجله وُجد.

وهذا المعنى ليس غريباً، بل هو سنة إلهية جرت على الأنبياء. فقد أخبرنا القرآن عن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ (١٥٧)، وقال أيضاً: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (١٥٨)، ولم يكن خوفه جنباً، بل حفاظاً على الرسالة التي يحملها حتى يؤديها في وقتها المناسب.

وكذلك الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين خرج من المدينة، لم يكن خائفاً على نفسه، بل خاف على الدين أن يُطفأ، وأن يُقتل سراً قبل أن يبين الحق للناس، فخرج ليحفظ الرسالة بدمه الطاهر، فأحيا الدين وأبقى نوره في القلوب.

ومن هنا يتضح أن غيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست هروباً، بل هي حفظٌ إلهي لمهمة عظيمة لم يحن وقتها بعد، كما صرّحت الروايات بأنه يخاف القتل، وهذا الخوف ليس ضعفاً، بل هو وعيٌ بحجم المسؤولية، وتقديرٌ دقيق لخطورة ضياع المشروع الإلهي لو تحقق قبل أوانه.

وإذا تأملنا واقع العالم اليوم، وجدنا أن الظلم ما زال منتشرًا، والدماء تُسفك، والحق يُحارب، فهل من الحكمة أن يظهر القائد الإلهي في بيئة لم تهياً لنصرته بعد؟ أم أن الحكمة تقتضي حفظه حتى تكتمل الظروف التي تضمن نجاح هذا المشروع العظيم؟

ولتقريب الصورة، فإن من يريد زرع أرضه قبل تهيئة ظروفها من تربةٍ صالحةٍ وماءٍ مناسبٍ ووقتٍ ملائمٍ، فإن زرعه لا ينمو، بل قد يفسد قبل

أن يؤتي ثماره. أما العاقل فإنه يهيئ الأرض وينتظر الوقت المناسب، حتى يضمن نجاح الزرع وإثماره.

وكذلك هو حال الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن غيبته ليست تأخيراً بلا سبب، بل هي انتظارٌ لتحقيق الظروف التي تضمن نجاح مشروعه الإلهي، فلا يظهر إلا حين تتهيأ الأرض لنصرته وإقامة العدل فيها.

السؤال الثاني: لماذا لا يتدخل الله مباشرة فيمنع الناس من قتل الإمام، فيحفظه دون حاجة إلى الغيبة؟

نجيب: إن الله تعالى قد أمر الناس بطاعة الإمام ونصرته، ونهى عن مخالفته، وهذا هو الأسلوب الذي ينسجم مع الاختبار الإلهي للإنسان، لأن الإنسان خلق ليختار بين الطاعة والمعصية.

أما لو منعهم الله بالقوة من إيذائه، وجعلهم غير قادرين على قتله أصلاً، فإن هذا يلغي الاختبار، ولا يبقى للإنسان اختيار حقيقي، فلا يستحق الثواب على الطاعة.

ولذلك، فإن الحكمة الإلهية تقتضي أن يبقى الإنسان قادراً على الفعل والاختيار، مع توجيهه إلى الحق، لا أن يُجبر عليه.

السبب الثاني للغيبة: عدم توفر الأنصار الحقيقيين المخلصين

من الأسباب العميقة لغيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ عدم توفر الأنصار الذين يُعتمد عليهم في إقامة المشروع الإلهي. رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا لَوْ كَمَلَتِ الْعِدَّةُ الْمُوصُوفَةُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ كَانَ الَّذِي تُرِيدُونَ، وَلَكِنَّ شِيعَتَنَا مَنْ لَا يَعْدُو صَوْتَهُ سَمِعَهُ وَلَا شَحْنَاؤُهُ بَدَنَهُ، وَلَا يَمْدَحُ بِنَا مُعَلِنًا، وَلَا يُحَاصِمُ بِنَا قَالِيًا، وَلَا يُجَالِسُ لَنَا عَائِبًا، وَلَا يُحَدِّثُ

لَنَا ثَالِبًا، وَلَا يُحِبُّ لَنَا مُبْغِضًا، وَلَا يُبْغِضُ لَنَا مُحِبًّا». (١٥٩)

وهذا النص يكشف بوضوح أن المشكلة ليست في غياب الإمام، بل في قلة الأنصار الحقيقيين الذين ينهض بهم أمر الحق.

قد يتساءل أحدهم: إذا كان الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ معروفًا بين الناس، وله محبّون كثيرون في مختلف أنحاء العالم، بل وتذكر الروايات وجود (٣١٣) من أصحابه، فلماذا يُقال إن الأنصار غير متوفرين؟ أين الخلل إذن؟

الجواب: إن المشكلة ليست في العدد، بل في النوع. فليس كل من يقول: أنا من شيعة الإمام، يكون ناصرًا حقيقيًا له. فالنصرة ليست مجرد محبة أو انتفاء، بل تحتاج إلى صفات عالية من الإيمان، والشجاعة، والثبات، والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل الحق.

والإيمان الذي يريده الله ليس مجرد قول باللسان، بل هو طاعة كاملة وتسليم مطلق لأمر الله ورسوله وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٦٠)، فالآية الحاضرة تبين علائم الإيمان الواقعي الراسخ في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أن يتحاكموا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وحكمه النابع من الحكم الإلهي فيما اختلفوا فيه، كبيراً كان أم صغيراً، لا إلى الطواغيت وحكّام الجور والباطل.

المرحلة الثانية: أن لا يشعروا بأيّ انزعاج أو حرج في نفوسهم تجاه أحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقضائه العادل التي هي - في الحقيقة - الأوامر الإلهية نفسها، ولا يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

المرحلة الثالثة: أن يطبّقوا تلك الأحكام - في مرحلة تنفيذها - تطبيقاً كاملاً،

ويسلّموا أمام الحقّ تسليماً مطلقاً، فالإنسان قد يسلم في مقام النظر بالحكم الصادر من المولى أو رسوله، ولكنه في مقام العمل لا يصدر منه أيّ شيء. (١٦١)

فقد يقبل الإنسان حكم الله ما دام موافقاً لهواه أو مصلحته، لكنه إذا تعارض مع رغباته انقلب عليه، وهنا يظهر الخلل الحقيقي في الإيمان. وفي هذا المعنى يكشف الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حقيقة دقيقة حين يقول: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطنونه ما درت معاشهم، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء قلّ الديّانون» (١٦٢)، أي أنّ كثيراً من الناس يتمسكون بالدين ما دام لا يكلفهم تضحية، فإذا واجهوا الاختبار الحقيقي تراجعوا.

أما أنصار الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم صنف آخر من الناس، بلغوا درجة عالية من المعرفة واليقين، حتى وصفهم أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «... رجال عرفوا الله حق معرفته، وهم أنصار المهدي آخر الزمان» (١٦٣). والعارف الحقيقي لله هو من يتصف بالتسليم أي بقبول أمر الله وأمر أوليائه برضا واطمئنان، حتى لو لم يفهم الحكمة أو خالف ذلك رغباته.

وقد شدت الروايات على خطورة الاعتراض، حتى ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «لَوْ أَنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَحَجُّوا الْبَيْتَ وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَالُوا الشَّيْءَ صَنَعَهُ اللَّهُ أَوْ صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَلَّا صَنَعَ خِلَافَ الَّذِي صَنَعَ، أَوْ وَجَدُوا ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٦٤)، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ بِالتَّسْلِيمِ». (١٦٥)

ولهذا كان الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يربّون أصحابهم على هذا المعنى عملياً، لا بالكلام فقط. فقد روى مأمون الرقي قال: «كنت عند سيدي الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ دخل سهل بن حسن الخراساني، فسلم عليه، ثم جلس فقال له: يا ابن رسول الله، لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حقُّ تقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مئة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟

فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: اجلس يا خراساني، رعى الله حقك! ثم قال: يا حنيفة اسجري التنّور، فسجرته حتى صار كالجمرّة وابيضّ علوه، ثم قال: يا خراساني، قم فاجلس في التنّور!. فقال الخراساني:

يا سيدي، يا ابن رسول الله، لا تعذبني بالنار، أقلني أقالك الله. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: قد أقلتك. فبينما نحن كذلك، إذ أقبل هارون المكيّ، ونعله في سبابته، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله، فقال له الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ألق النعل من يدك. واجلس في التنّور قال: فألقى النعل من سبابته، ثم جلس في التنّور.

وأقبل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يحدث الخراساني حديث خراسان حتى كأنه شاهدٌ لها، ثم قال: قم يا خراساني، وانظر ما في التنّور. قال: فقامت إليه فرأته متربّعاً، فخرج إلينا وسلم علينا. فقال له الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كم تجد بخراسان مثل هذا؟» فقلت: والله، ولا واحداً! فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا والله ولا واحداً، أما إننا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت». (١٦٦)

ومن هنا يتضح أن الأنصار الذين ينتظرهم الإمام ليسوا مجرد محبين أو متمنين، بل هم رجال بلغوا درجة عالية من الإيمان والطاعة والتسليم، يقدمون أمر الإمام على أنفسهم، ويثبتون في الشدائد، ولا يتراجعون أمام التضحيات، وهؤلاء نادرون لم يكتمل عددهم.

السبب الثالث للغيبة: الامتحان والاختبار

من السنن الثابتة في منهج الله تعالى أنه لا يترك الإنسان يدعي الإيمان دون أن يُختبر، لأنّ الإيمان الحقيقي لا يظهر بالكلام، بل يُكشف في مواقف الشدة والغياب والانتظار. قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(١٦٧)، فهذه الآية تضع قاعدة واضحة: لا بد من الامتحان ليُعرف الصادق في إيمانه من المدّعي.

ولكن ينبغي علينا ان نعلم أنّ الإيمان الحقيقي لا يُبنى على إدراك الحواس ولا بما تراه العيون، بل على يقين راسخ في القلب بالغيب الذي أخبرنا به الله والرسول وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(١٦٨)، فكانت أول سمة للمؤمن هي إيمانه بالغيب أي تصديقه بما لا يُرى.

ومن أعظم الحقائق الغيبية الجنة والنار، فلو كانتا ظاهرتين للناس يرونهما بأعينهم، لما بقي مجال للاختيار، ولاندفع الجميع نحو الطاعة بدافع الخوف أو الطمع، لا بدافع الإيمان الصادق. عندها يزول التمييز بين من يعبد الله عن قناعة، ومن يعبده اضطراراً.

لكن الله أخفى الجنة والنار، ليكون العمل لأجله قائماً على الإيمان به، وحب طاعته، والخوف من عقابه، والرجاء في رحمته. وهنا يظهر المؤمن الحقيقي، الذي يثبت رغم أنه لا يرى الجزاء، ويكشف المتردد الذي لا يتحرك إلا إذا شاهد النتيجة.

وهذا المعنى بعينه يتجلى في غيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ جعل الله حجته غائباً عن الأنظار، ليكون الارتباط به قائماً على الإيمان العميق، لا على المشاهدة. فليس كل من يدّعي الانتظار يكون صادقاً، بل المنتظر الحقيقي هو الذي يثبت على نهج الإمام، ويتمسك بدينه، ويزداد يقيناً رغم

طول الغيبة وكثرة الفتن.

وقد بيّن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن هذه الغيبة ليست إلا غربالاً دقيقاً، تُصَفَّى فيه القلوب، ويتميّز فيه الناس، كما قال الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والله لتميّنن، والله لتمحصن، والله لتغربلن كما يُغربل الزوّان»^(١٦٩) من القمح». (١٧٠)

فليس الامتحان في القول، بل في الثبات عند الغياب، وليس في الادعاء، بل في الاستمرار رغم طول الطريق.

ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً: «يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم، فيا طوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان»^(١٧١)، فالسعادة الحقيقية ليست في مجرد المعرفة، بل في الثبات عليها عند الامتحان.

وعليه، فإن الغيبة ليست فراغاً، بل ميدان امتحان عظيم، يُكشف فيه معدن الإنسان؛ فمنهم من يزداد إيماناً وثباتاً، ومنهم من يتراجع ويتزلزل. وهكذا يُصنع في زمن الغيبة الأنصار الحقيقيون، الذين يؤمنون بالإمام إيماناً حياً، ويثبتون على طريقه رغم غيابه، فيكونون أهلاً لنصرته عند ظهوره عَلَيْهِ السَّلَامُ.

السبب الرابع للغيبة: لئلا تكون في عنقه بيعةٌ لظالم

من الحقائق المهمة التي تكشف جانباً من حكمة الغيبة أن الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يمكن أن يخضع لسلطان ظالم، ولا أن يكون مرتبطاً بأي بيعة لطاغية، لأن البيعة تعني في حقيقتها نوعاً من الإقرار والالتزام بالطاعة والنصرة، وهذا لا ينسجم مع مقام الإمام الذي هو حجة الله وخليفته في الأرض.

وقد بيّنت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذا المعنى بوضوح، فعن الإمام

الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يقوم القائم وليس لأحد في عنقه بيعة». (١٧٢)

ورُوي لما صالح الحسن بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ معاوية بن أبي سفيان دخل عليه الناس، فلامه بعضهم على بيعته، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويحكم، ما تدرون ما عملت، والله، الذي عملت خير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنني إمامكم مفترض الطاعة عليكم وأحد سيدي شباب أهل الجنة بنص من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلِيٌّ؟» قالوا: بلى، قال: «أما علمتم أن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام، كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمة وصواباً؟ أما علمتم أنه ما منّا أحد إلا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلا القائم الذي يصلي روح الله عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلفه، فإن الله عزَّ وجلَّ يخفي ولادته، ويغيب شخصه لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين ابن سيدة الإماء، يطيل الله عمره في غيبته، ثم يظهره بقدرته في صورة شاب دون أربعين سنة، ذلك ليعلم أن الله على كل شيء قدير». (١٧٣)

في هذه الرواية يريد الإمام أن يرسخ قاعدة وهي: إن قرارات الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليست عشوائية، بل مبنية على حكمة إلهية، حتى لو خفيت علينا... أنتم اعترضتم على صلحي مع معاوية لأنكم لا ترون الحكمة الكاملة تماماً كما اعترض موسى على الخضر لكن الحقيقة أن هذا الصلح فيه مصلحة عظيمة وحكمة إلهية بعيدة المدى.

سؤال: قد يُتوهم من هذه العبارة «ما منّا أحد إلا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه» أن الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بايعوا الظالمين بيعة حقيقية؟!!

الجواب: هذا غير صحيح، بل المقصود يُفهم من خلال عدة وجوه:

١. قد يُراد بالبيعة عدم المواجهة العسكرية المباشرة، أي أن الإمام لا يدخل في

صدام مسلح مع الحاكم لعدم توفر الظروف المناسبة، لا اعترافاً بشرعيته.
 ٢. قد يُراد بها الاعتراف الظاهري فقط، تحت ضغط الواقع، دون قبول حقيقي بشرعية الظالم، بل من باب التقية ودفع الضرر.
 ٣. قد يُراد بها المعاهدة أو الصلح، كما حصل في سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أو في صلح الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان الهدف حفظ الدين لا إقرار الظلم.

وعليه، فهذه «البيعة» ليست بيعة اختيار ورضاء، بل تعامل حكيم مع واقع مفروض، بخلاف الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يظهر دون أي ارتباط بسلطة ظالمة.

رُوي عن الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «القائم منّا، تخفى ولادته على الناس حتى يقولوا: لم يولد بعد، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة». (١٧٤)

وهذه النصوص تؤكد أن الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ يظهر حرّاً مستقلاً، لا يرتبط بأي نظام ظالم، ولا يُحسب على أي سلطة منحرفة.

ولفهم هذه الفكرة بشكل أوضح، يمكن أن ننظر إلى واقع الأئمة السابقين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حيث كانوا يعيشون تحت حكم دول ظالمة كالأمويين والعباسيين، ولم تكن الظروف مهيأة دائماً للمواجهة العلنية، فكانوا يتعاملون مع الواقع بحكمة، إما بصبر أو هدنة أو تجنب للصدام، كما فعل الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ حين صالح معاوية حفظاً للدين والدماء.

أما الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فله دور مختلف تماماً، فهو المكلف بإسقاط جميع أنظمة الظلم وإقامة دولة العدل الإلهي، ولذلك لا يمكن أن يبدأ مشروعه وهو مرتبط بأي بيعة سابقة، لأن ذلك يقيّد حركته ويفقد نهضته

مشروعيتها الكاملة. ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن يُغيب، حتى لا يُجبر على بيعة ظاهرية أو يدخل تحت سلطة طاغية.

السبب الخامس للغيبة: أن الغيبة سر من أسرار الله تعالى

إن غيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست من القضايا التي تُدرك جميع أسرارها بالعقل المحدود، بل هي من شؤون الغيب التي أمر الله تعالى بالإيمان بها، وإن خفيت علينا تفاصيل حكمتها. فهي سرٌّ إلهيٌّ مستور، جرت فيه السنن الربانية على نحوٍ لا تنكشف حقيقته الكاملة في زمن الغيبة.

وقد دلت الروايات المتعبة على أن وجه الحكمة في هذه الغيبة ليس ممَّا أُذن للناس بالإحاطة به، بل سيظهر انكشافه التام حين يأذن الله تعالى بظهوره عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتجلى آنذاك حقائق كانت خفية، وتتضح أسرار لم يكن للعقول أن تدركها قبل ذلك. نذكر منها ما رواه الشيخ الصدوق عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال:

سمعت الصادق جعفر بن محمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يقول: «إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها، يرتاب فيها كل مبطل»، فقلت: ولم جعلت فداك؟ قال: «لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم»؟ قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: «وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات من تقدمه من حجج الله تعالى ذكره، إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره كما لم ينكشف وجه الحكمة فيما أتاه الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى وقت افتراقهما.

يا بن الفضل: إن هذا الأمر أمر من (أمر) الله تعالى وسر من سر الله، وغيب من غيب الله، ومتى علمنا أنه عزَّ وجلَّ حكيم صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة وإن كان وجهها غير منكشف». (١٧٥)

إنّ الأئمة عليهم السّلام عندما وصفوا غيبة الإمام المهدي عليه السّلام بأنّها «سرٌّ من أسرار الله»، لا يقصدون أنّها أمر غامض بلا معنى، بل يقصدون أنّ لها حكم كثيرة منها ما تدركه عقولنا كالتّي ذكرتها، ومنها ما لا تدركه عقولنا الآن، كما أنّ الطالب في المراحل الأولى لا يستطيع فهم المسائل المعقّدة في الرياضيات أو علوم الفلك.

ويمكن أن نقرب فهم غيبة الإمام المهدي عليه السّلام بمثالٍ واضح: كما أنّ الله تعالى قادر على أن يجعل حياة الإنسان كلّها راحة بلا تعب، ومع ذلك لم يفعل، لأنّ الإنسان ينمو ويتكامل من خلال السعي والتعب، لا من خلال الراحة الدائمة.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (١٧٦).

وكذلك الأمر في غيبة الإمام عليه السّلام، فهي جزء من هذا النظام الإلهي، إذ يُمتحن الناس، ويربّون، ويهيّأون، حتى يأتي الوقت الذي يكون فيه العالم مستعدّاً لظهوره، فيقيم دولة العدل الإلهي، ويزول الظلم تماماً. (١٧٧)

السبب السادس للغيبة: تأديب الأمة لترك الطاعة وعدم نصرة الحق

من سنن الله تعالى في تربية المجتمعات أنّ النعمة إذا لم تُصن، ولم يُدافع عنها، ولم يُقم بحقّها، فإنّها قد تُسلب تأديباً وتنبهّاً، لا ظلماً ولا حرماناً عبثياً، بل ليعود الناس إلى رشدهم ويُدركوا قيمة ما أعطوه.

فقد ورد في المأثور عن الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال وهو يُوصي أحد شيعته: «يا عليّ أحسنوا جوار النعم فإنّها وحشيّة، ما نأت عن قوم فعادت إليهم». (١٧٨)

ولا شكّ أنّ من أعظم النعم التي تفضل الله تعالى بها على الإنسان نعمة وجود الإمام المعصوم، فهو دليل الهداية، وأمان الأرض، وباب النجاة. غير أنّ هذه النعمة الجليلة ليست مجرد عطاء يُمنح، بل أمانةٌ تحتاج إلى حفظٍ وشكرٍ عمليٍّ، وقد قصّر كثير من الناس في أداء حقّها. فإن لم تُصن هذه النعمة وتؤدّ حقوقها، سُلبت آثارها وحُرم الناس بركاتها.

وقد حذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك، حين قال مستنكرًا: «ما بال أقوام غيَّروا سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعدلوا عن وصيته؟ لا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب» ثم تلا هذه الآية: ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(١٧٩)، ثم قال: «نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنّا يفوز من فاز يوم القيامة». ^(١٨٠)

ولا شكّ أنّ أعظم النعم هي وجود الإمام المعصوم، لكن النعمة الأتمّ التي تنتظرها البشرية هي ظهوره عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا مجرد وجوده، فهو موجود أصلاً.

غير أنّ هذه النعمة لم تتحقّق؛ لأنّ الأمة لم تشكرها، بل قصّرت وتجاوزت، ولذا غُيب الإمام وحُرمت الأمة من ظهوره المبارك، كما تُسلب النعم عند كفرانها.

وقد أشارت النصوص الشرعية لهذا المعنى، منها ما ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «واعلموا أنّ الأرض لا تخلو من حجة لله (عزّ وجلّ)، ولكن الله سيعمي خلقه عنها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم، ولو خلت الأرض ساعة واحدة من حجة لله لساخت بأهلها، ولكن الحجة يعرف الناس ولا يعرفونه، كما كان يوسف يعرف الناس وهم له منكرون»، ثم تلا: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾^(١٨١). ^(١٨٢)

إذن المشكلة لم تكن في وجود الإمام، بل في موقف الأمة نفسها. فقد منح الله الناس أئمة هداة، لكنهم لم يحفظوا حقهم، بل تعرّضوا للقتل والظلم، وسكتت الأمة عن ذلك، بل داهن كثير منهم أهل المعاصي والانحراف، فلم يُنكروا الظلم، ولم يقفوا موقفًا صادقًا في نصرة الحق.

لهذا حذر الله تعالى بقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١٨٣)، أي أن البلاء لا يقتصر على الظالم وحده، بل يعم المجتمع إذا سكت عن الظلم ورضي به. روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام: «إني معذب من قومك مئة ألف: أربعين الفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم. فقال: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا غضبي». ^(١٨٤)

ولتقريب الفكرة: تخيل مجتمعاً يعيش في ظلام، فأعطاهم قائدٌ رحيم مصباحاً يضيء لهم الطريق. لكن في هذا المجتمع لم يكن الجميع صالحين؛ كان فيهم أطفال يعبثون، ومنحرفون يعتدون، يكسرون المصباح ويؤذون من حولهم. وكان بإمكان بقية الناس أن يمنعوا هذا العبث، وأن يحافظوا على النور، لكنهم سكتوا، وخافوا، وداهنوا، ولم يتحركوا.

فكسر المصباح الأوّل. ثم أُعطي لهم مصباحٌ آخر، فوقع له الشيء نفسه، لأن المشكلة لم تُعالج، وبقي السكوت والتهاون.

وتكرّر الأمر مراراً، حتى أدرك القائد أن الخلل ليس في النور، بل في الناس الذين لم يحسنوا حفظه، ولم يواجهوا الفساد.

فأخفى آخر مصباح، لا بخلاً، بل رحمةً، حتى يتغيّر المجتمع، ويتعلّم كيف يحمي النور ويقف بوجه من يعتدي عليه.

وهكذا كان حال الأئمة عليهم السلام، فقد كانوا نور الهداية، لكن الأمة لم

تحمهم، بل سكتت عن ظلمهم، وداهنت أهل الباطل، فكانت غيبة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ حفظاً له، وتأديباً للأمة، حتى تبلغ مرحلة ترفض فيها الظلم، وتنصر الحق بصدق، فتكون مستحقة لظهوره المبارك. (١٨٥)

السبب السابع للغيبة: إتمام الحجة بأن تكون دولة أهل البيت آخر الدول

من سنن الله تعالى أن يترك للإنسان حرية الاختيار، ليحرب بنفسه المناهج التي يظن أنها تحقق له السعادة. ولهذا ظهرت عبر التاريخ مذاهب وأنظمة متعددة، كالرأسمالية، والليبرالية، والشيوعية، والاشتراكية، والعلمانية، وغيرها، وكلها رفعت شعارات العدل والرفاه، لكن الواقع كشف عجزها عن إنقاذ الإنسان من الظلم والاضطراب.

وقد أشارت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى أن دولة الحق لا تقوم إلا بعد أن تُمنح الفرصة لجميع هذه الاتجاهات، حتى لا يبقى لأحد حجة يقول فيها: «لو تولينا الحكم لحققنا العدل». فعندئذٍ، وبعد أن تتكشف محدودية التجارب البشرية وفشلها في إنقاذ الإنسان من الظلم والاضطراب، تصبح النفوس مهيأة لتقبل المشروع الإلهي.

فقد روى الشيخ الطوسي عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «دولتنا آخر الدول، ولن يبق أهل بيت لهم دولة إلا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٦)». (١٨٧)

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى صنف من الناس إلا وقد ولوا على الناس حتى لا يقول قائل: إننا لو ولينا لعدلنا، ثم يقوم القائم بالحق والعدل». (١٨٨)

ومن هنا كان تأخر ظهور الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ جزءاً من هذه الحكمة، إذ

لا يظهر إلا بعد أن تصل البشرية إلى قناعة حقيقية بأنّ الحلّ ليس في أفكارها القاصرة، بل في منهج الله الكامل، فتستقبل دولته بالوعي والاستعداد، لا بالرفض والتجربة من جديد.

السبب الثامن للغيبة: عدم تهيؤ الأرض والإنسان معاً لاستقبال دولته

إنّ دولة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست تجربة محدودة أو إصلاحاً جزئياً، بل هي مشروع عالمي لإقامة العدل الإلهي في الأرض كلّها. وهذا المشروع العظيم لا يمكن أن يقوم فجأة دون مقدّمات، بل يحتاج إلى تهيئة مزدوجة: (تهيئة في الواقع المادي، وتهيئة في الإنسان نفسه).

فمن جهة الواقع، لكي يقيم الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ دولة العدل في العالم كلّه، لا بدّ من توفير وسائل اتصال سريعة ومباشرة تمكّنه من إدارة شؤون الأرض بدقّة وفي وقتٍ قياسي. وهذا الأمر لم يكن ممكناً قبل زمنٍ قريب، إذ لو أراد أحد ولاته في أقصى الأرض مراسلته بالوسائل القديمة كالجمال، لاستغرقت الرسالة أشهراً، وربما تفاقمت المشكلة قبل وصولها. لذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يتأخّر الظهور حتى تبلغ البشرية مستوى متقدّماً من العلم والتقنية، فيستفيد منها الإمام في إدارة دولته وتحقيق العدل بأفضل صورة. وقد أشارت الروايات إلى هذا المعنى، كقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن قائمنا إذا قام مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبينه بريد^(١٨٩)». (١٩٠)

وعنه أيضاً بشأن خروج الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «لا تراه عين في وقت ظهوره إلا رأته كل عين، فمن قال لكم غير هذا فكذبوه». (١٩١)

وهذا التعبير يكشف عن مستوى متقدّم من وسائل الاتصال والإعلام، بحيث يصل حضوره إلى جميع الناس في آنٍ واحد، وهو ما نشاهد نظائره

اليوم عبر القنوات الفضائية وشبكات الإنترنت ووسائل التواصل الحديثة. لكن الأهم من ذلك كله هو تهيؤ الإنسان. فالإمام لا يأتي ليجبر الناس على الطاعة أو يغيرهم قهراً، لأنَّ سَنَةَ اللَّهِ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِخْتِيَارِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١٩٢). ولهذا فإنَّ الإمام يقود أناساً مستعدين للحق، لا يصنعهم بالإجبار.

وقد بيّنت الروايات أنَّ حكمه سيكون على مستوى عالٍ من العدل، فعن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «لا تذهب الدنيا حتى يخرج رجل مني يحكم بحكومة آل داوود ولا يسأل البينة، يعطي كل نفس حقها»^(١٩٣).

وهذا النوع من العدل لا يتحمّله إلا من بلغ درجة من الإيمان والتسليم، وإلا اعترض عليه الناس كما اعترض بنو إسرائيل على أنبيائهم.

ومن هنا نفهم أنَّ هذا النقص لا يُعالج بمجرد الظهور، ولا يتحوّل الناس فجأة إلى صالحين بمعجزة؛ لأنَّ المعجزة ليست منهجاً دائماً لإدارة الحياة، بل تجري الأمور وفق السنن الطبيعية. ولو كان الإصلاح يتحقّق بالظهور وحده، لكان الأنبياء أولى بذلك، ومع ذلك قوبلوا بالرفض والخذلان.

لذلك لم يكن تأخر الظهور بسبب غياب الإمام، بل بسبب عدم وجود القاعدة المؤهّلة. فقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ للخرساني: «ما نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا»^(١٩٤)، فكيف بدولة عالمية تحتاج إلى أنصار واعين، مطيعين، مستعدين للتضحية؟

إذن، الظهور ليس بداية التهيئة، بل نتيجتها. فالغيبية في حقيقتها انتظارٌ لنضوج الأرض والإنسان معاً، حتى إذا تكاملت الوسائل، وتهيأت النفوس، تحقّق الشرط الإلهي، وظهر الإمام ليقوم دولة العدل على أساسٍ راسخ لا ينهار.^(١٩٥)

هذه بعض الأسباب التي علّلت بها غيبة الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف، وأكبر الظن أن الله تعالى قد أخفى ظهور وليّه المصلح العظيم لأسباب أخرى لا نعلمها إلا بعد ظهوره.

وانطلاقاً من ذلك، وبعد أن تبين لنا أن الغيبة ليست غياباً بلا هدف، بل هي جزء من تدبير إلهي عميق، فإن ذلك يضع على عاتقنا تكاليفاً واضحة تم ذكر تفاصيلها في محاضرة سابقة^(١٩٦)؛ وهي أن نكون من المنتظرين الصادقين، لا بالاكْتفاء بالقول، بل بالطاعة والالتزام، والاستعداد لنصرته في غيبته وظهوره. ويتحقق هذا الانتظار الواعي بإحياء أمره عَلَيْهِ السَّلَامُ، من خلال معرفته حق المعرفة، وكثرة ذكره، والدعاء له، والتصديق عنه، وإهداء الأعمال الصالحة إليه، والعمل نيابةً عنه، ونشر قضيته، وإحياء الشعائر المهدوية بالكلمة الصادقة والموقف الواعي والقصائد التي تحيي الشوق في القلوب. رحم الله الشاعر السيد رضا الهندي حينما قال:

الدَّهْرُ جَارٌ وَعَنَا الْعَدْلُ قَدْ ظَعَنَّا وَكَمْ أَرْثْنَا اللَّيَالِي دُونَكَ الْمِحْنَا
تَأَقَّتْ إِلَى صُبْحِكَ الْمَيْمُونِ أَنْفُسُنَا يَا صَاحِبَ الْعَصْرِ أَدْرِكْنَا فَلَيْسَ لَنَا
وَرْدٌ هَنِيءٌ وَلَا عَيْشٌ لَنَا رَغْدٌ

لَمْ يَبْقَ دُونَكَ يَا مَوْلَايَ أَيُّ أَمَلٍ يُرْجَى لِيَصَبَّ فَعُودُ الصَّبْرِ مِنْهُ نَحْلٌ
نُؤْمِسِي وَنُصْبِحُ وَالْقَلْبُ اعْتَرَاهُ وَجَلٌ طَالَتْ عَلَيْنَا لَيَالِي الْإِنْتِظَارِ فَهَلْ

يَا بَنَ الزَّكِيِّ لَيْلِ الْإِنْتِظَارِ غَدٌ



ه شَوَّال

وُصُولُ سَفِيرِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ إِلَى الْكُوفَةِ

السَّلَامُ عَلَى سَفِيرِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ

الْمُنَاسِبَةُ:

وُصُولُ سَفِيرِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ إِلَى الْكُوفَةِ

القصيدة للشاعر: قاسم الحلي وللسيد باقر الهندي (٢٩٨)

إليهم من العترة الصالحة
 فيا بؤس للبيعة الكاشحة
 وغدرتهم لم تزل واضحة
 لعظم رزيتك الفادحة
 فما قدر أدمعنا المالحه
 مدامع شيعتك السافحه
 تحييك غادية رائحه
 ثناياك فيها غدت طائحه
 فهل سلمت فيك من جارحه
 ألسنت أميرهم البارحه
 أما لك في المصر من نائحه
 عليك العشية من صائحه
 وجمرتها في الحشا قادحه
 لتغدو في قربه فارحه
 وحست بنكبتها القارحه (١٩٨)

رسول حسين ونعم الرسول
 لقد بايعوا رغبة منهم
 وقد خذلوه وقد أسلموه
 فيا ابن عقيل فدتك النفوس
 لنبك لها بمذاب القلوب
 بكتك دما يا ابن عم الحسين
 ولا برحت هاطلات العيون
 لأنك لم ترو من شربة
 رموك من القصر إذ أوثقوك
 وسحبا تجر بأسواقهم
 أتقضي ولم تبك الباقيات
 لئن تقضي نحبنا فكم في زرود
 وكم طفلة لك قد أعولت
 يُعززها السبط في حجره
 فأوجعها قلبها لوعة

المُحَاضِرَةُ الرَّابِعَةُ

صِيَانَةُ صَلَاةِ الرَّحْمِ مِنَ الْقَطِيعَةِ

رُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

«أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة، أن يصل الرحم وإن كان منه على مسير سنةٍ ذلك من الدين». (١٩٩)

المبحث الأول: وصية النبي بصلة الرحم ومظاهرها

المطلب الأول: تفسير الحديث

يتضمن هذا الحديث الشريف وصية نبوية عظيمة يوجهها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى جميع أفراد الأمة، مؤكداً فيها ضرورة المحافظة على صلة الرحم وجعلها من القيم الأساسية التي ينبغي أن يلتزم بها المسلم في كل زمان.

إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يبيّن في بداية الحديث سعة هذه الوصية وشمولها لجميع المسلمين في كل زمان، بقوله:

«أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم»: يعني أن هذه الوصية ليست خاصة بمن كان حاضراً عند النبي أو سمع كلامه مباشرة، بل تشمل كل مسلم، سواء كان موجوداً في زمن النبي أو جاء بعده.

ثم يوسّع النبي دائرة الخطاب أكثر بقوله: «ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة»، أي أن هذه الوصية موجهة حتى للأجيال التي لم تولد بعد، بل لكل من سيولد من المسلمين إلى قيام الساعة.

وبعد هذا البيان الواسع لمخاطبي الوصية، بيّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مضمونها، فيقول: «أن يصل الرحم»، والمقصود بالرحم ما تشترك معه في رحم واحد إذا عدّ من أقربائك مثل الأخ وابن العم وابن الخال، ولا يشمل من لا يشاركك في الرحم مثل أخ الزوجة ونحوه.^(٢٠٠) باختصار، الأرحام هم كل من يكون في نظر الناس من أقارب الإنسان بسبب علاقة نسبية سواء من جهة الأب أو الأم.

ونقصد بصلة الرحم إقامة علاقة طيبة مع الأقارب، عبر السؤال عنهم وزيارتهم ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم ومساعدتهم والدعاء لهم وغيرها من الأمور التي سنشير إليها لاحقاً.

أما قوله: «وإن كان منه على مسير سنة» فهو تعبير يدل على شدة تأكيد الإسلام على هذه القيمة. فالمقصود أنه حتى لو كان القريب بعيداً جداً، بحيث يحتاج الوصول إليه إلى سفر طويل، فعلى الإنسان أن يحرص على صلة رحمه وعدم قطع العلاقة معه. وقد استعملت الروايات القديمة هذا التعبير للدلالة على المسافات الطويلة، لأن السفر في الأزمنة الماضية كان يستغرق شهوراً وربما سنة كاملة. فالمعنى أن بُعد المسافة لا يكون عذراً لترك صلة الرحم.

ويختتم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الحديث بقوله:

«ذلك من الدين». وهذه العبارة مهمة جداً، لأنها تبين أن صلة الرحم ليست مجرد خلق حسن، بل هي جزء من حقيقة الدين الذي يقوم عليه صلاح المجتمع. لذا يقول الفقهاء: إن (صلة الرحم واجبة على المسلم،

وقطيعتها من الكبائر»^(٢٠١). فالدين في نظر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يقتصر على العبادة الفردية كالصلاة والصوم، بل يشمل أيضًا بناء المجتمع على الرحمة والتواصل والتعاون بين الناس، ولا سيما بين أفراد العائلة الواحدة.

لذلك ينبغي للمسلم، مهما كثرت طاعاته وعظمت أعماله، أن يحذر أشد الحذر من الاغترار بها إذا كان قاطعًا لرحمه، فإن هذه المعصية الجسيمة قد تُذهب أثر عمله، وتكون سببًا في سقوطه إلى النار، فقد رُوي عن عليّ بن الحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «.. فإنَّ الرحم لها لسان يوم القيامة ذَلِقَ»^(٢٠٢) تقول: يا ربِّ صل من وصلني واقطع من قطعني، فالرجل ليرى بسبيل خير إذا أتته الرحم التي قطعها فتهوي به إلى أسفل قعر في النار».^(٢٠٣)

في هذا الحديث يوضح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن الرحم (أي علاقة القرابة) ستكون يوم القيامة كأنها تتكلم وتشتكي إلى الله، فتقول ما مضمونه: «يا رب، كافي من وصلني، وعاقب من قطعني»، وهذا تعبير عن شدة اهتمام الله بصلة الرحم.

وقوله: «فالرجل ليرى بسبيل خير...» معناه: قد يظن الإنسان يوم القيامة أنه على طريق النجاة وداخل إلى الجنة لأن عنده أعمال جيدة، لكن عندما تأتي علاقة الرحم التي كان قد قطعها في الدنيا، تكون سببًا في سقوطه إلى النار.

إذا صلة الرحم ليست أمرًا ثانويًا، بل قد تكون سبب النجاة أو الهلاك يوم القيامة.

المطلب الثاني: مظاهر صلة الرحم

لصلة الرحم مظاهر كثيرة نذكر منها الآتي:

أولاً: كف الأذى عن الأرحام وحفظ العلاقة معهم

يُعدّ كف الأذى عن الأقارب من أهم مظاهر صلة الرحم لأن كثيراً من القطيعة تبدأ بسبب كلمة قاسية أو موقف بسيط، ثم تتطور مع الوقت إلى هجر طويل بين أفراد العائلة. ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على حفظ العلاقة مع أقاربه وألا يسمح للخلافات أن تقطعها.

وقد أكد أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذا المعنى، فعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أفضل ما يوصل به الرحم كف الأذى عنها»^(٢٠٤). فصلة الرحم تبدأ بترك الأذى وضبط الكلام والتصرف، ثم بالسعي إلى إصلاح العلاقة والمحافظة على المودة بينهم، ولو بكلمة طيبة أو سلاماً يعيد القلوب إلى الألفة.

ثانياً: زيارة الأقارب والتواصل معهم

زيارة الأقارب من أكثر صور صلة الرحم وضوحاً، لأنها تقوي المحبة وتزيل الجفاء بين الناس. فعندما يزور الإنسان عمه أو خاله أو جدته أو أبناء عمومته يشعر الجميع بأن بينهم رابطاً حياً. وفي زماننا أصبح التواصل أسهل بكثير، فحتى لو لم يتمكن الإنسان من الزيارة دائماً، يستطيع أن يتواصل معهم بالهاتف أو الرسائل أو وسائل الاتصال الحديثة. رُوي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «صلوا أرحامكم ولو بالسلام»^(٢٠٥).

ثالثاً: مساعدتهم عند الحاجة

من أبرز مظاهر صلة الرحم أن يقف الإنسان إلى جانب أقاربه عند حاجتهم، فيساعدهم بما يستطيع من مال أو خدمة أو مساندة في الشدائد، رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال:

«صل رحمك ولو بشربة من ماء»^(٢٠٦)؛ لأن القريب أولى بالمعونة من غيره، وفي مثل هذه المواقف يظهر صدق صلة الرحم وقوة الترابط بين أفراد العائلة.

والمساعدة للأقارب قد تكون واجبة في بعض الحالات، كما في النفقة على من تجب نفقته من الأقارب كنفقة الأب على أولاده الفقراء، ونفقة الأولاد القادرين على والديهم الفقيرين.

وقد تكون المساعدة مستحبة، كالإنفاق على الإخوة والأخوات وسائر الأقارب ممن لا تجب نفقتهم.

كما ينبغي عند إخراج الحقوق المالية للفقراء، مثل الخمس أو الزكاة أو الكفارات ونحوها، أن يقدم الأقارب المحتاجون إذا كانوا مستحقين لأن الأقربين أولى بالمعروف. رُوي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرَّحِمِ اثنتان: صدقةٌ وِصْلَةٌ»^(٢٠٧).

رابعاً: السؤال عنهم والاهتمام بأحوالهم

قد لا يحتاج القريب إلى مال أو مساعدة، لكنه يحتاج إلى من يسأل عنه ويهتم به. فالاتصال البسيط أو السؤال عن الصحة أو الاطمئنان على الأحوال يترك أثراً كبيراً في القلب. وكثير من الناس يشعرون بالفرح عندما يتذكرهم أقاربهم ويسألون عنهم.

خامسًا: مشاركتهم أفراحهم وأحزانهم

من صلة الرحم أن يشارك الإنسان أقاربه في المناسبات المهمة في حياتهم. فعندما يفرح القريب بزواج أو نجاح أو مولود جديد يكون حضور الأقارب ومشاركتهم سببًا لزيادة الفرح. وكذلك في أوقات الحزن، مثل المرض أو الوفاة، فإن وقوف الأقارب مع بعضهم يخفف الألم ويقوي الروابط بينهم.

سادسًا: الكلام الطيب والدعاء لهم

الكلمة الطيبة بين الأقارب تقوي العلاقة بينهم، مثل الثناء عليهم أو الدعاء لهم بالخير. قال رسول الله صلى الله عليه واله في وصيته لأبي ذر: (يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة ...). (٢٠٨)

وقد لا يتمكن الإنسان أحيانًا من زيارة أقاربه أو التواصل معهم، لكن يمكنه أن يذكرهم بالدعاء ويسأل الله لهم الصحة والبركة، أو يذكرهم بخير في غيبتهم. وهذا أيضًا من مظاهر صلة الرحم التي تحافظ على المحبة بين القلوب، رُوي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم». (٢٠٩)

وبذلك يتضح أن صلة الرحم قد تضم مجموعة من التصرفات اليومية البسيطة التي تحافظ على علاقة المحبة بين الأقارب، وتجعل العائلة متماسكة ومتعاونة كما أراد الله تعالى.

المبحث الثالث: ثمار صلة الرحم وعواقب القطيعة

المطلب الأول: ثمار صلة الرحم

تعدّ صلة الرحم من الأعمال التي لا تقتصر آثارها ونتائجها على جانب واحد، بل تمتد لتشمل حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، لما لها من أثر عميق في بناء الفرد والمجتمع. ويمكن تقسيم هذه الآثار إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: الثمار الدنيوية لصلة الرحم

لقد ذكرت النصوص الروائية جملة من الآثار والثمار التي تعود على الإنسان في حياته الدنيا نتيجة محافظته على صلة رحمه. ومن هذه الروايات:

◆ رُوي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «صلة الرحم تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسى في الأجل»^(٢١٠)

◆ ورُوي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء».^(٢١١)

ومن خلال هاتين الروايتين يمكن استخلاص جملة من الآثار، منها: أن صلة الرحم سبب في تزكية الأعمال وزيادة بركتها، كما أنها تؤدي إلى نماء المال واتساع الرزق، وتدفع عن الإنسان أنواع البلاء والمحن، وتكون سبباً في طول عمره، كما تخفف عنه سكرات الموت، وتقيه ميتة السوء، أي تحميه من الموت على حال سيئة أو خاتمة غير محمودة.

القسم الثاني: الثمار الأخروية لصلة الرحم

وتظهر ثمار صلة الرحم أيضاً في الآخرة من خلال ما أعده الله من التيسير

والنجاة لصاحبها في أمور عديدة، منها:

◆ يسر الحساب: رُوي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «صلة الرحم تهوّن الحساب وتقي ميتة السوء». (٢١٢)

◆ الثواب الجزيل: رُوي عن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من مشى إلى ذي قرابة بنفسه وماله ليصل رحمه، أعطاه الله عزّ وجلّ أجر مائة شهيد، وله بكلّ خطوة أربعون ألف حسنة، ويُمحى عنه أربعون ألف سيئة، ويرفع له من الدرجات مثل ذلك، وكأنها عبد الله مائة سنة صابراً محتسباً». (٢١٣)

@ جواز المرور على الصراط: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مرّ الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة». (٢١٤)

المطلب الثاني: عواقب قطيعة الرحم

تعدّ قطيعة الرحم من أخطر السلوكيات التي حذّر منها الإسلام، لما يترتب عليها من آثار سلبية تمس الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة. وهي تنقسم أيضاً إلى قسمين:

القسم الأول: العواقب الدنيوية لقطيعة الرحم

لقد ذكرت النصوص الروائية جملة من العواقب والمخاطر التي تعود على الإنسان في حياته الدنيا نتيجة قطيعة رحمه، ونذكر منها:

◆ تعجيل الفناء: تعجّل الفناء أي تقصّر العمر الحقيقي أو تعجّل المصائب التي تؤدي إلى هلاكه أو شقائه؛ لأن قطيعة الرحم سوف تجرّ إلى المشاحنات

والخصام والصدام وقد يؤدي ذلك إلى القتل وسفك الدماء.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجّل الفناء»، فقام إليه عبد الله بن الكواء الشكري فقال: يا أمير المؤمنين: أو تكون ذنوب تعجّل الفناء؟ فقال: نعم ويلك قطيعة الرحم. (٢١٥)

◆ ضياع الأموال: إنَّ قطيعة الرحم تُضعف التكافل والثقة بين الأقارب، فيسود الظلم والأنانية، فيسهل على الأشرار السيطرة على الأموال. رُوي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار». (٢١٦)

◆ رفع الرحمة: إنَّ صلة الرحم مظهر للرحمة، فإذا قُطعت قست القلوب، ومع غياب التراحم تُرفع الرحمة الإلهية. عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الرحمة لا تنزل على قومٍ فيهم قاطع رحم». (٢١٧)

القسم الثاني: العواقب الأخروية لقطيعة الرحم

وتظهر عواقب قطيعة الرحم أيضًا في الآخرة من خلال ما أعده الله من العقاب وسوء المصير، نذكر منها:

◆ دعاء الرحم عليه يوم القيامة: رُوي عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «إنَّ الرحم معلقة بالعرش تقول: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني». (٢١٨)

◆ السقوط عن الصراط: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة،.. وإذا مرَّ الخائن للأمانة، القطوع للرحم لم ينفعه معها عمل وتكفأ به الصراط إلى النار». (٢١٩)

◆ اللعنة وسوء المصير في الآخرة: قال تعالى: ﴿.. وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ

أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٢٠﴾.

♦ الحرمان من ريح الجنة: روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «... فَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ وَلَا يَجِدُهَا عَاقٌ وَلَا قَاطِعٌ رَحِمٍ» (٢٢١).

المبحث الرابع: إصلاح العلاقات الرحمية وتقويتها

في هذا المبحث نقف على سبل إصلاح العلاقات الرحمية وتقويتها، من خلال بيان أبرز التبريرات التي يتذرّع بها قاطعو الرحم والرد عليها بأسلوب علمي وتربوي هادف. كما نسلط الضوء على أهم الوصايا العملية التي تعزز صلة الرحم وتحمي من الوقوع في القطيعة، بما يسهم في بناء علاقات أسرية متينة ومستقرة.

وسنطرح هذا المبحث في مطلبين وهما:

المطلب الأول: تبريرات قطيعة الرحم وسبل علاجها

يتذرّع بعض الناس بأعذار لتبرير قطيعة الرحم، لكنها لا تصمد أمام الشرع والعقل، إذ لا تبيح ترك ما أوجبه الله. لذا لا بد من بيان خطئها وطرح سبل علاجها وإحياء صلة الرحم.

ومن أبرز هذه التبريرات وطرق علاجها ما يأتي (٢٢٢):

التبرير الأول: كثرة المشاكل والخلافات بين الأرحام

التبرير الأول الذي يحتج به كثير من الناس لقطع صلة الرحم هو وجود المشاكل والخلافات بين الأقارب. ولا شك أن وقوع الخلاف أمر طبيعي في

حياة الناس؛ لأن الإنسان قد يخطئ وقد يسيء التقدير، روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». (٢٢٣)

لكن المشكلة الحقيقية ليست في وقوع الخلاف، بل في طريقة التعامل معه وكأن الحل الوحيد هو الهجر والابتعاد، مع أن هذا يزيد المشكلة ولا يعالجها. فكثير من القطيعة تبدأ بسبب كلمة عابرة، أو سوء فهم بسيط، ثم يكبر الأمر شيئاً فشيئاً بسبب الغضب والعناد حتى يتحول إلى عداوة طويلة، وبخاصة عند تداخل المصالح والعلاقات بشكل أكبر، كحالات المصاهرة، أو الاشتراك في عمل أو تجارة، أو حين تمتد الخلافات إلى الأبناء فيما بينهم، فتتشابك المشكلات وتتسع دائرتها.

ومن منظور الدين والعقل، فإن قطع الرحم لم يكن يوماً علاجاً للخلاف، بل العكس هو الصحيح؛ فاستمرار التواصل، ولو بالحد الأدنى، يخفف التوتر، ويكسر الحواجز، ويمنح فرصة لعودة المودة مع مرور الزمن. أما القطيعة فتغلق باب الإصلاح، وتتراكم الأحقاد في القلوب.

ولهذا، فإن علاج هذه المشكلة يكون من خلال الأمور الآتية:

١. ضبط النفس، وعدم التسرع في ردود الفعل، ومعالجة الخلاف بالحكمة والهدوء، لا بالغضب والانفعال. لأن تضخيم المشكلات الصغيرة هو الذي يحوّلها إلى أزمات كبيرة. والتاريخ يقدم لنا أمثلة واضحة على خطورة تضخيم الخلافات الصغيرة، ومن أشهرها حرب البسوس في الجاهلية والتي نشبت بين أبناء وائل بن ربيعة استمرت ما يقرب من أربعين عاماً وهم بنو عمومة ورحم واحد!

والعجيب أن الشرارة التي أشعلت تلك الحرب الطويلة كانت سبباً تافهاً للغاية، إذ بدأ الأمر بقتل حيوان، فتحوّل إلى نزاع دموي أزهقت فيه الأرواح

لعقود طويلة.

وهنا يبرز السؤال: كم من «بسوس» نراها اليوم في مجتمعاتنا؟ كم من خلاف بسيط يتضخم حتى يتحول إلى قطيعة وعداوة بين الأقارب؟ مع أننا نعيش في زمن يفترض أننا تجاوزنا فيه تلك السلوكيات الجاهلية التي لا تمت إلى الدين ولا إلى الإنسانية ولا إلى الحضارة بصلة.

٢. من العلاج أيضاً أن يتعلم الإنسان العفو والإصلاح، فلا يجعل كل خطأ سبباً للهجر، بل يسعى لتهدئة النفوس، ويحفظ ما بقي من المودة. نعم، يأخذ الحذر ويتعلم من التجربة، لكنه لا يهدم العلاقة.

٣. لو استمرت المشكلة ولم تُحلّ، فلا يجوز أن تكون سبباً لقطع الرحم. وهذا ما تؤكد سيرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأوضح صورة؛ فقد روي عن سالمة مولاة أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنها قال: كنت عند أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ حين حضرته الوفاة، فأغمي عليه فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن عليّ بن الحسين - وهو الأفتس - سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا وكذا، وفلاناً كذا وكذا فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشّفرة؟ فقال: ويحك أما تقرّين القرآن؟ قلت: بلى. قال: أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. (٢٢٤)

الخلاصة: الخلاف لا يبرّر القطيعة، بل هو موضع اختبار؛ فليعالج بالحلم، وكظم الغيظ، والمبادرة إلى الإصلاح، وتقديم بقاء العلاقة على كسب الموقف، لتبقى صلة الرحم محفوظة.

وإليكم بعض الاستفتاءات الواردة وفق فتاوى سماحة السيد السيستاني دام ظله، ومنها:

السؤال (١): لنا أخ تزوّج دون رضا إخوته وأخواته، وقد تسبب هذا

الزواج في نشوء خلافات وفرقة بيننا، مما دفعنا إلى الابتعاد عنه تجنباً للمشاكل العائلية. وقد حاولت التواصل معه عدة مرات، لكن الخلاف كان يزداد في كل مرة، فهل يجوز لي الاستمرار في مقاطعته؟

الجواب: لا تقطع علاقتك به مهما أمكن (٢٢٥).

السؤال (٢): أنا شاب أبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، ووالدي يمنعني من زيارة خالتي بسبب سوء علاقته بزوجها، إضافة إلى أسباب أخرى لا أراها مقنعة. فهل يجوز لي زيارتها رغم منعه، أم يجب عليّ طاعته؟

الجواب: الأولى لك ان تصل الرحم بوجه آخر كالتفقد بالهاتف ونحو ذلك، ولكن لا يجب عليك إطاعة هذا النهي إذا استلزم قطع الرحم، بل مطلقاً إذا لم يكن النهي عن شفقة عليك (٢٢٦).

السؤال (٣): ما حكم من وقع خلاف بينه وبين أخيه، أدى إلى خصام وانقطاع بينهما استمر نحو أربع أو خمس سنوات؟ وقد حصل بينهما تواصل لفترة قصيرة، ثم عاد الخلاف من جديد. فما هو الحكم الشرعي في مثل هذه الحالة؟

الجواب: يحرم على الأحوط هجر المؤمن أكثر من ثلاثة أيام (٢٢٧).

التبرير الثاني: انحراف الأرحام عن الالتزام الديني

التبرير الثاني الذي يحتج به بعض الناس لقطيعة الرحم هو أن أقاربهم غير ملتزمين دينياً، فيظنون أن الابتعاد عنهم هو التصرف الصحيح. لكن هذا الفهم غير دقيق؛ لأن الإسلام لا يرضى بقطع الرحم بسبب ضعف التدين أو الانحراف، ويدعو إلى استمرار التواصل معهم. بل الإسلام لا يشترط أن تكون الرحم مؤمنة أو مسلمة، فقد سأل جهم بن حميد الإمام

الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: «يكون لي القرابة على غير أمري أهم عليّ حق؟ قال: نعم حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حقّ الرحم وحقّ الإسلام». (٢٢٨)

لكن ينبغي أن نعلم أنّ التعامل مع القريب المنحرف في سلوكه أو عقيدته له حالتان:

الحالة الأولى: إذا لم يكن هناك تأثير سلبي على ديننا ودين الأهل كالزوج والأولاد، فيجوز التواصل معه وزيارته مع الحذر من التأثير به، ويرجع ذلك لأسباب منها:

١. إنّ ابتعاد المتدين عن أقاربه غير الملتزمين لا يكون حلاً، بل قد يخلف في نفوسهم صورة منقّرة عن أهل الدين، ويزيدهم نفوراً من الهداية بدل أن يقربهم منها. أما إذا قابلهم بالمودة، وأحسن إليهم في القول والفعل، وتعامل معهم برفق واحترام، فإن ذلك قد يفتح قلوبهم، ويبيّنهم لتقبّل الحق، لذا روي أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: «على ذي الرحم الكاشح» (٢٢٩)، أي القريب الذي يحمل في نفسه العداوة.

٢. إنّ الأقارب أولى الناس بالنصيحة والتوجيه، لأن الإسلام جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الشعائر المهمة في حياة المسلم. ومن الطبيعي أن يكون الأقارب أقرب الناس إلى هذا الواجب؛ فالتواصل معهم، ومشاركتهم في مناسباتهم، والوقوف إلى جانبهم، يفتح باب النصيحة والتأثير فيهم بلطف وحكمة. ولذلك فإن صلة الرحم مع غير الملتزمين قد تكون طريقاً لإصلاحهم، لا سبباً لتركهم والابتعاد عنهم.

الحالة الثانية: إذا كان التواصل القريب معه، كالمجالسة المستمرة أو الصداقة الوثيقة، يؤثر على دين الإنسان أو يضعف اعتقاده أو يعرضه للانحراف، فلا

يجوز الاستمرار في هذا النوع من العلاقة؛ لأن حفظ الدين مقدّم على غيره.

لكن هذا لا يعني جواز قطع الرحم معه بشكل كامل، لأن صلة الرحم تبقى واجبة حتى مع وجود الانحراف. ولذلك يجب على الإنسان أن يبحث عن طريقة يحقق بها الصلة دون أن يعرّض نفسه للخطر. فيقتصر على الحد الأدنى الآمن من التواصل، مثل الاتصال به للاطمئنان عليه، أو السؤال عن أحواله عبر الهاتف أو الرسائل أو مواقع التواصل الاجتماعي، مع الحرص على تجنّب كل ما يوقع في ما لا يرضي الله. وبذلك يحافظ على صلة رحمه من جهة، ويتجنب الحرام من جهة أخرى.

وعليه، فإن الامتناع عن زيارته أو مجالسته لا يُعدّ قطيعة رحم إذا كان الهدف منه حماية الدين، مع بقاء أصل التواصل قائماً ولو بالحد الأدنى. أما القطيعة المحرّمة فهي ترك التواصل معه تماماً بلا سؤال ولا اهتمام.

وإليكم نماذج من الاستفتاءات الواردة وفق فتاوى سماحة السيد السيستاني دام ظله، منها:

السؤال (١): قطيعة الرحم من الكبائر المسقطة للعدالة، فهل تجوز إذا ترتب على الصلة ضرر ديني أو دنيوي معتد به لدي العقلاء؟

الجواب: نعم تجوز ولكن القدر الأدنى من الصلة لا يتسبب عادة في الضرر المعتد به. (٢٣٠)

السؤال (٢): هل يجوز عقد الصداقة والمرادة مع من يتعاطى الربا من الاقارب، ويمتنع من أداء الخمس أو الزكاة أو لا يصلي إلا أحياناً أو لا يقبل الفقه ولا الفقاهاة ولا التقليد أو يقول بوجود ائمة متعددون بعدد الأعصار والاجبال؟ وهل الامتناع من التردد عليه والحديث معه يعدّ قطعاً للرحم؟

الجواب: إذا كان ذلك يؤثر سلباً على دينك واعتقادك فلا يجوز التردد

وعقد الصداقة معه. ولأجل ألا يكون ذلك قطع رحم منك فاقصر على الاتصال به من خلال الهاتف ونحوه تسأل فيه عن صحته^(٢٣١).

التبرير الثالث: الانشغال بأعباء الحياة

التبرير الثالث الذي يحتج به بعض الناس لقطيعة الرحم قولهم: «إن مشاغل الحياة الكثيرة لا تترك لهم وقتًا للتواصل مع أقاربهم».

لكن هذا العذر لا يصح؛ لأن كثرة الأعمال لا تمنع الإنسان من تخصيص وقت يسير للسؤال عن أهله وأقاربه. فالحياة وإن كانت مليئة بالانشغالات، إلا أن فيها أوقاتًا مناسبة للتواصل، مثل العطل الأسبوعية أو الأعياد والمناسبات التي يجتمع فيها الناس بطبيعتها.

ولذلك يجدر بالمؤمن أن يحسن تنظيم وقته، وألا يضيّعه فيما لا يعود عليه بنفع في دنياه ولا في آخرته، وأن يقدم الواجبات على المستحبات والمباحات، فيجعل الأولوية للواجبات، ومن ذلك الصلاة وأن يقدم صلة الرحم على الانشغال باللهو واللعب وقضاء الوقت الطويل مع الأصدقاء.

كما أن وسائل الاتصال الحديثة جعلت صلة الرحم أسهل من قبل؛ فمكالمة قصيرة أو رسالة بسيطة أو مساعدة عند الحاجة تكفي لإبقاء العلاقة حيّة بين الأقارب. ومع ذلك نرى بعض الناس ينشغلون بالدنيا إلى درجة تضعف صلتهم بأرحامهم، حتى إن بعضهم لا يعرف كثيرًا من أقاربه، أو لا يلتقي بهم إلا نادرًا. وهذا يدل على أن المشكلة في الغالب ليست ضيق الوقت، بل ضعف الاهتمام بصلة الرحم التي أكد عليها الإسلام لما لها من أثر كبير في حفظ تماسك الأسرة وتقوية المودة بين أفرادها.

التبرير الرابع: الاحتجاج ببدء الآخر بالهجر

التبرير الرابع الذي يحتج به بعض الناس لترك صلة الرحم قولهم: «إن أقاربهم هم الذين بدأوا بالهجر والابتعاد»، فيظنون أن ذلك يبرر لهم ترك زيارتهم أو التواصل معهم. لكن هذا العذر في الحقيقة لا يرفع المسؤولية عن الإنسان؛ لأن القطيعة لا تعالج بقطيعة أخرى، بل تزداد رسوخاً عندما يصر كل طرف على الهجر. فالمؤمن لا ينتظر أن يبدأ الآخر بالصلة، بل يسعى هو إلى إصلاح العلاقة وردم فجوة الخلاف.

رُوي عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «ما من مؤمنين اهتجرا فوق ثلاث إلا وبرئت منهما في الثالثة، قيل: هذا حال الظالم فما بال المظلوم؟ فقال: ما بال المظلوم لا يصير إلى الظالم فيقول: أنا الظالم، حتى يصطلحا». (٢٣٢)

ولهذا جاء توجيه الإسلام واضحاً في عدم مقابلة القطيعة بالقطيعة، بل بالصلة والإحسان. فقد رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تقطع رحمك وإن قطعك» (٢٣٣). فالدين يربي الإنسان على أن لا يقاد وراء الغضب والانفعالات، لأن اتباع العاطفة قد يقوده إلى معصية الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل.

والإنسان الذي يصل رحمه رغم جفائهم يكون قد جاهد نفسه جهاداً عظيماً، ويكون حاله كالقابض على جمرة؛ لأن النفس تميل بطبيعتها إلى مقابلة الإساءة بالإساءة. لكنه يقدم طاعة الله على مشاعره، فيتحمل المشقة النفسية ويغالب ما في قلبه من ضيق أو حزن. ولهذا يكون أجره أعظم؛ لأنه صبر على ما يكره، وأصلح العلاقة رغم صعوبتها. وقد يظن بعض الناس أن المبادرة بالصلة في مثل هذه الحال ضعف أو تنازل عن الكرامة، لكن الحقيقة أن الكرامة الحقيقية هي في طاعة الله، وفي حفظ الروابط التي أمر بها، لا في الاستمرار في القطيعة والخصام.

قد يذكر أحدهم أنه بذل جهده في صلة رحمه مراراً، فزار وسلّم، غير أنّ الطرف الآخر يقابل ذلك بالصدّ والإعراض، ويرفض حتى ردّ السلام، ويُصرّ على القطيعة، فيتساءل الواصل للرحم: هل يكون آثماً في هذه الحال؟

الجواب: لا إثم عليه ما دام قد قام بما عليه من السعي إلى الصلة، لكن ينبغي له أن يصبر ولا يدخل في خصومة أو شجار، وألا يترك محاولة الإصلاح. ويمكنه أن يواصل صلته بطرق أخرى، كالمساعدة ولو بشكل غير مباشر، أو الدعاء له بالهداية، أو التصديق عنه رجاء دفع البلاء.

تنبيه: عبارة «لا إثم عليه» مستفادة من بعض الاستفتاءات الواردة وفق فتاوى سماحة السيد السيستاني دام ظلّه، ومنها:

سؤال (١): إذا كان المهجران صادراً من أحدهم دون الآخر، والطرف المهجور يحاول التقرب وتحسين العلاقة والآخر يصر على القطيعة، فما الحكم؟

الجواب: الآثم هو الأول (٢٣٤).

سؤال (٢): إخوان اثنان أحدهما مخاصم الآخر لا يريد أن يتكلم معه مع العلم أن الأخ الصغير عمل كل ما في وسعه من أجل الإصلاح ولكن أخيه مصر على المقاطعة والاثنان يريدان أن يذهبا إلى الحج، فهل هناك إشكال على الذي يريد الصلح ولكن الثاني مصر على عدم الإصلاح؟

الجواب: لا شيء عليه (٢٣٥).

وينبغي أيضاً تنبيه قاطع الرحم إلى ما يترتب على فعله من عقوبة الله، ومنها تعجيل الفناء وزوال النعمة. فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السّلام:

قال له أحدهم: «إنَّ أخوتي وبني عمي قد ضيقوا عليّ الدار وألجأوني منها إلى بيت ولوتكلمت أخذت ما في أيديهم، قال: فقال لي: اصبر، لأنَّ الله سيجعل لك فرجاً، قال فانصرفت ووقع الوباء في سنة إحدى وثلاثين ومائة فماتوا والله كلهم فما بقي منهم أحد، قال فخرجت فلما دخلت عليه قال ما حال أهل بيتك؟ قال: قلت له: ماتوا والله كلهم فما بقي منهم أحد، فقال: هو بما صنعوا بك وبعقوقهم وقطع رحمهم بتروا». (٢٣٦)

توضيح الحديث:

إنَّ قول الرجل «ضيقوا عليّ الدار» أي أزعجوه في بيته ولم يتركوا له راحة، أو ضيقوا عليه في حقه في السكن. وقد يُفهم أنهم كانوا يعيشون في دار واحدة.

وقوله: «وألجأوني منها إلى بيت»، فالمراد بالبيت في التعبير القديم الغرفة، أي إنهم أجبروه واضطروه إلى الانتقال إلى غرفة ضيقة.

وقوله: «ولوتكلمت أخذت ما في أيديهم»، أي لو أردت أن أتكلم وأطالب بحقي لاستطعت أن آخذ ما بأيديهم.

فقال له الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: اصبر، فإنَّ الله سيجعل لك مخرجاً.

يقول الرجل: فصبرت، وبعد مدة انتشر وباء، فماتوا جميعاً ولم يبق منهم أحد. فلما أخبرت الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بما حدث، قال: إنَّ ما أصابهم كان بسبب ظلمهم لك، وعقوقهم، وقطعهم للرحم.

وهذا يبين أن قطيعة الرحم والظلم لا يمرَّان دون عاقبة، وأن الصبر مع التزام الحق يكون عاقبته خيراً.

التبرير الخامس: الاختلاف في الفكر والرأي

من الأعدار التي يتذرع بها بعض الناس لقطع صلة الرحم الاختلاف في الفكر أو الرأي. فكثير من العلاقات العائلية تفككت بسبب خلافات سياسية أو حزبية، حتى أصبح بعض الأقارب يتجنبون بعضهم لمجرد اختلاف الموقف أو الانتماء. وقد زاد الإعلام والتحزب من حدة هذه الانقسامات، حتى امتد الخلاف أحياناً إلى داخل الأسرة الواحدة. ولا يقتصر الأمر على الاختلاف السياسي، بل قد يحدث الأمر نفسه بسبب الاختلاف الفكري أو المذهبي حتى وصل الأمر بأحد الوهابيين إلى أن أقدم على قتل أبيه! ثم ألقى بعد ذلك بجثته في شط الفرات! لا شيء إلا لأنه ألح بنهيه عن متابعة هذا الفكر الخطير والمدمر! (٢٣٧)

لكن ينبغي أن نعلم أن الاختلاف في الرأي أمر طبيعي، وكما قيل: «اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»، فلا يمكن أن يتفق الناس جميعاً في كل شيء. لكن الخطأ هو أن نجعل هذا الاختلاف سبباً لقطع الرحم، وكأن العلاقة العائلية تُبنى على الاتفاق فقط.

الدين لا يطلب منك أن توافق أقاربك في كل آرائهم، لكنه يطلب منك أن تبقى قريباً منهم وتحسن التعامل معهم، حتى لو اختلفت معهم. قال تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. (٢٣٨)

وإذا كان قريبك يخالف الحق الذي دلّ عليه القرآن وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فليس الحل أن تقاطعه، بل أن تحاوره بهدوء، وبالحكمة والموعظة الحسنة، بعيداً عن التعصب والغضب؛ لأن الشدة تنفر القلوب وتزيد الخلاف. قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. (٢٣٩)

فإن اهتدى فذلك هو المطلوب، وإن أصرَّ على رأيه، فقد أدت تكليفك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يجوز لك بعد ذلك أن تقاطعه، بل تحافظ على صلته مع الحذر من التأثر به.

ومن جهة العقل، إذا قطعت قريبك بسبب رأيه، فلن تستطيع التأثير عليه أبداً، بل سيزداد تمسكاً بما هو عليه. أما إذا بقيت على صلة به، وتكلمت معه بهدوء واحترام، فقد يتغير أو يراجع نفسه.

لذلك، كن حكيماً: الزم الحق الموافق لتعاليم محمد وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وادعُ إليه، فإن خالفك الآخرون فاحترم اختلافهم، ولا تقطع العلاقة.

المطلب الثاني: وصايا لبناء صلة رحم قوية

إن صلة الرحم لا تتحقق بمجرد التمني، بل تحتاج إلى خطوات عملية واعية تُحيي المودَّة، وتقوي الروابط، وتحمي من القطيعة، وسنطرح هذه الخطوات في صورة وصايا عبر النقاط الآتية:

١. استحضار دوافع صلة الرحم:

اجعل في ذهنك دائماً ما يحفزك على الاستمرار في صلة الرحم؛ فهي واجب شرعي، وقطيعتها من الكبائر. وتذكّر باستمرار ما ذكرناه في المبحث الثاني من المخاطر المترتبة على القطيعة، وما لصلة الرحم من منافع دنيوية وأخروية، فهي سبب لرضا الله، وطول العمر، وزيادة البركة. يضاف إلى ذلك ما أثبتته الأبحاث العلمية من أنها تمنح الإنسان راحة نفسية، إذ يخفف التواصل مع الأقارب من الضغوط ويمنحه شعوراً بالأمان، وقد أكدت الروايات أنها تطيب النفس وتحسّن الأخلاق.

٢. تقدير قيمة الأرحام في الشدائد:

تذكّر أن أقاربك المؤمنين هم أول من يقف معك عند الأزمات مادياً ومعنوياً، فالإنسان لا يعيش وحده، وأرحامه هم السند الأقرب الذي لا يُعوّض. وعند الحاجة إلى المساندة، لا يكن اختيارك لأحدهم عشوائياً، بل احرص على الرجوع إلى العاقل المؤمن، الحافظ للأسرار، القادر على النصح والإرشاد وتقديم العون.

٣. إحياء المودة بالمبادرة:

ابدأ أنت بصنع المحبة عبر الدعوات والزيارات والهدايا ومواساتهم في أفراحهم وأحزانهم، فهذه الأمور البسيطة تُلين القلوب بسرعة. جرّب وستلاحظ كيف تتحول العلاقة من جفاف إلى دفء.

٤. احرص على اللقاءات الدورية:

احرص على زيارة أرحامك، وبالأخص القريبين منهم، وفي مقدّماتهم الوالدان والأبناء والإخوة والأخوات والأجداد والجدات. ثم سائر الأقارب كالأعمام والعَمّات والأخوال والخالات وأبنائهم.

وحاول أن يكون اللقاء المباشر على فترات متقاربة لا يحصل معها انقطاع حسب القرب والحاجة ولا سيما كبار السن والمرضى والمحتاجين، فهم أحقّ بالاهتمام والسؤال.

٥. استثمار الوسائل الحديثة بذكاء:

إنّ اللقاء المباشر مع الأرحام لا تعوّضه وسائل التواصل. ولكن إذا تعذّر اللقاء المباشر لظرف، فليكن التواصل عبر الهاتف أو وسائل التواصل الاجتماعي بديلاً مؤقتاً، لا أصلاً دائماً.

فمع التطور الحديث أصبح التواصل مع الأقارب سهلاً في كل وقت، مهما بعدت المسافات. فيمكن الاطمئنان عليهم برسالة أو اتصال، ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم، بل ورؤيتهم عبر الاتصال المرئي وكأنك معهم.

٦. تجنب تضخيم الخلافات الأسرية:

كثير من القطيعة ينشأ من خلاف يسير، ثم يتفاقم بسبب العناد والإصرار. فاحرص على تهدئة الأمور قبل أن تتعقد، لأن بقاء العلاقة أهم من كسب الموقف.

ولا يجوز للمسلم أن يدعو إلى قطيعة الرحم أو يفرضها على غيره؛ فلا يحق للأب أن يمنع أولاده من صلة أرحامهم، ولا يحق للزوج أن يمنع زوجته من صلة أرحامها. كما لا يجوز لمن هم تحت ولاية الولي أن يطيعوه في المعصية، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(٢٤٠)، ومع ذلك إذا أصر الولي، فالأفضل لهم -أي لمن تحت ولايته- أداء الصلة ولو بالاقتصار على الحد الأدنى، تجنباً للمشاكل الأسرية. وإليكم استفتاء من مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظله:

السؤال: إذا كان الزوج يمنع زوجته من صلة أرحامها فهل يجوز لها الخروج لصلة الأرحام من دون إذنه؟

الجواب: يجوز لها الخروج إذا توقّف صدق صلة الرحم عليه عرفاً. (٢٤١)

أمّا إذا أمكنها أداء الصلة بوسائل أخرى، كالسؤال عبر الهاتف أو مواقع التواصل، أو بإرسال من ينوب عنها في المساعدة المادية أو المعنوية، فلا يجوز لها الخروج إلا بإذنه.

٧. الحذر من تضييع الوقت:

إنّ الانشغال المفرط بمواقع التواصل، وقضاء الساعات في اللهو والمتابعة،

يسرق وقت الإنسان دون أن يشعر، حتى يضيق وقته عن أهله وأرحامه، فتضعف العلاقات بسبب الإهمال وقلة التواصل الحقيقي.

لذا ينبغي على المسلم أن يضبط وقته، وليحدّد مواعيد واضحة لزيارة أرحامه، كأن يقرّر زيارة فلان في يوم معيّن أو أسبوع محدّد، ثم يلتزم بذلك.

٨. تقوية الوازع الديني:

كلما كان ارتباطك بالله أقوى، كانت علاقاتك أفضل وأكثر توازناً. الدين ليس عبادات فقط، بل هو منهج يعالج المشاكل ويضبط السلوك.

٩. اللين والحوار أساس الاستمرار:

اختر كلماتك بعناية، وتحدث بلطف واحترام حتى عند الاختلاف. الكلمة الطيبة تفتح القلوب، والعنف في الكلام يغلقها.

١٠. الحذر من الإعلام المفسد للعلاقات:

ينبغي الحذر الشديد مما يُطرح في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، لما له من تأثير كبير في تغيير طريقة تفكير الإنسان تجاه أهله وأقاربه. فكثير من مضامين المنشورات تروّج لفكرة حب الذات وتقدير النفس على كل شيء، وتدعو إلى قطع العلاقة عند أول خلاف، أو مقابلة الإساءة بالإساءة بدل العفو والإحسان، كما تُضعف قيمة الصبر والتسامح، حتى تبدو القطيعة أمراً مبرراً ومقبولاً في نظر الإنسان.

ومع تكرار هذه الأفكار، يتأثر الإنسان بها تدريجياً دون أن يشعر، فيبدأ بالابتعاد عن أرحامه، ويقسو قلبه تجاههم، ويظن أنه يحافظ على كرامته، بينما هو في الحقيقة يفرط بواجب عظيم. وقد حذر الإمام الجواد عليه السلام بقوله: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس»^(٢٤٢)، لأن الاستماع

المستمر يجعل الإنسان يتبع هذه الأفكار ويتأثر بها. (٢٤٣)

المبحث الخامس: صلة آل محمد من المفهوم إلى التطبيق

المطلب الأول: غاية الصلة صلة آل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

نقف في هذا المطلب عند أسمى مراتب صلة الرحم وأعظم مصاديقها، لتتعرف على من قدّمهم الشارع المقدّس وجعل لهم الأولوية في هذه الصلة. فهل هم أرحامنا النسبيون كآبائنا وأمّهاتنا وأجدادنا، وإخواننا وأخواتنا، وأبنائنا؟ أم أن هناك امتداداً أعمق وأشرف لهذا المفهوم، يتجاوز حدود النسب المادي ليشمل رابطة أعظم وأبقى؟

عند التأمل والتدبر الدقيق في الآيات الكريمة يتبين بُعداً أوسع، حيث تشير النصوص إلى نوع آخر من الصلة، وهي الصلة المعنوية التي تتمثل في الارتباط بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فصلة الرحم في المنظور القرآني والروائي لا تنحصر في دائرة النسب، بل تمتد لتشمل رحماً أعظم قدرًا، وأرفع منزلة، وهم محمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ويؤيد ذلك النصوص الشرعية الآتية:

◆ رُوي عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: «نزلت في رحم آل محمد وقد يكون في قرابتك»، ثم قال: ولا تكونن ممن يقول في الشيء إنه في شيء واحد». (٢٤٤)

◆ رُوي عن عمران بن مريم قال: سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: (من ذلك صلة الرحم، وغاية تأويلها صلتك إيانا). (٢٤٥)

♦ رُوي عن محمد بن الفضيل قال: سمعت العبد الصالح يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: (هي رحم آل محمد معلقة بالعرش تقول: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني، وهي تجري في كل رحم). (٢٤٦)

وهذا البيان الشريف يكشف بوضوح أن صلة الرحم لها مستويان: مستوى نسبي يشمل الأقارب من جهة النسب، ومستوى أعلى وأشرف يتمثل في صلة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، دون أن يلغى أحدهما الآخر، بل يجتمعان في منظومة واحدة من الطاعة والقرب إلى الله تعالى.

ونريد في هذا المطلب أن نطرح السؤال الآتي:

لماذا تؤكد الشريعة بشدة على صلة رحم محمد وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟

الجواب:

١. لأن محمد وآله بمنزلة آبائنا الحقيقيين، رُوي عن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: أنا وعلي بن أبي طالب أبوا هذه الأمة، ولحقنا عليهم أعظم من حق والديهم، فإننا ننقذهم إن أطاعونا من النار إلى دار القرار، ونلحقهم من العبودية بخيار الأحرار». (٢٤٧)

٢. لأن صلتنا لرحم أهل البيت هي أجر رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الله تعالى جعل محبة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مقابلاً لجهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في هداية الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٢٤٨)، فحين نصلهم ونحبهم نكون قد أدينا جزءاً من شكر هذه النعمة العظيمة بطريقة بسيطة وواضحة.

قال الحسين بن علي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «من أثر طاعة أبوي دينه محمد وعلي علي طاعة أبوي نسبه قال الله عز وجل له: لأوثرك كما أثمرني، ولأشرفك بحضرة

أبوي دينك كما شرفت نفسك بإيثار حبهما على حب أبوي نسبك». (٢٤٩)

٣. لأن صلتنا لهم هي الطريق الصحيح للدين وقدوته العملية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم الذين يبينون الدين كما أراده الله، وهم القدوة الكاملة في تطبيقه، لأنهم مطهرون معصومون، فحياتهم مليئة بالصبر والعفو والعدل. ومن يرتبط بهم يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويتعلم كيف يطبقه في سلوكه وأخلاقه، ومن ذلك التزامه بصلة أرحامه النسبيين، لأن صلتهم تعني طاعتهم والعمل بتعاليمهم، وفي مقدمتها صلة الرحم التي أمر الله بها.

وقال الحسن بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «محمد وعلي أبوا هذه الأمة، فطوبى لمن كان بحقهما عارفاً، ولهما في كل أحواله مطيعاً، يجعله الله من أفضل سكان جنانه ويسعده بكراماته ورضوانه». (٢٥٠)

٤. لأن صلتهم تحفظ الإنسان من الانحراف . عندما يكون الإنسان قريباً منهم فكرياً وقلبياً، فإنه يتعد عن الأفكار الخاطئة، لأنهم الميزان الذي يميّز به الحق من الباطل.

رُوي عن فاطمة عَلَيْهِهَا السَّلَامُ أنها قالت لبعض النساء: «أرضي أبوي دينك محمداً وعلياً بسخط أبوي نسبك، ولا ترضي أبوي نسبك بسخط أبوي دينك، فإن أبوي نسبك إن سخطا أرضاهما محمد وعلي بثواب جزء من ألف ألف جزء من ساعة من طاعاتهما، وإن أبوي دينك إن سخطا لم يقدر أبوا نسبك أن يرضياهما، لان ثواب طاعات أهل الدنيا كلهم لا تفي بسخطهما». (٢٥١)

٥. لأن صلتهم تقرب إلى الله وهي طريق النجاة والسعادة. فصلة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليست مجرد علاقة عاطفية، بل هي طريق عملي للتقرب إلى الله من خلال محبتهم واتباعهم.

قال محمد بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «من أرد أن يعلم كيف قدره عند الله فليُنظر كيف قدر أبويه الأفضلين عنده: محمد وعلي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ». (٢٥٢)

وأن التمسك بهم طريق للنجاة، لأنهم يدلّون الإنسان على الطريق الصحيح الذي يوصله إلى رضا الله وسعادة الدنيا والآخرة.

رُوي أن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ قالت: «أبوا هذه الأمة محمد وعلي، يقيمان أودهم، وينقذانهم من العذاب الدائم إن أطاعوهما ويبيحانهم النعيم الدائم إن وافقوهما». (٢٥٣)

المطلب الثاني: مسلم بن عقيل النموذج الأمثل لصلة الرحم

السؤال الأخير والمهم الذي وجب أن نطرحه في هذه المحاضرة هو:

كيف نصل رحم آل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟

الجواب:

تكون صلة رحم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمحبتهم الصادقة، ومعرفتهم حق المعرفة، وإحياء ذكرهم وسيرتهم في القلوب والمجالس.

وأيضاً بالإحسان إلى ذريتهم، ولا سيما المحتاجين منهم، وذلك بدفع الحقوق الشرعية كالخمس، إذ إن الصدقة محرمة عليهم، فيكون الخمس مورد إعانتهم، وبذلك تتحقق صلتهم عملياً بالوفاء بحقهم ورعاية شأنهم.

كما تتحقق صلة رحم آل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ باتباعهم في العقيدة والعمل والأخلاق، والالتزام بطاعتهم المطلقة وبتعاليمهم في الحياة اليومية والسير على نهجهم والافتداء بهم في كل شؤونهم.

إن صلة محمد وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تتحقق بمجرد الانتساب أو المشاعر،

بل تقوم على الولاء الصادق والطاعة العملية ونصرة الحق، وقد تجلّى هذا المعنى بأبهى صورة في سيرة مسلم بن عقيل، ابن عمّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث اجتمعت في شخصه صلة النسب مع أسمى مراتب الصلة المعنوية.

فتذكر كتب السيرة والتاريخ أنه بعد هلاك معاوية وسعي يزيد إلى أخذ البيعة من الناس ولوقهراً، رفض الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، وغادر المدينة إلى مكة، فاهتزت قلوب أهل الكوفة، وتتابعت رسائلهم معلنة استعدادها لنصرته.

وعندها اختار الإمام مسلماً سفيراً عنه، لما عُرف به من صدق وثبات، ليتثبت من حال أهل الكوفة، وينقل له حقيقة موقفهم، ويدعوهم إلى بيعته، ويأخذ البيعة له إن وجدهم ثابتين على نصرته، فحمل أمانة الرسالة، ومضى نحو الكوفة بعزم راسخ، مجسّداً أرقى معاني صلة الرحم القائمة على الوفاء والتضحية في سبيل الحق حتى وصل إلى الكوفة في اليوم الخامس من شهر شَوَّال سنة ستين للهجرة.

إنّ وصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة لم يكن حدثاً عابراً، بل كان لحظة مفصلية في مسار نهضة الإمام الحسين بن علي، إذ مثل هذا الوصول بداية الاختبار الحقيقي لصدق دعوى أهل الكوفة ووفائهم لعهودهم. فقد جاء مسلم رسولاً أميناً، يحمل رسالة الحق، ويستطلع واقع القوم الذين أغرقوا الإمام بالكتب والوعود، طالبين قدومه لنصرته.

نزل مسلم بدايةً في بيوتِ أمنة، متنقلاً بحكمة بين دار المختار ثم دار هاني بن عروة، ملتزماً بتوجيه الإمام له بالكتمان والرفق، فباشر مهمته بأسلوب سرّي دقيق، يجمع الناس على البيعة، ويقرأ عليهم كتاب الإمام، فتفيض أعينهم بالبكاء، وتتحرك عواطفهم نحو النصر. حتى بلغ عدد

المبايعين ثمانية عشر ألفاً، في مشهد يوحى بتهيؤ الكوفة لاستقبال الحق، لكن هذا العدد - على ضخامته - لم يكن يعكس بالضرورة استعداداً حقيقياً للتضحية، بل كان في جانبٍ كبيرٍ منه تعبيراً عاطفياً لا يصاحبه ثبات عملي. لقد كانت مهمة مسلم أعمق من مجرد جمع البيعة؛ فقد كان مأذوناً بالتحرك، وإعداد الأرضية للثورة، بل وربما المبادرة قبل قدوم الإمام، إلا أن الواقع كشف أن البناء الإيماني والوعي الجهادي لم يكن مكتملاً لدى جمهور الناس.

فبينما أعلن كثيرون محبتهم، لم يُبدِ الاستعداد الصادق للتضحية إلا القليل، لأن مواجهة السلطة الأموية كانت تحتاج إلى نفوس واعية، ثابتة، لا تهتز أمام التهديد والترهيب. ومع دخول عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، تغير المشهد سريعاً، إذ فعل جهاز القمع، وأطلق سياسة التخويف والتجسس، واستعمل العرفاء لإحكام السيطرة على الناس، فانتشر الرعب، وتفرق الجمع، وانكشف ضعف الالتزام عند أكثر من بايع.

وهنا بدأت رحلة مسلم تتحول من مرحلة الأمل الظاهر إلى مرحلة الغربة والخذلان^(٢٥٤).

ومن يتأمل هذا المشهد منذ لحظة وصوله في الخامس من شوال، يدرك أن مسيرته كانت تسير - بعلم الإمام - نحو خاتمة عظيمة، هي الشهادة. فقد دخل مسلم الكوفة محاطاً بالأمال، وخرج منها وحيداً إلا من إيمانه، ثابتاً على عهده، لم يتراجع رغم الانهيار الجماهيري من حوله، حتى ختم حياته شهيداً، مجسداً أصدق معاني الوفاء.

فَسَلَامٌ عَلَىٰ مُسْلِمٍ بِنِ عَقِيلٍ حِينَ وُلِدَ وَحِينَ اسْتُشْهِدَ وَحِينَ يُبْعَثُ حَيًّا

(مجردات)

وين الذي يوصل اهل حين لرض المدينة أو يخبر احسين
مسلم وحيد أو ماله امعين ودارت عليه الغوم صوبين

كتفوه أو ظل ايدير بالعين

(نصاري)

يمسلم ريت لن هاشم زلمها تجي أو يخفج على راسك علمها
لاچن حيف ما واحد علمها وحيد انت أو غريب ادير العيون
قليل بكائي على ابن عقيل وإن سال دمعي كل مسيل
سأبكيك ما عشت في أدمع بطرف على الدمع غير بخيل^(٢٥٥)

السَّلَامُ عَلَيْكَ
يَا سَفِيرَ الْحَسَنِاتِ
الشُّرُوفِ





ه شَوَّال

تَوَجُّهُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى صِفِّينَ لِمَوَاجِرَةِ مُعَاوِيَةَ

أَمْرُهُ أَنْ عَلَيًّا وَوَلِيَّ اللَّهِ

الْمُنَاسِبَةُ:

تَوَجُّهُ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَفِّينَ

القصيدة للشاعر: السيد حسين بركة الشامي

وأزْمَعُوا السَّيْرَ إِلَى «صَفِّينَ»
 وَالطَّهْرِ وَالنَّقَاءِ وَالْكَرَامَةِ
 وَابْتَدَأُوا بِالْغِيِّ وَالتَّعَدِّيِّ
 وَهُمْ لِعَمْرِي أُمَّةٌ مُجْتَمِعَةٌ
 مِنْ «أَشْتَرِ» الْحَرْبِ وَمِنْ «عَمَّارِ»
 كَتَبِيَّةٌ تَحْدُو بِهَا كَتِيبَهُ
 وَعَسَكُرُوا هُنَاكَ غَاضِبِينَ
 اضْحَى لَدَى الطَّغْمَةِ وَالْعَتَاةِ
 كَيْمَا يَمُوتُوا عِنْدَهُ ظَمَاءُ
 بِكَثْرَةِ السِّيُوفِ وَالْإِبْطَالِ
 «وَسَعْدُ بَيْنَ قَيْسٍ» ذَاكَ الْقَسُورُ
 وَابْتَسَمَ «الْفَرَاتُ» لِلْإِمَامِ
 صَدَّتْ بِهَا الْقَبِيلَةُ الْقَبِيلَةَ
 وَتَعَبَتْ فِي قَبْضِهَا الْمَنَايَا
 يَجَالِدُ الْأَبْطَالَ وَالْفَرَسَانَ
 أَعَزَّةٌ وَقَادَةُ أَبْطَالُ
 وَبَعْدَهُمْ «مَحْمُودُ بْنُ حَيْدَرٍ»
 وَقَدْ تَحْدُوا مَا يَخْبِيُّ أَرْدَى
 وَكُلَّ يَوْمٍ تَسْتَزِيدُ شِدَّةً

فَقَدْ تَجَمَّعُوا لِحَرْبِ الدِّينِ
 يَنْوُونَ قَتْلَ مَعْدِنِ الْإِمَامَةِ
 وَكَاتَبُوا الْإِمَامَ بِالتَّحْدِيِّ
 فَجَمَعَ الْإِمَامُ مَنْ كَانَ مَعَهُ
 أَوْلَئِكَ الْأَعْلَامُ فِي الْمَسَارِ
 تَوَثَّبُوا لِوَقْعَةٍ رَهَيْبَةٍ
 حَتَّى إِذَا مَا وَصَلُوا «صَفِّينَا»
 فَفُوجئُوا بِشَاطِئِ الْفِرَاتِ
 وَمَنْعَوْهُمْ يَوْمَ ذَاكَ الْمَاءِ
 فَكَّرَ جَيْشُ اللَّهِ لَا يُبَالِي
 يَقْدَمُهُمْ «أَشْعَثُهَا» وَالْأَشْتَرُ
 فَانْكَشَفَتْ زَمْرَةٌ أَهْلَ الشَّامِ
 وَاحْتَدَمَتْ مَعْرَكَةٌ طَوِيلَةٌ
 وَكَثُرَتْ بِنَارِهَا الضَّحَايَا
 وَحِيدَرٌ يَقُودُهَا غَضْبَانَا
 وَحَوْلَهُ مِنْ هَاشِمِ رَجَالِ
 «الْحَسَنَانَ» الطَّهْرُ «وَابْنُ جَعْفَرٍ»
 قَدْ أَوْدُوا الْحَرْبَ بِوَقْفَةِ الْفِدَا
 مَعْرَكَةٌ طَالِبَتْ هَوْرًا عَدَّهُ

المُحَاضِرَةُ الخَامِسَةُ الاسْتِعَاذَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٥٦).

من الحقائق العقائدية التي ينبغي للمسلم أن يوقن بها وجود الشيطان، وأن له دورًا في إغواء الإنسان ومحاولة إبعاده عن طريق الله.

وقد نبهنا الله تعالى إلى عداوة الشيطان، وصرّح بها بوضوح قائلاً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (٢٥٧)، ولأنه يسعى إلى إفساد حياة الإنسان، كما قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ...﴾ (٢٥٨).

إن الحديث عن الشيطان ليس أمرًا ثانويًا، بل له أثر عملي في حياة الإنسان. فلو أخبرك شخص صادق أن مجموعة من اللصوص المسلحين يخططون لاقتحام بيتك هذه الليلة، فإن أول ما تفعله هو أن تبادر إلى حماية نفسك وأهلك، فتغلق الأبواب، وتبحث عن وسائل الدفاع، وتتهيأ للخطر.

أما إن انشغلت بأسئلة لا تنفع، كأن تسأل: من أين جاءوا، وما هو لباسهم؟ وما هي أشكالهم، شيوخ هم أم شباب....؟، فسيباغتك الخطر قبل أن تستعد له. ومن هنا، فإن البحث في هذا الموضوع ينبغي أن يركّز على ما ينفع الإنسان عمليًا، من بيان مفهوم الشيطان وطرائق إغوائه، وسبل النجاة منه، وهذا ما سنتناوله في مباحث هذه المحاضرة.

المبحث الأول: حقيقة الشيطان وطرائق إغوائه

المطلب الأول: مفهوم الشيطان وأقسامه

نسعى في هذا المطلب إلى التعرف على حقيقة الشيطان وإبليس، اعتماداً على ما ورد في النصوص الشرعية؛ إذ إن هذا العالم من الغيب الذي لا يُدرك بالحس المباشر، وإنما يُعرف من خلال الوحي الصادق.

أما من حيث المفهوم اللغوي، فإن لفظ «الشيطان»: من «شطن يشطن» أي بُعد يبعد. والشيطان: أي الموجود البعيد عن رحمة الله عز وجل^(٢٥٩). ويُستعمل في القرآن واللغة لكل من يقوم بالإغواء والإضلال، وعلى كل مُتمرّدٍ سواءً كان إنساناً أو حيواناً أو جاناً^(٢٦٠).

وللشيطان أسماء كثيرة، منها اللعين والرجيم، والغاوي والغرور، ويمكن تسميته بالشحاذ المتسول، لأنه يقف على باب القلب يستعطف، ويقرعه برفق ولين طالباً الإذن بالدخول... فإذا أبطأت عليه تضرع وتملق بكلمات معسولة^(٢٦١).

ولقد قسّم القرآن الشياطين إلى قسمين لقوله تعالى: ﴿شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(٢٦٢)، ويمكن توضيحهما بالآتي:

أولاً: شياطين الجن:

شيطان الجن كائن من عالم الجن، وكما هو معلوم أن الجنّ مكلفون كالشعر، خلّقوا لعبادة الله تعالى والانقياد لأوامره، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢٦٣). وبما أنّهم مكلفون، فقد انقسموا - كالإنس - إلى صنفين: مؤمنين صالحين، وكافرين منحرفين، قال تعالى على لسانهم:

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ (٢٦٤)، وقالوا: ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ (٢٦٥).

وأما الشياطين فهم فئة خاصّة من الجنّ الكافرين، تميّزوا بشدّة التمرد والإفساد والسعي إلى إضلال الآخرين؛ فكلّ شيطان هو جنّي كافر مضلّ، ولكن ليس كلّ جنّي كافر يُوصَف بالشیطان، بل من بلغ في الشرّ والفساد حدّاً صار معه عنواناً للشيطنة.

والجن مخلوقون من نار، كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ (٢٦٦)، وهو كائن لطيف أي خفيف، غير كثيف، لا يرى عادةً بالعين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٢٦٧). ولذا له نوع من الخفاء، فهم مستورون عن الإنسان في الأحوال الاعتيادية. أي أن الشيطان يختلف عن كثافة الجسد الإنساني المخلوق من العناصر الأربعة: الماء والنار والهواء والتراب، إلا أن عنصر التراب فيه أقوى وأكثر من العناصر الثلاثة الأخرى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٦٨)، لذلك فهو ثقيل وله وزن، وبسبب هذا الجانب الترابي فيه فإن إدراكاته وأفعاله محدودة جداً.

أما الشياطين فعلى العكس من ذلك، فإن جانب النار والهواء فيها غالب، وبنيانهم الجسمي في منتهى اللطافة (٢٦٩)، وفي منتهى القوة. والإنسان يتصور أنه قادر، لكن قدرة الشياطين تصل إلى درجة أنهم يمكنهم تصغير أجسامهم بحيث يمرون من خلال الثقب، أو يمكنهم تكبيره ليشغل مكاناً واسعاً، والمسافة التي يمكن للإنسان اجتيازها خلال شهر واحد تقطعها الشياطين في لحظة واحدة، والأشياء الثقيلة التي لا يقدر الإنسان على رفعها فإن الشياطين يستطيعون رفعها. وقد أشار الله عز وجل في سورة النمل ضمن قصة سليمان وعرش بلقيس إلى هذا المطلب قائلاً: ﴿ قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنْ

الْجِنُّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٧٠﴾. (٢٧١)

(ويظهر في بعض الروايات أن إبليس له القدرة على الظهور بهيئة إنسان أو حيوان في الأقسام السابقة واللاحقة. ففي أمالي الشيخ الطوسي^(٢٧٢): أن إبليس تمثّل بصورة حبر من أحبار اليهود. وذكر ابن شهر آشوب في مناقبه^(٢٧٣): أن إبليس تصور لعلي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو قائم يصلي في صورة أفعى له عشرة رؤوس محددة الأنياب. والروايات بهذا المضمون من ظهور إبليس كثيرة)^(٢٧٤).

وفيما يتعلق بالذرية فالنصوص الشرعية أثبتت بأن لشياطين الجن ذرية وأفراد عديدون قد يفوقون البشر عدداً^(٢٧٥). قال تعالى: ﴿أَفْتَتَخِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾^(٢٧٦)، ولكن من أشهرهم هو «إبليس» فهو أحد مصاديق الشياطين المنتمي إلى عالم الجن من حيث الطبيعة والخلق، فكلاهما -إبليس والجن- مخلوق من النار، قال تعالى في شأن إبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَن تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٢٧٧).

ولقد بدأت قصة إبليس حين خلقه الله من النار، كما قال تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٢٧٨)، وكان يعيش بين الملائكة ويعبد الله، لكنه لم يكن منهم، بل كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٢٧٩).

فلما خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمر الملائكة بالسجود له تكريماً، فامتثلوا جميعاً لأمر الله، إلا إبليس أبى واستكبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾^(٢٨٠) وكان سبب رفضه هو الكبر والحسد واعتراضه على أمر الله.

وبسبب هذا التمرد، طرده الله من رحمته ولعنه إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٨١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢٨١).

ورد في الروايات أنه طلب جزاء عبادته لله، فقال: إلهي إني عبدتك ستة آلاف سنة من عبادتك، ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢٨٢)!

فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (٢٨٣) والطلب الآخر أن تعطيني القدرة لأتمكن من الوسوسة وإلقاء الشبهة، واستجيب له هذا الطلب طبقاً لما فيه من الصالح والحكم أيضاً.

ثم بدأت أولى خطوات إغوائه عندما وسوس لآدم وزوجه في الجنة، وزين لهما الأكل من الشجرة، كما قال تعالى: [فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ] (٢٨٤)، حتى أوقعهما في المخالفة، فكانت النتيجة خروجهما من الجنة، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ (٢٨٥)، ومنذ ذلك الحين بدأ دور الشيطان في إغواء البشر.

ثانياً: شياطين الإنس:

القسم الثاني من الشياطين هو شياطين الإنس. فرغم أنهم بشر مخلوقون من طين، وليسوا من النار، ولا يملكون تلك القدرات التي للجن، إلا أن القرآن الكريم أطلق عليهم وصف «الشياطين»، بدليل قوله تعالى:

١. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (٢٨٦).

٢. ﴿إِنَّ الْمُبَدَّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (٢٨٧).

٣. ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (٢٨٨).

فلاحظ في هذه الآيات أن الله عز وجل سمى المنافقين، ومن يؤذون الناس، وخصوصاً أعداء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مع كونهم من الإنس، شياطين. وذلك لأنهم استحقوا هذا الوصف بسبب أفعالهم، إذ إن كلمة «شيطان»

ليست اسم جنس لمخلوق، بل هي وصف لكل متمرد مضل، سواء كان من الجن أو من الإنس.

فالإنسان يُوصف بأنه شيطان إذا صار داعيةً إلى الضلال والإفساد، فيزيّن الباطل للناس، أو يصدّ عن الحق، أو يحارب الدين وأهله. كما يُوصف بذلك إذا استمرّ في التمرد والانحراف حتى صار ذلك صفةً راسخةً فيه، لا مجرد ذنب عابر، بل سلوك ثابت قائم على الإغواء والإضلال.

المطلب الثاني: تساؤلات عقديّة حول الشيطان وتحليلها

تُثار حول موضوع الشيطان تساؤلات متعددة في أذهان الناس، تتعلّق بحقيقته، وتأثيره، وعلاقته بالإنسان، وقد اخترنا من بينها خمس تساؤلات رئيسة، نعرضها فيما يأتي مع تحليلها والإجابة عنها.

السؤال الأول: يعتقد بعض الناس أن وجود الشيطان، مع قوّته وخفائه وقدرته على الوسوسة، يُعدّ تسلّطاً على الإنسان ويتنافى مع عدالة الله تعالى، فكيف يفهم ذلك؟

الجواب:

١. الشيطان غير مسلّط بالقهر:

الشيطان ليس قوّة تُجبر الإنسان على المعصية، بل يقتصر دوره على الدعوة والتزيين فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(٢٨٩)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢٩٠). فهو لا يسلب الإرادة ولا يكره أحداً، وإنما يزيّن الخطأ حتى يختاره الإنسان بنفسه. ولهذا لا يصح للإنسان أن يحتجّ به يوم القيامة،

لأن الطريق قد بُيِّنَ له، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٩١). فالمشكلة ليست في وجود الشيطان، بل في الاستجابة له، ولذلك تبقى المسؤولية على الإنسان.

ولتقريب الصورة: لو جاءك أحد أصدقائك وهمس في أذنك قائلاً: «اذهب واضرب فلاناً»، فهل يكون قد أجبرك على ذلك؟ بالطبع لا، بل أنت الذي اخترت الفعل.

حتى لو ظننته صديقاً موثقاً، فقد سبق أن حُدِّرت منه، وكان بإمكانك أن ترفض كلامه. وكذلك الشيطان، فقد حُدِّرنا الله منه بوضوح، فقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (٢٩٢).

٢. الله لم يترك الإنسان ضعيفاً أمام الشيطان:

بل زوّده بوسائل أقوى منه، تُعينه على الثبات والانتصار:

◇ العقل والفطرة: يميّزهما الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (٢٩٣). وهذا يجعل الإنسان يشعر داخلياً بصواب الطاعة وخطر المعصية، فيكون لديه رادع ذاتي يوقظه عند الانحراف.

◇ الأنبياء والكتب: لبيان طريق الحق والتحذير من الشيطان. فلم يترك الله الإنسان يتخبط، بل أرسل له من يرشده ويكشف له أساليب العدو وطرق النجاة منه.

◇ الإمداد الغيبي: من خلال الملائكة التي تعينه وتثبتته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ (٢٩٤)، وهذا يظهر في خواطر الخير والتثبيت التي ترد على قلب المؤمن فتدفعه نحو الطاعة وتبعده عن الزلل.

◇ تيسير طريق الخير: بمضاعفة الحسنات، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (٢٩٥). فالله يشجع عباده على الطاعة بجعل الربح فيها عظيمًا، مما يقوي جانب الخير في مواجهة وسوسة الشيطان.

◇ فتح باب التوبة: مهما عظم الذنب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (٢٩٦)، فلا يُغلق باب الرجوع أبدًا، مما يمنع الشيطان من أن يحاصر الإنسان باليأس بعد السقوط.

إذن ليس الإنسان محاصرًا بالشيطان فقط، بل محاط بأسباب الهداية من كل جانب.

٣. الحكمة من وجود الشيطان:

لم يُخلق الشيطان عبثًا، بل لحِكْمٍ واضحة تظهر عند التأمل، منها:

◇ تحقيق الاختيار الحقيقي للإنسان: لو لم يوجد من يدعو إلى الشر، لसार الإنسان في طريق واحد دون مقاومة، فلا يكون لاختياره قيمة. أمّا مع وجود الشيطان، فإنه يسمع دعوة إلى الخير وأخرى إلى الشر، ثم يختار بنفسه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (٢٩٧).

◇ تمييز الصادق من غيره: ليس كل من يقول: أنا مؤمن يكون صادقًا، بل يظهر صدقه عند مواجهة الشهوة أو الشبهة، كما قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢٩٨)، فالشيطان يكشف حقيقة الإنسان عند الامتحان.

◇ إظهار عدل الله في الجزاء: لا يصح أن يُثاب أو يُعاقب الإنسان بلا اختبار،

فوجود الشيطان يجعل الإنسان يختار ويجرب، ثم يُجازى على عمله بعدل، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيََ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ (٢٩٩).

◇ ارتقاء الإنسان وكماله: مقاومة الشيطان ليست ضعفاً، بل هي جهاد يرفع الإنسان، فترك المعصية مع القدرة عليها دليل قوة وقرب من الله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٣٠٠).

السؤال الثاني: بما أن القرآن الكريم يثبت وجود الشيطان، فلماذا لا نراه؟

الجواب: إن الإنسان لا يرى الشيطان، لا لأنه غير موجود، بل لأن طبيعة حواسه لا تؤهله لرؤية كل شيء. فالعين البشرية خلقت لإدراك الأجسام المادية الكثيفة، ولا تستطيع أن تبصر الموجودات اللطيفة غير المرئية، كالهواء الذي يحيط بنا ونعيش به دون أن نراه. ولهذا يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة بوضوح، فيقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٣٠١)، أي أن الشيطان يرى الإنسان، بينما لا يراه الإنسان بسبب اختلاف الطبيعة.

ومع ذلك، فإن عدم رؤيته في الحالة الطبيعية لا يعني استحالة ظهوره مطلقاً؛ فقد تشير النصوص إلى أن الشيطان قد يتجسّد أحياناً في صورة مادية يراها الإنسان، وقد حصل ذلك لبعض الأنبياء والصالحين بإذن الله. كما أن هناك مرتبة من اليقين يبلغها الإنسان، تنكشف له فيها حقائق لا يراها غيره، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٣٠٢).

ولا يصح أن يُجعل عدم الرؤية دليلاً على عدم الوجود؛ فكم من أمور نؤمن بها مع أننا لا نراها، ولكن نعرفها من خلال آثارها، كالهواء والقوى الخفية، كالجاذبية الأرضية التي تمسكنا بالأرض، والترددات التي تنتقل عبرها المكالمات بين الهواتف، وسريان الكهرباء في الأسلاك، مع أننا لا نبصر

شيئاً من ذلك، ولكن آثارها قائمة لا تُنكر.

وكذلك الشيطان، فإن وجوده يُدرك من خلال نتائجه في النفس والسلوك؛ إذ يظهر أثره في الوسوسة الخفية التي يلقيها في قلب الإنسان، فيزيّن له المعصية ويُخفّفها في نظره، ويؤجّل التوبة، ويزرع التردد والكسل عن الطاعة.. إلخ.

السؤال الثالث: ورد في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٣٠٣) فهي تبين مشاركة الشيطان للإنس في المال والولد، فكيف ذلك؟

الجواب:

لا يُراد من قوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أن الشيطان يشارك الإنسان مشاركة حقيقية في الخِلقَة أو التكوين، بل المراد مشاركته له في الاستعمال والنتيجة، أي أن يكون للشيطان نصيب في توجيه المال أو تربية الولد نحو الحرام والانحراف.

فمشاركته في الأموال تكون حين يُكتسب المال من طريق غير مشروع، كالسرقة أو الربا، أو يُكتسب من الحلال ثم يُنْفَق في الحرام، كصرفه في المعاصي، ففي هذه الحال يكون الإنسان منتفعًا بالمال، والشيطان منتفعًا بإضلاله، فيشتركان في النتيجة وإن لم يشتركا في أصل المال.

وأما مشاركته في الأولاد، فلا تعني أنه يساهم في خلقهم، بل تكون على نحوين:

إما: أولاد الزنا الذين انعقدت نطفهم في جو شيطاني من الهوى والرذيلة، فيكون للشيطان نصيب في وقوع هذا الفساد، أو يكون الولد من طريق صحيح، لكن يُربى تربية منحرفة بعيدة عن طاعة الله، فينشأ على المعصية

والضلال، فيكون للشيطان سهم في هذه التربة الفاسدة.

السؤال الرابع: كيف يُعذَّب اللهُ إبليس يوم القيامة بالنار وهو مخلوق منها؟

الجواب نختصره بهاتين النقطتين:

١. إن طبيعة نار الآخرة ليست بالضرورة مماثلة لنار الدنيا التي نألها، فنحن لا نحيط بحقيقتها على وجه الدقة، بل نعلم من النصوص أنها تختلف في آثارها وقوانينها. فالنار في الدنيا تحرق وقد تُميت، أما نار الآخرة فتحرق دون أن تُميت، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (٣٠٤)، وهي أشد حرارة، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ (٣٠٥). وهذا يدل على أن قوانين الآخرة تختلف عن قوانين الدنيا، كما تختلف فيها سائر شؤون الحياة، فليس كل ما نعده هنا يجري هناك على نفس الصورة.

٢. ثم إن كون الشيطان مخلوقًا من النار لا يعني أنه لا يتأثر بها أو لا يُعذَّب بها؛ فالإنسان خلق من طين، ومع ذلك يتألم إذا ضرب بالطين أو الحجارة، وقد عذَّب اللهُ أقوامًا بالحجارة، مع أنها من جنس ما خلقوا منه. رُوي أن بهلول المعروف بالمجنون سمع أبا حنيفة يقول: إن جعفر بن محمد يقول بثلاثة أشياء لا أرتضيها، يقول: الشيطان يعذب بالنار كيف وهو من النار؟ ويقول: إن الله لا يرى ولا تصح عليه الرؤية، وكيف لا تصح الرؤية على موجود؟ ويقول: إن العبد هو الفاعل لفعله، والنصوص بخلافه.

فأخذ البهلول حجرًا وضربه به، فأوجعه! فذهب أبو حنيفة إلى هارون واستحضروا البهلول ووبخوه على ذلك. فقال لأبي حنيفة: أرني الوجد الذي تدعيه أو لا فأنت كاذب. وأيضا فأنت من تراب كيف تأملت من تراب؟

ثم ما الذي أذنبته إليك؟ والفاعل ليس هو العبد، بل الله! فسكت أبو حنيفة.... وقام خجلاً» (٣٠٦).

المطلب الثالث: شباك الشيطان (آليات الإغواء)

إنَّ الشيطان لا يواجه الإنسان مواجهةً مباشرة، بل يعتمد في إضلاله على وسائل خفية وأساليب متعدّدة تختلف باختلاف حال الناس؛ فبعضهم يحتاج إلى جهدٍ كبير ليُغوى، وبعضهم يكتفي بتلميحٍ يسير ليقع في الخطأ. وهذه الحقيقة تكشف لنا أن للشيطان شباكاً متنوعاً يصطاد بها القلوب والعقول.

نُقل عن أحد تلامذة الشيخ الأنصاري -عليه الرحمة- أنه عندما تشرفت بالمجيء إلى النجف الأشرف لطلب العلم، وحضرت درس الشيخ الأنصاري الملائكي، رأيت الشيطان في إحدى الليالي وبيده حبال كثيرة، ومن بينها حبل متين، فسأله:

ما هذه؟ فأجاب بأني أجرت الناس إليّ بواسطة وأدفعهم إلى المعصية، فسأله: لأي شيء هذا الحبل المتين؟ فقال: إنه لأستاذك الشيخ الأنصاري، حيث سحبتة بالأمس إلى السوق، ولكنه قطعه ورجع. فسأله: وأين الحبل المخصص لي؟ فأجاب: أنت لا تحتاج إلى الحبل لأنك تطيع بمجرد الإشارة (٣٠٧).

وإليكم أبرز الشبّاك التي ينصبها الشيطان لاصطياد الإنسان:

١. التزيين

التزيين من أخفى شباك الشيطان وأشدّها خطراً؛ لأنه لا يدفع الإنسان إلى المعصية بوصفها قبيحة، بل يعرضها عليه في صورة محببة ومقبولة. فالمشكلة

الكبرى ليست دائماً في معرفة الحرام، بل في أن الشيطان يغيّر صورتها في النفس حتى يبدو معقولاً أو بسيطاً أو حتى مستحباً أحياناً.

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٣٠٨)، أي أنه لم يخلق الفعل، لكنه حسّنه في أنظارهم، حتى أقبلوا عليه باختيارهم. وهذا التزيين قد يكون بتغيير الاسم، أو بتجميل الدافع، أو بإخفاء العاقبة، أو بإبراز اللذة العاجلة وإغفال الألم الآجل.

فقد يزيّن الكذب باسم المصلحة، ويزيّن الغيبة باسم الصراحة، ويزيّن التبرج باسم الذوق، ويزيّن التكبر باسم الكرامة، ويزيّن البخل باسم الحكمة الاقتصادية. ولهذا كان المؤمن محتاجاً دائماً إلى ميزان الشرع والعقل، لا إلى مجرد ما تميل إليه نفسه.

الوقاية: عرض الأعمال على ميزان الشرع لا على ما تستحسنه النفس، وعدم الاغترار بما يبدو جميلاً في الظاهر، مع التفكّر في العواقب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٣٠٩).

٢. التسويف

التسويف شبكة خطيرة؛ لأنه لا يدعو الإنسان إلى رفض الطاعة صراحة، بل يدعو إلى تأجيلها. والإنسان قد يظن أن التأجيل أمرهين، لكنه في الحقيقة من أنجح خطط الشيطان؛ لأن من أخر التوبة اليوم قد يؤخرها غداً، ثم يعتاد التأخير حتى يموت قبل أن يرجع.

والقرآن يلفت الإنسان إلى أن الفرصة ليست مضمونة، فقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾^(٣١٠). فكم من إنسان كان يريد الصلاة أو التوبة أو الخمس أو ردّ المظالم، لكن الشيطان حبّب إليه التأجيل حتى داهمه الموت.

والتسوية لا يقتصر على التوبة فقط، بل يشمل طلب العلم، وقضاء الحقوق، وإصلاح النفس، والبدء بالعبادة، وقطع أسباب المعصية.

الوقاية: المبادرة إلى الطاعة وعدم تأجيلها، واستحضار أن العمر غير مضمون، وأن الفرصة قد لا تتكرر، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (٣١١).

٣. التهوين

من شبك الشيطان أن يهون الذنب في عين الإنسان، فيقول له: هذه صغيرة، وهذه مرة واحدة، والناس كلهم يفعلون هذا، والله غفور رحيم. ولا يهاجم الإنسان من جهة الإنكار، بل من جهة التقليل من خطورة المعصية. وهذه حيلة خطيرة؛ لأن الذنب الذي يُستهان به يسهل تكراره، ثم يتحول إلى عادة، ثم يفسد القلب.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (٣١٢). وهذه الآية قاعدة عظيمة في باب المعاصي؛ فليس كل ما بدأ صغيراً في نظر الإنسان صغيراً عند الله. وكم من ذنب صغير في ظاهره لكنه كبير في أثره، لأنه يجر إلى غيره أو لأنه يدل على قلة مبالاة القلب بالله.

فالشيطان لا يطلب من الإنسان دائماً الكبائر أولاً، بل يبدأ معه بما يراه هيناً، حتى إذا ألف المعصية، سهل عليه ما هو أكبر منها. ومن هنا كان من فقه الإنسان بنفسه أن لا يحتقر ذنباً، وأن يخاف من أثر الصغيرة إذا تكررت واستهان بها.

الوقاية: تعظيم أوامر الله ونواهيه، وعدم الاستهانة بأي ذنب، وتذكّر أن الصغيرة قد تجرّ إلى الكبيرة.

٤. الإلهاء والنسيان

من شبك الشيطان أن يُشغل الإنسان حتى ينسى الطاعة أو يخرج وقتها، فلا يدعوه إلى تركها صراحة، بل يملأ وقته بما يلهيه عنها، حتى يفوته الخير وهو لا يشعر. قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (٣١٣). فكم من إنسان لم يترك الصلاة عناداً، بل ضاعت منه بسبب انشغال أو غفلة صنعها الشيطان، رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله: «أن العبد إذا اشتغل بالصلاة جاءه الشيطان وقال له: أذكر كذا، اذكر كذا حتى يضلّ الرجل أن يدري كم صلى» (٣١٤).

الوقاية: تنظيم الوقت، وتقديم الطاعة على كل شاغل، والحرص على الذكر الدائم؛ لأنه يقطع مادة النسيان.

٥. اليأس

إذا فشل الشيطان في دفع الإنسان إلى المعصية، حاول أن يدفعه بعد المعصية إلى اليأس. وهذه شبكة شديدة الخطر؛ لأن العاصي إذا بقي فيه أمل بالتوبة أمكن نجاته، أما إذا يئس من رحمة الله، فقد يجتمع عليه ذنب المعصية وذنب سوء الظن بالله وترك الرجوع إليه.

ولهذا نهى الله عن القنوط نهياً صريحاً، فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (٣١٥). فهذه الآية تقطع طريق الشيطان على القانطين، وتفتح باب العودة لكل مذنب، ما دام حياً لم يغرغر.

واليأس قد يأتي في صورة أفكار مثل: «أنا تبت كثيراً ثم رجعت»، «لا فائدة مني»، «الله لن يغفر لي، قد فسدت تماماً». وهذه كلها من نفثات الشيطان، لأنه يريد أن يبقى الإنسان في السقوط المستمر. أما المؤمن الصادق، فإنه إن

وقع، أسرع إلى النهوض، وعلم أن باب الله أوسع من ذنبه.

الوقاية: حسن الظن بالله، وعدم القنوط مهما كثرت الذنوب، والعودة السريعة إلى التوبة، بتذكّر عواقبه، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣١٦).

٦. الشبهات وخلط الحق بالباطل

من أخطر شباك الشيطان الشبهات؛ لأنها لا تواجه الإنسان غالبًا بباطل مكشوف، بل تمزج الحق بالباطل حتى يلتبس الأمر. فالإنسان قد ينجو من الباطل إذا رآه واضحًا، لكنه قد يضل إذا قُدّم له في ثوب الحق أو زُيّن له باسم العلم أو الحرية أو المصلحة أو التجديد.

وقد بيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحقيقة بدقة، فقال: « كم من ضلالة زخرفت بأية من كتاب الله كما يزخرف الدرهم النحاس بالفضة المموهة » (٣١٧).

فالشبهة خطيرة لأنها ليست كذبة صريحة فقط، بل خليط يربك الذهن ويجعل الإنسان يتردد أو ينخدع.

الوقاية: طلب العلم من أهله، وعدم التسرع في قبول الشبهات، وعدم الانسياق وراء كل قول منمّق أو كل اعتراض مثير، والرجوع إلى أهل الذكر، قال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣١٨).

المبحث الثاني: سبل الوقاية من الشيطان

يتحقّق التحصّن من الشيطان بثلاثة أمور متكاملة: الأمر الأول هو الحذر من مصائد الشيطان، فإن أوشك الإنسان على الوقوع فيها فعليه بالاستعاذة الحقيقية، وهو الأمر الثاني، كما أنّ هناك أعمالاً صالحة إذا داوم عليها كانت حصناً له من الشيطان، وهو الأمر الثالث، وسيأتي بيان هذه الأمور في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الحذر من مصائد الشيطان

لا يخفى أن كل معصية هي من مصائد الشيطان، إلا أن ما سيذكر هنا من مصائد كحبّ المال، والغضب، والحسد، والتكبر، ونحوها، إنما خُصّت بالبيان لأنها أخطر من غيرها؛ لأنها ليست معاصي جزئية فحسب، بل منابع للمعاصي، تتفرّع منها انحرافات كثيرة تُفسد دين الإنسان وسلوكه. فمثلاً (حبّ المال) يجرّ إلى الظلم والربا والغش وقطع الرحم، و (الغضب) يفتح باب السبّ والاعتداء والقطيعة، و (الحسد) يولّد البغضاء والسعي في إسقاط الآخرين، و (التكبر) يقود إلى رفض الحق واحتقار الناس.

ومن هنا كان التركيز على هذه الأبواب أولى، لأنها تمثّل الجذور التي ينفذ منها الشيطان إلى النفس. فمن أحسن ضبطها أغلق عنه طريق كثير من المعاصي قبل وقوعها، ومن أبرزها المصائد الآتية:

١. حب النساء:

حب النساء هو من أبرز مصائد الشيطان، حيث تتحوّل الشهوة الطبيعية إلى معصية عندما تخرج عن حدود الشرع. وقد ورد عن الإمام الرضا

عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يُحْيِي عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ إِبْلِيسَ فَقَالَ لَهُ: وَأَيُّ الْأَشْيَاءِ أَقْرَبُ لَعِينِكَ؟ قَالَ: النِّسَاءُ، هُنَّ فِخْوَحِي وَمِصَائِدِي، فَإِنِّي إِذَا اجْتَمَعْتُ عَلَيَّ دَعَوَاتُ الصَّالِحِينَ وَلَعْنَاتُهُمْ صَرْتُ إِلَى النِّسَاءِ فَطَابَتْ نَفْسِي بِهِنَّ» (٣١٩).

وهذا النص يكشف بوضوح أن الشيطان يعتمد على هذا الباب اعتماداً كبيراً، لأنه أقرب الطرق إلى التأثير في الإنسان، فإذا لم يُحسَن ضبطه، أصبح مدخلاً واسعاً للانحراف.

ولهذا أكّدت النصوص الشرعية على خطورة هذا الباب، وبيّنت أنه من أخطر أدوات الشيطان، فقد رُوي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «النِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ» (٣٢٠)، أي أن الشيطان يجعل هذا الباب وسيلة للإيقاع بالإنسان. كما حذّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من بدايات هذا الطريق بقوله: «العيون مصائد الشيطان» (٣٢١)، لأن النظرة هي أول الخيط، فإذا لم تُضبط قادت إلى ما بعدها، كما قال أحمد شوقي:

نظرة فابتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء

ومن أخطر صور هذا الباب: الخلوة بالمرأة الأجنبية، لأنها تفتح الطريق أمام الشيطان مباشرة، فقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «.. لا يخلون رجل بامرأة فما من رجل خلا بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» (٣٢٢). وهذا يدل على أن الشيطان يتولى بنفسه إغواء الإنسان في هذه الحالة، لما فيها من سرعة الانزلاق وقوة التأثير، ولذلك كان الحذر منها من أهم وسائل حفظ الدين.

لذا، للتخلص من هذه المصيدة ينبغي حفظ النظر، وتجنّب الخلوة بالمرأة الأجنبية، وضبط الشهوة ضمن حدود الشرع، وعدم الاستجابة لوساوس

الشیطان في هذا الباب.

٢. التهاون بالصلاة وإضاعتها:

تُعَدُّ الصلاة عمود الدين، وأعظم صلة بين العبد وربّه، وهي الميزان الذي تُقبل به سائر الأعمال؛ فإن قُبِلت قُبِل ما سواها، وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها. ومن هنا كانت هدفاً رئيساً للشیطان؛ فإذا وسوس للإنسان بالاستخفاف بها سهل عليه إيقاعه في كبائر أخرى، فقد رُوي عن الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا يزال الشيطان هائباً لابن آدم ذعرا منه ما صلى الصلوات الخمس لوقتهن، فإذا ضيعهن اجترأ عليه، فأدخله في العظام» (٣٢٣).

ورُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال عن الشيطان: «.. وأما شباكه، فنوم عن أداء الصلاة التي فرضها الله،...، ويل للساهين عن الصلوات النائمين في الخلوات المستهزئين بالله وآياته في الفترات، أولئك الذين لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يُزكّيهم ولهم عذاب أليم» (٣٢٤).

إنّ الشيطان لا يدعوه إلى تركها مباشرة، بل يستعمل معه هذه الأساليب نفسها تدريجياً؛ فيوسوس له الشيطان في هذه الشباك، ومنها:

◆ في التسويف: يهمس له: «لا بأس، سأجمعها كلها قضاء في وقت لاحق، أو سأصلي حينما أفرغ»، أو «سأقضيها حينما أكبر، فالعمر ما زال طويلاً».

◆ في التزيين: «لا بأس بتأخير الصلاة عن أول وقتها، فأنا منشغل بالعمل، والعمل عبادة»، أو «يمكنني أدائها سريعاً، لأنني أريد اللحاق بأصدقائي الأحبة».

◆ في التهوين: يبرر لنفسه: «إن فاتتني الصلاة هذه المرة فقط، سأعوّضها

لاحقاً، والله غفور رحيم».

◆ اليأس: «لقد وقعتُ في الحرام وارتكبتُ الفاحشة، فما فائدة صلاتي الآن؟ وأنا إلى النار لا محالة، فلماذا أتعب نفسي؟ فيترك الصلاة ويزداد بُعداً عن الله».

◆ إلقاء الشبهات: يثير في نفسه أفكاراً مضلّة، مثل: «الله غنيّ عن صلاتي، فلماذا أتعب نفسي؟» أو «المهم أن يكون القلب طيباً ولا حاجة لهذه الطقوس»، أو «أنا لا أؤذي أحداً، فلماذا أحاسب على ترك الصلاة؟»، فيلبس عليه الحق بالباطل حتى يبرّر تركها.

٣. الصّدّ عن برّ الإخوان:

رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال عن الشيطان: «.. أمّا مصائده، فصّدّ عن برّ الإخوان،... أمّا أنّه ما يُعبد الله بمثل نقل الأقدام إلى برّ الإخوان وزيارتهم» (٣٢٥).

وهذا النص يكشف أن الشيطان يدرك عِظَم أثر برّ الإخوان في تزكية النفس وتقوية المجتمع المؤمن، لذلك يحرص على إفساده.

فتراه يوسوس للإنسان بأن فلاناً لا يستحق الزيارة، أو أن قضاء حاجة المؤمن أمر يسير لا يستحق العناء، أو أن صلة الرحم يمكن تأجيلها، أو أن برّ الوالدين ليس أولوية الآن. وهكذا يزيّن له الجفاء، ويثقل عليه أبواب الرحمة.

لذا، للتخلّص من هذه المصيدة ينبغي الحذر بالمبادرة إلى صلة الرحم، وقضاء حوائج المؤمنين، وعدم الاستجابة لوسوسة الكسل أو الجفاء، فقد ورد: «ما يُعبد الله بمثل نقل الأقدام إلى برّ الإخوان» (٣٢٦).

٤. حبّ المال:

المال في نفسه نعمة، لكن الشيطان يحوّله إلى مصيدة إذا استقرّ في القلب واشتدّ التعلّق به حتى يُقدّم على محبة الله، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾^(٣٢٧) وعندئذٍ يتحوّل المال من وسيلة إلى غاية، فيغفل الإنسان عن الله.

فإذا بلغ هذا الحدّ، بدأ الإنسان يتنازل عن القيم من أجل المال، فيبخل، أو يظلم، أو يقطع رحمه، أو يبيع دينه لأجل مكسب عاجل. ولهذا ذمّت النصوص الشرعية الافتتان به، فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَدِيرُ ابْنَ آدَمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا أَعْيَاهُ جِثْمٌ لَهُ عِنْدَ الْمَالِ فَأَخَذَ بِرَقَبَتِهِ»^(٣٢٨).

لذا، للتخلّص من هذه المصيدة ينبغي الحذر من النظر إلى المال كغاية لا وسيلة، وعلينا الالتزام بالحلال، والإنفاق في سبيل الله، وتذكّر أن المال فتنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٣٢٩).

٥. الإعجاب بالنفس وحبّ المدح:

من أخفى مصائد الشيطان وأدقّها أثرًا في النفس أن يُعجب الإنسان بنفسه، ويرى عمله كبيرًا، ويطلب ثناء الناس عليه، فإن هذا الباب يفسد العمل من حيث لا يشعر، ويحوّل الطاعة من إخلاص لله إلى طلب منزلة عند الخلق. وقد حذّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك بقوله: «وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرْصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ»^(٣٣٠).

فالإعجاب بالنفس يجعل الإنسان يغترّ بعمله، فلا يرى تقصيره، ولا يسعى للإصلاح، بل قد يحتقر غيره، ويظن أنه أفضل منهم، وهذا من أبواب الكبر الخفي. أما حبّ المدح، فيجعل الإنسان يعمل لأجل الناس،

لا لأجل الله، فإذا مُدح فرح، وإذا لم يُمدح فتر أو ترك العمل، فيقع في الرياء دون أن يشعر.

والحذر من هذه المصيدة يكون بأن يستحضر الإنسان دائماً أن التوفيق من الله لا من نفسه، وأن عمله مهما كثر لا يوازي نعم الله عليه، وأن يفتش عن عيوبه بدل الانشغال بمحاسنه، وأن يفرح بستر عمله أكثر من ظهوره، وأن يجعل ميزانه رضا الله لا رضا الناس.

فمن نجا من هذا الباب، سلم له عمله، وثبت إخلاصه، وكان أقرب إلى القبول، لأن أخطر ما يخشاه الإنسان ليس قلة العمل، بل فساد العمل بعد وقوعه.

٦. الغضب:

الغضب من أخطر مصائد الشيطان؛ لأنه يطفىء نور العقل سريعاً، ويدفع الإنسان إلى أفعال يندم عليها طويلاً. وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إبْلِيسَ» (٣٣١). وقال أيضاً: «وَأَيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ» (٣٣٢).

فهو ليس انفعالاً عابراً، بل قد يتحول إلى أداة للظلم والقطيعة والإفساد، لذلك مدح القرآن من يملك نفسه عند الغضب، فقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ وَالْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (٣٣٣).

لذا، للتخلص من هذه المصيدة ينبغي كظم الغيظ، وتأخير ردّ الفعل، والسكوت عند الغضب، واللجوء إلى ذكر الله. وللتوسع في علاج الغضب راجع كتاب زاد المبلغات - الجزء الأول (٣٣٤).

٧. الحسد:

الحسد من أخبث مصائد الشيطان؛ لأنه يفسد علاقة الإنسان بالناس وبالله، إذ يعترض الحاسد في باطنه على قسمة الله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣٣٥)، وهو من أخلاق إبليس حين حسد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «يقول إبليس لجنوده؛ ألقوا بينهم الحسد، والبغي؛ فإنهما يعدلان الشرك بالله»^(٣٣٦).

ويبدأ الحسد شعورًا خفيًا، ثم ينمو حتى يتحول إلى عداوة وبغضاء وسعي في إفساد الآخرين، لذلك كان من أخطر أبواب الانحراف.

وللتخلص من هذه المصيدة وجب الرضا بقضاء الله، والدعاء للآخرين، واستحضار أن نعم الله لا تنفد، وأن الحسد لا يضر إلا صاحبه، رُوي عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر بالمحسود كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الاجتباء والهدى»^(٣٣٧).

٨. التكبر:

التكبر من أخطر مصائد إبليس، بل هو الخُلُق الذي أهلكه أول مرة، حين أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر، قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣٣٨). ومن هنا صار الكبر طريقًا شيطانيًا، لأنه يمنع الإنسان من قبول الحق والخضوع لله.

وقد وصفه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه «مصيدة إبليس العظمى»^(٣٣٩)، لأنه يتسلل إلى القلب خفيًا حتى يفسد العبادة والعلم والعلاقات. ويظهر في صور متعددة، كاحتقار الناس، ورفض الاعتذار، والاعتزاز بالعلم أو المال أو النسب.

إِذَا لِلتَّخْلَصِ مِنْ هَذِهِ الْمَصِيدَةِ يَنْبَغِي عَلَيْنَا تَذَكُّرُ أَصْلِ الْإِنْسَانِ وَضَعْفِهِ، وَقَبُولِ الْحَقِّ مِنْ أَيِّ مَصْدَرٍ، وَالتَّوَاضُعِ لِلنَّاسِ، فَإِنَّ الْكَبِيرَ مِنْ أخطرِ مَصَائِدِ إبْلِيسَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٣٤٠).

٩. مجالسة أهل الهوى:

مجالسة أهل الهوى من أخطر مصائد الشيطان؛ لأنها تفسد القلب تدريجياً، فالجليس ينقل بطريقته وسلوكه ما في داخله، حتى يضعف الإيمان دون أن يشعر الإنسان. ولهذا قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مجالسة أهل الهوى منسأة للإيمان، محضرة للشيطان» (٣٤١).

فهذه المجالس تهيئ بيئة الغفلة والانشغال بالدنيا، وتسهل التنازل عن المبادئ، خصوصاً إذا غلب عليها اللهو والانفلات.

لذا، للتخلص من هذه المصيدة ينبغي اختيار الصحبة الصالحة، والابتعاد عن مجالس الغفلة، فإن الجليس يؤثر في القلب.

المطلب الثاني: الاستعاذة الحقيقية

كثيراً ما نسمع أن الوقاية من الشيطان تكون بالاستعاذة، وهي قول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، لكنها ليست مجرد عبارة تُقال، بل تقوم على أربعة أركان:

(١) المستعيز وهو الإنسان الذي يطلب الحماية، (٢) المستعاذ به وهو الله تعالى الذي يلجأ إليه، (٣) المستعاذ منه وهو الشيطان ووساوسه وطرق إضلاله، (٤) المستعاذ لأجله وهو النجاة من المعصية والقرب من الله.

السؤال المطروح: لماذا يردّد أغلبنا هذه العبارة، ومع ذلك يقع في الحرام؟

تأمّلوا هذا المثال: شاب جلس وحده، فخطر في ذهنه أن يمارس الحرام، فكان أول ما خطر بباله أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فهو هنا المستعيز، وقد توجّه إلى المستعاذ به وهو الله تعالى، أمّا هذه الفكرة فهي من المستعاذ منه، أي من وسوسة الشيطان.

فإن اكتفى بالقول وبقي مكانه، لم تتحقق الاستعاذة، أمّا إذا قالها وأغلق الهاتف فوراً وابتعد عن موضع الفتنة، فقد حقّق المستعاذ لأجله، وهو النجاة من المعصية والقرب من الله.

ومن هنا يتبيّن أنّ الاستعاذة ليست لفظاً يُقال، بل حركةٌ واعيةٌ وعملٌ جادٌ يدفع الإنسان إلى ترك المعصية فوراً، وبذل الجهد في مجاهدة النفس والسير نحو الطاعة.

فالاستعاذة لا تُؤتي أثرها إلا إذا اقترنت بالتقوى التي تمنع من الوقوع، والتذكر الذي يُوقظ القلب، والإخلاص الذي يُصحّح النية، والتوكّل الذي يمنح القوة، والتضرّع والانكسار بين يدي الله؛ ليكون اللجوء إليه صادقاً ومثمرًا.

وهذه الخمسة هي الأركان الحقيقية للاستعاذة التي يقوم عليها أثرها في الواقع، وهي كالآتي:

أولاً: التقوى

التقوى هي الأساس الذي تُبنى عليه الاستعاذة، وهي «وقاية النفس من عصيان أوامر الله ونواهيه وما يمنع رضاه»^(٣٤٢). ويمكن تقريب معناها بمثال حسي: كأنسانٍ يسير حافيًا في طريق مليء بالأشواك والزجاج، فتراه يقظًا، ينظر موضع قدمه، ويتحرّك بحذر شديد لئلا يُؤذي، بل يحذر حتى

مَنْ قد يشغله فيغفل فيقع في الأذى.

وهكذا المتقي، يعيش حالة انتباه دائم، يحذر من الشيطان الذي يترصده في لحظات الغفلة والتساهل والشهوة والغضب، فيسدّ عليه هذه المنافذ. وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٣٤٣)، فالتقوى لا تمنع الوسوسة، لكنها تمنح سرعة الانتباه والرجوع إلى الحق.

ومثال ذلك: شاب يُدعى إلى معصية وهو وحده، فإن لم يكن متقيًا استجاب وقال: لا يراني أحد، أمّا المتقي فيستحضر نظر الله إليه فيتراجع فورًا، وهذا هو الأثر الحقيقي للتقوى في الاستعادة.

ثانيًا: التذكّر

التذكر هو يقظة القلب عند لحظة الخطر، وهو أن يستحضر الإنسان الحقائق التي يحاول الشيطان أن يغطي عليها: أن الله حاضر، وأن الموت قريب، وأن المعصية ليست لذة عابرة، بل لها أثر في القلب وعاقبة في الآخرة. فالشيطان لا ينتصر بقوته، بل بغفلة الإنسان، فإذا تذكر الإنسان، انكسر مكره.

وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٣٤٤)، أي إن التذكر يعيد للإنسان بصيرته بعد أن كادت الوسوسة أن تحجبها. ولهذا ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ذكر الله مطردة الشيطان»^(٣٤٥).

وهذا التذكر ليس مجرد كلمة، بل رجوع داخلي إلى الوعي. فقد يهّم الإنسان بالنظر إلى الحرام، ثم يتذكر فجأة أن هذا الفعل سيُعرض عليه يوم القيامة، وأن الله يراه الآن، فيصرف بصره فورًا. فهذا التذكر هو الذي أنقذه، وهو الذي أعاد إليه بصيرته في لحظة كادت تضيع.

ثالثاً: التوكّل

التوكّل هو أن يدرك الإنسان ضعفه، وألا يعتمد على نفسه في مواجهة الشيطان، لأن النفس تميل، والهوى يغلب، والشيطان خبير بمدخل الإنسان. فمن ظن أنه قادر بنفسه، تعرّض للسقوط، ومن لجأ إلى الله، أُعطي قوة لم تكن عنده.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٤٦). فالتوكّل ليس ضعفاً، بل هو مصدر قوة؛ لأن الإنسان حين يعتمد على الله، لا يقاتل وحده.

ومثال ذلك: شاب عرّضت عليه المخدرات، وشعر بضعف داخلي، فإن قال: أنا أستطيع أن أتحمم، قد يقع، أما إذا قال: «يا رب أنا ضعيف، فاحفظني»، ثم ابتعد عنهم، فإن الله يعينه، فيثبت. فالتوكّل لا ينافي السعي، وهو يجعل الاستعاذة الحقيقية، لأن الإنسان لا يكتفي بالرفض، بل يستمد قوته من الله.

رابعاً: الإخلاص

الإخلاص هو أن تكون الاستعاذة صادقة لله، لا عادة باللسان، ولا خوفاً من الناس، بل رغبة في رضا الله وحده. فالشيطان قد لا يمنع الإنسان من العمل الصالح لكنه يفسده من الداخل إذا دخل فيه الرياء أو طلب المدح.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٣٤٧). والشيطان نفسه يعترف بعجزه عن إغواء المخلصين، إذ قال لله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٣٤٨).

مثال ذلك: إنسان يترك المعصية أمام الناس، لكنه إذا خلا بنفسه وقع فيها، فهذا لم تتحقق عنده الاستعاذة الحقيقية، أما من يتركها في الخلوة كما

يتركها في العلن، فهذا صادق مع الله، وقد تحقق عنده الإخلاص. فالإخلاص يجعل القلب ثابتاً، لأن غايته ليست الناس، بل الله.

خامساً: التضرع والانكسار

التضرع هو أن يشعر الإنسان بضعفه الحقيقي، وأنه لا يستطيع أن ينجو من الشيطان إلا بعون الله، فيلجأ إليه بانكسار وخضوع. فالشيطان ينتصر على من يرى نفسه قوياً، ويضعف أمام من يرى نفسه محتاجاً إلى الله.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (٣٤٩). وفي دعاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في مناجاة الشَّاكِين أنه قال: «إلهي أشكو إليك عدواً يضلُّني وشيطاناً يغويني»، فهذا الدعاء يعبر عن قلب منكسر يعرف خطر عدوه، ويطلب الحماية من ربه.

مثال ذلك: شخص يقول بثقة: أنا لا أخاف من الشيطان، هذا أقرب إلى السقوط، لأن فيه غروراً، بينما آخر يقول: يا رب إن لم تحفظني هلكت، فهذا أقرب إلى النجاة، لأن قلبه متعلق بالله.

خلاصة المطلب: الاستعاذة الحقيقية ليست كلمة، بل حالة قلب: تقوى تمنع، وتذكر يوقظ، وتوكل يقوي، وإخلاص يثبت، وتضرع يحفظ. فإذا اجتمعت هذه المعاني، تحولت الاستعاذة من لفظ يُقال إلى حصن يُحتمي به، وصارت للنفس قوة على مقاومة الشيطان، لا مجرد أمنية بالنجاة.

المطلب الثالث: التحصين العملي اليومي

لا يكتمل التحصن من الشيطان بمعرفة مصائده والاستعاذة وحدهما، بل يحتاج إلى برنامج عملي يومي يُبقي القلب في حالة يقظة دائمة. وهذه الأعمال منها واجبة وأخرى مستحبة؛ فالواجبات تُغلق الأبواب الكبرى، والمستحبات تسد الشقوق الخفية التي يتسلل منها الشيطان. ومن هذه الأعمال ما يأتي:

◆ **المحافظة على الصلاة**، وهو من أعظم أسلحة التحصين؛ لأن الصلاة ليست واجباً منفصلاً عن سائر الحياة، بل هي صلة دائمة بالله، وتجديد متكرر للعهد معه، واسترجاع للقلب من التشتت والغفلة. وإذا حافظ الإنسان على صلاته في وقتها، بقي الشيطان حذرًا منه، لأن هذه الصلاة تذكّره بالله مرارًا، وتقطع عليه فرص الاستغراق في الهوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٣٥٠).

◆ **قراءة القرآن**؛ لأن القرآن نور، وهداية، وتذكير، وكشف لحيل الشيطان. وكلما أكثر الإنسان من القرآن صار قلبه أصفى، وبصيرته أحدّ، واستحضاره للحقائق الكبرى أقوى. وليس المقصود من القراءة مجرد تحريك اللسان، بل أن يتعامل الإنسان مع القرآن على أنه خطاب حيّ يعظه، ويوقظه، ويعيد ترتيب نظره إلى الدنيا والآخرة. ومن أعظم الآيات التي استعملت في التحصين آية الكرسي، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ .. وآية الكرسي ... لم يقربه الشيطان» (٣٥١).

◆ **دوام الذكر والتسبيح والصلاة على محمد وآله**؛ لأن الذكر يطرد الغفلة، والغفلة هي البيئة المفضلة للشيطان. فإذا كان الإنسان في عمله، أو وحدته،

أو سيره، أو قبل نومه، أو عند هجوم الوسوس، رطبًا بذكر الله، ضعفت قدرة الشيطان على الاستقرار في قلبه. وليس الذكر محصورًا بلفظ معين، بل كل حضور لله في القلب واللسان من ذكر واستغفار وتسبيح وتحميد وصلاة على محمد وآله يدخل في هذا الباب. رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الشيطان اثنان: شيطان الجن، ويبعد بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وشيطان الإنس ويبعد بالصلاة على النبي وآله» (٣٥٢).

◆ **النظافة والطهارة؛** لأن الشيطان يرتبط بالقذارة ويتخذها موطنًا، وقد ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تبيتوا القمامة في بيوتكم وأخرجوها نهارًا فإنها مقعد الشيطان» (٣٥٣)، مما يدل على أن القذارة تجذب الشيطان، وأن النظافة تطرده.

لذا ينبغي على المؤمن أن يعتني بنظافة بدنه وثوبه ومكانه، وأن يداوم على الطهارة من النجاسة المادية والمعنوية، كالوضوء والغسل، فإنها تهيب بيئة نور تبعده وتضعف تأثيره. فليست الطهارة مجرد مظهر، بل هي حماية عملية من وساوسه وحضوره في حياة الإنسان.

◆ **الصوم؛** لأنه يضعف الشهوات التي يدخل منها الشيطان، ويقوي إرادة الإنسان، فيصبح أقدر على مخالفة هواه. وقد ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الصوم يسود وجهه، والصدقة تكسر ظهره» (٣٥٤). أي أن الصوم والصدقة يضيقان على الشيطان ويضعفان تأثيره.

◆ **الصدقة والعمل الصالح،** وهو من أعظم أسباب التحصين؛ لأن الشيطان يريد من الإنسان أن يبقى أنانيًا، بخيلًا، مشغولًا بنفسه، خائفًا على دنياه. فإذا دفع الإنسان من ماله، وخالف خوفه، وواسى غيره، انكسر

في داخله شيء من سلطان الدنيا، وهذا ما لا يريدُه الشيطان. ولهذا تعظم وسوسته عند إرادة الصدقة والخير، فيذكّر بالفقر، ويهوّن الأثر، ويدعو إلى التأجيل. قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ (٣٥٥).

رُوي أنه كان في إحدى سني القحط أحد الوعاظ في المسجد يقول على المنبر: إذا أراد أحد ان يتصدق فان سبعين شيطاناً يتمسكون بيده ويمنعونه من ذلك.

فسمع أحد المؤمنين هذا الكلام فقال لأصدقائه متعجباً لا توجد في التصدق كل هذه الصعوبة، فأنا املك مقداراً من الحنطة وسوف اتى بها إلى المسجد واعطيه إلى الفقراء. وقام من مكانه وعندما وصل إلى البيت وعلمت زوجته بنيته بدأت تلومه على ذلك: لماذا لا تهتم بزوجتك وأولادك في سنة القحط هذه؟ لعل القحط استمر زماناً طويلاً فسوف نموت من الجوع في ذلك الوقت وسوف يكون كذا وكذا.

والخلاصة فإنها أخذت توسوس إلى درجة أن ذلك المؤمن رجع إلى المسجد بأيد خائبة. فسأله اصدقاؤه ماذا حدث رأيت كيف ان سبعين شيطاناً قد مسكوا بيدك ومنعوك، فأجاب: أنى لم أر الشياطين ولكن رأيت أم الشياطين وقد منعتني من ذلك (٣٥٦).

◆ **التوبة السريعة وعدم الإصرار على الذنب؛** لأن الذنب إذا تُرك بلا استغفار تكرر حتى يهون، ثم يترسخ في القلب ويصعب تركه. والشيطان لا يكتفي بإيقاع الإنسان في المعصية، بل يحرص أن يؤخر توبته، فيقول له: تب لاحقاً، ما زال الوقت طويلاً. فإذا بادر الإنسان إلى التوبة فوراً، انكسر أثر الذنب وضعف سلطان الشيطان، أمّا إذا سوّف، التصق الذنب بقلبه.

رُوي في بعض الأخبار «أَنَّ الْخَبِيثَ إِبْلِيسَ تَبَدَّى -أَيَ ظَهَرَ- لِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أريدُ أَنْ أَنْصَحَكَ.

فَقَالَ: كَذَبْتَ، أَنْتَ لَا تَنْصَحُنِي، وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي عَن بَنِي آدَمَ.

فَقَالَ: هُمْ عِنْدَنَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ. أَمَّا صِنْفٌ مِنْهُمْ: فَهُمْ أَشَدُّ الْأَصْنَافِ عَلَيْنَا، نَقْبَلُ حَتَّى نَفْتِنَهُ وَنَسْتَمَكِّنَ مِنْهُ، ثُمَّ يَفْزَعُ إِلَى الْاِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ فَيُفْسِدُ عَلَيْنَا كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكْنَا مِنْهُ، ثُمَّ نَعُودُ لَهُ فَيَعُودُ، فَلَا نَحْنُ نِيَأْسُ مِنْهُ، وَلَا نَحْنُ نُدْرِكُ مِنْهُ حَاجَتَنَا، فَنَحْنُ مِنْ ذَلِكَ فِي عَنَاءٍ.

وَأَمَّا الصَّنْفُ الْآخَرُ: فَهُمْ فِي أَيْدِينَا بِمَنْزِلَةِ الْكُرَّةِ فِي أَيْدِي صَبِيَانِكُمْ، نُلقِيهِمْ كَيْفَ شِئْنَا، قَدْ كَفَوْنَا أَنْفُسَهُمْ.

وَأَمَّا الصَّنْفُ الْآخَرُ: فَهُمْ مِثْلُكَ مَعْصُومُونَ لَا نَقْدِرُ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ» (٣٥٧).

◆ **الصحة الصالحة والابتعاد عن مواطن الفتنة؛** لأن الشيطان لا يعمل في فراغ، بل يستفيد من المكان، والرفقة، والزمان، والصورة، والكلمة، والمشهد. فكم من إنسان ضعفت نفسه، لا لأنه قرر المعصية ابتداءً، بل لأنه جلس في مجلس سوء، أو طالت خلوته، أو اعتاد المزاح المحرم، أو أكثر مخالطة من يجرئه على المعصية، أو بقي في مكان يعلم أن فيه فتنة تتكرر عليه. فالحماية ليست أن يدخل الإنسان النار ثم يقول: سأقاوم الاحتراق، بل أن يبتعد من الموضع الذي يشتعل فيه البلاء.

◆ **الاعتصام بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،** وبالأخص في زمن الفتن والشبهات؛ فقد تقدم أن من أخطر شباك الشيطان الشبهات، حيث يُظهر الباطل بصورة تشبه الحق، فيقع الإنسان في الضلال وهو يظن أنه على صواب. وهنا لا يكفي مجرد حسن النية أو قوة العبادة، بل يحتاج الإنسان إلى ميزان

معصوم يميّز له الطريق. فليست كل دعوة إلى الحق حقًا، ولا كل شعار ديني صادقًا، بل الميزان هو الرجوع إلى الإمام المعصوم، الذي يكشف زيف الشعارات ويبيّن حقيقة الطريق. ومن هنا كان التوليّ لهم عَلَيْهِ السَّلَامُ تحصيلًا من أخطر أنواع كيد الشيطان، وهو كيد الشبهات.

وقد بيّنت سيرة أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المعنى بوضوح، كما في معركة صفين، حين رُفعت المصاحف على الرماح، فظنّ كثير من الناس أنها دعوة إلى كتاب الله، بينما كانت في حقيقتها خدعة لإيقاف الحق. فاختلط الأمر على جماعة، ولم يثبت إلا من عرف الإمام وتمسّك به.

ولكي يتضح الأمر أكثر، نسلط الضوء على هذا الحدث: حين تولّى الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ الخلافة، أصدر قرارًا بعزل معاوية بن أبي سفيان عن الشام، فرفض معاوية القرار، وأعلن العصيان، مستغلًا قضية مقتل عثمان لإثارة الفتنة واتهام الإمام وشيعته. وقد سعى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حلّ النزاع بالحوار والموعظة حقنًا لدماء المسلمين، لكن دون جدوى.

فتوجّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ في مثل هذا اليوم، الخامس من شهر شوال سنة ٣٦هـ، إلى صفين، وهي منطقة بين الشام والعراق، لمواجهة تمرد معاوية بن أبي سفيان. فخرج حزب الله بقيادة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهل الكوفة، وفيهم جمع من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وخرج في مقابلتهم حزب الشيطان بقيادة معاوية بن أبي سفيان من أهل الشام. ومع ذلك، حاول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ تجنب القتال، فدعا إلى التقوى، وعرض المبارزة لتقليل الدماء، لكن معاوية أصرّ على الحرب.

نزل جيش معاوية عند الفرات ومنع الماء عن جيش الإمام، فاشتد العطش بالناس والدواب، فاضطر الإمام إلى القتال لاسترجاع الماء، فلما ظفر به لم يمنع عنه خصومه، بل سمح لهم بالشرب، في موقف يكشف عن

سمو أخلاقه. ومع ذلك استمر جيش معاوية في الاعتداء، فدارت معركة شديدة، واستشهد فيها عمار بن ياسر، فاضطرب جيش الشام لعلمهم بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «تقتل عماراً الفئة الباغية» (٣٥٨).

واشتد القتال حتى بلغت المعركة ذروتها في ليلة عُرفت بليلة الهرير، حيث تقدم جيش الإمام بقيادة مالك الأشتر وكاد أن يحسم المعركة ويصل إلى معسكر معاوية. عندها لجأ معاوية وعمرو بن العاص إلى حيلة، فرفعوا المصاحف على الرماح، ومعنى ذلك أن القرآن حكماً بيننا، أراد من ذلك أن يخدع أصحاب الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليقفون عن القتال، ويدعون الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى تحكيم القرآن.

وفعلاً خُدع زهاء عشرين ألف مقاتل من جيش الإمام وأجبروه على قبول ذلك، رغم تحذيره عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم من هذه الخدعة، منها قوله: «إنها كلمة حق يُراد بها باطل» (٣٥٩)، مؤكداً أنها ليست دعوة صادقة إلى القرآن، بل وسيلة لإيقاف تقدم الحق بعد أن قارب النصر.

اضطرَّ الإمام إلى القبول بالتحكيم دفعاً لانقسام جيشه، فمثل معاوية عمرو بن العاص، ومثل جيش الإمام أبو موسى الأشعري، فخدعه عمرو وأظهر خلع الإمام وتثبيت معاوية. وانتهت المعركة بعد أن قُتل عشرات الآلاف من الطرفين، وبقيت آثار هذه الحادثة من أخطر ما واجهه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في مسيرته، لأنها كشفت أن أخطر أساليب الشيطان هو تلبس الباطل بثوب الحق حتى يضلَّ الإنسان وهو يظنُّ أنه على هدى (٣٦٠).

إن هؤلاء الذين كانوا في جيش الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد اسودَّت جباههم من كثرة السجود، خذلوه في معركة صفين، ثم انقلبوا بعد ذلك فصاروا من الخوارج. وهذه الصورة تذكّرنا بأهل الكوفة الذين كتبوا آلاف الرسائل إلى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعونه لنصرته، فلما قدم إليهم انقلبوا على أعقابهم،

وواجهوه بالسيوف في واقعة عاشوراء. وهذا يبيِّن أن العبرة في كون الإنسان من أتباع حزب الله أو من أتباع حزب الشيطان، لا بكثرة العبادة الظاهرة، بل بثبات الموقف وصدق الاتباع.

وصدقت عقيلة بني هاشم عَلَيْهَا السَّلَامُ حين قالت للشيطان يزيد لعنه الله: «ألا فالعجب كلَّ العجب.. لقتلِ حزبِ الله النجباء، بحزب الشيطان الطلقاء!»

نعم، إنَّ هذا المعنى ورد ضمن خطبتها في مجلسه حين أُدخلت السبايا بحالٍ يرثى لها، فقد نقل الطريحي في المنتخب عن علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: لما وفدنا على يزيد بن معاوية أتونا بحبال وربطونا مثل الأغنام، وكان الحبل بعنقي وعنق أم كلثوم، وبكتف زينب وسكينة والبنات وساقونا. وكلما قصرنا عن المشي ضربونا حتى أوقفونا بين يدي يزيد، فتقدمت إليه وهو على سرير مملكته وقلت له: ما ظنك برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لو يرانا على هذه الصفة، فأمر بالحبال فقطعت من أعناقنا وأكتافنا.

ونقل أيضًا: إن الحرائر لما أدخلن على يزيد كان ينظر إليهن ويسأل عن كل واحدة بعينها وهن مربطات بحبل طويل ^(٣٦١).

(نصاري)

بس هاي ما چانت على البال اطب المجلسه او بمتوني الحبال
او راسك بالطشت واتشوفه العيال او بيده العود ويوسم المبسم

(مجردات)

بحبال خشنه چتفوهن او ليزيد اويلي سيروهن
والنذل ظل ينشد عليهن او يتسترن گامن بديهن ^(٣٦٢)



٦ شَوَّال

غَزْوَةُ هُنَيْنٍ (هَوَازِنَ)

وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

المناسبةُ

غزوةُ حُنَيْنٍ (هوازن)

القصيدة للشاعر: السيد حسين بركة الشامي

لكي تكيّد امةً (المختارِ)
ومشركون حلمهم سرابُ
ومعه الاهلون دون خوفِ
بوثبة طبّقت الافقينِ
وليس فيهم حاجةٌ للمدِدِ
وقد نسوا الرحمن عند الكره
والجيشُ في غفلته لا يدري
وظل ذاك الجيشُ في اضطرابِ
وكان سيفه بعزمٍ مصلتا
من خلصت نفوسهم من الريا
مضحياً وسيفه بتّارُ
يصيح يا لله أين الناسُ؟
فأنكم فوارسُ ابطالِ
وصرخةٌ منه تطبّق المدي
ثمّ ينادي أين أهلُ (الشجره)؟
وقد غدوا في ضربهم ابطالا
وانهزمت خوفاً جيوش الكفرِ

فاجتمعت (هوازنُ) الكفارِ
ومعها قد أطبق الاعرابُ
يقودهم (مالكُ بن عوفِ)
ففاجأوا الرسول في (حُنَيْنِ)
والمسلمون كثرةً في العددِ
فأعجبتهم يوم ذاك الكثره
فدارت الحربُ قبيلَ الفجرِ
فانهزمَ الجمع من الاصحابِ
الا النبيُّ وحده قد ثبتا
وثلةٌ من الصحابِ الأوفيا
اولهم (عليّ) الكرارُ
وآخرون منهم (العبّاسُ)
عودوا إلى النصره يا رجالِ
وحيث شاهد الصحابُ (احمدا)
وهويكرُّ في صفوفِ الكفره
فرجعوا وباشروا القتالا
ولاح في الأفاق طيرُ النصرِ

المُحَاضِرَةُ السَّادِسَةُ العِنَادُ: أَسْبَابُهُ وَعِلَاجُهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٣٦٣).

من أخطر المشكلات التي تدخل البيوت بهدوء ثم تتحول إلى مصدر توتر واحتراق داخلي: العناد.

فهو من أكثر المشكلات حضوراً في الحياة اليومية، يواجهها الإنسان في بيته قبل غيره، وتتكرر في المواقف البسيطة حتى يعتادها الناس دون أن ينتبهوا لخطورتها، ومع هذا التكرار لا تبقى هذه المشكلة محصورة في موقف أو شخص، بل تبدأ بالانتشار داخل الأسرة. فتظهر بين الزوجين، وبين الإخوة، وبين الآباء والأبناء، حتى تتحول إلى سلوك متكرر في البيت الواحد.

فالآباء لا يكتفون بمشاهدة العناد، بل يتعلمونه ويعيدون إنتاجه في تعاملاتهم اليومية. ولهذا نجد أن كثيراً من المستشارين، حين يستمعون إلى شكوى الوالدين من عناد أبنائهم، يستهلون حديثهم بسؤال كاشف يكشف عمق المشكلة:

هل في البيت من يتصف بالعناد؟ فيكون الجواب غالباً: نعم. وهنا تتجلى حقيقة تربوية عميقة، وهي أن العناد لا ينشأ من فراغ، بل ينتقل بالمحاكاة والتقليد؛ لأن الأبناء يتأثرون بأفعال المربي أكثر من أقواله، فيتشربون سلوكه

كما تشرب الإسفنجة الماء.

ومن هنا يبدأ العلاج الصحيح: لا من توجيه الأبناء فقط، بل من إصلاح النفس أولاً؛ لأن المربي إذا لم يُعالج عناده، فلن يستطيع أن يُربي غيره على تركه. وقد حذر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من هذا التناقض بين القول والعمل، فرؤي عن الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ألا وإن أبغض الناس إلى الله من يقتدي بسنة إمام، ولا يقتدي بأعماله». (٣٦٤)

ومن هنا تبرز أهمية تناول موضوع العناد في هذه المحاضرة؛ إذ لا يقتصر الأمر على معالجة سلوكٍ ظاهر، بل يمتد إلى بناء النفس على أساس الحق، لينتقل الإنسان من معاندٍ لرأيه إلى متبِعٍ لما يرضي الله، ومن مصدرٍ توترٍ في بيته إلى سببٍ للسكينة والاستقرار.

المبحث الأول: مدخل في فهم العناد

المطلب الأول: تعريف العناد وأنواعه

إنَّ العناد شعبة من شعب العجب (٣٦٥). وهو حالة نفسية وسلوكية يُصَرَّ فيها الإنسان على رأي أو قول أو فعل أو موقف، ويرفض التراجع عنه، سواء عبّر عن ذلك بالجدال والكلام، أم أصرَّ عليه بالفعل والصمت.

ويُستعمل هذا المصطلح في العرف للدلالة على مطلق الإصرار، سواء كان على حق أو باطل.

فإن كان الإصرار على الخطأ والباطل ورفض الحق، كان عناداً مذموماً يُذمُّ عليه، وإن كان الإصرار على الحق ورفض الباطل، كان ثباتاً محموداً يُمدح عليه الإنسان.

وفيما يأتي بيان هذين النوعين:

أولاً: عناد مذموم، أو ما يُعبر عنه بالعناد على الباطل.

وهو المعنى الذي تقصده الشريعة عند ذمّ العناد والتحذير منه، إذ العناد في حقيقته هو الإصرار على الخطأ، والتمسك بالباطل، ورفض الحق بعد ظهوره. فصاحبه لا ينقاد للدليل، ولا يستجيب للنصح، بل يقدم رأيه وهوى نفسه على العقل والشرع، ويتهاذى في موقفه مهما بُذلت له محاولات الإقناع أو الحوار.

وهذا النوع من العناد يدفع الإنسان إلى الخصومة، ويغلق عليه باب الرجوع إلى الحق، بل قد يرفض الحلول والبدائل، وحتى التنازل الجزئي، لأنه يرى في التراجع هزيمة، لا رجوعاً إلى الصواب.

ومن أمثلة العناد المذموم:

◆ شخص يُنصح بترك الغش في عمله لأنه حرام، وتُبيّن له الأدلة، ومع ذلك يُصرّ عليه بحجة أنه أدرى بمصلحته أو أن الجميع يفعل ذلك. هذا عناد مذموم؛ لأنه إصرار على الباطل بعد معرفة الحق.

◆ زوجة يُبيّن لها أن أسلوبها في الكلام يجرح زوجها ويُفسد العلاقة، وتُدرك ذلك، لكنها تستمر في نفس التصرف رفضاً للتراجع أو الاعتذار. هذا عناد مذموم؛ لأنه تمسك بالخطأ مع وضوح أثره وضرره.

وهناك بعض الأمثال التي تضرب على المعاند على الباطل، منها: «عنزة ولو طارت»، حيث تعود قصة المثل إلى شخصين شاهداً جسماً أسوداً من بعيد، فظن أحدهما أنه غراب، بينما أصر الآخر على أنه عنزة. عندما اقتربا، طار الغراب، فقال الأول: «ألم أقل لك إنه غراب؟» فردّ الآخر بعناد: «عنزة

ولو طارت». هذا المثل يُجسّد مفهوم العناد، أي الإصرار على الخطأ دون مبرر.

والعناد إذا اشتدّ بالإصرار على الباطل سُمّي في كلمات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بـ: «اللّجاجة»، وهي من أخطر الصفات، وقد حذرت الشريعة المقدسة من العناد واللجاجة تحذيراً شديداً، ومن ذلك ما ورد:

♦ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٣٦٦)، أي أنه يُدعى إلى الحق فيأبى، ويزداد تمسكاً بخطئه بدافع الكبر والغرور.

♦ وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٣٦٧). فاللجوج الذي يرفض الحق مع علمه به يسمى جاحداً.

♦ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣٦٨)، تُظهر هذه الآية أن العناد قد يبلغ بالإنسان حدّ تفضيل العذاب على الاعتراف بالحق، وهذا من أشدّ مراتب اللجاجة والانحراف.

♦ ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللجاج بذر الشر»^(٣٦٩)، أي أن اللجاجة هي أصل تتفرّع منه الشرور؛ لأن المصّر على الباطل يفتح على نفسه أبواب الانحراف والمعاصي.

♦ رُوي عن رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِيَّاكَ وَاللّجَاةَ؛ فَإِنَّ أَوْلَهَا جَهْلٌ وَآخِرُهَا نَدَامَةٌ»^(٣٧٠).

فالجهل - في هذا الحديث - لا يعني مجرد نقص المعرفة، بل هو الإصرار على الباطل ورفض الاستماع إلى العقل والمنطق، حيث يتصرف الإنسان بغير حكمة، متبّعاً الهوى والعناد، مما يؤدي به إلى الندم بعد فوات الأوان.

وستتضح معالم هذا النوع من العناد وتفصيلاته في مباحث هذه المحاضرة.

ثانياً: عناد ممدوح، أو ما يُعبر عنه بالعناد على الحق.

قد يُستعمل لفظ العناد أحياناً في معنى ممدوح، لكن هذا الاستعمال ليس على حقيقته، بل هو من باب المجاز والتوسّع في التعبير؛ لأن العناد في أصله مذموم، إذ يدلّ على الإصرار على الخطأ ورفض الحق. غير أنّه لما كان الإنسان قد يملك قوة في الإصرار والثبات، وُجّه هذا المعنى توجيهاً صحيحاً، فصار المطلوب منه أن يصرف هذه القوة إلى التمسك بالحق لا إلى التمسك بالباطل.

وهذا المعنى نظير ما ورد في التعصّب، فإنه في أصله مذموم، لأنه انحياز أعمى إلى نصرّة الباطل، لكن قد يُستعمل استعمالاً مجازياً في معنى محمود، إذا كان لنصرّة الحق، كما في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ كُنْتُمْ لَا مَحَالَةَ مَتَعَصِّبِينَ فَتَعَصَّبُوا لِنَصْرَةِ الْحَقِّ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ».^(٣٧١)

ومن أمثلة العناد الممدوح:

◆ شخص يلتزم بالصلاة رغم السخرية أو الضغط الاجتماعي، ويرفض تركها لأنه يعلم أنها فريضة واجبة عليه. هذا ليس عناداً، بل ثبات على الحق.

◆ امرأة مؤمنة تتمسك بحجابها رغم السخرية أو الضغط، وترفض التخلي عنه لأنه حكم شرعي تعتقد به. هذا ليس عناداً، بل ثبات على الحق.

وقد يبلغ هذا التمسك بالحق أعلى مراتبه، فيتحوّل إلى موقفٍ مصيريّ يُقدّم فيه الإنسان أعزّ ما يملك في سبيل الله، دفاعاً عن دينه ونصرّةً للحق وأهله. والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه النماذج العظيمة، حيث تجلّى هذا الثبات في أبهى صورته في مواقف الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في مقارعة القاسطين والمارقين والناكثين، وكذلك في نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين ثبت

هو وأهل بيته وأصحابه على الحق، ولم يتراجعوا رغم ما واجهوه من ظلم واضطهاد وحصار وتجويع، حتى بذلوا أرواحهم الطاهرة في سبيل نصره الدين. وهذا النمط من الإصرار ليس عناداً مذموماً، بل هو عزة إيمانية، وثبات ممدوح، حفظ الله به الدين، وأقام به الحجة على الخلق.

وقد يُعبَّرُ عن هذا المعنى أحياناً بـ«عناد الإرادة والتصميم»، وهو في حقيقته طاقة إيجابية إذا وُجِّهت في المسار الصحيح. ويظهر ذلك بوضوح في سلوك الأطفال، حين يُصرُّ أحدهم على إصلاح لعبته أو إعادة تركيبها بعد تفكيكها، فيواصل المحاولة رغم الصعوبات أو منع الكبار، مدفوعاً برغبة داخلية في الإنجاز والتغلب على التحدي. وهذا ليس عناداً مذموماً، بل روح مثابرة وتصميم ينبغي رعايتها وتنميتها، لأنها أساس النجاح والنضج في المستقبل.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى - وهو الثبات على الحق وعدم التراجع عنه - في آيات كثيرة، منها:

◆ الثبات على الحق والاستقامة: قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ﴾. (٣٧٢)

◆ الصبر والمصابرة والثبات: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾. (٣٧٣)

◆ عدم الخضوع لضغط الناس: قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾. (٣٧٤)

◆ الثبات وعدم الضعف أمام الباطل: قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (٣٧٥)

◆ التمسك بالدين وعدم التفرق: قال تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾. (٣٧٦)

◆ الثبات حتى التضحية: قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٣٧٧).

المطلب الثاني: مظاهر العناد

من خلال التأمل في سلوك المعاند، يتبين أن العناد لا يظهر على صورة واحدة، بل يتنوع في مظاهره، وإن كانت تجتمع في حقيقته على الإصرار على الباطل ورفض الرجوع إلى الحق. وعليه، فإن أشكال العناد تنقسم إلى قسمين، وهما كالتالي:

أولاً: العناد القولي

وهو العناد الذي يظهر في كلام الإنسان وحواره، حيث يُصرّ على رأيه، ويُجادل فيه، ويرفض التراجع عنه، حتى بعد أن يُبين له الحق بالدليل. ويكون هدفه غالباً الانتصار لنفسه لا الوصول إلى الحقيقة، فيتحول النقاش عنده إلى خصومة وجدال.

ومظاهر العناد عديدة، نذكر منها:

- ◆ رفض الاعتراف بالخطأ رغم وضوح الدليل.
- ◆ الجدل والمكابرة.
- ◆ تكرار نفس الكلام رغم بطلانه.
- ◆ تغيير الموضوع للتهرب من الحق.
- ◆ تأويل الكلام أو تحريفه للهروب من الإقرار بالحق.
- ◆ مقاطعة الآخرين وعدم السماح بإتمام الحجة.

◆ رفع الصوت أو التشدد في الأسلوب لإظهار الغلبة لا طلب الحقيقة.

ثانيًا: العناد العملي

وهو العناد الذي يظهر في سلوك الإنسان وتصرفاته، حيث يُصرّ على فعل أو تركٍ معين، رغم علمه بخطئه أو تنبيهه إليه، دون أن يحتاج إلى جدال أو كلام بل يظهر عناده في استمراره بالفعل ورفضه التغيير. ومظاهره عديدة، منها:

◆ التماذي في الخطأ بعد التنبيه عليه مرارًا.

◆ تجاهل النصيحة دون نقاش.

◆ ترك العمل بالحق رغم الاقتناع به.

◆ الاستمرار في السلوك الخاطيء.

◆ رفض التغيير رغم الضرر.

◆ مخالفة التوجيهات عن قصد لا عن جهل.

◆ الإصرار على العادات الخاطئة لمجرد الاعتياد عليها.

وقد أشارت آياتٌ عديدة إلى بعض هذه المظاهر، ومن أبرزها الآية محلّ البحث في المطلب الآتي:

المطلب الثالث: تفسير الآية

تُبَيِّنُ الآيةُ الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٣٧٨)، مظهرًا رئيسًا من مظاهر العناد، وهو الإصرار على الباطل بعد النصح بدافع الكبر والعزة الكاذبة.

فهذه الآية تُصَوِّر هذا المظهر بوضوح؛ إذ إن هذا الإنسان إذا نُصِح وقيل له: «اتقِ الله واترك الفساد»، لم يقبل النصيحة، بل حمله ما يتوهمه من عزة في نفسه على الإصرار على الإثم، فبدل أن يرجع إلى الحق ازداد تمسكًا بالباطل. ومن أمثلة ذلك:

◆ رجل يُنصَح بترك الغيبة أو الكذب في المجالس، فيغضب ويقول: «هذا طبعي ولن أغيره»، فيستمر في خطئه لا لأنه يجهل الحكم، بل لأنه يأنف من الاعتراف بخطئه أمام الآخرين.

◆ زوج يُبَيِّن له أنه يظلم زوجته في بعض تصرفاته، فيرفض الاعتراف ويزداد قسوة، ويبرّر فعله بأنه «الرجل صاحب القرار»، فيقدّم صورته وهيبته الموهومة على العدل والحق.

◆ عدوٌّ للإسلام يعمل على تشويه الدين ومحاربة قيمه، فيُنصَح وتُعرض عليه الحجج، فيرفضها لا لعدم وضوحها، بل لأنه يأنف من الاعتراف بها، فتأخذه العزة بالإثم، فيتهدى في نشر الشبهات والأكاذيب ومحاربة الحق، من أجل تحقيق أهدافه في السيطرة على الناس واستعبادهم، فيقدّم باطله على الحق رغم وضوحه.

فهذه الأمثلة تُجسّد معنى الآية بوضوح، حيث يُقدّم الكبر وحفظ الصورة أمام الناس على طاعة الله والرجوع إلى الحق.

والمراد بالعزة في قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٣٧٩)، ليست العزة الحقيقية، لأن العزة إنما تكون لله ولرسوله وللمؤمنين، وليست لأهل المعصية والكفر كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣٨٠)، بل المقصود أنه توهم لنفسه عزة كاذبة، فحملته هذه الحالة على الإصرار على الخطأ. أي أن يرى نفسه فوق أن يُنصَح، أو يأنف من التراجع، أو يظن أن الرجوع ضعف.

لذا فالعزة هنا هي الأنفة والكبر وليست الكرامة أو الشرف الحقيقي. وهذا الأمر يمنع من قبول الحق، فيأنف من الرجوع إلى الصواب ويرى التراجع نقصاً، فيصرّ على الخطأ، وهذا من أوضح أسباب العناد.

ثم بيّن الله عاقبة هذا العناد بقوله: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٣٨١)، أي إن نهاية هذا العناد والإصرار والتماذي هي النار، وهو المصير الذي مهّده لنفسه بسوء أفعاله وعناده.

ثم إن الله تعالى لم يقتصر على بيان عاقبة هذا الصنف في موضع واحد، بل صرح بمصير المعاندين في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٣٨٢)، وقوله: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٣٨٣)، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (٣٨٤)، وهذه الآيات تبين أن العناد الذي يقوم على رفض الحق الإلهي بعد وضوحه وقيام الحجّة عليه يجرّ صاحبه إلى الخيبة في الدنيا، وإلى العذاب في الآخرة، لأنه ليس مجرد خطأ، بل موقف قائم على المكابرة والاستكبار.

المبحث الثاني: العناد عبر المراحل العمرية

في هذا المبحث نستعرض ظاهرة العناد في مختلف المراحل العمرية، مع الإشارة في كل مرحلة إلى أبرز مظاهره، وأهم أسبابه، وطرق التعامل معه بصورة مختصرة. على أن التفصيل في تحليل الآثار، وبيان الأسباب بدقة، وطرح أساليب العلاج بشكل موسّع، سنوضحه في الأبحاث التي تلي هذا المبحث.

وأما المراحل فهي كالآتي:

المطلب الأول: العناد في مرحلة الطفولة المبكرة

تُعدّ السنوات السبع الأولى من عمر الطفل مرحلة الطفولة المبكرة، وكثيرًا من الناس يسيئون فهمها. فالطفل في بدايات عمره لا يملك النضج اللفظي الكامل ليشرح دوافعه، فيترجم انفعاله بالصراخ أو الرفض أو البكاء أو طرح نفسه أرضًا أو الامتناع عن التنفيذ. والمصادر النفسية تشير إلى أن هذا القدر من المعارضة قد يكون طبيعيًا في مرحلة السنتين إلى ثلاث سنوات، لأنها مرحلة تمايز الذات وبداية الاستقلال.

ومن أبرز أسباب العناد هنا الرغبة في الاستقلال، وعدم فهم التعليمات، وتعدد الأوامر، والإرهاق، والجوع، والغيرة من مولود جديد، والتدليل الزائد، والقسوة الزائدة. فالطفل الصغير لا يعاند دائمًا لأنه «شرس»، بل قد يعاند لأنه لا يملك لغة أهدأ يعبر بها.

ومن مظاهر العناد في هذه المرحلة الإصرار على لعبة معينة، رفض الطعام أو اللباس أو الاستحمام، البكاء الشديد عند المنع، التشبث بالأشياء، الصراخ أمام الناس، التعمّد في الرفض إذا شعر أن الكبار مرتبكون.

والخطأ الشائع هنا أن يدخل الوالدان مع الطفل في معركة كسر إرادة بأن يصرّ، وهما يصرّان، فيتحول الموقف كله إلى سؤال: من الغالب؟ والجواب الصحيح أن المربي ليس في مسابقة مع الطفل، بل في مهمة تربية. ولهذا كان من أنفع الأساليب: تقليل كلمة «لا» ما أمكن، إعطاء أوامر قليلة وواضحة، تحويل الانتباه عند الصغير، وعدم منحه ما يريد بسبب نوبة العناد، مع عدم إذلاله أو ضربه. كما أن الثناء على التعاون، وإشعاره بأنه محبوب، وتقديم بدائل مناسبة، وسائل نافعة جدًا في هذا السن. وهذه المعاني منسجمة مع ما تقرره الإرشادات الحديثة من أن التعزيز الإيجابي، والثبات، وبناء العلاقة،

أنفع من العقاب القاسي أو الجدل الطويل.

مثال: طفلة في الرابعة أصرت على شراء لعبة في السوق، وبدأت بالصراخ. التصرف الخاطيء أن نصرخ عليها، أو نضربها، أو نشترى اللعبة لنسكتها. أما التصرف الصحيح فهو أن تكون القاعدة من الأصل واضحة: «اليوم لن نشترى ألعاباً»، ثم إذا بدأت النوبة نثبت على الموقف، مع هدوء في الصوت، وحمل الطفلة أو إخراجها من الموقف إن لزم، دون مفاوضة طويلة داخل ذروة الانفعال. وبعد أن تهدأ، تُشرح لها القاعدة ببساطة، ويُثنى عليها في المرة التالية إذا أحسنت التصرف ولمعرفة المزيد راجع كتاب لمسات تربية الجزء الثالث. (٣٨٥)

المطلب الثاني: العناد في مرحلة الطفولة المتأخرة

في هذه المرحلة يزداد وعي الطفل بنفسه وبالآخرين، ويصبح أكثر قدرة على المقارنة، وأشد حساسية للعدل، وأقوى رغبة في أن يُعامل باحترام. ولذلك قد لا يظهر العناد هنا في صورة بكاء فقط، بل في صورة ممانعة، أو تسويف، أو جدال، أو ادعاء ظلم، أو مقاومة غير مباشرة.

ومن أسباب العناد في هذه المرحلة كثرة النقد، المقارنات بين الإخوة، الإحراج أمام الناس، الظلم في توزيع المسؤوليات، عدم شرح سبب الأوامر، وحرمان الطفل من الشعور بأهميته. كما أن إحساسه بأن أحد إخوته مفضل عليه قد يدفعه إلى سلوك احتجاجي مزمن.

وفي هذه السن ينبغي أن تنتقل من مجرد الأوامر إلى التفسير والمشاركة. فبدل أن يكون الخطاب كله: «افعل، لا تفعل، أسرع، اسكت، اجلس.. إلخ»، ينبغي أن يسمع الطفل: «ما رأيك؟ كيف ننظم وقتك؟ ما الحل المناسب؟ ماذا تقترح؟» لأنه كلما شعر أن له مكانة، خفّ احتياجه إلى إثبات نفسه بالمخالفة.

ومن الأساليب النافعة هنا تكليفه بمهمات واقعية، وتعليمه النتائج المنطقية للأفعال، لا العقوبات الاعباطية، وإشراكه في وضع بعض القواعد المنزلية، والثناء على جهده لا على شخصه فقط، حتى لا يعيش ضغط الصورة المثالية. كما يفيد جداً في هذه المرحلة سرد القصص الهادفة، وضرب الأمثلة، وربط الطاعة بالقيم لا بالخوف وحده.

مثال: طفل في التاسعة يرفض ترتيب أغراضه كل يوم. لا نبدأ بوصفه بالفوضوي والعنيد، ولا نقارنه بإخوته. بل نقول له: «هذه مسؤوليتك، ونحن سنساعدك أن تجعلها أسهل. ما الوقت الأنسب لترتيبها؟» ثم نضع قاعدة ثابتة ونربطها بنتيجة منطقية، كأن اللعب الجديد لا يُعطى قبل ترتيب القديم. فإذا التزم، مُدح التزامه. وإذا لم يلتزم، نرفع الألعاب فعلاً دون نقاش أو انفعال، ليشعر أن النتيجة مرتبطة بسلوكه مباشرة، لا بمزاج المربي.

المطلب الثالث: العناد والتمرد في مرحلة المراهقة

هذه المرحلة تحتاج إلى فهم خاص دقيق؛ لأن المراهق لا يعود طفلاً صغيراً، ولا هو راشد كامل. وقد قرّرت المراجع النفسية أن الميل إلى المعارضة قد يظهر طبيعياً في هذه السن بوصفه جزءاً من البحث عن الهوية والاستقلال، لكن الخطر يبدأ حين يتحول إلى نمط دائم من الخصومة والتحدي وتعطيل الحياة.

ومن أهم أسباب العناد في المراهقة: الرغبة في الاستقلال، الحساسية الزائدة للإهانة، التناقض بين ما يُقال له وما يراه من سلوك الكبار، التضييق غير المقنع، الشعور بانعدام الثقة، الصحبة السيئة، التأثر بالمحتوى الإعلامي العنيف أو المتمرد، والفراغ العاطفي داخل الأسرة. كما أن المراهق إذا لم يجد

في البيت مساحة للحوار، ذهب يلتمس الاعتراف بوجوده خارج البيت، وأحياناً في دوائر خطيرة.

ومن علامات العناد الخطير هنا الجدال الدائم، احتقار التوجيه، الانفجار السريع، تأنيب الوالدين علناً، تحميل الجميع المسؤولية، رفض الأنظمة المعقولة لمجرد أنها صادرة من الأسرة، التحالف مع الرفاق ضد البيت، والتماهي في الخطأ بعد وضوح عاقبته.

والعلاج في هذه المرحلة لا ينجح بالعنف؛ لأن العنف يُشعل الصراع ولا يطفئه، كما لا ينجح بالترك بلا ضوابط؛ لأن المراهق يحتاج إلى حدود واضحة تضبط سلوكه. وإنما ينجح بمزيج متوازن من الاحترام والحزم، قائم على بناء علاقة قريبة قائمة على المصادقة الواعية، فيشعر المراهق أن المرابي قريب منه لا خصم له. فنحترم عقله ونشركه ونسمعه ونشرح له ونفتح معه باب الحوار ونفاوضه في المساحات القابلة للتفاوض، مع الثبات في الثوابت الشرعية والأخلاقية. فالمراهق يريد أن يشعر أن له وزناً وقيمة، لا أن يكون مجرد منفذ أعمى.

مثال: مراهق يرفض العودة إلى البيت في الوقت المتفق عليه.

الأسلوب الخاطيء: «أنت فاشل، لن تربي أبداً، كل الناس أولادهم أحسن منك».

الأسلوب الصحيح: «ولدي اتفقنا على وقت للعودة، وأنا أحبك لأنك ابني، ومكانتك عندي محفوظة، لكن هذا التصرف لا أقبله. وتأخرك يحتاج أن نفهمه. أخبرني ماذا حصل؟ نريد أن نعالج السبب، ثم نضع معاً طريقة واضحة حتى لا يتكرر ذلك. حريتك محفوظة، لكنها مرتبطة بالالتزام بما نتفق عليه».

هذا التفريق بين الشخص والسلوك مهم جداً؛ لأنك إذا جرّمت الشخص كله، دفعته إلى مزيد من التمرد.

المطلب الرابع: العناد في مرحلة الشباب وما بعدها

الخطأ الشائع أن الناس يربطون العناد بالأطفال والمراهقين فقط، مع أن عناد الكبار أشد خطراً؛ لأن الصغير يمكن توجيهه سريعاً، أما الكبير فقد يلبس عناده ثوب الكرامة أو الخبرة أو «الشخصية القوية».

وفي الحياة الزوجية يكون العناد من أخطر أسباب استنزاف المودة. فالزواج لا يقوم على الانتصار للنفس، بل على السكن والرحمة والتفاهم. فإذا تحوّل الخلاف إلى مباراة: من يتراجع أولاً؟ بدأت العلاقة تنزف. وليس المقصود بالعناد الزوجي أن يملك أحد الطرفين رأياً، بل المقصود أن يتمسك به بعد وضوح ضرره، أو أن يرفض الاستماع للطرف الآخر، أو أن يصر على إثبات ذاته بإفشال التفاهم.

وقد بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خطورة هذه الصفة، فعَدَّ مَنْ يَتَصَفَّ بِهَا بِأَنَّهُ مِنْ شَرَّارِ النَّاسِ، حَيْثُ قَالَ: «شَرَّارِ نَسَائِكُمْ ... اللَّجْجُوجَةُ الْعَاصِيَةُ..» (٣٨٦).

ومن أسباب العناد الزوجي: الكبر، الجروح القديمة غير المعالجة، سوء الظن، الغيرة غير المنضبطة، الشعور بعدم التقدير، التربية السابقة، البيئة التي تمجد التشدد، وتكرار لغة التحدي داخل البيت. وقد يكون الزوج سبباً في عناد زوجته إذا عاملها باستخفاف، وقد تكون الزوجة سبباً في تصلب زوجها إذا قابلت كل نقاش بروح الاستفزاز. فالمشكلة هنا تفاعلية غالباً، لا أحادية.

والحل يبدأ من قاعدة شرعية وأخلاقية عظيمة، هي أن الحياة الزوجية ليست ساحة كسر، بل ميثاق غليظ. وأن الرجوع إلى الحق ليس هزيمة، بل نضج. وأن من الحكمة ترك الجدل في الصغائر حتى لا يبتلع الكبار. وأن الأطفال يجب ألا يتحولوا إلى أدوات في صراع الأبوين؛ لأن ذلك يهدم أمنهم النفسي ويورثهم صوراً من العناد في مستقبلهم.

المبحث الثالث: مساوئ العناد

العناد إذا ترك دون علاج لا يبقى سلوكاً بسيطاً، بل يتحول إلى مشكلة تترك آثاراً نفسية وتربوية واجتماعية وشرعية، تؤثر في عقل الإنسان، وعلاقاته، وسلوكه، بل وحتى في دينه. ومع الوقت تتسع هذه الآثار وترسخ حتى تصبح جزءاً من شخصيته. ويمكن توضيح هذه الآثار بشكل واضح مع أمثلة واقعية كما يلي:

١. ضياع الحق والوقوع في الظلم

العناد يدفع الإنسان إلى رفض الاعتراف بالخطأ، وعدم الرجوع إلى الحق، فيؤدي ذلك إلى ضياع الحقوق، سواء حقه أو حق غيره، وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللجاج بذر الشر»^(٣٨٧)، أي أن الإصرار على الباطل أصل لكثير من الفساد.

مثال (للأولاد): مراهق يُبين له أنه ظلم أخاه، ويُطلب منه الاعتذار، فيرفض بعناد ويُصرّ على موقفه، فيستمر الظلم وتضيع العلاقة بينهما.

مثال (للکبار): زوج يُنصح بوجوب النفقة على زوجته، فيرفض ويتهرّب بحجج واهية، فيضيع حقها الشرعي بسبب عناده.

٢. إفساد العلاقات وإثارة النزاعات

العناد يخلق جواً من التوتر، ويُضعف المودة، ويحوّل الحوار إلى نزاع مستمر، وقد يصل إلى خصومات شديدة، كما ورد عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللجاج مثار الحروب». (٣٨٨)

مثال (للأولاد): مراهق يُعارض والديه في كل توجيه، لا بحثاً عن الصواب، بل لمجرد إثبات نفسه، فيتحول الحوار داخل البيت إلى جدال دائم، وتكثر المشادات، ويضعف الشعور بالألفة، حتى يصبح البيت ساحة توتر بدل أن يكون موطن سكينة.

مثال (للكبار): زوجان يصرّ كل منهما على رأيه في أمور يسيرة، كتنظيم الوقت أو أسلوب إدارة المنزل، فيرفض أحدهما التنازل أو التفهّم، فتتراكم الخلافات الصغيرة حتى تتحول إلى نزاعات مستمرة، ويضيع جو المودة، وتفقد الحياة استقرارها تدريجياً.

٣. إغلاق باب التعلم والتطور

المعاند يرفض مراجعة نفسه أو تصحيح خطئه، فيغلق على نفسه باب التعلّم، لأنه يتوهّم أن التراجع ضعف، مع أن الرجوع إلى الحق هو الكمال بعينه، فيبقى في مكانه ولا يتقدّم.

مثال (للأولاد): مراهق يعمل في مجال التصميم، ويُطلب منه الالتحاق بدورة لتعلّم أصول التصميم وتطوير مهاراته، فيرفض بعناد ظناً أنه لا يحتاج إلى ذلك، فيبقى فترة طويلة في مستوى ضعيف ولا يتقدّم كمحترف.

مثال (للكبار): شخص يُعرض عليه الاطلاع على كتب وأدلة موثوقة تُبيّن الحق في اعتناق مذهب التشيع، فيرفض حتى القراءة بسبب التعصّب والعناد، فيبقى على ما هو عليه دون أن يفتح لنفسه باب الهداية والمعرفة.

٤. التعود على الظلم وضياع الحقوق

العناد قد يدفع الإنسان إلى إنكار الحق أو الدفاع عن الباطل، فيضيع حقه وحقوق الآخرين. رُوي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جماع الشر اللجاج وكثرة المهارة».^(٣٨٩)

مثال (للأولاد): طفل كسر غرضاً في المنزل، ولما سُئل أنكر بعناد رغم وضوح الأمر، فترك الاعتراف لأنه لا يعرف الحق، بل لأنه لا يريد تحمّل نتيجته. ومع تكرار هذا السلوك، يعتاد الهروب من المسؤولية، فيضيع حق الآخرين ولا يتربّى على العدل.

مثال (للكبار): موظف أخطأ في عمله فتسبب بضرر لزميله، ولما نُوقش أصرّ بعناد على إنكار خطئه، حفاظاً على صورته أمام الآخرين. فاستمر الظلم، ولم يُنصف المظلوم، وتحول العناد إلى وسيلة لمصادرة الحقوق بدل إرجاعها إلى أهلها.

٥. تضحّم المشكلات وتعقدها

العناد يجعل المشكلة الصغيرة تكبر، لأن صاحبها يرفض الحلول والتنازل، فيتعقد الأمر مع الوقت. رُوي عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللجاج أكثر الأشياء مضرة في العاجل والآجل»^(٣٩٠)، أي أن اللجاجة تُسبب ضرراً سريعاً بتعقيد المشكلات، وضرراً لاحقاً بتراكمها واستمرارها.

مثال (للأولاد): طفل يعاند في أداء واجباته، فتتراكم عليه الدروس ويضعف مستواه.

مثال (للكبار): خلاف بسيط بين الزوجين يتحول إلى مشكلة كبيرة بسبب الإصرار وعدم التراجع.

٦. الخسائر المادية والمعنوية والندم

الإصرار على الخطأ قد يجرّ الإنسان إلى خسائر في المال أو الصحة أو السمعة وينتهي غالبًا بالندم، كما ورد عن الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّجَاجَةُ مَسْلَبَةٌ لِلْسَّلَامَةِ، وَمُؤَدِّيَةٌ إِلَى النَّدَامَةِ». (٣٩١)

مثال (للأولاد) عن فقدان السلامة المعنوية: مراهق يرفض الاستماع لنصائح الأطباء بضرورة علاج مرضه، ويصر بعناد على أنه بصحة جيدة، حتى تتفاقم حالته ويصل إلى مرحلة يصعب علاجها، فيندم حيث لا ينفع الندم..

مثال (للكبار) عن فقدان السلامة المادية: رجل يُنصح بعدم الدخول في مشروع تجاري غير مدروس، لكن بعناده يصرّ على استثماره، رغم تحذيرات الخبراء، فيخسر ماله ويندم لاحقًا.

٧. النفور الاجتماعي وفقدان القبول

كثرة العناد والجدال تجعل الإنسان مكروهًا بين الناس، لأن الناس تميل إلى الهادئ المتوازن، وقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خير الأخلاق أبعدها عن اللجاج». (٣٩٢)

مثال (للأولاد): طفل كثير العناد يتعد عنه أصدقائه لأنه صعب التعامل. مثال (للكبار): شخص يُجادل في كل أمر لأنه عنيد، فيتجنبه الناس ولا يرغبون في التعامل معه.

٨. إضعاف الالتزام والإيمان العملي

العناد يقوم على رفض الحق، وهذا يضعف روح التسليم لله، لأن الإيمان الحقيقي هو قبول الحق والانقياد له. روي عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال:

«من لج وتمادى فهو الراكس^(٣٩٣) الذي ران الله على قلبه، وصارت دائرة السوء^(٣٩٤) على رأسه»^(٣٩٥). فالإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يبيّن أن من يصّر على العناد ويتماذى فيه، يُصاب بانغلاق القلب، فلا يعود يتقبل الحق ولا ينقاد له، وهذا من آثار ضعف الإيمان؛ لأن الإيمان الحقيقي يثمر التسليم، لا المكابرة والاستمرار في الباطل.

مثال (للأولاد): طفل يُطلب منه الالتزام بالصلاة أو النظام، فيرفض بعناد، فيعتاد عدم الالتزام.

مثال (للكبار): شخص يُذكّر بحكم شرعي، فيرفضه بعناد لأنه لا يريد تغيير نفسه.

٩. إفساد التفكير والبصيرة

المعاند لا يزن الأمور بميزان الحق، بل بميزان نفسه، فيضعف حكمه وقدرته على اتخاذ القرار الصحيح، كما ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللاجوج لا رأي له»^(٣٩٦).

مثال (للأولاد): مراهق يُنصَح بالابتعاد عن صديق سيئ، ويُذكّر بنصوص أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في اختيار الصاحب، لكنه يرفض بعناد ويتمسك به، لا لأنه مقتنع، بل لأنه لا يريد التراجع، فيضعف حكمه ويُسيء الاختيار.

مثال (للكبار): رجل أودع أمواله كلها عند شخص وثق به، رغم تحذير من حوله، وتذكيره بأن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يأمرّون بالثقة المطلقة بأحد، لكنه أصرّ بعناد على رأيه، فتعرض للنصب وضاعت أمواله، وكان عناده سبباً في فساد تقديره وخسارته.

المبحث الرابع: علاج العناد

المطلب الأول: علاج أسباب العناد

العناد في حقيقته ليس مجرد سلوك ظاهر يُرى، بل هو نتيجة لأسباب خفية قد تكون نفسية أو تربوية أو مرضية، تدفع الإنسان إلى الإصرار ورفض التراجع.

يرى المتخصصون أن علاج العناد لا يتم بأسلوب واحد، بل يبدأ بفهم أسبابه بدقة، والتأكد من وجودها عند الشخص، والأفضل سؤاله بهدوء عن سبب عناده، ثم العمل على معالجة هذه الأسباب معالجة مناسبة؛ لأن علاج السبب يُضعف السلوك أو يزيله من جذوره.

وفيما يأتي بيان لأهم أسباب العناد:

١. حبّ الذات غير المنضبط (التكبر وحبّ النفس الزائد)

حبّ الإنسان لنفسه أمر طبيعي، بل هو مطلوب إذا كان معتدلاً، بحيث يرى لنفسه قيمة، ويقبل الحق، ويستعد لتصحيح خطئه. لكن إذا زاد هذا الحب عن حدّه، تحوّل إلى تكبر، فيرفض الإنسان التراجع، ويقدم رأيه على الحق، ويعاند لا لأنه على صواب، بل لأنه لا يريد أن يظهر بمظهر المخطئ أمام الناس أو حتى أمام نفسه.

مثال: شخص يُنصح بخطئه، فيغضب ويصّر على رأيه فقط لأنه لا يريد أن يبدو مخطئاً أمام الناس.

العلاج: إن أنجع طريقة لعلاج التكبر هي أن يتذكر مآثر التواضع ومحاسنه، ومساوى التكبر وآثامه، وأن يلتفت الإنسان أكثر إلى نقائصه.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الصدد: «ما لابن آدم والعُجب! وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة»^(٣٩٧)، فإن بدايته ماء فاسد، ونهايته جيفة متعفّنة قذرة وهو بينهما يحمل القاذورات والفضلات. فما الذي يُمكن أن يتفاخر به موجود كهذا؟

وينبغي تعليمه أن الرجوع إلى الحق قوة لا ضعف، وربطه بالقيم الشرعية كقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اصبر على مرارة الحق، وإياك أن تنخدع لحلاوة الباطل»^(٣٩٨)، وتعويده على التواضع والاعتذار دون توبيخ.

٢. القسوة في التربية (التسلط والعقاب الشديد)

عندما تقوم التربية على القسوة، سواء في الأسلوب كالأوامر الجافة وإلغاء شخصية الإنسان، أو في العقاب كالتهديد والضرب والإهانة، يتكوّن في داخله شعور بالرفض والغضب، فيتحوّل هذا الشعور إلى ردّة فعل تظهر على شكل عناد. فهو لا يعاند رفضاً للحق بقدر ما يعاند تعبيراً عن اعتراضه على القسوة، أو انتقاماً نفسياً ممّن ظلمه، فيجعل العناد وسيلته للدفاع عن نفسه أو للردّ على ما يشعر به من قهر.

مثال: مراهق يتلقى أوامر بشكل مباشر ومتكرر، دون شرح أو حوار أو مراعاة لشخصيته، فيبدأ بمخالفة الأوامر ليثبت ذاته، أو طفل يُعاقب بالضرب كلما أخطأ، فيزداد عناداً ويكرر الخطأ لأنه يشعر بالظلم.

العلاج: يكون بالانتقال من القسوة إلى الحزم الهادئ، فيبيّن الخطأ بأسلوب واضح دون إهانة أو عنف، مع الحوار والإقناع، وإشعار الإنسان بقيمته واحترام رأيه، وإذا استحقّ العقاب، فيكون تربوياً مشروعاً لا انتقاماً، كحرمان مؤقت من بعض الامتيازات، وبأسلوب هادئ مرتبط بالخطأ. ويُعزّز السلوك الصحيح بالتشجيع، لأن التربية تقوم على التقويم لا الكسر.

٣. التدليل الزائد (تعليم العناد دون قصد)

الولد الذي يحصل على ما يريد بالإصرار والتحدي يتعلم أن العناد وسيلة ناجحة لتحقيق حاجاته، فيستخدمها باستمرار.

مثال: طفل يطلب شيئاً فيرفض طلبه، فيبدأ بالبكاء والإصرار، فيستجيب له والداه لإسكاته، فيتعلم أن العناد وسيلة ناجحة للحصول على ما يريد، فيكرره في كل مرة. وكذلك المراهق إذا أراد الخروج في وقت غير مناسب، فيُنصح بعدم الذهاب، فيُظهر الحزن أو الغضب أو الإلحاح حتى يلين الطرف الآخر، فيستجاب له، فيترسّخ لديه أن الضغط والعناد طريق لتحقيق رغباته.

العلاج: يكون بالحزم مع الهدوء، فلا يُستجاب لعناده مهما أظهر من بكاء أو إلحاح، لأن شراء جهاز إلكتروني لإسكاته يُعلّمه أن الضغط وسيلة ناجحة لتحقيق ما يريد. بل يُترك حتى يهدأ، ثم يُخاطب بلطف ويُبيّن له السبب.

مثال: إذا أصرّ على شراء جهاز إلكتروني، يُقال له بهدوء: «لن نشترى هذا الجهاز الآن، لأنك لا تحتاجه في هذا الوقت، والإلحاح لا يغيّر القرار»، ثم يُحوّل انتباهه إلى أمر آخر دون تراجع. ومع تكرار هذا الأسلوب، سيفهم أن العناد لا ينفع، وأن الطلب الهادئ هو الطريق الصحيح.

٤. عدم إشباع الحاجات الأساسية والعاطفية

عندما لا تُلبى حاجات الإنسان بشكل متوازن، سواء كانت حاجات أساسية كالحاجة إلى الراحة واللعب وتنظيم الوقت، أو حاجات عاطفية كالحب والاهتمام والتقدير، يتكوّن داخله شعور بالنقص والحرمان، فيلجأ إلى العناد ليُعبّر عن هذا النقص بطريقة غير مباشرة، لا لأنه يرفض الأمر في حدّ ذاته، بل لأنه يشعر أن شيئاً مهماً في داخله لم يُراعَ.

مثال: طفل لم يُعطَ حقه من الراحة أو اللعب، أو لا يجد اهتمامًا وتقديرًا من والديه، فيبدأ بالرفض والعناد، لا لأنه يكره الطاعة، بل لأنه يريد أن يُشبع حاجته أو يلفت الانتباه إلى ما يفتقده. وكذلك قد تعاند الزوجة أو الزوج إذا شعر أحدهما بالإهمال أو عدم التقدير.

العلاج: يكون بإعطاء الإنسان حقه من الحاجات الأساسية والعاطفية معًا، بتنظيم وقته بما يحقق التوازن بين الراحة والواجب، وعدم تحميله ما لا يطيق. كما يحتاج إلى إشباع جانبه العاطفي بإظهار المحبة الصادقة، لا بالكلام فقط، بل بالفعل أيضًا؛ كالتعبير له بكلمات طيبة، واحتضانه، وتقبيله، والرفق به، والوفاء بالوعود معه، وإشعاره بقيمته ومكانته.

ومن المهم أيضًا منحه الاهتمام الحقيقي، والإنصات له، وفتح باب الحوار ليعبرَ عما في نفسه دون خوف أو تجاهل، مع تكليفه بمهام مناسبة يشعر من خلالها بأهميته. فمتى أُشبعَت هذه الحاجات، هدأت النفس، ولم تعد بحاجة إلى العناد لتعبرَ عن نفسها.

٥. التذبذب في التربية وعدم ثبات القواعد

عندما يضع أحد الوالدين قاعدة ثم يأتي الآخر فيخالفها، يضطرب فهم الطفل ولا يعرف أيهما يتبع، فيفقد الإحساس بوجود نظام واضح، ويلجأ إلى العناد ليجرّب ويضغط حتى يحصل على ما يريد. فهو يتعلّم من الأسرة أن القوانين قابلة للكسر، وأن الإصرار قد يغيّر القرار.

مثال: يقرّر الأب أن استخدام الهاتف ساعتان فقط يوميًا، فتأتي الأم وتسمح له بالزيادة، أو العكس. وعندما يُطلب منه الالتزام، يعاند ويُصرّ على الاستمرار، لأنه تعلّم عدم وجود قانون ثابت، وأنه يستطيع تجاوزها بالضغط أو الانتقال إلى الطرف الآخر.

العلاج: وضع نظام واضح وثابت، والتزام جميع أفراد الأسرة به، لأن الثبات يولد الطمأنينة ويقلل العناد.

٦. الرغبة في إثبات الذات والاستقلال

في بعض المراحل العمرية، خاصة في الطفولة المتأخرة والمراهقة، يبدأ الإنسان بالشعور برغبته في الاستقلال، فيميل أحياناً إلى العناد لا رفضاً للأمر نفسه، بل ليثبت أن له رأياً وشخصية مستقلة.

مثال: يُعرض على الطفل لباس معين، فيرفضه بعناد، لا لأنه لا يعجبه بالضرورة، بل لأنه يريد أن يختار بنفسه ويشعر أن له قراراً.

العلاج: إعطاؤه مساحة آمنة للاختيار ضمن حدود، كأن يُقال له: «اختر بين هذين اللباسين»، مع إشراكه في بعض القرارات المناسبة لعمره، حتى يشعر بقيمته واستقلاله، دون أن يتحول ذلك إلى فوضى أو عناد.

٧. انعدام الثقة بالنفس

الشخص الذي يفتقد الثقة بنفسه يخشى الوقوع في الخطأ أو الظهور بمظهر الضعف، فيلجأ إلى العناد كوسيلة لإخفاء هذا الشعور، فيتمسك برأيه أو يرفض المحاولة حتى لا ينكشف نقصه أمام الآخرين.

مثال: طالب يُطلب منه تصحيح خطئه أو أداء مهمة أمام زملائه، يرفض ويعاند، لا لأنه غير مقتنع، بل خوفاً من أن يبدو ضعيفاً.

العلاج: تقوية ثقته بنفسه تدريجياً من خلال التشجيع، وتجنب توبيخه أو إحراجة عند كل خطأ، وتعليمه أن الخطأ جزء طبيعي من التعلم، وأن المحاولة أفضل من التراجع. وللتوسع أكثر فيما يتعلق بالثقة بالنفس في مرحلة الطفولة يُراجع كتاب لمسات تربية الجزء الثاني^(٣٩٩).

٨. الشعور بالظلم أو ضياع الحقوق

عندما يشعر الإنسان أنه لا يُعامَل بعدل، أو أن حقه يُهمل أو يُنتقص، يتكوّن داخله رفضٌ واعتراض، فيظهر هذا الرفض على شكل عناد؛ لا حبًّا بالمخالفة، بل دفاعًا عن نفسه وإثباتًا لكرامته.

مثال: زوجة تبذل جهودها في بيتها، لكنها لا تُقدَّر ولا يشكر زوجها تعبها، ثم يُطلب منها أمر إضافي، فترفض بعناد، لا لأنها لا تستطيع، بل لأنها تشعر أن حقوقها غير محفوظة.

العلاج: يكون بإنصاف المعاند وإعطائه حقه، وعدم ظلمه أو تجاهل تعبها، مع شكره وتقديره. وإن لم يُعرف موضع الظلم، فليُفتح باب الحوار معه ليُعبّر عما في نفسه ويستمع إليه بهدوء. فإذا ادّعى أنه مظلوم أو مسلوب حقه، وأنكر الطرف الآخر، فليُرجع في ذلك إلى مرجع التقليد الجامع للشرائط، ويُسلّم بحكمه.

٩. الحماية الزائدة والتدخل المستمر

عندما يُبالغ المربي في مراقبة الطفل والتدخل في كل تفاصيله، يشعر الطفل بأنه مقيد ولا يُسمح له بالتصرف، فيظهر العناد كردّ فعل ليُثبت أنه يملك إرادة واختيارًا.

مثال: أم لا تترك طفلها يختار لعبته أو طريقته في اللعب، وتوجّهه في كل خطوة، فيبدأ الطفل بمخالفتها والإصرار على العكس، لا حبًّا بالمخالفة، بل لأنه يريد أن يشعر بالاستقلال.

العلاج: إعطاء الطفل قدرًا مناسبًا من الحرية في الأمور البسيطة التي تناسب عمره، مع توجيه هادئ دون سيطرة زائدة، ليُشعر أنه قادر على الاختيار ضمن حدود واضحة، فيقلّ عنده الدافع للعناد.

١٠. الغيرة والمقارنة بين الأبناء

عندما يشعر الطفل بأنه أقل اهتماماً من غيره، يتكوّن داخله شعور بالغيرة والرفض، فيظهر هذا الشعور على شكل عناد، وكأنه يقول: أنا موجود فلا تتجاهلوني.

مثال: طفل كان يحظى باهتمام والديه، ثم جاء أخ أصغر فتركز الاهتمام عليه، فيبدأ الطفل الأكبر بالعناد والمخالفة، لا لأنه سيئ، بل لأنه يشعر أنه فقد مكانته.

العلاج: العدل بين الأبناء في الاهتمام والتعامل، وتجنّب المقارنة، مع طمأنة الطفل بمحبته ومكانته، وإشراكه بلطف في رعاية أخيه، ليشر أنه مهم لا مُهمَل، فيزول دافع العناد.

١١. التوتر الأسري والبيئة المضطربة

عندما يعيش الفرد في جو مليء بالمشاكل والصراخ والتوتر، قد يمتلئ داخله بالقلق والانعراج، وقد لا يستطيع التعبير عنه بشكل صحيح، فيخرج ذلك على صورة عناد وانفعال، وكأنه يفرّغ ما بداخله من ضغط.

مثال: طفل يسمع الشجار بين والديه باستمرار، فيصبح سريع الغضب ويرفض الأوامر بعناد، لا لأنه يرفضها في حد ذاتها، بل لأنه متوتر بسبب الجو الذي يعيش فيه.

العلاج: تقليل النزاعات أمام الأبناء قدر الإمكان، وخلق جو هادئ يشعر فيه الطفل بالأمان، مع احتوائه والحديث معه بلطف، لأن الاستقرار النفسي يُخفف من التوتر، وبالتالي يقلّ العناد تدريجياً.

١٢ . الضغوط النفسية والتعب (العناد المؤقت)

في بعض الأحيان لا يكون العناد ناتجاً عن خلل في التربية، بل عن حالة عارضة كالتعب أو الجوع أو الضغط، يفقد الإنسان قدرته على التحمّل، ويظهر العناد كردّ فعل مؤقت لا يعكس طبيعته.

مثال: طفل لم ينم جيداً أو عاد من المدرسة مرهقاً، فيُطلب منه أداء واجب، فيرفض بعناد غير معتاد، لا لأنه يرفض أصلاً، بل لأنه متعب. العلاج: مراعاة حالته النفسية والجسدية، وتأجيل الطلب أو تخفيفه، مع إعطائه وقتاً للراحة، ثم إعادة الطلب بهدوء، لأن زوال السبب غالباً يُنهي العناد دون حاجة إلى مواجهة.

١٣ . الحالة المرضية أو الاضطرابات السلوكية

قد يكون العناد في بعض الحالات ناتجاً عن سبب مرضي أو اضطراب سلوكي، كفقرط الحركة وتشتت الانتباه، أو بعض الاضطرابات الانفعالية، فيظهر العناد بصورة متكررة وشديدة تفوق الطبيعي، لا لأنه يرفض الحق، بل لأنه يواجه صعوبة في التحكم بسلوكه أو الاستجابة للتوجيه.

مثال: صبي يُطلب منه الجلوس أو إنجاز مهمة بسيطة، فيرفض بعناد ويكثر حركته ويقاطع باستمرار، رغم تكرار التوجيه، فيُظن أنه عنيد، بينما هو يعاني من تشتت يجعله غير قادر على الالتزام بسهولة.

العلاج: لا يُعالج هذا النوع بالقسوة أو العقاب، بل بالفهم والتشخيص الصحيح، مع تنظيم البيئة، وتقسيم المهام إلى خطوات قصيرة، واستخدام التعزيز الإيجابي، والصبر في التوجيه. وإذا استمرّت الحالة بصورة لافتة، يُستعان بمتخصص؛ لأن العلاج هنا تربوي وعلاجي معاً، لا سلوكي فقط.

المطلب الثاني: التوجيهات التربوية لعلاج العناد

علاج العناد لا يتحقق بأسلوب واحد، بل يحتاج إلى مجموعة من التوجيهات التي تعالج القلب والعقل والسلوك معاً؛ لأن العناد يرتبط بضعف الإيمان، وغلبة الهوى، وسوء التفكير. ومن أهم هذه النصائح ما يأتي:

١. القضاء على الأسباب:

ذكرنا في المطلب السابق أن هناك جذوراً وأسباباً للعناد، منها: القسوة والتسلط، التدليل الزائد، والإهمال العاطفي، والضغط النفسية والتعب، والتكبر والغرور إلى غير ذلك من الأسباب، فبالقضاء على هذه الأسباب يمكن معالجة العناد.

٢. التفكير في العواقب قبل الإصرار:

من أهم وسائل علاج العناد أن يتوقف الإنسان قبل الإصرار، ويسأل نفسه: إلى أين سيقودني هذا الموقف؟ فالتأمل في نتائج العناد وما يترتب عليه من خسائر في الدين أو العلاقات أو المصلحة، يساعد على ترك التمسك بالرأي الخاطئ؛ لأن العاقل لا ينظر إلى لحظة الانفعال، بل ينظر إلى ما بعدها من نتائج.

فكم من عناد أدّى إلى خسارة صديق، أو توتر أسري، أو ضياع حق، أو ندم بعد فوات الأوان. ولو تأمل الإنسان قليلاً قبل الإصرار، لو فر على نفسه كثيراً من هذه الخسائر.

وقد تقدّم بيان هذه العواقب والآثار بالتفصيل في مبحث مساوئ العناد، مما يؤكد أن التفكير في النتائج قبل التمسك بالموقف من أهم مفاتيح العلاج.

٣- تمييز الحق عن الباطل:

ذكرنا سابقاً أن العناد المذموم هو الإصرار على الباطل ورفض الحق، بينما العناد الممدوح هو الثبات على الحق ورفض الباطل. ولذلك فإن أول خطوة في علاج العناد هي أن نتحقق: هل هذا الإصرار على الحق أم على الباطل؟ لأن الإنسان قد يكون متمسكاً بالباطل وهو يظنه حقاً.

ومع الأسف، كثير من الناس يعاندون وهم يعتقدون أنهم على صواب، لأن كل طرف يرى نفسه محقاً، فيقع الخلط بين الرأي والحق، فيتمسك الإنسان برأيه لا لأنه حق، بل لأنه رأيه. ولهذا لا بد من ميزان يُرجع إليه، لا يتغير بالأهواء ولا بالأشخاص ليتأكد هل هو مع الحق أم مع الباطل؟ أي هل هو مع الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾^(٤٠٠)، أم مع الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾^(٤٠١)؟

وقد أرشد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا الميزان بقوله: «إنَّ الحقَّ لا يُعرف بالرجال، وإنَّما الرجال يُعرفون بالحق، فاعرف الحق تعرف أهله»^(٤٠٢). فليس كل من قال قولاً يتَّبَع، بل يُعرض كلامه على الحق أولاً.

ولتقريب ذلك: كما أن من أراد معرفة القياس الصحيح لورقة لا يعتمد على الظن، بل يرجع إلى ميزان دقيق وهي المسطرة، كذلك من أراد معرفة الحق لا يرجع إلى ميوله أو إلى الأشخاص، بل يعرض الأمر على ميزان الشريعة، وذلك بالرجوع إلى القرآن، وتعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عن طريق سؤال مرجع التقليد الجامع للشرائط عند الاشتباه والتسليم لرأيه. فإذا تربى الإنسان على هذا الميزان، زال عنه العناد، لأنه لم يعد يدافع عن رأيه، بل يبحث عن الحق ويتبعه حيث كان.

٤- ذكر الله تعالى:

ذكر الله يُعيد قلب المعاند إلى ميزانه الصحيح، فيُذكّر الإنسان أنه عبدٌ لله لا لهواه، فيلين قلبه ويستعد للرجوع إلى الحق دون مكابرة. فالمعاند إذا غفل اتبع هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٤٠٣)، أما إذا أكثر من ذكر الله، استيقظ قلبه، فعرف الحق وخضع له.

كما أن حقيقة الإيمان تقوم على التسليم لا على المجادلة والعناد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٤٠٤)، فكلما ازداد الإنسان ذكراً لله، ازداد تسليماً، وسهل عليه ترك رأيه إذا خالف الحق.

وذكر الله يطفى جذور العناد؛ لأنه يكسر الكبر ويضعف سلطان النفس، فيتحول الإنسان من مدافع عن ذاته إلى طالبٍ للحق، ويصبح الرجوع إلى الصواب عبادة يتقرب بها إلى الله، لا هزيمة يتجنبها. كما يمنح الذكر القلب سكوناً واتزاناً، فيخفف الانفعال، ويُعين على التفكّر قبل الإصرار، حتى يغدو الرجوع إلى الحق خلقاً راسخاً في النفس.

٥. كن قدوة في ترك العناد المذموم:

من أهم أساليب علاج العناد أن يبدأ المربي بنفسه؛ لأن الطفل لا يتعلّم من الكلام بقدر ما يتعلّم من السلوك، فهو يتأثر بأفعال المربي قبل أقواله. فإذا كان المربي عنيداً، يُصرّ على رأيه، ويرفض الاعتراف بخطئه، تعلّم الطفل هذا الأسلوب دون أن يُقال له شيء.

ولهذا لا يكفي أن ننهي الأبناء عن العناد، بل يجب أن نُرهم الفرق عملياً بين العناد المذموم والثبات على الحق. فالمربي الحكيم يُجاور، ويستمع، ويعترف بخطئه إذا أخطأ، ويُظهر لهم أن الرجوع إلى الحق قوة لا ضعف، وأن

الإصرار على الباطل ليس قوة بل عناد مذموم.

فإذا رأى الطفل هذا السلوك أمامه، تعلّمه بسهولة، أما إذا سمع كلاماً يخالف ما يراه، فلن يستجيب له. فصالح سلوك المربي هو أقوى رسالة تربية، وهو الطريق الحقيقي لتقويم سلوك الأبناء.

٦. الضبط التربوي المتدرّج للعناد

من أهم الأساليب التربوية في معالجة عناد الأطفال: اعتماد التدرّج في التعامل معه، بحيث لا يُواجه بأسلوب واحد، بل يُعالج خطوةً بعد أخرى وفق حالته وسلوكه، فبدأً أحياناً بتجاهل بعض السلوكيات التي يكون هدفها لفت الانتباه، كالصراخ أو الإلحاح، حتى لا يتعلّم الطفل أن العناد وسيلة لجذب الاستجابة.

فإن لم يُجد ذلك، يُنتقل إلى أسلوب الإنذار، ببيان أن هذا السلوك غير مقبول، وأن الاستمرار فيه سيؤدي إلى عواقب، مع الحزم دون انفعال.

فإن استمر العناد، يُلجأ إلى العقاب المناسب في وقته، على أن يكون مدروساً ومتلائماً مع طبيعة الطفل، لأن أثر العقاب يختلف من طفل لآخر. وقد تم توضيح هذه الأساليب التربوية بالتفصيل في كتاب «لمسات تربية» الجزء الثاني والعشرون. (٤٠٥)

كما ينبغي توحيد الموقف التربوي بين المنزل والمدرسة أو الروضة، حتى لا يتلقى الطفل توجيهات متناقضة تُضعف عملية العلاج وتزيد من سلوك العناد.

٧. تصحيح مفهوم الكرامة والشخصية القوية:

من الأخطاء الشائعة أن يُربط العناد بالكرامة أو الخبرة أو «الشخصية القوية»، فيرفض التراجع حتى لو تبين له الخطأ. والحقيقة أن هذا الفهم يحتاج إلى تصحيح جذري؛ لأن النفس البشرية تميل إلى الدفاع عن صورتها أمام الآخرين، فإذا شعر الإنسان أن تراجعها سيُضعف مكانته، أصّر على رأيه لا طلباً للحق، بل حفاظاً على صورته. وهذا ما تشير إليه العلوم النفسية بما يُعرف بالدفاع عن الأنا.

والتصحيح وفق منظور أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نختصره بالآتي:

◆ من يعاند دفاعاً عن ذاته وحفاظاً على صورته التي يظنها شخصية قوية، فهو بحاجة إلى إعادة ضبط هذا المفهوم؛ فليست القوة في التمسك بالرأي وعدم التراجع، بل في القدرة على ضبط الهوى والشهوات على الحق والاعتراف بالخطأ، رُوي عن الإمام عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أقوى الناس، أعظمهم سلطاناً على نفسه»^(٤٠٦). فالإصرار على الخطأ ليس قوة، بل عجز عن مواجهة النفس والخوف من تصحيحها، أما القوة الحقيقية فهي في أن يقول الإنسان بصدق: «كنت مخطئاً وسأصلح»، وإن صعب عليه ذلك في لحظة انفعال، فليقل على الأقل: «أحتاج أن أراجع نفسي»، ثم يُبادر إلى التصحيح دون تأخير، فيرتفع بذلك قدره وتستقيم شخصيته.

◆ وكذلك الكرامة ليست في العناد، بل في اتباع الحق؛ فالرجوع عن الخطأ لا يُنقص الإنسان، بل يرفعه. وقد بين الله ميزان الكرامة بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٤٠٧)، فالتقوى هي الملكة^(٤٠٨) المانعة من ارتكاب المعاصي، أي هي التي تدفع الإنسان إلى ترك الباطل والرجوع إلى الحق. أما الإصرار على الخطأ بعد معرفته فدليل على اتباع الهوى، وهو نزول بالكرامة عن حدّها الأدنى، ووقوع في الذلّ والمهانة، لا حفظ لها ولا رفعة. فمن أراد

الكرامة الحقيقية فليتحلَّ بالتقوى، وليقدِّم الحق على نفسه.

◆ وأما من يعاند على رفض الحق متعمداً بحجة الخبرة، كمهندسٍ يعلم أصول عمله ثم يتعمد الغش، فإذا نُوقش احتجَّ بخبرته، أو كمن يملك معلومات دينية ثم يظلم زوجته، فإذا عوتب ادَّعى أنه الأعلم والأصوب، فهذه ليست خبرة، بل توظيف للمعرفة في غير موضعها.

فالخبرة الحقيقية تُثمر إنصافاً ورجوعاً إلى الحق، لا تمادياً في الخطأ. أما من يستتر بخبرته ليبرر الباطل، فإنه يُطفئ نور البصيرة في قلبه ويضل، ولا يضلُّ وحده، بل يُسيء إلى أهل التخصص، فيثير الشك فيهم ويتهمون بسبب فعله، فتتولد ردة فعل سلبية تجاههم. وبذلك لا يتحمَّل خطأه فقط، بل يتحمَّل آثاره أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَكُتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (٤٠٩).

٨. تجنّب وسم الطفل بالعناد، ووجّه طاقته نحو الحق

لا يصحّ تربوياً أن نصف الطفل بصفة «العناد»؛ لأنّ هذا الوصف يترسّخ في ذهنه، فيسعى إلى تأكيده بسلوكه، فيزداد إصراراً وعناداً كلما تكرر هذا اللقب على مسامعه. والمربي الواعي لا يرسّخ الصفات السلبية، بل يعيد توجيهها بأسلوب إيجابي، فيقول: «إنّ ابني لا يعاند الحق، بل يرفض الباطل ويقف في وجهه، ونحن نعلّمه أن يكون ثابتاً على الصواب لا مصراً على الخطأ. فالعناد المذموم هو الإصرار على الباطل، وقد ذمّه الله تعالى بقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٤١٠)،

أمّا الثبات على الحق فليس عناداً، بل هو قوة في الشخصية واستقامة في السلوك». وبهذا نحوّل طاقة العناد من سلوك سلبي إلى قوة إيجابية تُعين الطفل على التمسك بالحق وترك الباطل.

٩. ضبط التعرض للأجهزة الإلكترونية ووسائل الإعلام

للأجهزة الإلكترونية ووسائل الإعلام الحديثة أثر كبير في تنمية العناد لدى الأطفال والناشئة والشباب؛ لأن الإنسان لا يكتفي بالمشاهدة، بل يتأثر بما يرى تدريجياً، فيبدأ بتقليد الشخصيات التي تعجبه، خاصة إذا كانت تُظهر التمرد والعناد بصورة القوة والبطولة، فيترسخ لديه أن مخالفة الآخرين والإصرار على الرأي دليل قوة.

وهذا التأثير لا يقتصر على برامج الأطفال، بل يشمل القنوات الفضائية ومواقع التواصل والأفلام والمسلسلات التي قد تُقدم العناد بشكل جذاب، فيفقد المشاهد حساسيته تجاه الخطأ ويعتاده.

العلاج يكون بتنظيم أوقات الاستخدام، ومتابعة المحتوى بدقة، واختيار ما هو نافع ومناسب للعمر، مع الحوار المستمر وبيان أن العناد ليس قوة، بل القوة في الالتزام بالحق وحسن السلوك.

١٠. الاستشارة وقبول النصيحة

ذكرنا أن من مساوئ العناد أن رأي صاحبه لا يُعتمد عليه، فقد ورد عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللجاج يفسد الرأي»^(٤١١). لذا ينبغي للعنيد أن يستمع إلى آراء الآخرين، ويفتح باب تصحيح الخطأ، مما يمنع الإنسان من التهادي في العناد؛ لأن المعاند غالباً يكتفي برأيه ولا يرى غيره، وقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من استبد برأيه هلك»^(٤١٢).

لكن لا تكون الاستشارة عشوائية، بل ينبغي أن تكون عند أهل الدين والعقل والورع، فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع»^(٤١٣).

فمتى أحسن الإنسان اختيار من يستشيره، وفتح قلبه للنصيحة، زال عنه كثير من العناد، واقترب من الصواب.

١١. التذكير بالنهاج الواقعية من سيرة النبي وآله

من الأساليب المؤثرة في علاج العناد أن يحرص المربي على عرض نماذج واقعية من التاريخ، خاصة من سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته، تُبيِّن الفرق بين العناد المذموم والعناد الممدوح. وذلك من خلال ذكر المواقع والأحداث التي تجسّد هذين النوعين، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (٤١٤).

فمن ذلك عرض حروب النبي وغازاته، كغزوة حنين التي وقعت في مثل هذا اليوم بين جيش الإسلام بقيادة رسول الله وبين هوازن وثقيف في اليوم السادس من شهر شوال سنة ثمان من الهجرة^(٤١٥). وتُعد الغزوة مثلاً واضحاً يُجسّد هذين النوعين في الواقع.

فبعد فتح مكة، اجتمعت قبيلتا هوازن وثقيف، وهما قبيلتان عربيتان مشرقتان، وأصرتا على حرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رغم وضوح الحق، فجمعوا جيشاً كبيراً يقارب ثلاثين ألفاً بقيادة مالك بن عوف، ونزلوا في وادي حنين^(٤١٦)، وأعدّوا كميناً للمسلمين.

فخرج إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بجيش يبلغ اثني عشر ألفاً، ونظّم صفوفه وأعطى الرايات لأهلها، وكان لواء المهاجرين مع أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعند بدء المعركة، باغت المشركون المسلمين بهجوم مفاجئ، فاضطربت الصفوف وانهمز كثير من الناس، ولم يبق مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلا قلة من أهل بيته وثابتين من أصحابه، فكان النبي يناديهم للرجوع، وثبت معه

علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه، ولم يتراجعوا رغم شدة الموقف.

وهنا يظهر الفرق الواضح: فالمشركون كانوا يمثلون العناد المذموم، حيث أصروا على الباطل وحاربوا الحق رغم ظهوره، بينما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته يمثلون العناد الممدوح، وهو الثبات على الحق وعدم التراجع عنه مهما اشتدت الظروف.

ثم عاد المسلمون والتفوا حول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقاتلوا قتالاً شديداً، حتى نصرهم الله، فانهمز المشركون وفرّوا من الميدان.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما جرى في هذه الغزوة، فقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (٤١٧).

وهذه السكينة الإلهية التي أنزلها الله على رسوله والمؤمنين لم تكن حادثة عابرة في زمنٍ مضى، بل هي سنة ربانية تتجلى في مواقف الثبات العظمى، وقد تجلّت بأسمى صورها على قلب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء.

فمع ما أحاط به من الفواجع، من استشهاد أهل بيته وأصحابه، وتكالب الأعداء عليه من كل جانب، يرشقونه بالسهم، ويطعنونه بالرماح، ويرضخونه بالحجارة، ويضربونه بالسيوف، بقي ثابت الجنان، مطمئن القلب، تحفه سكينة الله وتغشاه عنايته.

حتى إن من شهد تلك اللحظات العصيبة وقف مبهوراً أمام هذا الثبات الرباني، فقال هلال بن نافع:

«فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ قِتِيلاً مَضْمَحًا بِدَمِهِ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلَا أَنْوَرَ وَجْهًا، وَلَقَدْ شَغَلَنِي نُورُ وَجْهِهِ وَجَمَالُ هَيْئَتِهِ عَنِ الْفِكْرِ فِي قَتْلِهِ» (٤١٨).

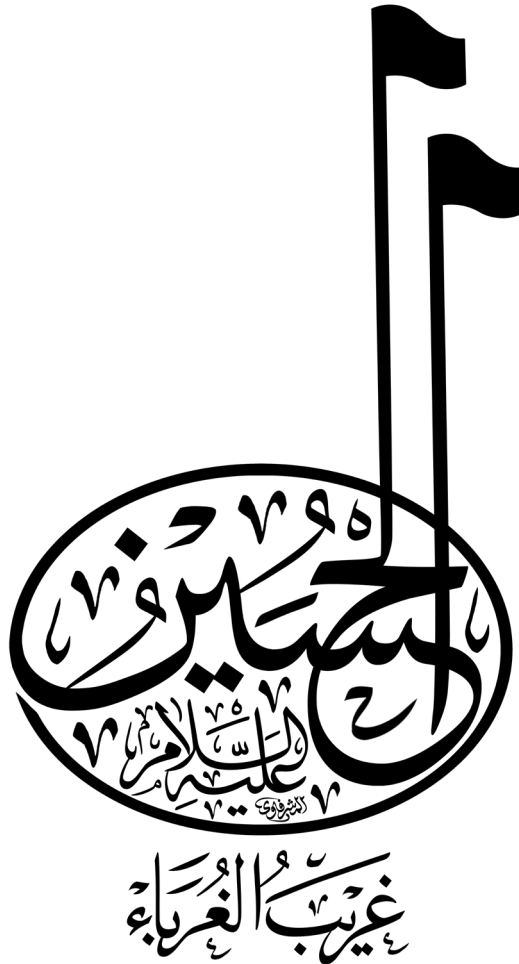
ولله در الكعبي:

فهوى في الثرى فكادت عليه أرضها والسماء تهوي انقلابا
بأبي من كُسي من النقع ثوبا وكساهُ الجلال ملقى ثيابا

(مجردات)

حسنك يخويه ابد ما غاب وائته جريح او دمك اخضاب
لابجي عليك ادمع سكاب وانا دي علي دحاي الابواب

ابنك طريح اموسد اتراب (٤١٩)





٨ شَوَّال

هَدْمُ قُبُورِ أُمَّةِ الْبَقِيْعِ

السَّلَامُ عَلَى أُمَّةِ الْبَقِيْعِ

المناسبة:

هدمُ قبورِ أئمةِ البقيعِ

القصيدة للشاعر: حميد حلمي البغدادي

تَبَّتْ يَدَاكَ وَمُتَّ بِغَيْظِكَ آيسَا
 حَقَّتْ أَفَاعِيلًا كَتَمْنَ خَسَائِسَا
 إِلَّا تَرَاتِيلُ تَشْعُ شَوَامِسَا
 نُحْيِي الْمَوَاتَ وَمَا حُسِبْنَ أَيَّسَا
 وَتَجُودُ مَا شَاءَ الْكَرِيمُ فَوَارِسَا
 وَإِذَا ادْهَمَّتْ يَنْفِرُونَ تَنَافِسَا
 فَكَأَنَّهُمْ رُضِعُوا الْمَوْدَةَ فَارِسَا
 نَهَجَ الْحُسَيْنِ أَطَائِبًا وَأَشَاوِسَا
 أَخْزَى الطِّغَامَ كَمَا نَأَى وَدَسَائِسَا
 وَهُوَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُؤَمَّلُ آنِسَا
 بِفِدَا وَصِيٍّ دَامَ دِرْعًا حَارِسَا
 بِشْرِى الْبَقِيْعِ أئِمَّةً وَنَفَائِسَا
 مَاضُونَ رَفْضًا لِلْجَهَالَةِ سَائِسَا
 وَأُلُوفَ حَجَّاجٍ وَتَلْعَنُ بِأَخْسَا
 لِلظَّالِمِينَ الْفَاجِرِينَ مَغَارِسَا
 وَأَمَانٌ مَنْ لَبَّى الْإِلَهَ مُؤَانِسَا
 مَنْ قَبْلَ أَنْ تَعْدُو مَقَامًا دَارِسَا

قُلْ لِلذِّي جَعَلَ الْبَقِيْعَ دَوَارِسَا
 هَذَا الْبَقِيْعُ وَقَدْ تَجَلَّى ثَوْرَةً
 مَا رَمَسُ أَحْمَدَ وَالْأَمَاجِدِ أَهْلِهِ
 يَسْتَلْهُمُ الْأَحْرَارُ مِنْهَا نَهْضَةً
 وَتُظْهَرُ الْأَنْسَابَ فَهِيَ نَبِيْلَةٌ
 رُحَمَاءُ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَأَكَارِمُ
 يَفْدُونَ أَرْوَاحَ الْعِبَادِ بِرُوحِهِمْ
 يَتَسَابِقُونَ لَدَى الْكَرِيْمَةِ حَسْبُهُمْ
 وَكَأَنَّهُمْ بَطَلُ الْمَبِيْتِ مُضْحِيًّا
 رَأَمُوا هَلَاكَ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى
 فَحَمَاهُ رَبُّ الْمُرْسَلِينَ كَرَامَةً
 قَسَمًا بَرَبِّ الْأَطْهَرِينَ مَرَاقِدًا
 إِنَّا عَلَى هَدْيِ النَّبِيِّ وَآلِهِ
 تَبَقَى الْمَدَامِعُ بِأَكْيَاتٍ مِشْعَرًا
 مَا مَوْطِنُ الْحَرَمِينَ أَرْضُ غَنِيْمَةٍ
 هِيَ دَارُ وَحْيِ اللَّهِ صَانَ حَرِيْمَهَا
 وَمَرَاقِدُ الْإِطْهَارِ فِيهَا مَوْئَلٌ

المُحَاضِرَةُ السَّابِعَةُ فَاجِعَةُ هَدْمِ قُبُورِ البَقِيْعِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (٤٢٠)

من أشد ما يؤلم قلب المؤمن أن يرى آثار الدين ومواطن الطهر تُهدم وتُطمس باسم التوحيد، مع أن الإسلام يدعو إلى التعظيم والوفاء لا إلى الجفاء والهدم. ومن أبرز هذه المآسي ما جرى في البقيع، حيث هُدمت قبور طاهرة تضم أئمة من أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وشخصيات عظيمة من صدر الإسلام، فكان ذلك اعتداءً على تاريخ الأمة وروحها، لا مجرد إزالة أبنية. لم يكن البقيع مجرد مقبرة، بل كان معلمًا حيًا يربط المسلمين بنبيهم وآله، ويجدد فيهم معاني المحبة والافتداء والدعاء. لذلك فإن هدمه لم يكن حادثة عابرة، بل نتيجة فكر متشدد صور التعظيم المشروع على أنه شرك، وخالف بذلك القرآن الكريم والسنة وسيرة المسلمين.

وتهدف هذه المحاضرة إلى الرد على دعاوى الوهابية في مسألة زيارة القبور وتعظيمها، وذلك من خلال بيان مكانة البقيع، وإثبات مشروعية زيارة القبور، وبيان حكم شد الرحال لزيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وتوضيح مسألة التوسل، ثم بيان مشروعية البناء على القبور والفرق بين التعظيم والعبادة، وأخيرًا بيان آثار هدم البقيع ومسؤوليتنا تجاه هذه القضية،

بأسلوب واضح مدعوم بالأدلة الشرعية.

وينبغي قبل البدء بالرد على دعاوى الوهابية أن نعرض لمحة عن البقيع وحادثه هدمه، وذلك في المطلب الآتي.

المبحث الأول: البقيع بين القداسة والهدم

المطلب الأول: بقيع الغرقد: نشأة ومكانة

مقبرة بقيع الغرقد هي المقبرة المعروفة في المدينة المنورة، تقع في الاتجاه الجنوبي الشرقي من الروضة النبوية المباركة غير بعيد عنها.

ويقال لها: الغرقد، نسبةً إلى نوع من الشجر له شوك كان ينبت فيها، ويسمى أيضاً العوسج، ثم زال هذا الشجر وبقي الاسم ملازمًا للموضع. والبقيع في اللغة هو المكان المتسع من الأرض، ولا يُسمى بقيعًا إلا إذا كان فيه شجر (٤٢١). (٤٢٢)

قبل الإسلام لم يكن بقيع الغرقد محلاً لدفن الموتى، بل بدأ الدفن فيه في السنة الثالثة من الهجرة بعدما توفي الصحابي الجليل عثمان بن مظعون، فهو أول من دفن بها. فلمَّا مات قبَّله رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وبكاه، وعندما سُئِل: يا رسول الله أين ندفنه؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «البقيع».

ثم قام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بنفسه فلَحَدَّ له، ووضع علامة عند قبره، لتكون علامة عليه، وليدفن عنده مَنْ يموت من أهله.

وبعد ذلك توالى الدفن في هذه المقبرة المباركة، فعندما تُوفي إبراهيم بن رسول الله، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إلحق بالسلف الصالح عثمان بن مظعون» (٤٢٣). (٤٢٤)

ولما ماتت رقية بنت النبي عَلَيْهَا السَّلَامُ دفنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالبقيع (٤٢٥). (٤٢٦)

وهكذا صار بقيع الغرقد منذ العهد النبوي موضعاً لدفن جماعة من المسلمين، ثم اتسعت مكانتها بمرور الزمن حتى أصبحت من أشهر المعالم الإسلامية في المدينة، وأكثرها التصاقاً بتاريخ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته وأصحابه.

وقد اكتسب البقيع قدسيته من جهات متعددة. فهو أولاً يقع في جوار المسجد النبوي الشريف، وثانياً هو مقبرة أُذن للمسلمين أن يدفنوا فيها موتاهم، وثالثاً أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يزوره، ويدعو لأهله، ويعلم المسلمين كيف يقفون عند القبور، وماذا يقولون عند زيارتها. فالبقيع ليس موضعاً طارئاً في التاريخ الإسلامي، بل هو موضع أقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بفعله وقوله، وتعامل معه المسلمون على أنه بقعة ذات حرمة ومكانة.

وتتجلى عظمة البقيع أكثر إذا عرفنا من احتضنتهم أرضه. ففيه قبور أربعة من أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم الإمام الحسن المجتبي، والإمام علي بن الحسين زين العابدين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وهؤلاء ليسوا رجالاً عاديين في تاريخ الإسلام، بل هم الامتداد الطاهر لبيت النبوة، وأئمة علم وهداية، ومصايح دجى، حفظوا معالم الدين، وبيّنوا أحكام الشريعة، وربّوا الأمة على معاني الإخلاص والصبر والتقوى. كما يضم البقيع قبور عدد من الصحابة والتابعين وأمّهات المؤمنين وأشخاص ارتبطت أسماؤهم بسيرة الإسلام الأولى. ولهذا كان البقيع سجلاً مفتوحاً لتاريخ الرسالة، وموضعاً تختلط فيه مشاعر الهيبة بالحزن، والمحبة بالتأمل، والزيارة بالاعتبار.

المطلب الثاني: حادثة هدم قبور بقيع الغرقد

لم يكن هدم قبور البقيع حادثة عابرة أو تصرفاً عفويّاً، بل كان نتيجة فكرٍ تبنته الجماعة الوهابية، يقوم على اعتبار زيارة قبور الأنبياء وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتعظيمها من مظاهر الشرك، خلافاً لما عليه جمهور المسلمين عبر القرون. وعلى أساس هذا الفهم، سعوا إلى إزالة كلِّ مظهر يرتبط بهذه القبور، وعدّوا ذلك من واجباتهم الدينية.

ولم يقف الأمر عند حدود التنظير، بل طُبّق هذا الفكر بالقوة في المناطق التي سيطروا عليها، فامتدّ إلى هدم القبور والمعالم الدينية في أكثر من بلد إسلامي، وكان أشده في مكة والمدينة لما تضمانه من آثار عظيمة مرتبطة بالنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته وأصحابه.

ومنها البقيع، وهو مقبرة طاهرة في المدينة المنورة، تقع قرب المسجد النبوي الشريف، وتضمّ قبور أربعة من أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: الإمام الحسن المجتبي، والإمام علي زين العابدين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إلى جانب عدد من الصحابة والتابعين، فكانت معلماً إسلامياً عظيماً ومزاراً للمسلمين عبر القرون.

وقد تعرّض البقيع لعملية هدم؛ الأولى سنة ١٢٢٠هـ (حوالي ١٨٠٥م)، حيث أزيلت معالمه، ثم أعيد بناؤه بعد زوال تلك السلطة بجهود المسلمين. أمّا الثانية فكانت سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، حين سيطر آل سعود على مكة والمدينة، فاتجهوا إلى طمس هذه المعالم المقدسة، فسعوا إلى إيجاد غطاء ديني يبرّر فعلهم، فطرح استفتاء على علماء المدينة بشأن البناء على القبور، وانتزع الجواب بتحريم البناء عليها تحت الضغط والتهديد، ليتخذ ذريعة لتنفيذ ما كان مخطّطاً له مسبقاً.

وفي الثامن من شَوَّالٍ من العام نفسه، أقدمت الجماعات الوهابية على هدم قبور أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وسائر القبور في البقيع، فسُوِّت بالأرض، وُحِّيت معالمها، وتعرَّضت للامتهان بعد أن كانت موضع تبحيل واحترام. ولم يقتصر الأمر على الهدم، بل نُهبت محتويات الحرم من آثارٍ وهدايا، وتحول المكان إلى أرضٍ خالية موحشة.

وقد أثار هذا الحدث موجة استنكار واسعة في العالم الإسلامي، وعدّه المسلمون جريمة بحق أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ورفضوا التبريرات التي قُدِّمت له، خاصة مع وضوح التناقض؛ إذ بقيت القبور والمعالم مبنية ومحترمة طوال قرون من تاريخ الإسلام دون إنكار.

المبحث الثاني: زيارة القبور في الإسلام

أجمع المسلمون قولاً وعملاً على زيارة قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بل استحباب زيارة قبور الأنبياء والصالحين وسائر المؤمنين، ومشروعيتها من الضروريات عند المسلمين، فضلاً عن الإجماع وسيرتهم القائمة عليها.

قال أبو حامد الغزالي: زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكّر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار (٤٢٧). (٤٢٨)

في حين استندت الجماعة الوهابية التي أقدمت على هدم قبور البقيع إلى جملة من الدعاوى الواهية، من أبرزها قولهم: لا يجوز زيارة قبور الأئمة، ولا شد الرحال من الأماكن البعيدة لأجل زيارة قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأنها من الشرك وعبادة لغير الله تعالى (٤٢٩).

وسنرد على هذه الدعاوى الثلاثة في المطالب الآتية:

المطلب الأول: مشروعية زيارة القبور في الإسلام

في هذا المطلب نعرض الرد على الدعوة الوهابية الأولى القائلة بعدم جواز زيارة قبور الأئمة، وذلك من خلال إثبات مشروعية زيارة قبور المسلمين بالأدلة القرآنية والروائية، إضافة إلى سيرة المسلمين المستمرة منذ زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى يومنا هذا، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: الدليل القرآني

من الآيات التي يُستدل بها على جواز زيارة القبور:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٤٣٠)، أي لا تُصَلِّ على المنافقين إذا ماتوا، ولا تقف على قبورهم بقصد الدعاء لهم وطلب الرحمة والمغفرة، لأنهم ماتوا على الكفر والفسق.

ومن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(٤٣١) يُفهم أن النهي مختص بالمنافق، وهذا يدل على أن الوقوف على قبر غيره أمرٌ جائز في نفسه. وليس المقصود مجرد الوقوف العابر الخالي من أي قصد، كأن يقف الإنسان عند القبر للتأمل أو لملاحظة شكل القبر أو للحديث مع غيره، لأن مثل هذا الوقوف لا يترتب عليه نهي خاص. وإنما المقصود هو الوقوف الذي يكون بقصد التعظيم والدعاء والاستغفار لصاحب القبر.

وعليه، فإن الوقوف على قبور المؤمنين للترحم عليهم وطلب المغفرة لهم أمرٌ مشروع، بل هو من الأعمال المطلوبة التي تنسجم مع روح التعاليم الإسلامية.^(٤٣٢)

ثانيًا: الدليل الروائي

وأما الدليل من السنة الشريفة، فقد وردت أحاديث كثيرة عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تؤكد مشروعية زيارة قبور المؤمنين، نذكر منها الآتي:

١. روايات يرخّص ويحث فيها على زيارة قبور المؤمنين، ومن ذلك:

◇ عن عائشة: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَخَّصَ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ. (٤٣٣)

◇ عن ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «... أَلَا وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة». (٤٣٤)

إنّ النهي عن زيارة القبور في بداية الإسلام لم يكن تحريمًا دائمًا، بل كان نهيًا مؤقتًا لأن المسلمين كانوا حديثي عهد بالجاهلية، فكانوا يمارسون عند القبور النياحة وأعمالًا مخالفة للشريعة، ولأن كثيرًا من موتاهم - ومنهم أبائهم - كانوا مشركين، فخشي أن يقعوا في الاستغفار لهم، والله نهى عن ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٤٣٥)، لذا مُنِعُوا مؤقتًا سداً لهذا الباب.

◇ بل أوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المسلمين بزيارة قبره بعد مماته قائلاً: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي» (٤٣٦). بل أكد ذلك بقوله: «من حجّ ولم يزرني فقد جفاني» (٤٣٧).

٢. روايات يحث ويعلم فيها المسلمين كيفية زيارة القبور وآدابها، ومن ذلك:

◇ عن عائشة أيضًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «فَأَمَرَنِي رَبِّي أَنْ آتِيَ الْبُقَيْعَ فَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ». قلت: كَيْفَ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قال: قولي: « السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ». (٤٣٨)

◇ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُهُمْ - إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ - فَكَانَ قَائِلُهُمْ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ - أَوْ - السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ. (٤٣٩)

٣. روايات تثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد باشر زيارة القبور بنفسه، ومن ذلك:

◇ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: زَارَ النَّبِيُّ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ ... وَقَالَ: « اسْتَأذِنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْمَوْتَ ». (٤٤٠)

◇ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَزُورُ قُبُورَ الشَّهَدَاءِ وَكَانَ إِذَا أَتَى قُبُورَهُمْ قَالَ: « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عَقِبَى الدَّارِ » (٤٤١).

وبما أن المسلم مكلف بالاعتداء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وتقريراته، لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٤٤٢)، فإن من لوازم هذا الاعتداء الالتزام بما كان عليه من زيارة قبور المؤمنين. وهذا ما قام به المسلمون منذ زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رجالاً ونساءً ومنهم فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ، حيث رُوي عن الإمام محمد بن علي الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: « كَانَتْ فَاطِمَةُ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهَا تَزُورُ قَبْرَ حَمْزَةَ وَتَقُومُ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ فِي كُلِّ سَبْتٍ تَأْتِي قُبُورَ الشَّهَدَاءِ مَعَ نِسْوَةٍ مَعَهَا، فَيَدْعُونَ، وَيَسْتَغْفِرُونَ ». (٤٤٣)

وإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد خرج لزيارة شهداء أحد، فإن زيارة أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أولى وأحق، ولا سيما أنهم قرابته وأحب الناس إليه، فهم مقدّمون في التعظيم والزيارة. فقد ورد عن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه ويكون عترتي أحب إليه من عترته ويكون أهلي أحب إليه من أهله، ويكون ذاتي أحب إليه من ذاته. » (٤٤٤)

فهم سادة الشهداء وأئمتهم، وعلى رأسهم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، والحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو الشهداء، فسلام الله عليهم يوم ولدوا ويوم استشهدوا ويوم يُبعثون أحياء.

وقد وردت نصوص روائية بلغت حدّ التواتر تحت على زيارة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، نذكر منها:

◆ رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من ترك زيارة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينظر الله إليه، ألا تزورون من تزوره الملائكة والنبيون». (٤٤٥)

◆ عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «ما من أحد يوم القيامة إلا وهو يتمنى أنه زار الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما يرى ما يُصنع بزوار الحسين بن علي من كرامتهم على الله». (٤٤٦)

◆ عن الحسن بن عليّ الوشاء «قال: قلت للرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما لمن زار قبر أبيك أبي الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فقال: زُرّه، قال: فقلت: فأيّ شيء فيه من الفضل؟ قال: له مثل من زار قبر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ». (٤٤٧)

◆ رُوي عن الإمام الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «من زار قبر أبي فله الجنة». (٤٤٨)

◆ عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من لم يقدر على زيارتنا فليزر صالحي موالينا ليكتب له ثواب زيارتنا» (٤٤٩).

الخلاصة: إنّ هذه الروايات جميعاً تهدم من أساسه القول بأن زيارة القبور بدعة أو شرك أو أمرٌ مرفوض في الإسلام، لأنّ من شرّعها وأمر بها هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نفسه، وأئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ثالثاً: الدليل التاريخي

إنّ المتتبع لسيرة المسلمين في الصدر الأوّل قبل وبعد وفاة الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سيجدها قائمة على زيارة القبور، وإليك جملة من الشواهد التاريخية على ذلك:

١ - أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته وقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم، فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري فقال: جئت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولم آت الحجر، ..» (٤٥٠).

٢ - إن فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ جاءت إلى قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتة على عينيها وبكت (٤٥١).

٣ - إن أعرابياً جاء إلى قبر النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وحثا من ترابه على رأسه، وخاطبه وقال: وكان فيما أنزل عليك: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك...) وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر (٤٥٢): قد غفر لك. وكان هذا بمحضر من الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ (٤٥٣).

إذاً من خلال الرؤية القرآنية والأحاديث الشريفة وسيرة المسلمين، تثبت مشروعية زيارة قبور المؤمنين بشكل عام. (٤٥٤)

المطلب الثاني: شد الرحال لزيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

في هذا المطلب نردّ الدعوى الوهابية الثانية، وهي عدم جواز شدّ الرحال من الأماكن البعيدة لأجل زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

حيث استدّل ابن تيمية ومن تبعه على ذلك بحديث منقول عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(٤٥٥)، ففهموا منه عدم مشروعية السفر إلى غير هذه المساجد، وعمّموا هذا الفهم ليشمل السفر لزيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لأن زيارة القبر ليست مسجداً.

ونُجيب عن هذا الاستدلال بأن هذا الحديث لم يُروَ إلا عن أبي هريرة، ولم يُنقل في المصادر الشيعية، فلا يكون حجة عندهم. كما أن جماعة من كبار علماء أهل السنة، كالإمام السبكي في كتابه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام»، والإمام الحصني الدمشقي في كتابه «دفع الشبه عن الرسول والرسالة»، قد أطلوا الكلام في تفسير هذا الحديث، وانتهوا إلى عدم دلالة على تحريم شدّ الرحال، بل إلى جوازه.

وخلاصة كلامهم: أن فهم الحديث يتوقف على تقدير المحذوف فيه، لأن أداة الاستثناء «إلا» تقتضي وجود مستثنى منه غير مذكور، ويمكن تقديره على صورتين:

الأولى: لا تُشدّ الرحال (إلى مسجد من المساجد) إلا إلى هذه الثلاثة. وعلى هذا يكون النهي خاصاً بالمساجد فقط، ولا يشمل السفر لزيارة النبي أو الأئمة أو الصالحين.

الثانية: لا تُشدّ الرحال (إلى أي مكان) إلا إلى هذه الثلاثة، وهذا يعني منع جميع الأسفار الدينية الأخرى، وهو غير صحيح.

والصحيح هو التقدير الأول، لعدة قرائن:

١. المستثنى هو المساجد، فيكون المستثنى منه من جنسها، أي المساجد أيضًا.
 ٢. لو كان المقصود منع كل سفر ديني، للزم تحريم السفر إلى عرفات ومنى والمشعر في الحج، وهو باطل.
 ٣. النصوص الشرعية دلّت على مشروعية أسفار دينية كثيرة، كطلب العلم، والجهاد، وصلة الرحم، وزيارة الوالدين.
- كما ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يذهب إلى مسجد قباء للصلاة، وهذا يدل على جواز السفر لغير المساجد الثلاثة.

ثم إن النهي في هذا الحديث ليس نهياً تحريمياً وإنما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في هكذا سفر وذلك لأن المساجد الأخرى لا تختلف من حيث الفضيلة والدليل على ذلك ما رواه أصحاب الصحاح أنه «كان رسول الله يأتي مسجد قبا راكباً وماشيّاً فيصلي فيه ركعتين» (٤٥٦). (٤٥٧)

المطلب الثالث: التوسل والعبادة

في هذا المطلب نردّ الدعوى الوهابية الثالثة، وهي أن زيارة القبور وما يترتب عليها من دعاء وتوسل واستغاثة من الشرك وعبادة لغير الله تعالى. فقد احتج ابن عبد الوهاب في جملة كلماته في كشف الشبهات على تحريم مطلق ما عليه الإمامية من تعظيم قبور الأنبياء والأولياء وإكرامها والالتزام بها وبآدابها من الزيارة والدعاء والتوسل وطلب الشفاعة: بأن هذه من جعل الإلهة. (٤٥٨)

غير أن هذه الدعوى تفتقر إلى الدقة العلمية، إذ قامت على خلط واضح بين مفهومي العبادة والتوسل، وهو خلط لا ينسجم مع التحقيق العلمي، ولا مع النصوص الشرعية، ولا مع السيرة الإسلامية المستمرة عبر العصور، التي دلت على مشروعية التوسل بال صالحين في حياتهم وبعد وفاتهم.

كما أن هذه الآراء تُعدّ من البدع لكونها خالفت ما استقرّ عليه عمل المسلمين. وقد حذرت الشريعة من الابتداع في الدين، فقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ». (٤٥٩)

وعليه، فإن تكليفنا يقتضي إظهار الحق، ودحض الشبهات، وبيان الفهم الصحيح لهذه المسألة، وهو ما نعرضه في النقاط الآتية:

أولاً: التوسل ليس عبادة

إن دعوى أن التوسل بال صالحين عبادة لهم ناشئة من عدم التمييز بين حقيقة العبادة وحقيقة التوسل. فالعبادة - في معناها الدقيق - الخضوع عن اعتقاد بالوهمية المعبود وربوبيته واستقلاله في فعله (٤٦٠). وأما إذا كان الخاضع لا يعتقد بالوهمية المخضوع إليه وإنما يخضع له ويتذلل من باب التعظيم والتكريم والتبجيل، فهذا لا يُعد شركاً أبداً.

فالشيعية الإمامية يعتقدون بأن الله وحده هو الإله المدبر، وأن الأنبياء والأولياء - وفي مقدمتهم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عباد مكرمون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (٤٦١) (إن مثل هذا التعظيم يوافق أصل التوحيد بمراتبه المختلفة دون أي شك. وأما إذا وقع التعظيم والتكريم للولي معتقداً بأنه - حياً كان أو ميتاً - مالك لواقعية الإلوهية أو درجة منها، أو أنه واجد

لمعنى الربوبية أو مرتبة منها، فأنه - ولا شك - شرك وخروج عن جادة التوحيد). ((٤٦٢))

بينما التوسل، هو أن يتقرب الإنسان إلى الله بمن يحبهم الله ويقربهم، ليكونوا وسيلة في قضاء حاجته بإذن الله، مع بقاء الاعتقاد أن الله وحده هو الإله، وهو الذي يعطي ويمنع.

فالتوسل حين يقول: «يا رسول الله» أو «يا ولي الله»، فهو يتقرب إلى الله بمن يحبه الله لأنه أقرب وسيلة إليه منه بإذنه تعالى، لغاية تحقيق حاجاته عند الله عز وجل، وهو أمر طبيعي يفهمه كل إنسان في حياته اليومية. فنحن عندما نمرض نذهب إلى الطبيب ونتوسل إليه ليكون سبباً في شفائنا، وعندما نقع في خطر نطلب من رجل الإطفاء أن ينقذنا، ونلجأ إلى الشرطي ليحمينا. في كل هذه الحالات نحن لا نعبد الطبيب ولا الشرطي ولا غيرهم، بل نعلم أن الله هو الذي جعلهم أسباباً لقضاء حوائجنا.

باختصار: العبادة تعني أن تعتقد أن غير الله إله، وهذا لا نقوله أبداً، أما التوسل فهو طلب القرب من الله عبر وسيلة يجبها الله.

إذن العبادة شيء، والتوسل شيء آخر... فكيف يجعل هذا شركاً، وهو لا يخرج الإنسان عن التوحيد أصلاً؟!!

ثانياً: مشروعية التوسل بالصالحين

نذكر منها النصوص الآتية:

◆ قوله تعالى في قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ (٤٦٣)، حيث طلبوا منه أن يكون واسطة في طلب المغفرة، فأقرهم على ذلك بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٦٤).

◇ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٤٦٥)، وهي آية تدل على مشروعية التوسل بالنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ولم تُقيّد بحال حياته دون مماته.

◇ قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٤٦٦)، يدل على الأمر باتخاذ ما يقرب إلى الله، وقد بينت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن من أبرز مصاديقها النبى وآله، فالتوسل بهم امتثال لهذا الأمر، لا خروج عنه.

◇ جرت سيرة المسلمين على زيارة النبى والتوسل به حتى بعد مماته، نذكر منها ما رُوي عن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان زمن خلافته في حاجة، فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فشكى ذلك لعثمان بن حنيف، فقال له ائتِ الميضاة (محل الوضوء) فتوضأ، ثم أتِ المسجد فصل ثم قل اللهم أنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي لتقضي حاجتي، وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل، فصنع ذلك ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب فأخذه بيده فأدخله على عثمان، فأجلسه معه، وقال أذكر حاجتك، فذكر حاجته فقضاها. (٤٦٧)

والأمر غير متوقف على النبى بل يشمل الصالحين، فقد رُوي أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال: اللهم كنا نتوسل إليك بنبينا فُتسقيننا، وأنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون (٤٦٨).

ثالثاً: عدم الفرق بين الحياة والموت في التوسل

إنّ القول بعدم جواز التوسل بالميت مبني على تصور خاطئ لمعنى الموت، إذ إنّ الموت - بحسب القرآن والسنة - ليس فناً، بل انتقال إلى حياة أخرى

هي الحياة البرزخية.

وقد دلَّت الآيات على بقاء الحياة بعد الموت، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾. (٤٦٩)

والآيات هذه نزلت في الشهداء، وهي صريحة في بقاء الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، وبعد انفكاك الأجسام وبلاها.

وهناك آيات ونصوص عديدة يستدل بها على كونهم أحياء لكونهم يتكلمون ويبصرون ويسمعون وقسم يتعذبون وآخر يتنعمون. ولمزيد من التوضيح نذكر الأدلة الشرعية الآتية:

◇ الموتى يتكلمون: منها الآية التي نزلت في حق مؤمن آل ياسين الذي هاجمه الكفار ورجموه حتى قتل، فأدخل الجنة فقال: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. (٤٧٠)

◇ الموتى يبصرون: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. (٤٧١). فمعنى: «فبصرك» وهو البصيرة وعين القلب، «اليوم» وهو يوم القيامة، «حديد» أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا. (٤٧٢)

◇ الموتى يسمعون: هناك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن الموتى يسمعون، ونحن نؤكد على السماع؛ لأننا عندما نتوسل بالأنبياء والصالحين في قضاء حوائجنا نكلمهم لأننا متيقنون أنهم يسمعوننا، وكما ورد في زيارات المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «أشهد أنك تسمع كلامي وترد سلامي وإنك حي مرزوق».

ونذكر منها النصوص الشرعية التالية:

◇ الأنبياء يكلمون الموتى: ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٤٧٣﴾.

حيث دلت الآية على أن الخطاب صدر بعد موتهم. فلو لم يكن هناك نوع إدراك وسماع، لما صح توجيه الخطاب إليهم، وهو ما يدل على بقاء الصلاة بعد الموت.

◆ إن القرآن الكريم يسلم على الأنبياء قائلًا: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧٤)، و﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٤٧٥)، و﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٧٦)، و﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ (٤٧٧)، و﴿سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤٧٨). وهذا السلام ليس شكليًا، بل حقيقي، ولا معنى له إن لم يكن الموجه إليه يدركه، مما يدل على أنهم أحياء بنحو ما بعد موتهم.

◆ السلام على الرسول في الصلاة: إن المسلمين جميعًا يسلمون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في صلاتهم يوميًا بقولهم: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته». فلو كانت الصلاة به منقطعة بعد وفاته، لما كان لهذا الخطاب معنى، إذ لا يُخاطَب من لا يسمع ولا يدرك، وهذا يدل على بقاء الارتباط به بعد وفاته. وقد جاء في الصحاح: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ رُوحِي حتى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ» (٤٧٩).

وروي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ما من رجل يزور قبر حميمه فيسلم عليه ويقعد عنده إلا ردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنس به حتى يقوم من عنده» (٤٨٠).

◆ النبي يكلم أهل القليب: يروى أنه لما انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين وهزيمة المشركين وقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يخاطب القتلى المشركين التي في القليب - أي البئر -، بخطاب يذكره لنا البخاري: عن نافع أن ابن عمر أخبره، قال: اطلع النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ على أهل القليب،

فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟! فقليل له: ندعوا أمواتاً، فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون». (٤٨١)

إذن تبين أن هناك صلة بين الحياة الدنيوية والبرزخية، وإنه لا فرق بين الحياة والموت بالنسبة إلى أولياء الله تعالى، ولذلك فلا فرق بالنسبة إلى المؤمنين بين حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين من ناحية التوسل بهم، فكما كانوا يتوسلون بهم في حياتهم ويطلبون منهم الاستغفار وقضاء الحوائج كذلك الحال بعد مماتهم (٤٨٢) اعتماداً على قوله تعالى: **«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا»** [٤٨٣]، وهذا هو المعروف من سيرة المسلمين على طول العصور. (٤٨٤)

المبحث الثالث: البناء على القبور وتعظيمها

إن تشييد الأبنية على قبور الأنبياء والأولياء هو أمرٌ درج عليه أتباع الأنبياء والشرائع السماوية عبر العصور، قبل الإسلام وبعده. فقد اعتادوا إقامة الأضرحة والبناء على قبورهم، ولا يزال كثيرٌ منها قائماً إلى يومنا هذا في العراق وفلسطين وبلاد الشام.

غير أن الوهابيين زعموا أن ذلك من الشرك أو من البدعة، فأجمعوا أمرهم على هدم هذه الأبنية والأضرحة.

يقول ابن القيم في كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد»: يجب هدم المشاهد التي بنيت على القبور ولا يجوز إبقاؤها، بعد القدرة على هدمها وإبطلها يوماً (٤٨٥). (٤٨٦)

وهذه الشبهة مردودة من جهات متعددة، فإن القرآن الكريم قد أشار إلى

جواز البناء على القبور في قصة أصحاب الكهف، كما تدلّ عليه النصوص الروائية وسيرة المسلمين المستمرة. وسيأتي بيان هذه الأدلة في المطلب الأول. كما أنّ الخلط بين البناء بقصد العبادة لصاحب القبر، وهو المحرّم، وبين البناء بقصد التعظيم والصيانة وحفظ المعالم الدينية، هو منشأ هذا الوهم، وسيبحث هذا التفصيل في المطلب الثاني.

المطلب الأول: مشروعية البناء على القبور وتعظيمها

إنّ الرد على شبهة حرمة البناء على القبور يقوم على جملة من الأدلة الشرعية، من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وسيرة المشرعة، وهي على النحو الآتي:

١. قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَرَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٤٨٧﴾.

إنّ هذه الآية من الآيات الكريمة التي تُفيد أنّ من سنن أهل الشرائع السماوية تعظيم قبور أوليائهم، ومن ذلك البناء عليها أو عندها.

وقد بيّن الزمخشري في تفسيره معنى قوله تعالى: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا﴾ (٤٨٨)، فقال: أي ابنوا على باب كهفهم لئلا يتطرق إليهم الناس، محافظةً على تربتهم وصوناً لها، كما صينت تربة رسول الله بالحظيرة.

كما فسّر قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (٤٨٩). بأن القائلين بذلك هم المسلمون، وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم، فاتخذوا عند موضعهم مسجداً يُصلّى فيه، ويتبرك بمكانهم. (٤٩٠)

٢. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٤٩١) تدل

هذه الآية على وجوب مودة قربي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وجوبًا مطلقًا غير مقيّد بزمان أو مكان أو كيفية. ومن مصاديق هذه المودة عرفًا: تعظيم قبورهم والعناية بها، ومن ذلك البناء عليها وإعمارها.

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (٤٩٢)، وقوله أيضًا: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٤٩٣)، يدلان على مشروعية تعظيم كل ما ينتسب إلى الدين. ومن أبرز مصاديق ذلك: صيانة قبور الأنبياء والصالحين وحفظها من الاندراس، بالبناء عليها وتجديدها، لأن ذلك من التعظيم عرفًا.

بل إن هذه البقاع أولى بالتعظيم من غيرها، إذ جعل الله بعض الأماكن كالصفا والمروة من شعائره، فكيف بما يضم أجساد الأنبياء والأولياء. وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (٤٩٤)، لكونها من مواضع العبادة والطاعة.

٤. قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤٩٥)، يدل على وجوب تعظيم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وتوقيره، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، أي وقروه وعظّموه. وهذا التعظيم لا يختص بحياته، بل يشمل ما بعد وفاته.

ومن مصاديق هذا التعظيم: صيانة آثاره وقبره الشريف وتعظيمها، فإن تعهد القبور والمشاهد المشرفة بالبناء والإعمار يعدّ من مظاهر تكريمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. وكما أن تعمير المساجد وتعظيمها داخل في عموم آيات التعظيم، كذلك المشاهد المقدسة، لكونها من معالم الدين وشعائر الإسلام.

٥. إقرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والصحابة على البناء.

فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أقرّ ببناء الحجر، وكذلك أصحابه. والحجر هو الموضع المحاط بجدار نصف دائري إلى جانب الكعبة المشرفة، المعروف بحجر إسماعيل. ولم يأمرُوا بهدمه، مع أنه مدفون نبي الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمّه هاجر، وهكذا إقرارهم على بناء قبر النبي إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبقية قبور الأنبياء والمرسلين حول بيت المقدس.

ثم إن إقرار الصحابة على دفن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الحجرة التي توفي فيها، وهي مشيئة بالبناء، ودُفن الخليفة الأول والثاني فيها من بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولم يأمرُوا بهدمها، بل العكس أمرُوا بإعمارها، دليل قاطع على جواز البناء على القبور.

٦. الروايات الواردة في كتب الفريقين عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الحثّ على زيارة القبور. والتي تقدّم ذكرها في مبحث مشروعية الزيارة. لا تقتصر دلالتها على أصل الجواز فحسب، بل تكشف عن مشروعية تعظيم القبور، إذ إن الزيارة في حقيقتها مظهر من مظاهر التعظيم، ويترتب عليها بطريق الأولوية جواز ما يحفظ حرمة القبر ويصونه، كترميمه وإصلاحه والبناء عليه. (٤٩٦)

٧. إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ببناء قبور أهل البيت وإعمارها

تدلّ الروايات عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على إخبارٍ وبشارةٍ بإعمار قبور أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتعاهدها، وجعل ذلك عملاً مقرباً إلى الله تعالى، مما يكشف عن مشروعية البناء على القبور بل رجحانه.

فقد روي عن الصادق عن أبيه عن جده عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قال: قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا أبا الحسن إن الله جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة وعرصات من عرصاتها.

وإن الله عز وجل جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده تحن إليكم وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم ويكثرون زيارتها تقرباً منهم إلى الله ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي والواردون حوضي وهو زواري وجيراني غدا في الجنة.

يا علي من عمر قبوركم وتعاهدها فكأنها أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس. ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجة بعد حجة الإسلام وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمه.

فأبشريا علي وبشر أوليائك ومحبيك من النعيم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!

ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم بزيارتكم كما تعير الزانية بزناها. أولئك شرار أمتي لا تنالهم شفاعتي ولا يردون حوضي». (٤٩٧)

المطلب الثاني: الفرق بين التعظيم والعبادة

نصل هنا إلى السبب الثاني الذي دعا الوهابية إلى القول بحرمة البناء على القبور واعتباره شركاً، وهو الخلط بين مفهومين مختلفين: التعظيم والعبادة، وهو خلط غير صحيح من الناحية الشرعية والعقلية؛ لأن كل عبادة تتضمن نوعاً من التعظيم، ولكن ليس كل تعظيم يُعدّ عبادة.

ولتوضيح هذا الفرق ورفع الاشتباه، نبين ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً: إن تعظيم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يعني عبادتهم، لأننا ذكرنا أنَّ العبادة: هي الخضوع عن اعتقاد بألوهية المعبود وربوبيته واستقلاله في فعله. (٤٩٨)

ونحن نقرّ يومياً بأن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم عباد الله، ففي الأذان والإقامة نقول بأن محمداً رسول الله، وعلياً ولي الله، وفي الشهادة نقول: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وعندما نتوسل بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نقول: (يا وَجِيهاً عِنْدَ اللَّهِ إِشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ) (٤٩٩)، وعندما نقرأ أدعية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نجدهم يعلموننا بأنهم عبيد لله، فمن أدعية الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك...» (٥٠٠)

ثانياً: إن تعظيم أولياء الله كالأنبياء والصالحين لو كان شركاً لما أمر الله عباده بتعظيمهم، وإليك الأدلة القرآنية الآتية:

◇ لقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (٥٠١)، فالسجود هنا لا يُعدّ عبادة، بل هو غاية الخضوع والتذلل من باب التكريم والتعظيم والتبجيل والتقدير لنبي الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

◇ إن القرآن يصرّح بأن أبوي يوسف وإخوته سجدوا لنبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (٥٠٢)، فسجود نبي الله يعقوب لولده يوسف عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيه دلالة على جواز تعظيم ولي الله ولو بالسجود الذي يعدّ غاية الخضوع.

◇ إن القرآن الكريم أمرنا جميعاً بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلىً، قال

تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(٥٠٣)، ولا ريب في أن الصلاة إنما هي لله، ولكن إقامتها خلف مقام إبراهيم الذي يرى فيه أثر قدميه هو نوع من التكريم والتعظيم لذلك النبي العظيم ولا يتصف هذا العمل بصفة العبادة مطلقاً، وإلا استلزم ذلك دخول حتى الوهابية في الشرك.

◇ بل إن التعظيم شمل حتى غير المعصومين كالوالدين؛ لأن الله تعالى أمرنا جميعاً بخفض الجناح لهم، الذي هو كناية عن الخضوع الشديد الذي يعد من مصاديق التعظيم، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٥٠٤).

ثالثاً: إن الشريعة الإسلامية أمرتنا بتعظيم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، نذكر منها النصوص الآتية:

◇ قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٥٠٥)، إن المراد بـ «القربى» في الآية هم أهل بيت النبي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يعني الإمام علي والسيدة فاطمة والأئمة من ذريتهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتعظيمهم هو من مصاديق مودتهم.

◇ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٥٠٦).

الشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة^(٥٠٧)، وإن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم من أبرز علامات الله، فقد روي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٥٠٨)، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «النجم رسول الله، والعلامات الأئمة من بعده»^(٥٠٩)، وإن تعظيمنا وتقديسنا لمحمد وآل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بمحبتهم ومودتهم، ونشر علومهم، والفرح لفرحهم، والحزن لحزنهم، وزيارة مراقدهم، وتعظيم قبورهم والبناء عليها وصيانتها - إنما هو طاعة لله تعالى، لأنه داخل في تعظيم شعائره.

◇ قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾^(٥١٠) ، فالآية تأمرنا بتعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالتعزيز والنصرة، حيث إن معنى (التعزيز: النصر مع التعظيم)^(٥١١).

◇ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن مَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٥١٢). بمعنى أن الله تعالى يأمر المؤمنين بتعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -حيًا وميتًا- بعدم رفع الصوت (لأن فيه أحد الشينين إما نوع استخفاف به فهو الكفر وإما سوء الأدب فهو خلاف التعظيم المأمور به)^(٥١٣)، وسيترتب عليه إحباط الأعمال.^(٥١٤)

المبحث الرابع: البقيع: من آثار الزيارة إلى مسؤولية الأمة

المطلب الأول: الآثار المترتبة على تعظيم القبور وآثار إهمالها

إن إحياء القبور بزيارتها وتعظيمها تترتب عليه آثار إيجابية تمتد إلى دين الإنسان ونفسه، وتنعكس على سلوكه ومجتمعه وأُمَّته، بينما يؤدي طمسها ومنع زيارتها إلى آثار سلبية تمس هذه الجوانب جميعًا، وتُضعف حضور الدين في الفرد والحياة العامة. ويمكن بيان أهم هذه الآثار على النحو الآتي:

أولاً: التذكير بالموت وترسيخ الإيمان بالآخرة

تُوقظ زيارة القبور القلب من غفلته، إذ يرى الإنسان فيها حقيقة المصير المحتوم، فيدرك أن الدنيا فانية وأن الآخرة هي دار القرار، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»^(٥١٥).

ثانياً: تنمية المشاعر الإيمانية والعواطف النبيلة

تُسهم زيارة القبور في إحياء مشاعر الخير في النفس، وتنمية حب الفضيلة، إذ تُرَقِّق القلب وتُزيل قسوته، فهذا التأثير الصادق ينعكس على سلوك الإنسان، فيزيده رحمةً وليناً، ويُقوِّي روابط المحبة والتراحم بين الناس، ويبعث فيه روح المسؤولية، فيحرص على أداء الحقوق، وصيانة الأمانات، وبناء علاقات قائمة على البرِّ والإحسان.

ثالثاً: الاقتداء العملي بسيرة الصالحين

تُسهم زيارة قبور الأنبياء والأئمة والصالحين في استحضار سيرتهم ومواقفهم، فيتأثر الزائر بأخلاقهم وجهادهم، ويدفعه ذلك إلى الاقتداء بهم في سلوكه، فتتحول الزيارة إلى وسيلة عملية لإصلاح النفس والعمل بالحق. كما أن الوقوف عند قبورهم يُجدِّد في النفس روح الالتزام، ويبعث على محاسبة الذات، فيقيس الإنسان نفسه بمواقفهم في الثبات والتضحية. وبذلك لا تبقى الزيارة مجرد تأثر عاطفي، بل تتحول إلى منهج عملي ينعكس على حياة الإنسان وسلوكه اليومي.

رابعاً: حفظ رسالة الإسلام من خلال تعظيم رموزها

إن تعظيم قبور الصالحين وزيارتها يُبقي الرسالة حيّة في وجدان الأمة، لأن حفظ المبادئ يكون بحفظ رموزها، ومن هنا فإن بقاء هذه المعالم وصيانتها تُسهم في منع اندثار القيم، ويُحافظ على الهوية الدينية من التحريف والنسيان. ولهذا نجد أن الأمم تعتمد إلى إحياء ذكر عظمائها، وبناء المعالم لهم، تخليداً لمواقفهم وربطاً للأجيال بسيرتهم، وهو أمر ينسجم مع التوجيه القرآني: ﴿وَذَكَرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾^(٥١٦)، أي استحضار الوقائع العظيمة التي تُجسّد الحق.

وعليه، فإن زيارة قبور الأنبياء والأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليست مجرد زيارة، بل هي إحياء دائم لذكراهم، وربطٌ حيٍّ بين الأمة ورسالتها، وتجديدٌ للعهد مع مبادئهم.

خامساً: نيل البركات وقضاء الحوائج بالتوسل المشروع

من الآثار العظيمة لزيارة قبور الأنبياء والأئمة والصالحين أنّها من المواطن التي يُرجى فيها استجابة الدعاء، فيتوسل المؤمن بهم إلى الله تعالى لقضاء حوائجه، لما لهم من مقام رفيع عنده.

ومن آثار زيارة المعصومين كزيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: غفران الذنوب، تكثير الحسنات، رفع الدرجات، تفريج الكرب، قضاء الحوائج، دفع البلاء، زيادة الرزق، طول العمر، نيل الشفاعة، القرب من النبي وآله، اكتساب الحكمة، ترسخ محبة أهل البيت في القلب... إلخ

المطلب الثاني: تكليفنا تجاه هدم قبور البقيع

قد يتساءل الإنسان: إذا كان الله قادراً على كل شيء، فلماذا لم يمنع هدم قبور البقيع، ولماذا ترك هذا الظلم يقع؟

الجواب: إن الله سبحانه لم يجعل الدنيا دار جزاءٍ نهائي، بل جعلها دار ابتلاء واختبار، ليظهر صدق المؤمن من ادّعاء غيره. قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٥١٧). فلو تدخل الله تعالى ومنع الظالمين قهراً، كأن يشل أيديهم أو يسلب قدرتهم، لانتفى معنى الاختيار، ولأصبح الإنسان مجبوراً لا مختاراً، وهذا يتنافى مع حكمة التكليف التي بُني عليها الحساب. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا﴾^(٥١٨).

ومن هنا، فإن وقوع هذا الظلم لم يكن غفلة من الله، بل لحكمة عظيمة، منها أنه يكشف حقيقة المواقف: من الذي يتألم لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ من الذي يدافع عن مقدساتهم؟ من الذي يسكت؟ ومن الذي يبرر الظلم؟ فتتحول هذه الحادثة إلى ميدان اختبار حقيقي للولاء والصدق.

كما أن بقاء هذه الجريمة دون محو يجعلها حجة قائمة على الظالمين، وشاهدًا عليهم يوم القيامة، حيث لا يضيع شيء عند الله، بل تُعرض الأعمال وتتكشف الحقائق. قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾. (٥١٩)

ومن جهة أخرى، فإن نصره الدين لا تقوم دائماً على المعجزات، بل تقوم على موقف الإنسان واختياره، قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾. (٥٢٠) فالله تعالى أراد أن يرى من ينصر دينه، ويُعظّم أوليائه، ويحفظ آثارهم، لا أن يتدخل بدلاً عنهم.

السؤال الذي ينبغي علينا طرحه في نهاية المحاضرة هو:

إذا كان هذا هو واقع الابتلاء، فما هو تكليفنا نحن تجاه هدم قبور الأنبياء والأوصياء، ومنها البقيع؟

الجواب: إن فاجعة البقيع ليست ذكرى تُحكى، بل مسؤولية تُحمل، ولذلك فإن تكليفنا يتمثل في أعمال واضحة ينبغي أن نمارسها في واقعنا:

١. إبقاء القضية حيّة في الوعي: تحدّث عن البقيع في المجالس، اذكره في محاضراتك أو دروسك، علّم أبناءك من هم أئمة البقيع، وانشر معلومات صحيحة عنه في وسائل التواصل، ولا تدع القضية تُنسى.

٢. رفض الصمت والحياد: إذا سُمعت شبهة أو إنكار، لا تسكت، بل بين الحق بأسلوب حكيم، وأظهر موقفك بوضوح أنك ترفض هذا الظلم، ولو بكلمة أو منشور أو نقاش واعٍ.

٣. تحويل الحزن إلى عمل: لا تكتفِ بالبكاء أو التأثر، بل اجعل ذلك دافعاً للقراءة، والتعلّم، ونشر الوعي، والمشاركة في إحياء القضية، ولو بعمل بسيط مستمر.

٤. السعي لإزالة آثار الظلم: ادعم كل مشروع أو صوت يطالب بإعادة إعمار البقيع، وتبنّ هذا الهدف في خطابك وكلامك، وادعُ إليه بوعي وثبات.

٥. العمل بروح جماعية: شارك في الأنشطة، انضم إلى من يهتم بهذه القضية، تعاون مع غيرك في نشرها، ولا تعمل وحدك بمعزل عن الآخرين.

٦. أداء الدور بحسب القدرة: إن كنت خطيباً فاذكر البقيع، إن كنت كاتباً فاكتب عنه، إن كنت مربيّاً فاغرس حب أهل البيت، وإن كنت فرداً عادياً فانشر وادعُ وتفاعل بصدق.

٧. تجسيد الولاء عملياً: أظهر حبك لأهل البيت بالدفاع عن حرمتهم، والغيرة على قبورهم، وعدم الرضا بإهانتهم، واجعل موقفك شاهداً على صدق محبتك.

٨. الاستفادة من دروس التاريخ: لا تكن ممن يسكتون عن الظلم، بل خذ موقفاً واضحاً، وعلم غيرك أن التخاذل هو سبب استمرار المظالم.

٩. التمهيد لنصرة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ: درّب نفسك على نصرته الحق، وعدم السكوت عن الظلم، لتكون مستعداً لنصرة الإمام حين الظهور، وابدأ بذلك من موقفك تجاه البقيع.

١٠. الاستمرار وعدم الانقطاع: لا تجعل قضية البقيع تُذكر في وقت ثم تُنسى، بل أبقها حاضرة في قلبك وكلامك دائماً، في الحج والعمرة والمناسبات. ليبقى البقيع حياً في وعيك كما هو، لا كما أريد له أن يُطمس.

وينبغي استثمار وسائل الإعلام الحديثة، ولا سيما مواقع التواصل

الاجتماعي، في نصره محمد وآل محمد، ونشر علومهم، وبيان مكانتهم، وكشف مظلوميتهم، وفي طليعتها فاجعة هدم قبور البقيع، تلك الجريمة التي وقعت في الثامن من شوال سنة ١٣٤٤ هـ الموافق ١٩٢٥ م، حين مُدَّت يد العدوان فسوّت القبور الطاهرة بالأرض، ومُحيت معالمها، بعد أن كانت مناراتٍ للهدى، ومهوى لقلوب المؤمنين، فتحول ذلك الموضع الشريف إلى أرضٍ خالية موحشة، بعد أن كان مفعماً بالحضور والهيبة.

ولم يكن هذا الهدم موجّهاً إلى بناء جامد، بل كان اعتداءً صارخاً على قبور لها حرمتها في الإسلام، فكيف إذا كانت قبور حجج الله على عباده، وأعلام الهدى، وأئمة الدين؟!!

فهذا قبر الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، سبط رسول الله وريحانته، وسيد شباب أهل الجنة، عنوان الحلم والصبر...

وهذا قبر الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إمام الساجدين، صوت كربلاء الباكي، وحافظ رسالتها...

وهذا قبر الإمام محمد الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ، باقر العلوم، الذي أعاد للدين معالمه وفتح أبواب المعرفة...

وهذا قبر الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي نشر فقه آل محمد، وأقام صرح العلم في الأمة...

قبورٌ عظيمة هُدمت قباها، وسوّيت بالأرض، ومُحيت معالمها، وتعرّضت للامتهان بعد أن كانت مواضع تعظيم وإجلال...

وحين يقف الموالي لأهل البيت أمامها، لا يرى حجارةً مهدّمة فقط، بل يرى جراحاً نازفة، فينزف قلبه ألماً، وتنساب دموعه حزناً، ويخرج من أعماقه أنين موجه:

واحسناه... واسجاده... وابقراه... واصادقاه...

وصدق الشاعر الشيخ عبد المحسن ملا عطية الجمري حينما قال:

قفا بهم وغدت تستنطق الدمنا	قف وابكي آل رسول الله قد هدمت
حقد الأولى نصبوا بغضاءهم علنا	قبور آل رسول الله دنسها
ماذا ترى غيهم لو أدركوا الحسننا	ويلٌ لهم هدموا تلك القباب جفاً
مقامه وأذاقوا آله الإحنا	أو أدركوا زمن السجاد لانتهاكوا
وكفروه وقالوا الشرك منه دنا	وباقر العلم لولا قوه لامتعصوا
قضيبت طه لقالوا يعبد الوثنا	ولورأوا جعفرًا في كفه شرفا
كانت مشيدة تقري الأنام سنا	يا زائرا طيبة فالخير في قب
وتنعش الفكر والأرواح والبدنا	واليوم تربتها تقري الأنام هدى
سر الوجود بها لا ترهب الزمنا	زر في البقيع قبورا جل رافعها
سيان تقري هدى من حل أو ضعنا	تمر من تحتها الأجيال خاشعة
هجرت في حبها الأهلين والوطنا	مثنوى الأئمة من أبناء أحمد لو
أنا وتربتها قد فاقت السننا	لكنت أعجز عن تقدير رتبتها
ركبانه نحو الحاد له وخنا	لا ينكر الفضل الا من تسير به
صلى وحج وزكى أو هوى وزنا	سيان من فارق القربى وناصبهم

هؤلاء الأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يقتصر ظلمهم على ما بعد رحيلهم، بل عاشوا مرارة الظلم في حياتهم بأقصى صورته... ولا سيما الإمامان اللذان شهدا فاجعة عاشوراء بكل تفاصيلها المؤلمة؛ وهما الإمام محمد الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان آنذاك طفلاً يقارب عمره أربع سنوات، والإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي كان حاضراً تلك المصيبة وله فيها مواقف عظيمة، نذكر منها ما روته كتب السيرة والمقاتل^(٥٢١): بأنه بعد مصرع أصحابه،

وأهل بيته نادى الحسين: أما من ناصر ينصرنا؟ أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذاب يذب عنا؟ فارتفعت الأصوات بالعويل، وخرج زين العابدين، وكان مريضا لا يقدر أن يفل سيفه، وأم كلثوم تنادي خلفه: يا بني ارجع. فقال يا عمته ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول الله.

(نصاري)

طلع زين العباد النصرت احسين ناده السبط حين الشافته العين
يم كلثوم رديه للصواوين أخافن ينكتل وتضيع الأحكام
فقال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يا أم كلثوم خذيه لئلا تبقى الأرض خالية من نسل
آل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

(نصاري)

قامت عمته او رادت تلزمه صاح ابصوت خليني يعمه
أذب اليوم عن وجه أبو اليمه وحيد او حاطته قامت الظلام

فانقض عليه الحسين عليه السلام، واحتمله إلى المخيم، وقال: يا ولدي ما تريد أن تصنع؟ قال: يا أبة إن نداءك قد قطع نياط قلبي، وهيج ساكن لبي، أريد أن أفديك.

(نصاري)

يبويه صوتك الهيج احزاني او كقطع سباح البگلبى او دهاني
أظل اشلون يا بويه ابمكاني او تطلب ناصر او لا واحد الكام

فقال: يا ولدي أنت الحجة وأنت الإمام على شيعتي، وأنت أبو الأئمة وكافل الأيتام، والمتكفل للأرامل، وأنت الراد لحرمي إلى المدينة، وكأني بك يا ولدي أسير ذليل مغلولة يداك، موثوقة رجلاك.

فقال زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا أبتاه اتقتل وأنا أنظر إليك ليت الموت
أعدمني الحياة، روعي لروحك الفداء، ونفسي لنفسك الوقاء.

(نصاري)

يبويه احسين وانته تظل مطروح واحنه انفار جك وبجسمك اجروح
من بعدك عسنها انعدمت الروح يبويه او تظل بعدك سود اليام

(أبوذية)

مصايب شاف أبو الباقر ومره ماكو مثل يوم الطف ومره
تحمل كل مصايبها ومره او ظلت ناره ابغله سريه

مِصَابِيْبُ شَافِ ابُو الْبَاقِرِ وَمَرَّه
تَحْمَلُ كُلَّ مِصَابِيْبِهَا وَمَرَّه

١٤٤٢ الشرفاوي



١٥ شَوَّال

فَعْرَكَةٌ أُهْدِي وَشَهَادَةٌ فَحْمَزَةٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ إِلَّا عُلَّوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

الْمُنَاسِبَةُ:

مَعْرَكَةُ أَحَدٍ وَشَهَادَةُ حَمْرَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة للشاعر: الشيخ محمد المنصوري

لَا يَنْقُضِي بَتَزْفُرِي وَبُكَائِي

فِي مَاتَمِي وَكَآبَتِي وَعَزَائِي

حَتَّى يُمَزَّقَ بِالشَّجَا أَحْشَائِي

عَمَّ النَّبِيِّ وَسَيِّدِ الشَّهَادِ

فِيهَا مِنَ الْأَشْبَاهِ وَالنُّظْرَاءِ

عَيْنَاهُ مَا صَنَعَتْ بِنَوَالِقِ الظَّاءِ

ذَلِكَ الْعَظِيمِ وَعُمْدَةِ الْعُظْمَاءِ

لَفْتُهُ فَوْقَ حَرَارَةِ الرَّمْضَاءِ

زَفَرَاتُهَا بِتَنْفُسِ الصُّعْدَاءِ

جِسْمَ الْحُسَيْنِ مُوزَعِ الْأَشْلَاءِ

يَالَيْتَ دُونَكَ قُطِعَتْ أَعْضَائِي

مَنْ زَيْنَبُ أَقْوَى لَدَى الْبُلُوَاءِ

حُزْنِي لِمُضَرِّعِ حَمْرَةَ وَعَنَائِي

حَتَّى إِلَى يَوْمِ التَّرْحُلِ لَمْ أَزَلْ

سَأُوَاصِلُ الْأَيَّامَ فِي وَجْدِي لَهُ

هِيَهَاتَ أَنْ أَنْسَى مُصِيبَةَ حَمْرَةَ

بَطْلُ إِذَا الْأَبْطَالُ عُدَّتْ مَالَهُ

لِلَّهِ قَلْبُ الْمُصْطَفَى مَذْ شَاهَدَتْ

مِنْهُ تَدَفَّقَتْ الدَّمُوعُ لِعَمِّهِ

وَأَتَتْ صَفِيَّةٌ تَلْتَقِي بِشَقِيْقِهَا

صَلَّتْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَتْ وَتَصَاعَدَتْ

لَكِنَّ زَيْنَبَ أَعْوَلَتْ لَمَّا رَأَتْ

وَعَدَّتْ تُنَادِيهِ عَقِيلَةَ هَاشِمِ

مَا كَانَ صَبْرُ صَفِيَّةٍ وَجِلَادُهَا

المُحَاضِرَةُ الثَّامِنَةُ

الإِسْلَامُ دِينٌ عِزٌّ وَسَلَامٌ، لَا ذِلَّةَ وَلَا عُدْوَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ
 وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٢٢)

إن من أعظم ما ابتلي به الإسلام في هذا العصر تشويه صورته، واتهامه بأنه دين عنف وإرهاب، في حين أن حقيقته - كما بينها القرآن الكريم وفسرها أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أنه دين يجمع بين السلام والعزة، وبين الرحمة والقوة، فلا يقبل الظلم ولا يرضى بالذل، ولا يعتدي على أحد، ولكنه لا يستسلم للطغيان.

وفي هذه المحاضرة نعرض هذا التوازن العظيم، بأسلوب واضح ومقنع، مدعوم بالأدلة الشرعية والعقلية، مع أمثلة واقعية ونماذج من سيرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

المبحث الأول: الإسلام دين سلام لا عدوان

يُثَبَّتُ هَذَا الْمَبْحَثُ أَنَّ السَّلَامَ فِي الْإِسْلَامِ أَصْلٌ رَاسِخٌ، يَتَجَلَّى فِي مَفْهُومِهِ وَكَيْفِيَةِ صِنَاعَتِهِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَالْمَجْتَمَعِ. وَإِلَيْكُمْ بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْمَطَالِبِ الْآتِيَةِ:

المطلب الأول: الإسلام دين سلام

إن الإسلام في حقيقته هو الاستسلام لله تعالى والانقياد لأمره، وهذا الاستسلام الحق يورث الإنسان السلامة في نفسه، والسلام في مجتمعه، والطمأنينة في علاقته بربه وبالناس، فيشعر بالأمان والراحة بعيداً عن القلق والخوف.

وفيما يأتي جملة من الشواهد التي تبين أن الإسلام دين السلام، منها:

◆ أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ .. السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ﴾^(٥٢٣) مما يكشف أن من مقاصد هذا الدين ترسيخ الطمأنينة في قلب الإنسان، وبناء الأمان في المجتمع، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٥٢٤).

◆ أراد الله تعالى للمؤمن أن يعيش في دائرة السلام الكاملة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾^(٥٢٥)، أي اجعلوا السلام منهج حياة في كل جوانبكم، مع أنفسكم، ومع غيركم، ومع ربكم. فالؤمن الحقيقي هو الذي يكون مصدر أمان، لا مصدر خوف، وقد بين الإمام الباقر عليه السلام هذا المعنى بقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٥٢٦)، فجعل من أبرز علامات صدق الإسلام في سلوك الإنسان أن يسلم الناس من أذاه.

ويتجلى هذا المعنى في سلوك المسلم اليومي، فهو يبدأ لقاءه بالسلام بقوله: (السلام عليكم)، ويختتم أبرز عبادته كالصلاة بالسلام على النبي وعلى عباد الله الصالحين وعلى الناس جميعاً بقوله: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

بل إن الإسلام يُرسخ هذا المعنى حتى في أشدّ المواقف، فيأمر المؤمن أن يبقى حاملاً لروح السلام عند مواجهة الجهل والإساءة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٥٢٧)، أي لا يقابلون السوء بمثله، بل يردّون بكلمة طيبة خالية من الأذى، أو يعرضون عن الجاهل بحلم ووقار، حفاظاً على كرامتهم، وتجسيداً لسلام عملي يطفى النزاع ولا يزيده اشتعالاً.

◆ إن الإسلام لا يقف عند حدود تحقيق السلام في هذه الحياة الزائلة، بل يتجاوز ذلك ليقود الإنسان نحو السلام الحقيقي الدائم في الحياة الخالدة، حيث جنات النعيم التي سماها الله تعالى: «دار السلام» قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٥٢٨)، لأنها خالية من الخوف والقلق والأذى، وكل ما فيها قائم على الطمأنينة والمحبة. حتى تحية المؤمنين بعضهم لبعض في الجنة هي سلام: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا * إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾^(٥٢٩). وأيضاً تحية الملائكة للبشر في الآخرة سلام: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْهِمْ﴾^(٥٣٠).

المطلب الثاني: كيف يصنع الإسلام السلام

السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المطلب:

كيف يصنع الإسلام السلام في النفس والأسرة والمجتمع؟

الجواب: يتحقق السلام الحقيقي في حياة الإنسان والأسرة والمجتمع من خلال الالتزام الشامل بتعاليم الإسلام في جميع أبعاده؛ من العقيدة، والأحكام، والأخلاق، والآداب، لأن هذه المنظومة الإلهية المتكاملة تهذب العقل والروح والسلوك، فتنتج إنساناً متوازناً ومجتمعاً مستقراً قائماً على الطمأنينة والعدل. فالإسلام لا يطلب السلام كشعار، بل يزرعه في جذور

الإِنسان من داخله، ثم يُظهره في سلوكه الخارجي.

وفيما يأتي نماذج متعددة توضّح كيف يُنتج الإسلام السلام في مختلف شؤون الحياة:

◆ في العقيدة: إنسان فقد مالاً أو ولدًا أو أصيب بمرض، لكنه يؤمن بأنّ كل ما يجري في هذا الكون بعلم الله وحكمته، وأنّه سبحانه لا يقدرّ لعبده إلا ما فيه مصلحة أو اختبار أو رفعة، فيسكن قلبه ولا ينهار أمام المصيبة، ويعيش سلامًا داخليًا لأنه يعلم أنّ أمره بيد ربّ رحيم.

◆ في العبادة: إنسان يحافظ على الصلاة، فيشعر بالراحة والطمأنينة بعد كل صلاة، فتزول عنه ضغوط الحياة ويعيش سكينه متجددة.

◆ في الأحكام (الحقوق): تاجر يلتزم بالصدق ولا يغش، فيكسب ثقة الناس، فتسود الطمأنينة في التعاملات التجارية ولا تنشأ النزاعات.

◆ في الأسرة: زوج يختار اللين والحوار بدل الصراخ والعنف، فتعيش الأسرة في جو من المودة بدل التوتر والخوف.

◆ في الأخلاق: شخص أسىء إليه، لكنه عفا وصفح، فانهتى النزاع ولم يتطور إلى خصومة أو قطيعة.

◆ في الكلام: إنسان يحرص على الكلمة الطيبة، فيدخل السرور على من حوله، ويمنع نشوء المشاكل بسبب سوء التعبير.

◆ في المجتمع: عندما ينتشر خُلق الإصلاح بين الناس، يُسارع الأفراد إلى حل النزاعات بدل تأجيجها، فيسود الاستقرار والسلام.

◆ في التعامل مع المخالف: شخص يتعامل مع من يختلف معه بالدين أو الرأي بعدل واحترام، فلا تتحول الاختلافات إلى صراعات وعداوات.

♦ في ضبط النفس: إنسان يغضب لكنه يملك نفسه ولا يعتدي، فينطفئ الخلاف قبل أن يتحول إلى مشكلة كبيرة.

♦ في التعامل مع المال: شخص يؤدي الحقوق المالية كالزكاة والخمس، فيُسهم في تقليل الفقر، مما يخفف أسباب الحقد والنزاع في المجتمع.

ومن خلال هذه النماذج يتضح أن الإسلام دين السلام في حقيقته، وأن كل ما فيه يقود إلى الطمأنينة والاستقرار. فليس السلام أمرًا جزئيًا فيه، بل هو ثمرة طبيعية لكل تعاليمه. وكما يُقال: الإناء ينضح بما فيه، فإن من عبد الله الذي هو السلام، انعكس ذلك على سلوكه، فصار سلامًا في نفسه، وبيته، ومجتمعه.

المبحث الثاني: الجهاد في الإسلام: فلسفته وأقسامه وضوابطه

إنّ هذا المبحث يثبت أنّ الجهاد في الإسلام ليس عدوانًا ولا فوضى، بل تشريعٌ عادلٌ منضبط. فهو يبيّن من خلال فلسفته أنّه لم يُشرّع حبًّا في القتال، ومن خلال أقسامه أنّه ليس ممارسة عشوائية، ومن خلال ضوابطه أنّه مقيّد بقيود صارمة تمنع الانحراف إلى الاعتداء. وإليكم بيان ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: فلسفة الجهاد في القرآن

إنّ القتال وإعلان الحرب من الأمور التي تنفر منها النفوس بطبيعتها، لما فيها من مشقّة وخطر، فيميل الإنسان إلى تجنبها واعتبارها شرًّا محضًا. غير أنّ هذا الشعور الفطري لا يكشف دائمًا عن حقيقة الأشياء، إذ قد يكون ما تكرهه النفس يحمل في باطنه خيرًا وحكمةً لا تدركها ابتداءً. وقد أشار

القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. (٥٣١)

وعند التأمل في القرآن الكريم، يتبين أن الجهاد شرع بحكمة إلهية، لا عبثًا ولا حبًا في الحرب، بل لحكم يقرها الشرع والعقل، نذكر منها:

١. دفع الظلم عن الإنسان

إن من أوضح أسباب تشريع الجهاد دفع الظلم والعدوان عن الإنسان، وحمايته من سلب حقوقه، والاعتداء عليه في نفسه وماله وكرامته. قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (٥٣٢)

تُبين الآية أن تشريع الجهاد جاء بعد وقوع الظلم على الإنسان، لا ابتداءً بالعدوان، فهو إذن بالدفاع لا دعوةً للهجوم. فالآية لا تقول: قاتلوا لأنكم أقوياء، بل تقول: قاتلوا لأنكم ظلمتم. أي أن الجهاد ليس للسيطرة ولا لنشر العنف بل لرفع الظلم والدفاع عن النفس.

٢. حماية المجتمع من الفساد والإفساد

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. (٥٣٣) أي إن الله تعالى جعل في نظام الحياة سنة قائمة على التدافع، أي وجود قوة تقف بوجه قوة أخرى، بحيث لا يطغى الظالم دون رادع. ولولم يوجد هذا التدافع -الذي من أبرز مصاديقه الجهاد-، لسيطر أهل الباطل، وعم الفساد في الأرض، وانتشرت الجريمة، وضاعت الحقوق وانهارت حياة الناس.

٣. حماية الدين وحرية العبادة

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَّمتُ صَوَامِعُ وَيَبَعُ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾^(٥٣٤) تُبَيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ سُنَّةَ التدافعِ الإلهيِّ بينِ الناسِ تُسهمُ في منعِ استيلاءِ الظالمينَ، وتكفُّ عدوانهم عن هدمِ دورِ العبادةِ، سواءَ كانتِ لليهودِ أو النصرانيِّ أو المسلمينَ، وتحوّل دونِ تعطيلِ ذكرِ اللهِ فيها. ومن هنا يظهرُ أنَّ حفظَ دورِ العبادةِ من الهدمِ مقصدٌ عظيمٌ، ولذلك شُرِّعَ الجهادُ بوصفه ضرورةً لحمايةِ الدينِ وصيانةِ حريةِ العبادةِ، لا باعتبارِه وسيلةً للعدوانِ أو الهيمنةِ.

٤. حماية الضعفاء والمستضعفين

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾^(٥٣٥) تُبَيِّنُ الآيةُ أنَّ من أسبابِ الجهادِ الدفاعِ عنِ المستضعفينِ كالنساءِ والأطفالِ وكبارِ السنِّ والمرضىِّ والمعوقينَ الذين لا يملكون قوةً ولا يستطيعون الدفاعَ عن أنفسهم وقد وقعوا تحت ظلمِ الكفارِ أو الطغاةِ، كالعرضِ للأذى والتعذيبِ والجوعِ والعطشِ.

فالله تعالى لم يجعل الجهادَ للدفاعِ عن النفسِ فقط، بل لأجلِ نصرتهِ من لا يستطيع الدفاعَ عن نفسه. أي وسَّعه ليشمل إنقاذَ المظلومِ والمستضعفِ.

٥. إقامة العدل وردع المعتدي

ذكرنا في النقطة الأولى أنَّ الجهادَ شُرِّعَ لنصرةِ المظلومِ بدفعِ الظلمِ عنه، إلا أنَّ فلسفته لا تقف عند هذا الحدِّ، بل تتجاوز إلى ردعِ المعتديِ وتأديبهِ، حتى يُستأصلِ العدوانُ وتُقامِ موازينُ العدلِ في المجتمعِ.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾^(٥٣٦) فالعقل

يحكم بضرورة منع الظالم دون تجاوز، ولذلك فالجهاد ليس انتقامًا، بل ردٌّ منضبط للعدوان يحقق التوازن ويحفظ الحقوق. وكأن الآية تقول لنا: دافع عن نفسك لكن لا تظلم ولا تتجاوز الحد.

٦. امتحان صدق الإيمان والثبات

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥٣٧). تُبَيِّنُ الآية أَنَّ الجهاد ميدانٌ يُظهر حقيقة الإيمان ويميّز الصادق من المدّعي. فالإيمان لا يُعرف بالدعوى، بل يُكشف عند الشدائد والمواقف الصعبة.

وبذلك يكون الجهاد ميزانًا يميّز من يثبت على العزّة ممّن يقبل بالذلّ والهوان.

المطلب الثاني: أقسام الجهاد في الإسلام

بعد بيان فلسفة الجهاد، يتضح أنّه لم يُشرّع لمجرد القتال، بل ضمن إطارٍ منظمٍ قائم على الحكمة والعدل، مما يستدعي الوقوف على أقسامه لفهم حقيقته، ومن أبرزها التقسيم الثلاثي^(٥٣٨) الآتي:

أولاً: الجهاد الدفاعي (مع غير المسلمين)

يُشرع هذا النوع من الجهاد عند اعتداء غير المسلمين على المسلمين، لأن الإسلام لا يميز ترك الظلم دون دفع، بل يأمر بحماية النفس والعرض والمال، وردّ العدوان، وصيانة كرامة الإنسان.

ولا يُشترط في الدفاع الفردي المباشر إذن خاص عند وقوع الاعتداء الفوري،

بل يُباشِر فوراً، أما إذا كان الاعتداء واسعاً، كالهجوم على بلد، أو تهديد أمن المجتمع، أو اعتداء يشمل جماعةً من الناس، فلا بد أن يكون الدفاع منظماً وتحت إشراف القيادة الشرعية حيث أمكن، حتى لا يتحول إلى فوضى أو إلى تعدٍّ يتجاوز حدود العدل.

ومن أبرز مصاديق هذا النوع ما وقع في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من مواجهة المشركين والكفار المعتدين الذين حاربوا الدعوة وأخرجوا المؤمنين من ديارهم.

ثانياً: جهاد البغاة (مع المسلمين المعتدين)

وهو نوع من الجهاد الدفاعي، لكن يكون العدو فيه من المسلمين الذين خرجوا عن الحق، وتمردوا على القيادة الشرعية، واعتدوا وظلموا. ويكون الهدف منه إيقاف عدوانهم، وردّهم إلى الحق، وحماية المجتمع من الفتنة والفساد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٥٣٩)، فبين أن القتال هنا ليس عدواناً، بل وسيلة لإيقاف البغي وإرجاع الأمور إلى العدل.

وقد تجلّى هذا النوع من الجهاد بوضوح في سيرة أوصياء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث واجه البغاة في معارك الجمل وصفين والنهروان، وهم الذين عرفوا في كلمات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالناكثين والقاسطين والمارقين.

وكذلك تمثل نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أوضح موقف شرعي في رفض الخضوع للسلطة الجائرة، والدفاع عن الدين والحق، وإن كانت لها

خصوصيتها التاريخية والشرعية.

ولو أردتم التوسّع في تفاصيل هذا النوع من الجهاد، فيمكنكم الرجوع إلى المحاضرة المعنونة بـ «جهاد الفئة الباغية» في الجزء الرابع عشر من هذا الكتاب.

ثالثاً: جهاد الدعوة إلى الإسلام (الجهاد الابتدائي)

وهو جهاد مرتبط بإزالة الموانع التي تحول دون وصول دعوة الحق إلى الناس، لا لمجرد القتال أو التوسع.

فقد أنزل الله تعالى شرائع لهداية الإنسان، وأوجب تبليغها، فإذا وُجدت قوى أو أنظمة تمنع الناس من سماع الحق، أو تفرض عليهم الإكراه لترك دينهم، كان من وظائف القيادة الإلهية إزالة هذه الحواجز، بعد استنفاد الوسائل السلمية، وبالحدود التي تضمن رفع المنع دون تعدُّ أو ظلم.

وهذا النوع من الجهاد ليس أمراً متروكاً للأفراد، بل هو قرار خطير يرتبط بقيادة معصومة، ولذلك اشترط فقهاء الإمامية وجود الإمام المعصوم أو نائبه الخاص، فلا يصح أن يتخذ ذريعة لتبرير العنف المنفلت أو الفوضى.

إن الحروب التي قادها النبي وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تندرج ضمن الأقسام المشروعة للجهاد المذكورة أعلاه، ولم تكن حروب عدوان. وقد رأى بعض العلماء أن أكثرها يدخل في الجهاد الدفاعي بالمعنى الأوسع، أي ما كان لردّ اعتداء المشركين أو دفع ظلم البغاة، بل ذهب آخرون إلى أن جميعها كذلك^(٥٤٠)، لأنها كانت تهدف إلى رفع الظلم وحماية المسلمين.

المطلب الثالث: ضوابط الجهاد في الإسلام

لم يترك الإسلام الجهاد دون ضوابط، بل قيّده بقيود دقيقة تحفظه من الانحراف، وتمنع تحوُّله إلى عدوان أو فوضى، ليبقى وسيلة لتحقيق العدل لا أداة للظلم. ومن أهم هذه الضوابط:

١. عدم البدء بالعدوان:

الأصل في الجهاد أنه لا يُشرع للعدوان، بل يكون لدفع الظلم وردّ الاعتداء، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾، فهذه الآية تضع قاعدة واضحة: القتال يكون في مواجهة المعتدي، لا ابتداءً بالظلم. ولذلك لم يكن النبي وآله الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يبدأون بالقتال، بل كانوا يدعون أولاً بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن اعتدي عليهم دافعوا.

٢. الاقتصار على قدر الضرورة

الجهاد في الإسلام ليس انتقاماً، بل هو ردٌّ للعدوان بقدر ما يوقفه، دون تجاوز أو إفراط، قال تعالى: [فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ] ^(٥٤١)، فالمعيار هو التناسب الذي يحفظ الجهاد ضمن إطار العدل.

مثال ذلك: إذا زال خطر العدو وانكفَّ عن القتال، لم يجز ملاحقته أو الاستمرار في إيذائه، لأنَّ سبب القتال قد انتهى.

٣. الرجوع إلى القيادة الشرعية

لم يجعل الإسلام الجهاد أمراً فردياً مفتوحاً، بل ربطه بالقيادة الشرعية، خصوصاً في القضايا العامة، حتى لا يتحوّل إلى فوضى أو إلى اعتداء غير منضبط.

فالجهاد الابتدائي لا يُشرع إلا بإذن المعصوم عند الإمامية، وأما الجهاد الدفاعي العام، فلا بد أن يكون منظماً وتحت إشراف القيادة الشرعية حيث أمكن، لضبط القرار وتحديد المصلحة، ومنع الانحراف أو الاستغلال.

٤. الالتزام بالأخلاق الإسلامية في القتال

حتى في حال الحرب، لم يسقط الإسلام الأخلاق، بل أكد عليها، فحرّم الغدر والخيانة، ونهى عن التمثيل بالجثث، وعن كل ما ينافي القيم الإنسانية.

رُوي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِعَسْكَرِهِ قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ بِصَفِينِ: « لَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتْ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا وَلَا تُصِيبُوا مُعُورًا وَلَا تُجْهَرُوا عَلَى جَرِيحٍ وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَّيْنَ أُمَّرَاءَكُمْ... » (٥٤٢).

٥. تقديم السلم إذا تحقق العدل

الإسلام لا يتشبّه بالحرب، بل يقدّم السلم متى كان حقيقياً ويحقق العدل ويحفظ الحقوق، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (٥٤٣)، أي إذا مالوا إلى السلم الصادق فاقبله.

لكن مع الحذر من الخيانة، قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (٥٤٤)، فيبقى التعامل قائماً على الوضوح والعدل دون غدر.

ومن هنا، فإن الأصل في منهج محمد وآله هو تقديم الصلح والسلام على الحرب؛ فيبدؤون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقدمون الحوار على القتال، ويقبلون بالهدنة متى توفّرت، ولا يتجهون إلى الحرب إلا عند الضرورة، وهذا ما ذهب إليه بعض الفقهاء. (٥٤٥)

٦. تحريم استهداف الأبرياء وغير المقاتلين

من أهم ضوابط الجهاد في الإسلام تحريم الاعتداء على من لا يشارك في القتال، كالنساء، والأطفال، وكبار السن، ومن لا قدرة لهم على الحرب.

رُوي إن أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام بعد أن علم بالغارات التي شنّها جيش معاوية على بعض مناطق العراق، ومنها الأنبار، حيث تعرّضت النساء للانتهاك والسلب، غضب الإمام علي عليه السّلام وخطب بهذه الكلمات المؤثرة: «... ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة^(٥٤٦) فينتزع حجلها^(٥٤٧) وقلبها^(٥٤٨) وقلائدها ورعاثها^(٥٤٩)، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرّين، ما نال رجلاً منهم كلمٌ ولا أريق لهم دم. فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً».

حيث يصف الإمام عليّ عليه السّلام جريمةً عظيمة، حينما اعتدى بعض الناس على المرأة المسلمة والمرأة المعاهدة، فسلبوا حليهن من خلخال وسوار وقلائد وأقراط، وهنّ لا يملكن إلا البكاء والاسترحام، دون أن يجدن من يدافع عنهن، بينما خرج المعتدون سالمين دون أن يُصاب أحد منهم.

فاشتدّ غضب الإمام، وقال: لو أن مسلماً مات حزناً وغيره بعد هذا، فلا يُلام، بل هو جدير بذلك.

أي أن هذا الحدث يجب أن يوقظ الضمير، لأن السكوت على مثل هذا الظلم سقوطٌ في الكرامة، ولا يليق بالمسلم أن يرضى به.

أقول: كيف بك يا سيدي لو أبصرت بناتك يُنتهكن، يُسقن قهراً من بلدٍ إلى بلد، تُرفع عليهنّ الأيدي، وتُطلق في وجوههنّ الشتائم، ولا ناصر لهنّ ولا مغيث؟ أيّ قلبٍ يحتمل هذا، وأيّ ضميرٍ يسكت عليه؟

وفي ختام المبحث نقول: فأَيُّ قانونٍ في هذا العالم بلغ من الرحمة والعدل ما بلغته تشريعات الإسلام في الجهاد؟ حيث قيّد القتال بقيودٍ دقيقة تصونه من الظلم، وتكشف بوضوح أنه تشريعٌ إلهيٌّ منزّهٌ عن العدوان والإرهاب، قائمٌ على الحكمة والإنصاف لا على الفوضى والاعتداء.

المبحث الثالث: الرد على شبهة أن الإسلام دين إرهاب

يدّعي أعداء الإسلام أن الإسلام ليس دين سلام، بل هو دين إرهاب وعنف وعدوان في واقعه وتشريعاته، ويستند مروّجوه هذه الشبهة إلى جملة من الأمور، سنطرحها في المطالب الآتية، ثم نختم ببيان موقف الشريعة الإسلامية الحقيقي من الإرهاب وحرمة.

المطلب الأول: دعوى ربط عنف الإسلام بسلوك بعض المسلمين

الأمر الأول الذي يطرحه المخالفون:

أن ما يصدر من بعض الجماعات المنتسبة إلى الإسلام من أعمال إرهابية، كالقتل والتفجير وسفك الدماء والاعتداء، يدلّ -بزعمهم- على أن هذه الأفعال تمثل حقيقة الإسلام، خاصة مع تكرار ظهور هذه النماذج في وسائل الإعلام، مما يعزز لديهم هذا التصوّر.

الجواب: إنّ حقيقة الإسلام لا تُعرف من خلال سلوك كل من ينتسب إليه، بل تُؤخذ من مصدره الصحيح، وهو القرآن الكريم، وما صدر عن النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أقوال وأفعال وتقريرات، لأنهم الامتداد الحقيقي لهذا الدين والناطقون به.

أمّا ما يصدر من بعض المنحرفين، من فاسقين أو منافقين أو من يبيعون دينهم لأجل المال أو السلطة، فلا يمثل الإسلام، بل يمثل انحرافاً عنه.

ولو فتحنا هذا الباب، للزم أن نحكم على كل دين أو مبدأ من خلال أسوأ من ينتسب إليه، وهذا ما لا يقول به عاقل، ولتقريب الفكرة نضرب الأمثلة الآتية:

◆ لو أنّ معلّمًا فاسدًا أفسد طلابه، فهل نحكم على العلم والتعليم بالفساد؟ أم نحاسب هذا المعلّم وحده؟

فالعبرة بالمصدر الصحيح لا بالمنحرف.

◆ لو أنّ شخصًا استخدم دواءً نافعًا بطريقة خاطئة فأضرّ بنفسه، فهل يُقال إنّ الدواء ضارّ بطبيعته؟ أم إنّ سوء الاستخدام هو السبب؟ كذلك النصوص الدينية، قد يُسيء أحدهم فهمها أو توظيفها.

◆ لو أنّ شخصًا لبس زيّ الشرطة وارتكب جرائم، فهل نقول إنّ جهاز الشرطة مجرم؟ أم نقول إنّهُ منتحل أو فاسد لا يمثل المؤسسة؟ وهكذا حال من يتستر باسم الدين.

ومن هنا، يتّضح بطلان هذا التعميم، وأنّ ما يُنسب إلى الأفراد من عنفٍ وإرهاب لا يصحّ أن يُحمّل للدين نفسه، بل لا بدّ من النظر إلى حقيقة هذا الاتهام وخلفيّاته.

وينبغي الالتفات إلى أنّ تهمة «الإرهاب» التي ألصقت بالإسلام لم تكن وليدة الصدفة، بل استُخدمت ضمن مشروع إعلامي وسياسي منظمّ سعت من خلاله جهات معادية للإسلام، وفي مقدمتها أمريكا والكيان الصهيوني ومن يدور في فلكهما من بعض القوى الغربية، إلى ترسيخ صورة مزيفة عن الإسلام في أذهان الناس، حتى يظهر وكأنه دين عنف وعدوان. وقد اشتدّ

هذا التوظيف بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م، حيث وُجّه الاتهام في الخطاب الإعلامي والسياسي مباشرة إلى الإسلام والمسلمين، واستثمرت تلك الأحداث لتشويه صورة هذا الدين، وإبعاد الناس عنه، وتبرير التدخل في بلاد المسلمين، وصرف الأنظار عن الجرائم الحقيقية التي تُرتكب بحقهم. ولأجل تثبيت هذه الشبهة، لم يكتفِ الأعداء بالكلام والدعاية الإعلامية، بل عملوا على صناعة نماذج منحرفة ونسبتها إلى الإسلام، ودعموا في الخفاء بعض الجماعات التكفيرية والإرهابية، ومهدوا لها سبل الحركة والتمويل والتسليح، ثم ركّز الإعلام عليها بشكل مكثّف، حتى يظنّ الناس أن هذه التصرفات تمثّل الإسلام. فظهرت جماعات منحرفة تمارس القتل والتفجير وانتهاك الحرمات، كالخوارج والنواصب وبعض الجماعات التكفيرية المعاصرة، وهي في حقيقتها بعيدة كل البعد عن تعاليم الإسلام، بل هي في كثير من مواردها أدوات تخدم أعداء الإسلام، وإن رفعت اسمه زورًا. فالإسلام بريء من هذه الأعمال، لأنها تقوم على الظلم والعدوان، وهو دينٌ يحرم ذلك أشدّ التحريم، كما سيأتي بيانه في المطلب الرابع.

المطلب الثاني: دعوى الاستدلال بآيات القتال على عنف الإسلام

ومما يثيره المخالفون في هذا الباب، ويتعلّق بهذه الشبهة، قولهم:

أن بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن القتال تدلّ - بحسب فهمهم - على أن الإسلام يدعو إلى قتال غير المسلمين، وهو دعوة عامة للعنف، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٥٥٠)، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾^(٥٥١)، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(٥٥٢)، و﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ..﴾^(٥٥٣)، و﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٥٥٤).

الردّ سنطرحه بالنقاط الآتية:

١. تقييد القتال في القرآن بالمعتدين دون سواهم

الآيات التي ذكرت نزلت في زمن كان فيه المسلمون يتعرضون للاعتداء كشن الحروب، والإخراج من ديارهم، والقتل والتعذيب. فجاءت هذه الآيات لتنظيم الدفاع عن النفس والمجتمع، لا لبدء العدوان على غير المسلمين ابتداءً، بدليل أن القرآن نفسه استثنى غير المعتدين، فقال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٥٥٥).

هذه الآية دليل واضح على أن غير المسلم إذا لم يحارب ويعتدي، يجوز الإحسان إليه. فكيف يأمر بقتلهم هنا، ثم يأمر بالإحسان إليهم هناك؟ الجواب: لأن القتال خاص بالمعتدين فقط، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (٥٥٦) أي قاتلوهم حال كونهم يقاتلونكم، فيكون القتال هنا ردًا لعدوانهم، لا ابتداءً بالاعتداء عليهم. وهذا يهدم شبهة أن الإسلام يأمر بقتل كل غير مسلم.

٢. آيات الجهاد مقيدة بدفع العدوان لا بإطلاق القتال

إن آيات الجهاد المذكورة أعلاه قد يظهر منها - في ظاهرها - الحث على قتال المشركين والكافرين، إلا أن هذا القتال ليس مطلقاً، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا تفهم آياته بمعزل عن بقيتها. فقد قيّد الله تعالى القتال بحدود واضحة، كقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥٧) مما يدل على أن القتال مقيد بدفع العدوان، لا مفتوحاً للظلم والتعدي. بل إن الإسلام نهى عن الاعتداء حتى مع وجود الخصومة، قال تعالى: ﴿وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ... أَن تَعْتَدُوا﴾ (٥٥٨)،

أي لا يدفعكم بغضكم لقوم إلى الظلم والعدوان، وهذا يضبط حتى مشاعر الغضب. وعليه فإن حروب المسلمين في زمن النبي وآله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم تكن عدوانية، بل قامت على العدل ورفع الظلم.

٣. عدم انحصار الجهاد في القتال وإبطال دعوى دلالة على العنف

إنَّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (٥٥٩) لا يدلُّ على الدعوة إلى العنف بقتل كل كافر ومنافق، لأن لفظ ﴿جَاهِدِ﴾ لا يعني بالضرورة (قَاتِلِ)، بل هو أوسع من ذلك؛ فقد يراد منه جهاد الكلمة كقول الحق في وجه الظالم، فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» (٥٦٠)، أو جهاد الدعوة، أي نشر الإسلام وبيان تعاليمه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥٦١)، أي جاهدكم بالقرآن عبر تلاوته وبيان حقائقه (٥٦٢).

وأما قوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، فليس المقصود به الظلم أو الاعتداء، بل الحزم والثبات في مواجهة الباطل، من دون تهاون أو ضعف. وبذلك يتضح أن الآية لا تدعو إلى العنف، بل إلى مجاهدة الباطل بوسائل متعددة، وفي إطار منضبط قائم على الحق والعدل.

٤. تحريض القتال خاصٌّ بزمن الحرب لا دعوة دائمة للعنف

إنَّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (٥٦٣) لا يفهم على أنه أمر دائم بالعنف، بل هو توجيه خاص بزمن الحرب، هدفه رفع معنويات المقاتلين وتشجيعهم على الثبات أمام العدو.

فكما تفعل جميع الجيوش، حيث يُحفِّز الجنود قبل المعركة، جاء هذا الخطاب ليقوي عزيمةهم ويمنع عنهم الخوف، لا ليأمر الناس بالقتال في كل

زمان. وبذلك يتضح أن الآية مرتبطة بظروف الحرب فقط، وليست دعوة عامة إلى العنف^(٥٦٤).

المطلب الثالث: دعوى التعارض بين السلام وتشريع القتال في الإسلام

من أبرز ما يثيره المخالفون في هذا الباب، ويتعلّق بهذه الشبهة، قولهم: إذا كان الإسلام يدعو إلى السلام، فلماذا يشرّع القتال؟ أليس السلام يعني ترك الحرب مطلقاً؟ فكيف يجتمع في دينٍ واحد الدعوة إلى السلام، مع الإذن بالقتال؟

ولذلك يفضّل بعضهم المسيحية؛ لأنها تدعو إلى المحبة والتسامح، ويستشهدون بقول السيد المسيح: «من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر»^(٥٦٥)، بينما يقولون إن الإسلام يدعو إلى القتال^(٥٦٦).

الجواب:

١. أصل الإشكال... الخلط بين «السلام» و«الاستسلام»

فقد يتوهم بعض الناس أن الدين الإلهي ينبغي أن يكون دعوة إلى المسالمة المطلقة في كل حال، فيستغرب مشروعية القتال في الإسلام.

وهذا التوهم ناشئ من عدم التفريق بين السلام العادل، وبين الاستسلام للظالم. ويظنّ بعض الناس أنّ السلام يعني ترك القتال مطلقاً في جميع الأحوال، وهذا فهمٌ غير صحيح، لا يقرّه العقل ولا الشرع.

الصحيح هو أنّ «السلام» هو حالة عدل وأمن وطمأنينة تنشأ عن حفظ الحقوق واحترام الإنسان، أما «الاستسلام» فهو خضوع للباطل وتنازل عن الحق تحت ضغط القوة أو الخوف.

فالإسلام يدعو إلى الأول، ويرفض الثاني أي يدعو إلى السلام العادل، ويرفض الاستسلام المُذل.

وللتوضيح أكثر نسأل: هل السلام يعني ترك الحرب مطلقاً؟

الجواب: لا، لأن هذا يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً، منها: تمكين الظالم من السيطرة، وضياع كرامة الإنسان، وانتشار الفوضى والفساد، واستعباد الشعوب.

مثال عقلي واضح:

◇ إذا اقتحم لصُّ بيتك يريد الاعتداء على أهلِكَ وانتهاك حرمتهم، أترى أن الوقوف موقف المتفرِّج بدعوى السلام يحفظك؟ أم أنه لا يجلب إلا الذلَّ ويتركك فريسةً للظلم؟

◇ إذا احتلَّ عدو بلدًا، وقتل الناس وأخرجهم من بيوتهم، هل يكون السكوت سلامًا أم ذلًّا؟

إنَّ العقل يحكم بأن ترك الظالم يبطش بالناس ليس سلامًا، بل تمكينٌ للظلم. كما يحكم بأن ردَّ العدوان بالقدر الذي يوقفه عدلٌ، لا إرهاب. ومن هنا كان الجهاد الدفاعي موافقًا للعقل لأنه يدفع الظلم والعدوان، ويحمي النفس والحقوق، ويحمي المستضعفين، ويحفظ الدين - كما ذكرنا ذلك في فلسفة الجهاد-.

إذ قد يكون استعمال القوة المنضبطة لدفع العدوان هو الطريق الحقيقي إلى حفظ السلام والعزة والكرامة.

ولهذا جاء الإسلام ليقول: لا تعتدِ على أحد، لكن إذا اعتدي عليك، يجب أن تدافع عن نفسك. مثل الشرطي الذي يحمل سلاحًا... هو لا يريد الأذى، لكنه يحمي الناس. فالجهد في الإسلام ليست للعدوان، بل

للدفاع، وحماية النفس، ورفع الظلم.

قد يُقال: **كيف يجتمع السلام والقتال في الإسلام؟**

والجواب: أن الإسلام جمع بينهما وفق قاعدة محكمة:

أن الأصل فيه السلم، ولا يُلجأ إلى القتال إلا عند الضرورة لدفع العدوان، مع الالتزام بعدم التعدي، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾^(٥٦٧)، فهو لا يُبيح بدء الظلم، ولا يرضى بالاستسلام له.

الخلاصة: الإسلام لا يريد إنساناً ظالماً ولا إنساناً ضعيفاً مستسلاً، بل يريد إنساناً رحيماً... لا يعتدي، قوياً... لا يُذل، عادلاً... يدفع الظلم.

٢. شمولية الإسلام في تنظيم الحياة

وأما من يفضّل المسيحية بدعوى أنها تقوم على المحبة والتسامح، فإن منشأ هذا التصور هو حصر الدين في الجانب العاطفي والأخلاقي، مع أن حياة الإنسان لا تستقيم بهذه القيم وحدها، بل تحتاج إلى نظام عادلٍ ينظم السلوك، ويحفظ الحقوق، ويمنع تغلب القويّ على الضعيف.

ومن هنا جاء الإسلام بمنهج متكامل يجمع بين الرحمة والعدل؛ فكما دعا إلى الإحسان والتسامح، وضع تشريعاتٍ رادعة تمنع الظلم وتحمي المجتمع من الفوضى، ومن أبرزها تشريع القصاص قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٥٦٨)، أي إن العقوبة ليست غاية في ذاتها، بل وسيلة لحفظ الحياة وردع الجريمة قبل وقوعها. وقد أكد أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن هذه الأحكام شرّعت لصيانة الناس وإقامة العدل، لا للانتقام والتشفي.

وعلى هذا الأساس، فإنّ تشريع القتال في الإسلام يأتي في السياق نفسه؛ فهو ليس خروجاً عن مبدأ السلام، بل امتدادٌ له في بعده الواقعي، إذ به تُحمى الحقوق، ويُدفع العدوان، وتُصان الكرامة. فالإسلام لا يكتفي بالدعوة إلى الخير، بل يضع من الوسائل ما يكفل حمايته، ليبقى المجتمع قائماً على الرحمة، محفوظاً بالعدل.

(مع الإشارة إلى أنّ فكرة نبذ القتال في المسيحية لم تلتزم تاريخياً؛ إذ قادت الكنيسة حروباً دينية، كالحروب الصليبية، كما لم يكن إقصاء مفهوم القوة مقبولاً لدى بعض أتباعها). (٥٦٩)

المطلب الرابع: الإسلام يحرم الإرهاب والعدوان

لقد ذكرنا سابقاً أنّ الإسلام في الأصل هو دين السلم والسلام يدعو إليه في جميع شؤون الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً﴾ (٥٧٠).

ولذا لا يمكن أن يكون داعياً إلى العمل الإرهابي والعدواني، لأنّ ذلك يناقض جوهره ومقاصده.

فالعمل الإرهابي هو: كل فعل يقوم على ترويع الآمنين، أو الاعتداء على الأنفس والأموال بغير حق، ونشر الفساد والخوف في المجتمع، ومضمونه موجود في فقه الشيعة تحت عنوان الحُرابة^(٥٧١) والإفساد في الأرض، التي شدّد الإسلام على تحريمها وقرّر لها أشدّ العقوبات حفاظاً على أمن المجتمع واستقراره، ومن صورته: القتل، والتفجير، والخطف، والترويع، والاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض.

وفيما يأتي بعض الأدلة الشرعية الدالّة على حرمة:

◇ تحريم قتل النفس: قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٥٧٢). وهذا نص صريح في تحريم قتل أي نفس بريئة، والإسلام حرّم ممارسة الإرهاب والعنف حتى مع النفس، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٥٧٣)، وفي حديث عن الإمام أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من قتل نفسه متعمدا فهو في نار جهنم خالد فيها».^(٥٧٤)

بل لا يجوز للإنسان أن يتر عضوًا من أعضائه كقطع يده أو أذنه أو جده أنفه أو فقه عينه أو ما شابه ذلك، أو أن يذهب قوة من قواه كقوة عينه فلا يبصر أو أذنه فلا يسمع.

◇ تحريم الجرح والضرب بغير حق: روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ألا ومن لطم خد امرئ مسلم أو وجهه بدد الله عظامه يوم القيامة وحشر مغلولًا حتى يدخل جهنم إلا أن يتوب».^(٥٧٥)

◇ إشهار السلاح عليه: عن الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من أشار إلى أخيه المسلم بسلاحه لعنته الملائكة حتى ينحيه عنه».^(٥٧٦)

◇ تحريم الترويع: روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من نظر إلى مؤمن نظرة يخيفه بها، أخافه الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله».^(٥٧٧)

و عن عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً».^(٥٧٨)

و عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «من روع مؤمنا بسلطان ليصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار، ومن روع مؤمنا بسلطان ليصيبه منه مكروه فأصابه فهو مع فرعون وآل فرعون في النار»^(٥٧٩)، أي حتى مجرد التخويف والإرهاب النفسي محرّم، فكيف بالقتل والتفجير.

◇ تحريم الغدر وإتلاف المال: قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من خان جاره بشبر من الأرض طوّقه الله من سبع أرضين يوم القيامة إلى الأرض السابعة حتى يدخل النار». (٥٨٠)

والإسلام يحرم أيضاً كل ما يهدد أمن المجتمع واستقراره، وإن لم يكن إرهاباً بالمعنى الخاص، مثل: السرقة والزنا وتعاطي المسكرات وإشاعة الفتنة.

المبحث الرابع: العزة ورفض الذلّ في الإسلام

عند التأمل في غايات الجهاد التي تم طرحها في مطلب فلسفة الجهاد سيتبين أنها ترجع إلى أصل واحد، وهو حفظ عزة الإنسان وصيانتها من الذلّ؛ فدفع الظلم، ونصرة المستضعفين، وحماية الدين، إنما هي وجوه لصيانة العزة والكرامة. وفي المقابل، فإن الاستسلام وترك المواجهة لا يورثان إلا الذلّ والعار.

غير أن جملة من الأسئلة الجوهرية تطرح نفسها بإلحاح: ما حقيقة الذلّ؟ وما أنواعه؟ وما حقيقة العزة؟ وما موقف الإسلام منها؟ وما مسؤولية الأمة في استعادة عزّتها وكرامتها؟ وفيما يأتي بيان ذلك ضمن مطلبين:

المطلب الأول: حقيقة الذلّة والعزّة وموقف الإسلام منهما

الذلّة هي حالة الانكسار والخضوع والمهانة. ويقابل الذلّة العزة، وتعني لغة: القوة والشدة والغلبة، وتتضمن معنى الامتناع والكرامة.

والذلة على نوعين رئيسين:

النوع الأول: الذلّ الظاهر (القهر الخارجي)

وهو ما يُفرض على الإنسان من قوّة خارجية: تهديد، سجن، تعذيب، استعباد. فتُدار حياة الناس بالخوف، ويُساقون كأدوات، ويُسلبون حقهم في القرار والكرامة. فيتحوّل الإنسان من إنسان حرّ كريم إلى عبدٍ ذليل بيد حاكم ظالم، يتحكّم فيه كما يتحكّم السيد بالعبد. وهذا المعنى موجود في القرآن في سياق الطغاة والمستضعفين كما هو الحال مع فرعون مصر الذي قال تعالى عنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥٨١)، وكما يتجلى ذلك في طغاة هذا العصر الذين يسيرون على نهج الفراعنة في الاستبداد والهيمنة وإذلال الشعوب وعلى رأسهم أمريكا وإسرائيل، ومن يساندهم من قادة الدول وأعوانهم.

فالظالمون والطواغيت يسعون إلى استعباد الناس، ليجعلوهم عبيدًا لإرادتهم منزوعي العزة والكرامة. ومن مظاهر الاستعباد:

◇ ينفذون الأوامر دون اعتراض حتى لو كانت الأوامر ظلمًا أو معصية ليقوا هم أصحاب الصوت والقرار.

◇ أن يعيشوا في الخوف ويخافون منه أكثر من خوفهم من الله.

◇ لا يملكون قرارهم، لا يختارون، لا يعترضون، لا يغيرون.

◇ تُسلب أموالهم وبلادهم، يعملون ويتعبون، لكن خيراتهم تذهب للحاكم وأعوانه.

◇ يُستخدمون كأدوات في إيذاء الآخرين وخدمة مشاريع الفساد.

النوع الثاني: الذلّ الباطن (الانكسار الداخلي)

هو أن يستسلم الإنسان للباطل من داخله، فيرضى به طوعاً بسبب خوف، أو طمع، أو شهوة، أو ضعف في الشخصية. وهذا اللون من الذلّ أخطر من الذلّ الظاهر؛ لأن سقوط الإنسان يبدأ من القلب لا من الخارج. فالعدو لا يقدر على إحكام السيطرة على الشعوب إلا بعد أن يفسد القلوب أولاً، فيُشغل الناس بحبّ الدنيا، والمال، والشهرة، واللذات، حتى تضعف إرادتهم وتخمد رقابتهم الداخلية. فإذا انهزمت النفوس من الداخل، أصبح توجيهها من الخارج أمراً سهلاً، وسار الناس خلف من يقودهم دون مقاومة حقيقية.

وفي هذا السياق يبرز سؤال مهم:

ما هو موقف الإسلام من العزّة والذلّة؟ هل يُباح للإنسان أن يقبل الذلّ والمهانة، أم أنّ ذلك مرفوض شرعاً وعقلاً؟

الجواب: لا يجوز قبول الذلّ والمهانة بل يجب رفضهما والسعي للعيش بعزّة وكرامة، لأنّ الإسلام جعل العزّة للمؤمن، وحرّم الخضوع للظلم ونهانا عن قبول الذلّ والمهانة. وقد جاءت عدّة نصوص تثبت ذلك، نذكر منها ما يلي:

١. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٨٢).

٢. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا وَلَمْ يَفُوضْ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلًا؛ أَمَا تَسْمَعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٨٣)؛ (٥٨٤) وتابع (سلام الله عليه) كلامه قائلاً: ... فالْمُؤْمِنُ يَكُونُ عَزِيزًا وَلَا يَكُونُ ذَلِيلًا، قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَعَزُّ مِنَ الْجَبَلِ؛ لِأَنَّ الْجَبَلَ يُسْتَقَلُّ مِنْهُ بِالْمَعَاوِلِ وَالْمُؤْمِنَ لَا يُسْتَقَلُّ مِنْ دِينِهِ

بِشْيءٍ». (٥٨٥)

٣. عندما حاصر جيش عبيد الله بن زياد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كربلاء، وطلب منه الاستسلام للباطل، ألقى الإمام يوم عاشوراء خطبة أمام معسكر ابن زياد وقال فيها: «إِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَد رَكَزَنِي بَيْنِ اثْنَتَيْنِ، بَيْنِ السَّلَّةِ وَالذَّلَّةِ... وَهِيَهَاتِ مَنَا الذَّلَّةِ، يَا بِي اللَّهِ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُور طَابَتْ وَطَهَّرَتْ. نُوْثِرُ مِصَارِعَ الْكِرَامِ عَلَى طَاعَةِ اللَّئَامِ». (٥٨٦)

٤. وقال أيضًا الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبته صبيحة يوم عاشوراء: «لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ». (٥٨٧)

أي: أقسم بالله أنني لن أستسلم لكم استسلام الضعيف المنكسر، ولن أمدّ يدي مبايعًا أو خاضعًا تحت الضغط والتهديد؛ لأن هذا خضوع للباطل لا يليق بمن يحمل الحق.

ومن هنا نفهم أنّ واجب كلّ مسلم أن يحفظ عزّته وكرامته، فلا يقبل بالذلّ ولا يخضع للظلم، بل يعيش عزيزًا ثابتًا على الحق، رافضًا لكل ما يهين دينه أو كرامته.

المطلب الثاني: مسؤولية الأمة في استعادة العزة: معركة أحد أنموذجًا

وفي ختام هذا البحث، يبرز تساؤل مهم: ما الأدوار التي ينبغي لأفراد الأمة أن يضطلعوا بها لاستعادة عزّتهم وكرامتهم؟ وما الوسائل التي تجعلهم شركاء فاعلين في تحقيق النصر والتغيير؟

الجواب نلخصه في النقاط الآتية:

١. الارتباط بالمرجعية الدينية وطاعة القيادة الشرعية:
٢. تطبيق القوانين الإسلامية بشكل مطلق.
٣. الوعي بالقضية والتمسك بالهوية.
٤. دعم المقاومين والمجاهدين مادياً ومعنوياً.
٥. مقاطعة الأنظمة الظالمة والمحتلين اقتصادياً وسياسياً.
٦. التحرك الإعلامي والتوعوي.
٧. المشاركة في بناء مجتمع قوي مستقل بالاكْتفاء الذاتي.
٨. مقاومة الاستبداد الداخلي والدفاع عن العدالة.
٩. الجهاد في ميادين العلم والعمل.
١٠. غرس روح الجهاد في الأجيال القادمة.

وقد تناولنا هذه الأدوار بأسلوب مبسط وواضح في الجزء الثامن من كتاب زاد المبلغات^(٥٨٨)، فمن أراد التوسّع فليرجع إليه، اختصاراً للمقام هنا.

ومن هنا يتبيّن أنّ النصر في الجهاد لا يتحقّق بمجرد الحماسة، بل يقوم على الالتزام بهذه الأدوار، وفي مقدّماتها طاعة القيادة الشرعية؛ إذ إنّ مخالفتها قد تُحوّل النصر إلى خسارة، مهما كانت الظروف مهيّأة لأنّ تشخيص الموقف الصحيح في مثل هذه الظروف ليس أمراً فردياً يُبنى على الحماسة أو الانفعال، بل هو من شأن القيادة الشرعية المتمثلة بالمعصوم، أو نائبه الخاص، أو مرجع التقليد في زمن الغيبة؛ إذ هو الأعلم بواقع الأمة وبما يحقّق مصلحتها، فقد يكون السّلم هو الأنسب في ظرفٍ معيّن، وقد يكون الجهاد أو غيره من الخيارات هو الطريق الصحيح في ظرفٍ آخر.

ولنا في أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أسوة حسنة، فلم يكن موقفهم قائماً على اختيار الجهاد في سبيل الله دائماً، ولا على تركه مطلقاً، بل كانوا ينظرون إلى النتيجة: هل يحفظ هذا الموقف الدين والكرامة أم يضيّعهما؟

فالإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبدأ القتال، بل كان يؤكّد على عدم البدء بالحرب حتى يُفرض عليه ذلك، حرصاً على العدل وتجنب الظلم.

والإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار الصلح عندما رأى أن استمرار القتال سيؤدي إلى ضياع الدين وتمزق الأمة، فكان الصلح في ذلك الظرف هو الخيار الصحيح. أما الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد رفض الصلح حين أصبح استسلاماً للباطل وإذلاً للحق، فوقف موقف العزّ وقال: «هيئات منا الذلة».

فالميزان الحقيقي عندهم لم يكن: قتالاً أو سِلمًا، بل: أيهما يحفظ الحق والكرامة؟ فإذا كان السِّلم يحفظهما قُدِّم، وإذا كان القتال هو الطريق لذلك، كان هو الواجب.

وأما حين يتعد المسلم عن هدي أئمة الهدى ويخالف منهجهم، فإنه يعرّض نفسه للذلّ والهوان، ويخسر دينه وكرامته معاً.

ولكي تتضح هذه الحقيقة بصورة عملية، لتأمل ما جرى في معركة أحد:

وقعت معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة، في الخامس عشر من شهر شوال، وقيل في السابع عشر منه، وكانت امتداداً لمعركة بدر، إذ جاءت محاولة من قريش للشأر مما أصابها من الهزيمة المنكرة في يوم بدر. ولذا أعدّوا العدة، وجهّزوا أنفسهم بما يلزم، وخرجوا في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم النساء، وخرج إليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأصحابه، وكانت الوقعة المعروفة في نتائجها، حيث كان النصر للمسلمين في بداية الأمر، ثم

انقلب الأمر، وأصبحت الغلبة للمشركين؛ بسبب عصيان مجموعة الرماة لأوامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعدم ترك مواقعهم، طمعاً في الغنائم، فكان أن باغتهم خالد بن الوليد من خلفهم، ووجه إليهم ضربة قاصمة، فتحول النصر إلى ما يشبه الهزيمة. (٥٨٩)

ومن أبرز النتائج المؤلمة لمعركة أحد استشهاد حمزة عَلَيْهِ السَّلَامُ، عمّ النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. حيث يروى كانت هند بنت عتبة - زوجة أبي سفيان - قد أعطت وحشياً عهداً لئن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة، لأعطينك كذا وكذا.

فقال وحشي: أمّا محمّد فلم أقدر عليه، وأمّا علي فرأيتَه حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه، فكمنت لحمزة فرأيتَه يهدّ الناس بسيفه، ما يلقي أحداً يمرُّ به إلا قتله، فهزّزت حربتي فرميتُه، فوقعت في أربيته - أصل الفخذ -، حتّى خرجت من بين رجليه فوقع، فأمهلتَه حتّى مات، وأخذت حربتي وانهممت من المعسكر (٥٩٠).

ورُوي أنّ هند وقعت على القتلى، ولما وصلت إلى حمزة بقرت كبده فلاكته، فلم تستطع أن تسيغه فلفظته، ثمّ قطعت أنفه وأذنيه، وجعلت ذلك كالسوار في يديها وقلائد في عنقها.

وبعد انتهاء المعركة، أبصر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عمّه حمزة وقد مُثّل به، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «والله، ما وقفتُ موقفاً قطّ أغيظُ عليّ من هذا المكان» (٥٩١)، ثمّ وضعه إلى القبلة وصلى عليه وبكى.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «يا عمّ رسول الله، وأسد الله، وأسد رسول الله، يا حمزة، يا فاعل الخيرات، يا حمزة، يا كاشف الكربات، يا حمزة، يا ذابّ يا مانع عن وجه رسول الله» (٥٩٢).

قال ابن الأثير: «ومرَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح، فذرفت عيناه بالبكاء، وقال: لكن حمزة لا بواكي له، فرجع سعد بن معاذ إلى دار بني عبد الأشهل فأمر نساءهم أن يذهبن فيبكين على حمزة» (٥٩٣). (٥٩٤)

وقد رُوي عن عبد الله بن مسعود، قال: ما رأينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ باكياً قط أشدَّ من بكائه على حمزة بن عبد المطلب لما قتل.

أقول: فكيف يكون حاله لو رأى سبطه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ جسداً ممزقاً قد أحاطت به الأسنة؟ لا شك أن مصيبته به أعظم وأشدَّ من يوم استشهاد حمزة رضي الله عنه، وكما قال الشاعر (٥٩٥):

لو أن رسول الله يبعث نظرةً
وهان عليه يوم حمزة عمه
ونال شجى من زينب لم ينله من
فكم بين من للخدر عادت مصونة
لرُدَّت إلى إنسان عين مؤرق
بيوم حسين وهو أعظم ما لقي
صفية إذ جاء بدمع مرقوق
ومن سيروها في السبايا بجلق

ساعد الله قلب عقيلة بني هاشم، وهي ترى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهل بيته وأنصاره صرعى على الثرى بلا غسل ولا تكفين، فكان قلبها ينادي جدها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بلوعةٍ وألم قائلة:

يجدي الرمح بافاده تثنه
يجدي او شبيه ابدمه تحنه
يجدي مات محم وگف دونه
وحيد ايعالج او منخطف لونه
تناديهم يهالنا او لا لفوها
حنت وانگطع ظنھا امن اخوها
يجدي او بالوجه للسيف رنه
يجدي او بالرمل خده تعفر
او لانغار غمض له اعيونه
ولا واحد ابحلگه ماي گطر
ولا جدها يجاوبها ولا أبوها
او شافت عالخيم صول العسکر (٥٩٦)



١٧ شَوَّال

مُعْجِزَةُ رَدِّ الشَّمْسِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نَارِ عَلِيٍّ أَظْهَرَ الْعَجَائِبِ

المناسبة:

مُعْجَزَةُ رَدِّ الشَّمْسِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

القصيدة للشاعر: السيد الحميري رحمه الله

بَطِيْبَةٌ يَوْمِ الْوَحْيِ بَعْدَ مَغِيْبِ

عَلِيٍّ عَلَيْهِ رُدَّتْ الشَّمْسُ مَرَّةً

عَفَتْ وَتَدَلَّتْ عَيْنُهَا لِعُرُوبِ

وَرُدَّتْ لَهُ أُخْرَى بِبَابِلَ بَعْدَمَا

وَهُمْ مِنْ شَبَابِ أَرْبَعِينَ وَشَيْبِ

وَقِيلَ لَهُ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَوْلَى

وَلَسْتُ أَرَانِي عِنْدَكُمْ بِكَذُوبِ

فَقَالَ لَهُمْ إِنِّي رَسُولٌ إِلَيْكُمْ

جَزِيلِ الْعَطَايَا لِلْجَزِيلِ وَهُوبِ

وَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّ مَهِيْمِنِ

فَقَالَ أَلَا مِنْ نَاطِقٍ فَمُجِيبِي

فَأَيُّكُمْ يَقْضُو مَقَالِي فَأَمْسِكُوا

وَمَا ذَاكَ مِنْ عَادَاتِهِ بِغَرِيبِ

فَفَازَ بِهَا مِنْهُمْ عَلِيٌّ وَسَادَهُمْ

الْمُحَاضِرَةُ التَّاسِعَةُ عَلَى مِيزَانِ الْأَعْمَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَالْوِزْنَ يُومِئِدِ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٩٧﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿٥٩٨﴾﴾

عندما نتأمل في آيات القرآن الكريم نجد أنها تذكر الإنسان دائماً بحقيقة مهمة، وهي أن حياته في هذه الدنيا ليست عبثاً، بل هي ميدان عمل وامتحان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٥٩٨). فالإنسان يعيش سنوات محدودة يقوم خلالها بأعمال كثيرة، وكل هذه الأعمال محفوظة عند الله، وسيظهر أثرها يوم القيامة، صغيراً كان أو كبيراً.

ولهذا فإن كل قول أو فعل يصدر من الإنسان يدخل في هذا الامتحان الإلهي. وعندما تنتهي حياة الإنسان بالموت تبدأ مرحلة الآخرة، وفيها يمر الإنسان بمواقف عديدة من الحساب، ومن أهمها موقف الميزان الذي تُعرض فيه الأعمال وتظهر فيه عدالة الله تعالى، فيُعرف مقدار الحسنات والسيئات بدقة تامة.

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يُومِئِدِ الْحَقُّ﴾ (٥٩٩)، أي إن وزن الأعمال يوم القيامة أمر ثابت يقوم على العدل الإلهي الكامل. ولهذا نعلن إيماننا بهذه الحقيقة في الأدعية والزيارات، كما ورد في

زيارة آل ياسين: «وأشهد أن النشْر والبعث حق، وأن الصراط والمرصاد حق، والميزان والحساب حق».

ثم يبين الله نتيجة هذا الوزن بقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٦٠٠)، أي إن الذين تكون أعمالهم الصالحة أكثر وأعظم قدرًا عند الله هم الفائزون، لأن حسناتهم ترجح في الميزان فيستحقون رضوان الله وجنته.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾^(٦٠١)، فيعني أن الذين تكون أعمالهم السيئة أكثر، أو الذين ضيعوا حياتهم بالمعاصي والباطل، تكون موازينهم خفيفة، فيخسرون أنفسهم لأنهم حرموا أنفسهم من رحمة الله وثواب الآخرة.

فالإيمان بالميزان هو إيمان بعدل الله تعالى، وبأن كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الدنيا محفوظ ومحسوب، وسيظهر مقداره الحقيقي في ذلك اليوم العظيم.

لكن هنا تبرز عدّة أسئلة، منها: ما معنى الميزان؟ وما هي الموازين في الدنيا؟ وكيف يمكن أن تُوزن أعمال الإنسان يوم القيامة وهي ليست أشياء مادية كالذهب أو الطعام؟ وما المقصود بالتوزين الذي أخبر الله تعالى عنه في كتابه؟ وما المقصود بأن عليًا ميزان الأعمال؟

هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها من خلال البحوث الآتية:

المبحث الأول: الميزان الدنيوي

المطلب الأول: تطبيقات الوزن في القرآن

إن لفظ «الميزان» في اللغة هو الأداة التي نعرف بها مقدار الأشياء، أو هو الآلة التي يوزن بها. ولقد وردت في القرآن الكريم للوزن تطبيقات مختلفة تتعلق بالحياة الدنيا، نذكر منها:

١. الميزان بمعنى آلة الوزن

في القرآن الكريم أطلق لفظ الميزان على آلة الوزن، وهو الميزان ذو الكفتين أو الميزان الإلكتروني لمعرفة وزن الطعام، قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ...﴾ (٦٠٢).

٢. الميزان بمعنى النظام والتوازن في الكون

في القرآن الكريم قد يُطلق لفظ الميزان على النظم السائدة في عالم الخلق والتي تكون سبباً لثباته واستقامته حيث قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٦٠٣) ومن الواضح أن قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ قرينة على أن المراد من «الميزان» هو معنى النظام الذي قامت على أساسه السماوات والأرض، فالمنظومة الشمسية قائمة على أساس التعادل والموازنة، ومعتمدة على قانون الجاذبية بحيث لو اختلف ذلك القانون لانفطر عقد هذه المنظومة وغيرها من المنظومات الأخرى. ومن الأمثلة التي يذكرها القرآن على هذا الميزان الدقيق في الكون قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٦٠٤).

٣. الميزان بمعنى القوانين العادلة والتشريعات

لقد أطلق القرآن الكريم لفظ «الميزان» على القوانين والتشريعات العادلة التي تقنن حياة الإنسان وترسم له مسير حياته وتنشر العدل والقسط في المجتمع حيث قال سبحانه: ﴿... وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (٦٠٥).

فالمراد من «الميزان» بقرينة قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ هو التشريع السماوي الذي أنزله سبحانه بإنزال كتابه. (٦٠٦)

ولكي نفهم معنى الميزان هنا يمكن ذكر بعض الأمثلة:

◇ عندما يأمر الإسلام بالعدل بين الناس في البيع والشراء، فهذا ميزان يضبط المعاملات حتى لا يقع الظلم.

◇ وكذلك عندما يحرم السرقة أو الظلم، فهذا ميزان يحفظ حقوق الناس.

◇ وعندما يأمر الإسلام بالصدق والأمانة، فهذا ميزان أخلاقي يعرف به الإنسان الخير من الشر.

◇ وكذلك في القضاء بين الناس؛ فالقاضي لا يحكم حسب رغبته، بل يرجع إلى القوانين الشرعية التي أنزلها الله، لأنها تمثل الميزان الذي يحقق العدل.

إذن المقصود بالميزان هنا هو القوانين الإلهية والعقول السليمة التي بها يعرف الناس الحق وقيمون العدل في حياتهم.

إنّ ما ذكره القرآن الكريم من تطبيقات عن معاني الميزان يدلّ على حقيقة مهمة، وهي أنّ الله جعل في الحياة موازين مختلفة يُعرف بها الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والعدل من الظلم. فالميزان ليس مجرد أداة لوزن الأشياء، بل هو معيار نعرف به حقيقة الأمور.

ولذلك فإن الميزان في حياتنا لا يقتصر على الميزان المعروف ذي الكفتين الذي نزن به الطعام أو المواد، بل إن لكل أمر في الدنيا ميزاناً خاصاً يبيّن حقيقته. فمثلاً الطبيب يستخدم أجهزة ومقاييس ليتعرف على ضغط الدم أو نسبة السكر في الجسم، والمهندس يستعمل مقاييس لمعرفة مقدار الكهرباء أو قوة التيار.

وكذلك في العلوم توجد موازين خاصة؛ فالنحو ميزان يُعرف به الكلام الصحيح من الكلام الخاطيء، وعلم العَروض ميزان يُعرف به الشعر الصحيح من المكسور، والمنطق ميزان يميز التفكير السليم من التفكير الخاطيء.

ومثل هذه الموازين يتفق عليها الناس غالباً؛ لأنها أمور محسوسة يمكن قياسها بوضوح. لكن عندما يتعلق الأمر بأعمال الإنسان وسلوكه وأخلاقه يختلف الناس اختلافاً كبيراً. فمنذ بداية خلق البشر، وعلى اختلاف توجهاتهم وعقائدهم وآرائهم، يدّعي كل فريق منهم أنه على الحق، وأن الحق معه. وعلى هذا الأساس يقع النزاع بينهم، وقد يصل الأمر أحياناً إلى القتال، فتراق الدماء وتزهق الأرواح.

بل إن بعض الناس ذهب إلى أبعد من ذلك، فقال إنه لا يوجد شيء اسمه الحق والحقيقة، وأن كل إنسان يرى الأمور بحسب نظرته الخاصة، فصاروا يقولون إن الحق أمر نسبي يختلف من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى. وهكذا ضاع كثير من الناس في معرفة معنى الحق، وفي الطريق الذي يمكن أن يوصل الإنسان إليه.

ولهذا لا بد أن نتوقف قليلاً لتتعرّف إلى معنى الحق؛ لأنه الميزان الحقيقي الذي تُقاس به أقوال الإنسان وأعماله، وبه يظهر العدل في الحكم عليها.

فما هو الحق، وما مصدره؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يعرف الحق

الحقيقي ويطبّقه في حياته؟

هذا سنطرحه في المطلب التالي:

المطلب الثاني: إمكان معرفة الحق

إنّ القرآن الكريم يضع قاعدة واضحة لمعرفة الحق والباطل، وهي أن الحق الحقيقي هو كل ما كان صادرًا من الله تعالى أو متصلًا به، لأن الله سبحانه هو مصدر الحقيقة كلها، وما سواه لا يكون حقًا إلا إذا استند إليه ووافق أمره. وعلى هذا الأساس فالحق هو الأمر الثابت الذي لا يتغير، المطابق لإرادة الله وهدايته، والذي يقود الإنسان إلى الصواب والعدل.

وقد صرّح القرآن بهذه الحقيقة حين قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (٦٠٧). فالآية تقرر أن الله هو الحق المطلق، لأنه خالق كل شيء، وعلمه كامل لا يخطئ، وحكمه قائم على العدل والحكمة. ولذلك فإن من يترك هداية الله ويتبع ما يخالفها يكون قد ترك الحق واتبع الباطل.

ويبقى السؤال: **كيف يستطيع الإنسان أن يعرف الحق الذي جاء من الله؟**

الجواب أن الطريق إلى معرفة الحق يقوم على أمرين جعلهما الله للإنسان: العقل والهداية الإلهية.

فالله تعالى منح الإنسان عقلاً يميز به بين الخير والشر، ويدرك به كثيرًا من الحقائق، ثم أرسل إليه ما يكمل هداية العقل ويهديه إلى طريق الحق بالإيمان بما جاء من الله من الحق، قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ (٦٠٨).

وأهم ما جاء من الله تعالى ليبيّن الحق للناس أمران عظيمان:

أولاً: القرآن الكريم، إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٦٠٩).

ثانياً: الأنبياء والأوصياء الذين أرسلهم الله لهداية الناس، وعلى رأسهم النبي محمد وآله الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (٦١٠).

وقد بيّن النبي محمد أن أوصيائه من بعده هم الامتداد العملي للحق الذي جاء به، وفي مقدمتهم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار». (٦١١)

وبذلك يتضح أن الميزان الذي يُعرف به الحق بعد النبي يتمثل في التمسك بكتاب الله وبأهل بيت النبي الذين جعلهم الله هداة للأمة. وقد صرّح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بهذا المعنى بوضوح في حديث الثقلين حين قال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (٦١٢).

ومن هنا يتضح أن معرفة الحق في حياة الإنسان تقوم على ثلاثة أمور مترابطة:

العقل الذي يهدي الإنسان إلى أصل الإيمان، وكتاب الله الذي يبيّن الحق، ورسول الله وأوصيائه الذين يوضحون هذا الحق ويمسكون به في واقع الحياة.

لكن قد يقول بعض الناس: إن عقلي لا يدعوني إلى اتباع كتاب الله وتعاليم النبي وآله. والجواب أن العقل الذي يتحدث عنه الإسلام ليس مجرد الرأي الشخصي أو الميل النفسي، بل هو العقل السليم الذي يبحث عن الحقيقة بإنصاف. فإذا تأمل الإنسان بعقله في هذا الكون ونظامه الدقيق أدرك أن له خالقاً حكيماً، وإذا ثبت وجود هذا الخالق الحكيم، حكم العقل بأن الله

لا يترك الناس بلا هداية، بل يرسل إليهم الأنبياء ليبينوا لهم طريق الحق ويقودوهم إلى الصواب. ولهذا فإن العقل الصحيح لا يعارض هداية الله، بل يقود إليها ويؤكد لها، ثم يأتي الوحي ليكمل هداية الإنسان ويبين له الطريق الصحيح في تفاصيل حياته.

رُوي أن راويًا سأل الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا الْعَقْلُ؟ قَالَ: « مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ ».

قَالَ قُلْتُ: فَالَّذِي كَانَ فِي مُعَاوِيَةَ؟، فَقَالَ: « تِلْكَ النَّكَرَاءُ، تِلْكَ الشَّيْطَانَةُ، وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ » (٦١٣).

وعلى هذا الأساس يكون الميزان واضحًا: فكل ما وافق كتاب الله وتعاليم النبي محمد وآله فهو حق، وكل ما خالفها فهو باطل، لأن الحق لا يناقض ما صدر عن الله تعالى، ولا ما بلغه رسوله وأوصياؤه الهداة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولكي تتضح هذه الفكرة أكثر، يمكن النظر إلى حياة الإنسان اليومية. فالأخلاق مثلًا لها ميزان يميّز بين الاعتدال والانحراف. فالشجاعة صفة مطلوبة، لكنها لا تكون فضيلة إلا إذا بقيت ضمن حدّها الصحيح. فإذا تجاوز الإنسان هذا الحد تحولت الشجاعة إلى تهور، وإذا نقصت تحولت إلى جبن. ولذلك يكون ميزان الشجاعة هو الاعتدال الذي يجنب الإنسان الخوف من جهة والاندفاع الأعمى من جهة أخرى.

وكذلك الأقوال والأعمال لا تكون صحيحة إلا إذا عُرِضت على ميزان الحق. فالعلاقة بين الرجل والمرأة تكون حقًا ومشروعة إذا جرت وفق ما أذن به الله تعالى من عقد الزواج الشرعي، لكنها تتحول إلى باطل إذا وقعت خارج هذا الإطار، لأنها تصبح زنا محرّمًا. وكذلك أكل اللحم يكون حلالًا وحقًا إذا ذُكر اسم الله عليه عند الذبح، ويكون حرامًا وباطلًا إذا لم يُذكر اسم الله عليه.

من خلال هذه الأمثلة يتبين أن الإنسان لا يستطيع أن يميّز الحق من الباطل في أقواله وأعماله إلا بالرجوع إلى الميزان الإلهي المتمثل بالتمسك بالقرآن والسنة. ومن الطرق الميسرة للعمل بهذا الميزان في زمن الغيبة الرجوع إلى فقهاء أهل البيت العدول وتقليدهم في الأحكام الشرعية، وهو أحد الطرق الثلاثة لمعرفة الحكم الشرعي إلى جانب الاجتهاد والاحتياط. وقد ورد في التوقيع الشريف عن إمام زماننا المهدي عجل الله فرجه: «وَأَمَّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله». (٦١٤)

المبحث الثاني: الميزان الأخروي

المطلب الأول: الميزان الأخروي في القرآن

لكي نفهم مسألة ميزان الأعمال يوم القيامة فهماً واضحاً، من المفيد أن ننظر أولاً إلى الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع في القرآن الكريم، فعندما نتأمل هذه الآيات نجد أنها لا تتحدث عن الميزان بطريقة واحدة، بل يمكن تقسيمها إلى نوعين من الآيات:

النوع الأول من الآيات يتحدث عن أصل وجود الميزان يوم القيامة، أي يبين أن الله سيجعل موازين توزن بها أعمال الناس. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٦١٥).

وتوضح هذه الآية أن الله يقيم في يوم القيامة موازين عادلة تماماً، فلا يضيع عنده أي عمل مهما كان صغيراً. حتى العمل الصغير جداً، كحبة الخردل، يظهر يوم القيامة ويحاسب عليه الإنسان. وهذا يدل على أن الميزان

يوم القيامة ميزان دقيق وعادل لا يظلم أحداً.

أما النوع الثاني من الآيات، فهو لا يركز على إثبات وجود الميزان فقط، بل بين نتيجة الوزن وما يحدث بعده. فالقرآن يوضح أن الناس في ذلك اليوم ينقسمون إلى قسمين بحسب أعمالهم:

القسم الأول: من رجحت حسناته وكثرت أعماله الصالحة فإنه يكون من الفائزين. القسم الثاني: من كانت حسناته قليلة وسيئاته كثيرة فإنه يكون من الخاسرين.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى:

◇ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٦١٦).

◇ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٦١٧).

◇ ﴿...الْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٦١٨).

◇ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (٦١٩).

وقبل أن نبين حقيقة ميزان الأعمال يوم القيامة، يجدر بنا أن نجيب أولاً عن سؤالين مهمين يساعدان على فهم هذا الموضوع بصورة أوضح.

السؤال الأول: عندما نقرأ آيات القرآن التي تتحدث عن موقف الميزان يوم القيامة نلاحظ أن الله تعالى يذكر الميزان أحياناً بصيغة الجمع، فيقول: [فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ... وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ]. فهل هناك ميزان واحد تُوزن به الأعمال، أم توجد عدة موازين؟

الجواب:

لقد ذكر العلماء في ذلك ثلاثة آراء:

الرأي الأول: تعدد الموازين بحسب الناس أو الأعمال

يرى بعض العلماء أن يوم القيامة توجد موازين متعددة فعلاً، وليس ميزاناً واحداً فقط. فقد يكون لكل إنسان ميزان توزن فيه أعماله، أو لكل أمة ميزان، أو حتى لكل عمل ميزان خاص.

مثال ذلك: الصلاة قد توزن بميزان، والصيام بميزان آخر، والصدقة بميزان، والجهد بميزان. فكل عمل يُعرض في ميزانه الخاص ليظهر مقداره الحقيقي عند الله تعالى.

الرأي الثاني: تعدد الموازين بحسب أنواع الأشياء التي تُقاس. قال بعض المفسرين: إنَّ المقصود أن الله جعل لكل شيء ميزاناً يظهر به قدره، لأن الأشياء التي يُحاسب عليها الإنسان ليست نوعاً واحداً.

فمثلاً:

- ◇ الكلام له ميزان يميّز الصدق من الكذب.
- ◇ والتعامل مع الناس له ميزان يميّز العدل من الظلم.
- ◇ والأخلاق لها ميزان يفرّق بين الفضيلة والرذيلة مثل الأمانة والخيانة.
- ◇ والعقيدة لها ميزان يميّز الحق من الباطل.

فالمقصود أن كل جانب من حياة الإنسان له معيار يبيّن حقيقته يوم القيامة.

الرأي الثالث: الميزان واحد، لكن ذكر بصيغة الجمع للتعظيم. ويرى فريق آخر من العلماء أن الميزان في الحقيقة واحد، لكن القرآن ذكره بصيغة الجمع موازين لبيان عظّمته وشدة أهميته يوم القيامة.

ومثال ذلك في اللغة قد يقال عن إنسان حكيم: «له عقول راجحة»، والمقصود عقل عظيم يُعبّر عنه بصيغة الجمع للمبالغة.

وكذلك قد يقال: «فلان له أيادٍ بيضاء على الناس»، مع أن المقصود إحسانه الكبير، وليس المقصود الأيدي الحقيقية^(٦٢٠).

السؤال الثاني: هل تُنصب الموازين يوم القيامة لجميع الناس، أم أنها تختص بأشخاصٍ معيّنين؟

الجواب: إنَّ نصب الموازين ليس مسألةً عامةً لكل الناس على حدّ سواء، بل هي للمسلمين فقط، فلا يُقام للكافرين والمشركين وزن يوم القيامة، بل تبطل أعمالهم، ويحشرون إلى جهنّم زمراً. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾. (٦٢١)

وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اعلموا عباد الله أنَّ أهل الشرك لا تُنصب لهم الموازين، ولا تُنشر لهم الدواوين، وإنَّما يحشرون إلى جهنّم زمراً، وإنَّما نُصبُ الموازين، ونُشرُ الدواوين، لأهل الإسلام، فاتقوا الله عباد الله،...». (٦٢٢)

المطلب الثاني: حقيقة ميزان الأعمال يوم القيامة

لقد ذكرنا أن لكل شيء ميزانًا يُعرف به؛ فالطعام يُوزن بالميزان، والصحة تُعرف بأجهزة الفحص، والكهرباء بأجهزة القياس، والنحو ميزان للكلام، والمنطق ميزان للفكر. وإذا كانت هذه الموازين تساعدنا على معرفة الأشياء المختلفة في الدنيا، فليس من الصعب أن نفهم أن الله تعالى جعل يوم القيامة ميزانًا أعظم تظهر به أعمال الناس بدقة وعدل كامل، كما قال تعالى:

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾. (٦٢٣)

ولتقريب الفكرة نقول: إذا كان للإنسان حسنات كثيرة وسيئات أقل، فعندما توضع الأعمال في الميزان يوم القيامة ترجح كفة الحسنات على كفة السيئات، فيثقل الميزان ويكون صاحبه من الفائزين، كما قال تعالى:

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦٢٤). أما إذا كانت السيئات أكثر أو أعظم من الحسنات، فإن كفة السيئات ترجح، فيخف الميزان ويكون صاحبه من الخاسرين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ (٦٢٥).

ولكن السؤال الذي ينبغي علينا طرحه هو: **ما حقيقة ميزان الأعمال يوم**

القيامة؟؟

الجواب: إن جميع العلماء متفقون على أن الميزان يوم القيامة حقيقة ثابتة، لكنهم اختلفوا في تفسير معناه وكيف يكون. وقد ذكرت عدة آراء لفهم هذه المسألة، أهمها ما يلي:

الرأي الأول: الميزان بمعنى الميزان الحقيقي (كميزان الدنيا)

ذهب بعض علماء المعتزلة، وكذلك كثير من علماء أهل الحديث من علماء السنة، إلى تفسير ميزان الأعمال تفسيرًا حرفيًا. فقالوا إن الله يقيم يوم

القيامة ميزانًا يشبه موازين الدنيا، له كفتان ولسان، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في الكفة الأخرى، ثم يُنظر أي الكفتين ترجح. فإذا رجحت كفة الأعمال الصالحة كان الإنسان من السعداء، وإذا رجحت كفة السيئات كان من الأشقياء. (٦٢٦)

لكنهم اختلفوا: هل الذي يُوزن هو نفس الأعمال أم صحائف الأعمال التي كُتبت فيها؟

وقد انتقد علماء الإمامية هذا الرأي. فليس المقصود من ميزان الأعمال بالضرورة فهمه على ظاهره الحرفي، أي الميزان المعروف الذي نراه في الأسواق، لأن الأعمال مثل الصدق أو الصلاة أو مساعدة الناس ليست أشياء مادية حتى توزن كالحديد أو الطعام.

ولهذا فإن فهم هذه الآيات يحتاج إلى التأمل في المعنى المراد منها، لا الاكتفاء بالظاهر الأول للكلام. فمثلاً عندما نقول عن إنسان كريم: (فلان يده مفتوحة)، لا نقصد أن يده مفتوحة فعلاً طوال الوقت، بل نقصد أنه كثير العطاء ويساعد الناس.

الرأي الثاني: الميزان بمعنى العدل القائم على الحق

يرى كثير من العلماء أن الميزان يوم القيامة ليس ميزاناً مادياً مثل موازين الدنيا، بل هو الحق الذي تُقاس به الأعمال، ويظهر به عدل الله بين عباده. قال تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يُؤَمِّدِ الْحَقُّ فَمَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٢٧﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿٦٢٨﴾﴾.

يقول السيد الطباطبائي في تفسير الآية (٦٢٨) ما مضمونه: أن المعيار الذي توزن به الأعمال يوم القيامة هو الحق؛ فبمقدار ما يشتمل العمل على الحق تكون له قيمة وثقل في الميزان. فالأعمال الصالحة فيها حق، لذلك تكون

ثقيلة في الميزان، أما الأعمال السيئة فهي باطلة فلا يكون لها وزن حقيقي. ولذلك فإن الله تعالى يزن أعمال الناس بالحق؛ فما كان فيها من حق كان هو وزنها وثقلها.

رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد سأله الزنديق: أوليس توزن الأعمال؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: « لا ، إنَّ الأعمال ليست بأجسام ، وإنَّما هي صفة ما عملوا، وإنَّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها أو خفتها، وإنَّ الله لا يخفى عليه شيء ».

قال: فما معنى الميزان؟ قال: « العدل » قال: فما معناه في كتابه ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (٦٢٩)؟ قال: « فمن رجح عمله » (٦٣٠).

فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قال إن الميزان هو العدل أراد أن يبيِّن أن العدل يظهر عندما تُقاس الأعمال بالحق؛ لأن الحق هو المعيار الذي يُعرف به صلاح العمل من فساده. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ (٦٣١).

من هنا نفهم أن ثقل الأعمال في الميزان لا يكون بكثرتها فقط، بل بمقدار ما يشتمل العمل على الحق والطاعة والإخلاص لله. فكلما كان العمل أقرب إلى الحق كان أثقل في الميزان، وكلما ابتعد عن الحق خفَّ وزنه.

فمثلاً الصلاة والصوم يكون لهما وزن في الميزان إذا أُديا قربةً إلى الله بإخلاص وإذا أُديا على الوجه الصحيح كما بيّنه مرجع التقليد في الرسالة العملية، ويزداد ثقل هذا العمل كلما ازداد حضور القلب والخشوع، وكلما حرص الإنسان على أداء مستحبات الصلاة وابتعد عن مكروهاتها، لأن ذلك يدل على قرب العمل من الحق وكماله.

وكذلك العفة، ومن أبرز مظاهرها الحجاب الشرعي للمرأة. فالحجاب

يكون له وزن في الميزان إذا كان حجابًا كاملاً كما أمر الله: ساتراً للجسد، خالياً من الزينة، لا يصف ولا يشف، ويقترن بعفة في السلوك والتصرف. فإذا اكتملت شروطه في الظاهر والباطن كان له وزن عظيم في الميزان، وإذا كان فيه نقص خفّ وزنه بحسب مقدار النقص؛ فمن تبرجت نقص من وزنه، ومن نفخت شفيتها قلّ وزنه، ومن ركبت الرموش الاصطناعية قلّ وزنه، ومن لبست الثياب الضيقة قلّ وزنه كثيراً، حتى قد يصل الأمر إلى مرحلة لا يبقى للعفة فيها وزن.

وكذلك الحال في الصدق والأمانة وسائر الأخلاق؛ فكلما كان الإنسان صادقاً في كلامه، أميناً في معاملاته وفي أداء حقوق الناس، صادق النية في عمله، كان عمله أثقل في الميزان. أما الكذب والخيانة وسائر الأعمال الباطلة فإنها لا تعطي العمل وزناً، لأنها خالية من الحق.

وبهذا يتضح أن الميزان يوم القيامة يقوم على الحق والعدل؛ فالأعمال تُوزن بمدى موافقتها لأمر الله وطاعته، فكلما كان العمل أقرب إلى الحق كان أثقل في الميزان، وكلما ابتعد عنه كان أخفّ.

الرأي الثالث: الموازين هم الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

ذكرنا في الرأي السابق أن الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة هو الحق.

أصحاب هذا الرأي يرون أن هذا الحق يتجسّد في الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لأنهم يمثلون الهداية الإلهية الكاملة في حياة الناس. فهم المقياس الذي يُعرف به الحق من الباطل، وهذا المعنى ورد في بعض الروايات، منها ما رُوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٦٣٢) قال: «الموازين: هم الأنبياء والأوصياء». (٦٣٣)

وبناءً على ذلك، صحَّ أن يقال إن الأنبياء والأوصياء يمثلون موازين الأعمال؛ لأنهم يجسدون الحق في أقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم. فكلما كان عمل الإنسان موافقاً لهديهم، كالعمل بالواجبات والمستحبات، كان لهذا العمل وزن في الميزان يوم القيامة.

أما إذا كان عمل الإنسان مخالفاً لهديهم، كارتكاب المحرمات أو العمل بالمكروهات، فإن هذه الأعمال لا تثقل الميزان مهما كثرت أو عظمت في نظر الناس؛ لأنها لا وزن لها في ميزان الأعمال يوم القيامة. بل إن بعض الذنوب قد تضعف أثر الحسنات وتقلل من وزنها، ومن ذلك الحسد، فقد روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ الْحَسَدَ لِيَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطْبَ». (٦٣٤)

بل إن بعض الأعمال السيئة قد تصل إلى درجة تُحْبِطُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٦٣٥).

ولتقريب الفكرة نقول: إن كل عمل يقوم به الإنسان يُقاس بالعمل الكامل الذي يصدر من المعصوم. وللتوضيح نأخذ مثال الصوم، فقد بيّنت روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن للصوم مراتب بحسب كمال الإنسان في الطاعة، ويمكن تلخيصها في ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: صوم الجسد

وهو الامتناع عن المفطرات كالأكل والشرب وسائر ما يبطل الصوم، وفق الأحكام الشرعية. فإذا وافق صوم الإنسان لصوم المعصوم في أداء هذه الأحكام يكون له وزن في الميزان، ومن خالف ذلك كمن صام بلا نية فلا وزن لصومه لأنه باطل.

الدرجة الثانية: صوم الجوارح

وهو أن يحفظ الصائم لسانه وعينه وأذنه وسائر جوارحه عن المعاصي، فلا يكذب ولا يغتاب ولا ينظر إلى الحرام. فبمقدار ما يوافق صوم جوارح الإنسان صوم جوارح المعصوم يزداد ثقل ميزان صومه يوم القيامة.

الدرجة الثالثة: صوم القلب

وهي أعلى المراتب، حيث يصوم القلب عن التعلق بالباطل ويكون حاضرًا مع الله بالإخلاص والخشوع. فبمقدار ما يوافق صوم قلب الإنسان صوم قلب المعصوم يكون ثقل ميزان صومه يوم القيامة أعظم.

أي إن الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يمثلون المعيار الكامل للحق؛ فبمقدار موافقة عمل الإنسان لطريقتهم وهديتهم يكون له وزن في الميزان. فإذا وافق الحد الأدنى الذي أوجبه الله كان لعمله وزن، وكلما ازداد قربًا من نهجهم بالحرص على المستحبات وترك المكروهات ازداد ثقل ميزانه.

أما من خالف هديهم وابتعد عن طريقهم فإنه يكون من الذين خفت موازينهم. فبالمطابقة مع أعمالهم ومخالفتها يُعلم كونه سعيدًا أو شقيًا.

ويعتقد بعض المحققين أنَّ الأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأولياء الله بمنزلة كفة الميزان الأولى، وأعمال الإنسان وعقائده ونياته بمنزلة الكفة الأخرى، فيوازن بينهما يوم القيامة. (٦٣٦)

المبحث الثالث: الأعمال التي تُثقل ميزان الأعمال

قد يتساءل الإنسان: ما أبرز الأعمال التي تُثقل الميزان يوم القيامة؟

الجواب: لقد بيّنت النصوص الشرعية أن هناك أعمالاً عظيمة تزيد ثقل الميزان يوم القيامة. وفيما يأتي ذكر مجموعةٍ من هذه الأعمال (٦٣٧):

١. الشهادة بوحدانية الله ونبوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

إنَّ أعظم ما يثقل ميزان الإنسان يوم القيامة الإيمان الصادق بالله تعالى وبنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والتصريح بذلك بالشهادتين. فالشهادة بوحدانية الله تعالى، والشهادة بنبوة رسوله، ليستا مجرد كلمات تُقال باللسان، بل هما أصل الدين وأساس قبول الأعمال، وبهما ترتفع قيمة العمل عند الله ويعظم أجره.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عَيْهِ السَّلَامُ قوله: "نحمده بالحمد الذي ارتضاه من خلقه، وأوجب قبوله على نفسه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، شهادتان ترفعان القول وتضاعفان العمل، خفَّ ميزان ترفعان منه، وثقل ميزان توضعان فيه، وبهما الفوز بالجنة والنَّجاة من النار". (٦٣٨)

٢. ذكر الله تعالى

يُعدُّ ذكر الله تعالى من الأعمال التي تُثقل ميزان الإنسان يوم القيامة، وهو لا يقتصر على نوع واحد، بل يكون على نوعين: ذكرٌ لفظي وذكراً عملي.

فالذكر اللفظي هو ما يجري على لسان المؤمن من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، كقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله.

أما الذكر العملي فهو ما يظهر في سلوك الإنسان وأعماله عندما يطيع الله تعالى ويعمل بما يرضيه، فيكون عمله نفسه صورةً من صور ذكر الله.

ومن أبرز أمثلة الذكر العملي الإنفاق في سبيل الله، لا في سبيل نيل الشهرة ونيل إعجاب الناس. وقد بين القرآن الكريم أن الصدقة، وإن بدت قليلة في ظاهرها، فإن الله قادر على أن يضاعف أجرها ويعظم أثرها أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٣٩).

وتشير تفاسير أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى أن ختام الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على سعة فضل الله وقدرته على تنمية الصدقات وتعظيم ثوابها بقدر لا حد له ولا حصر بحيث تثقل ميزان الأعمال يوم القيامة. فقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... حتى أن الرجل ليتصدق بالتمرة أو بشقّ تمرة فأربيها له كما يربي الرجل فلوله وفصيله». (٦٤٠)

٣. الصلاة على محمد وآل محمد

قال الشيخ عباس القمي في كتابه "منازل الآخرة": واعلم أنه لا يوجد عمل لأجل تثقيل ميزان الأعمال مثل الصلوات على محمد وآله صلوات الله عليهم أجمعين^(٦٤١) وقد وردت نصوص في ذلك منها:

روى عن الإمام محمد الباقر أو الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد، وإنَّ الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به، فيخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الصلاة عليه، فيضعها في ميزانه فيرجح به». (٦٤٢)

عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «أنا عند الميزان يوم القيامة، فمن ثقلت سيئاته على حسناته جئت بالصلاة عليّ حتى أثقل بها حسناته». (٦٤٣)

٤. حُبُّ النَّبِيِّ وَآلِهِ

تُعدُّ محبة النبي محمد وآله من أعظم الأعمال التي تثقل ميزان الإنسان يوم القيامة، لأنها ليست مجرد شعور عاطفي، بل ارتباط روحي وعملي بمن اختارهم الله هداةً لعباده. وقد بيّن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عظيم أثر هذه المحبة في مصير الإنسان، فقال: «حُبِّي وَحُبُّ أَهْلِ بَيْتِي نَافِعٌ فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ أَهْوَاهُنَّ عَظِيمَةٌ: عِنْدَ الْوَفَاةِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَعِنْدَ النُّشُورِ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ، وَعِنْدَ الْحِسَابِ، وَعِنْدَ الْمِيزَانِ، وَعِنْدَ الصَّرَاطِ». (٦٤٤)

غير أن المحبة الحقيقية لا تتحقق بالكلمات والشعارات فقط، بل تظهر في اتباع تعاليمهم والسير على نهجهم. فمن أحبهم صدقًا التزم بما أمروا به وابتعد عما نهوا عنه، لأن محبتهم تعني الاقتداء بهم والعمل بهديهم.

ومن أبرز مصاديق المحبة الصادقة للنبي وآله:

- ◆ الالتزام بتعاليمهم من خلال أداء الواجبات وترك المحرمات.
- ◆ إحياء أمر محمد وآل محمد بتعلم علومهم وتعليمها للناس ونشر معارفهم.
- ◆ تعظيم شعائر الله وإظهار الارتباط بدينهم وشعائرهم.
- ◆ القيام بالأعمال الصالحة على حبهم وطلب القرب إلى الله بولايتهم.
- ◆ زيارة مشاهدهم المقدسة والتجديد الدائم للعهد معهم والسير على طريقهم.

٥. حَسَنُ الْخَلْقِ:

التحليّ بحسن الخلق من أعظم الأعمال التي تثقل ميزان العبد يوم القيامة، ففي الرواية عن رسول الله الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ

أثقل في الميزان من خلق حسن». (٦٤٥)

رُوي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه: «سمع رجلاً يشتم قبراً وقد رام قبر أن يرد عليه. فناداه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مهلاً يا قبراً! دع شاتمك مهاناً تُرضي الرحمن، وتسخط الشيطان وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه». (٦٤٦)

٦. مداد العلماء

مداد العلماء من الأعمال العظيمة التي تثقل الميزان يوم القيامة؛ لأن العلم الذي يكتبونه يبقى أثره في الناس جيلاً بعد جيل، فيهدون به ويعملون بما فيه. وقد أشار القرآن إلى بقاء آثار الأعمال فقال تعالى في سورة يس، الآية ١٢: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

فما يُدَوّن من علوم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يبقى نافعا للأمة، يقرأه الناس ويهدون به، فيبقى أجره جارياً في ميزان صاحبه. ولذلك ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجلّ الناس في صعيد واحد، وضعت الموازين، فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء». (٦٤٧)

المبحث الرابع: عليّ ميزان الأعمال

من المعلوم أن من معاني الوزن يوم القيامة - كما تقدّم بيانه - الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لأنهم المعيار الذي تُعرض عليه أعمال الناس، فيُعرف بها الحق من الباطل. لكن عند مراجعة النصوص الروائية نجد أن للإمام

عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خصوصية واضحة في هذا الباب، حتى عبّر عنه بأنه ميزان الأعمال. فلقد ورد في زيارة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ نقول:

«السلام على يعسوب الإيخان وميزان الأعمال، وسيف ذي الجلال». (٦٤٨)

إن السؤال الذي نريد أن نختم به المحاضرة هو:

لماذا خُصَّ الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الوصف؟ وما سرّ التركيز عليه دون غيره من الأئمة في بعض النصوص؟

الجواب:

إن قولنا في الزيارة: «السلام على ميزان الأعمال» لا يعني أن بقية الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يشتركون في هذا المعنى؛ فالأئمة جميعاً حجج الله على عباده، وبهم يُعرف الحق من الباطل، وبنهجهم تُقاس صحة الأعمال. غير أن النصوص الإسلامية أكدت هذا الوصف بصورة خاصة في حق الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وركّزت عليه أكثر من غيره لأسباب عديدة نذكر منها الآتي:

أولاً: لأن الإمام عليّ هو الفاروق بين الحق والباطل

إن وصف الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه ميزان الأعمال يرتبط بكونه المعيار الذي يُعرف به الحق من الباطل. فقد بيّن النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هذه الحقيقة بقوله: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار» (٦٤٩) وهذا يعني أن الحق ملازم للإمام عليّ في أقواله ومواقفه، فمعرفة موقفه من أي قضية تكشف موضع الحق فيها.

ولهذا لُقّب الإمام عليّ أيضاً بالفاروق؛ لأن الفاروق لغة هو الذي يفرّق بين الحق والباطل (٦٥٠). وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في حقه: «وهو الفاروق يفرّق بين الحق والباطل» (٦٥١). فإذا كان الإمام عليّ هو الذي يميّز

الحق من الباطل، أصبح معياراً تُقاس به الأعمال؛ فكل عمل وافق نهجه وعدله كان حقاً مقبولاً، وكل عمل خالفه كان باطلاً مردوداً. ومن هنا صح وصفه بأنه ميزان الأعمال.

ثانياً: لأن الإمام علي هو المرجع الأعلّم لفهم الدين

إن وصف الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه ميزان الأعمال يرتبط بمكانته العلمية في الإسلام. فالإمامة في منهج أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليست منصباً سياسياً، بل هي مرجعية إلهية لحفظ الدين وبيان معانيه الصحيحة. والقرآن هو أصل الهداية، لكن فهمه وتطبيقه يحتاج إلى من يبيّن معانيه بدقة.

وقد بيّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مكانة الإمام علي العلمية بقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٦٥٢)، أي إن الطريق إلى علوم النبي يمر عبر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. كما أشار القرآن إلى هذه المنزلة في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٦٥٣)، وقد ورد في روايات أهل البيت أن المقصود بمن عنده علم الكتاب هو الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.^(٦٥٤)

ولهذا كانت تعاليمه ميزاناً تُعرف به صحة الأعمال؛ لأن العمل لا يكون صحيحاً إلا إذا وافق الفهم الصحيح للدين الذي بيّنه. أما بقية الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم كذلك حجج الله وورثة علم النبي، لكن الإمام علي خُصَّ بالذكر لأنه أول الأئمة وأقربهم إلى علم النبي.

ثالثاً: لأن سيرة الإمام علي تمثل التطبيق العملي الأوضح للإسلام

إن وصف الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه ميزان الأعمال لا يرتبط بعلمه فقط، ولا بالنصوص التي بيّنت أنه مع الحق وأنه الفاروق بين الحق والباطل فحسب، بل يرتبط أيضاً بسيرته العملية. فقد جسّد الإمام علي في حياته

التطبيق الكامل لتعاليم الإسلام، فمثلاً: من أراد أن يعرف معنى العدل في الحكم نظر إلى عدل الإمام علي، ومن أراد أن يفهم معنى الشجاعة في الدفاع عن الحق تأمل مواقفه، ومن أراد أن يرى الزهد الحقيقي نظر إلى حياته البسيطة. وبهذا صارت سيرته مقياساً يُعرف به مدى التزام الإنسان بتعاليم الدين.

ويرجع ذلك إلى أن الإمام علي نشأ منذ طفولته في بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فتعلم منه مباشرة، وآمن به منذ بداية الدعوة، ولازمه في جميع مراحل الرسالة. ولهذا كان أقرب الناس إلى فهم روح الإسلام وتطبيقه. ومن هنا نفهم لماذا ورد في بعض النصوص وصفه بأنه ميزان الأعمال؛ لأن أعمال الناس تُقاس بمدى قربها من هذا النموذج الكامل الذي مثله في حياته. أما بقية الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم أيضاً امتداد لهذا النهج، لكن الإمام علي خُصَّ بهذا اللقب لأنه أول من جسّد تعاليم النبي بعده بصورة كاملة وواضحة.

رابعاً: لأن الإمام علي هو الحجة التي يرجع إليها الناس لمعرفة الحق

سُمِّي الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ميزان الأعمال لأنه أول إمام عيّنه الله ورسوله ليكون دليلاً للناس بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. فإذا اختلف الناس في معرفة الحق، فإنهم يرجعون إلى الإمام الذي نصبه الله لبيان الطريق الصحيح. ولهذا دلّت نصوص كثيرة على إمامته، منها نصوص قرآنية كآية الولاية:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٦٥٥)، والتي نزلت عندما تصدّق عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بخاتمه وهو راکع. ومنها آية المباهلة التي جعلت علياً بمنزلة نفس النبي، وكذلك آية التبليغ التي ارتبطت بإعلان ولايته في غدير خم، وآية إكمال الدين التي

نزلت بعد إعلان تلك الولاية.

كما وردت روايات كثيرة تؤكد هذه الحقيقة، مثل حديث الغدير: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه»، وحديث المنزلة، وغيرها من النصوص التي بيّنت أن الإمام علي عليه السّلام هو الامتداد الشرعي لرسالة النبي بعده.

إلى جانب ذلك نقلت كتب التاريخ والحديث كرامات كثيرة ظهرت على يد الإمام علي عليه السّلام، وهذه الكرامات لا تُذكر لمجرد الإعجاب، بل لأنها تُعد من العلامات التي يظهر الله بها مكانة أوليائه وحججه. فالأنبياء أنفسهم ظهرت على أيديهم معجزات لتكون دليلاً على صدقهم، كما قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السّلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾^(٦٥٦). أي إن هذه الأمور كانت علامة تدل على أنه مؤيد من الله.

وكذلك ظهرت على يد الإمام علي عليه السّلام مواقف وكرامات عظيمة تدل على كونه حجة من حجج الله المقربين، منها: ردّ الشمس، وقلع باب خيبر، وإخباره بالمغيّبات، وتكليم الشمس له، وعلمه بالقضاء بين الناس، وقوة الإمام الخارقة في المعارك، وكراماته مع الحيوانات والجمادات، وغيرها.

ونختم هذه المحاضرة بذكر معجزة ردّ الشمس للإمام علي عليه السّلام، وهي من المعجزات العظيمة التي ظهرت له. وقد حدثت هذه المعجزة مرّتين: مرّة في زمن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، ومرّة في زمن خلافته عليه السّلام. وقد روي عن الإمام علي عليه السّلام أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى ردّ عليّ الشمس مرّتين، ولم يردّها على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلّم غيري»^(٦٥٧).

المرّة الأولى كانت في زمن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، حيث حدثت الواقعة في ١٧ شوال عام ٧ أو ٨ للهجرة، وقيل: ١٥ شوال^(٦٥٨).

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ العَصْرَ، فَجَاءَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَكُنْ صَلَّاهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِي حَجَرٍ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَجَرِهِ حِينَ قَامَ وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، أَمَا صَلَّيْتَ العَصْرَ؟ فَقَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ إِنَّ عَلِيًّا كَانَ فِي طَاعَتِكَ، فَأَرَدَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَرُدَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ عِنْدَ ذَلِكَ» (٦٥٩).

ورويت القصة أيضاً من قبل أسماء بنت عميس حيث قالت: «أقبل علي بن أبي طالب ذات يوم وهو يريد أن يُصلي العَصْرَ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فوافق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد انصرف، ونزل عليه الوحي، فأسنده إلى صدره، فلم تنزل مسنده إلى صدره حتى أفاق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: أصليت العَصْرَ يا علي؟

قال: جئت والوحي ينزل عليك، فلم أزل مسندك إلى صدري حتى الساعة، فاستقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ القبلة - وقد غربت الشمس - وقال: اللَّهُمَّ إِنَّ عَلِيًّا كَانَ فِي طَاعَتِكَ فَأَرَدَهَا عَلَيْهِ.

قالت أسماء: فأقبلت الشمس ولها صرير كصرير الرحي، حتى كانت في موضعها وقت العَصْرَ، فقام عليٌّ متمكناً فصلياً، فلما فرغ رجعت الشمس، ولها صرير كصرير الرحي، فلما غابت اختلط الظلام وبدت النجوم» (٦٦٠).

@ وأما المرّة الثانية فقد ردت الشمس في زمن خلافته عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث أخبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الناس أن أرض بابل ملعونة فلا يصلي فيها نبي ولا وصي، فصلى الناس وواصل هو السير حتى غربت الشمس قبل أن يصلي العَصْرَ. فدعا الله باسمه العظيم فردّ الله الشمس، فصلى العَصْرَ ثم عادت الشمس إلى مغيبها (٦٦١).

وصدق الشاعر حسان بن ثابت حينما قال:

لا تُقبل التوبةُ من تائبٍ
أخو رسولِ الله بل صهرُهُ
ومَن يكن مثلَ عليٍّ وقد
رُدَّت عليه الشمسُ في ضوئِها
إلا بحبِّ ابنِ أبي طالبٍ
والصهرُ لا يُعدلُ بالصاحبِ
رُدَّت له الشمسُ من المغربِ
بيضا كأنَّ الشمسُ لم تغربِ^(٦٦٢)

وقال الشاعر قدامة السعدي أيضا بحق أمير المؤمنين عليه السَّلام:

رَدَّ الوَصِيُّ لَنَا الشَّمْسَ الَّتِي غَرَبَتْ
لَا لَسْتُ أَنْسَاهُ حِينَ يَدْعُوهَا فَتَتَّبَعُهُ
فَتِلْكَ آيَتُهُ فِينَا وَحُجَّتُهُ
أَفَسَمْتُ لَا أَبْتَغِي يَوْمًا بِهِ بَدَلًا
حَسْبِي أَبُو حَسَنِ مَوْلَى أَدِينٍ بِهِ
وَمَنْ بِهِ دَانَ رُسُلُ اللَّهِ فِي الْأَوَّلِ^(٦٦٣)
حَتَّى قَضَيْنَا صَلَاةَ الْعَصْرِ فِي مُهَلٍ
طَوْعًا بِتَلْبِيَةِ هَاهَا عَلَى عَجَلٍ
فَهَلْ لَهُ فِي جَمِيعِ النَّاسِ مِنْ مَثَلٍ
وَهَلْ يَكُونُ لِنُورِ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ

فَسَلَامٌ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ مَاتَ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا

عليٍّ



٢٥ شَوَّال

شَهَادَةُ الْإِمَامِ جَعْفَرِ بْنِ صَادِقٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكُمْ

المناسبة:

شهادة الإمام جعفر الصادق عليه السلام

القصيدة للشاعر: للسيد محسن الأمين

حزناً لثاؤٍ في بقيع الغرقد
 من آل أحمد مثله لم يُفقد
 حزناً لماتم جعفر بن محمد
 سبح الهدى والعايد المتهدد
 هددت وناب الحزن قلب محمد
 وتنوح معولة بقلب مكمّد
 ورمى حشاشة قلب كل موحد
 جرّت على الإسلام من صنع ردي
 نجم الهدى مأمون شرعة أحمد
 ظلما تجشّمه السرى في فدّد
 وسواهم من أحمد لم يؤلّد (٦٦٤)

تبكي العيون بدمعها المتورّد
 تبكي العيون دما لفقد مبرّر
 أيّ النواظر لا تفيض دموعها
 الصادق الصديق بحر العلم مصد
 رزء له أركان دين محمد
 رزء له تبكي شريعة أحمد
 رزء بقلب الدين أثبت سهمه
 ماذا جنت آل الطليق وما الذي
 كم أنزلت مرّ البلاء بجعفر
 كم شردته عن مدينة جدّه
 لم يحفظوا المختار في أولاده

(نصاري)

او ذوب امن الهظم لاجله او تحسّر
 وائته يا جفن هل دمعك دم
 لمن بالسم تكاذه النذل منه
 او سالت دمعته والدمع عنده (٦٦٥)

على المسموم يا غلبي تفتّر
 تفتّر يا غلب لمصاب جعفر
 ابد ما عفه المنصور عنه
 گعد عنده اوليده او جذب ونّه

المُحَاضِرَةُ العَاشِرَةُ

أَوْجُهُ الشُّبْهِ بَيْنَ اللِّبَاسِ وَالْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾ (٦٦٦).

إنَّ كثيرًا من المشكلات الزوجية لا تبدأ من غياب المحبة، بل من سوء فهم طبيعة العلاقة بين الزوجين؛ فقد يجب أحدهما الآخر، ولكنه لا يعرف كيف يكون سكنًا له، ولا كيف يحفظه، ولا كيف يستره، ولا كيف يريجه، فتتحول الحياة شيئًا فشيئًا من مودة ورحمة إلى تعب وضيق وتراكم مشكلات.

ومن هنا تأتي أهمية هذا التشبيه القرآني العجيب في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾ (٦٦٧)؛ فقد اختار الله تعالى كلمة «لباس» ليقرب لنا حقيقة العلاقة الزوجية بصورة نعيشها كل يوم. فاللباس ليس شيئًا هامشيًا في حياة الإنسان، بل هو ستر، وراحة، وجمال، وحماية، وملاءمة، ونظافة، وصيانة، وإذا اختلَّ فيه شيء من ذلك شعر الإنسان بالضيق والنفور.

وهكذا العلاقة الزوجية؛ لا يكفي فيها مجرد العقد أو السكن في بيت واحد، بل تحتاج إلى فهم عميق يجعل كلاً من الزوجين لباسًا حقيقيًا للآخر: يوافقه ولا يخنقه، يستره ولا يفضحه، يحميه ولا يخذله، يجمله ولا يشوّهه، يريجه ولا يثقله، ويعينه على التقوى لا على الغفلة.

ولذلك نريد في هذه المحاضرة أن نعالج جانبًا مهمًا من واقع الحياة

الزوجية، وهو أن كثيراً من الأزواج يعرفون حقوق الزواج بصورة عامة، لكنهم لا يلتفتون إلى روح العلاقة التي أرادها القرآن. ومن خلال بيان أوجه الشبه بين اللباس والعلاقة الزوجية، سنحاول أن نكشف كيف يمكن لهذا التشبيه أن يتحول إلى منهج عملي في الاختيار، والتعامل، وحفظ الأسرار، وحل الخلافات، وبناء الثقة، وتجديد المودة.

وبناءً على ذلك، سنعرض في المطالب الآتية^(٦٦٨) أوجه الشبه بين اللباس والعلاقة الزوجية، لنفهم كيف أراد القرآن لهذه العلاقة أن تكون مصدر سكنٍ واستقرار، لا ميداناً للتعب والصراع.

المطلب الأول: الملاءمة (من مقاس الجسد إلى انسجام الروح)

تعدّ الملاءمة من أبرز وأهم أوجه التشابه التي يُراد إبرازها في هذا التشبيه القرآني العميق؛ إذ تقوم عليها حقيقة الراحة والاستقرار في كلا الموردين. حينما يتأمل الإنسان في معنى اللباس، يجد أن أول ما يلفت النظر فيه هو الملاءمة؛ فاللباس - مهما بلغ من جمال أو قيمة - إذا لم يكن مناسباً لحجم الجسد، أو لطبيعته، أو لحركته، فإنه يفقد وظيفته، بل يتحول من نعمة إلى عبء يورث الضيق والتعب. فالثوب الضيق يقيّد الحركة، والواسع المفرط يعيق السير، وغير المناسب للجويؤذي البدن، وهكذا تتجلى أهمية الملاءمة في أبسط تفاصيل الحياة.

ومن هذا المعنى الحسي الواضح، ينقلنا القرآن الكريم إلى معنى أعمق في الحياة الزوجية، حين عبّر بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾^(٦٦٩)، ليبين أن العلاقة بين الزوجين لا تقوم على مجرد الارتباط الشكلي، بل على انسجام حقيقي يحقق السكن والراحة. فكما أن الجسد لا يستقيم حاله إلا بلباسٍ ملائم، كذلك الحياة الزوجية لا تستقر إلا بوجود توافقٍ

حقيقي بين الزوجين، وإلا تحولت من سكنٍ ورحمةٍ إلى ضيقٍ ومشقة. ولهذا أكدت النصوص الشرعية على هذا المعنى تأكيداً واضحاً، فشددت على ضرورة تحقق الملاءمة في أهم جوانب الحياة، وفي مقدمتها الجانب الديني والأخلاقي؛ لأنها الأساس الذي تُبنى عليه سكينة الأسرة واستقرارها. فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضُونَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ يَخْطُبُ إِلَيْكُمْ فَزَوِّجُوهُ»^(٦٧٠). كما أوصى الإمام جعفر الصادق الرجل بقوله: «انظر أين تضع نفسك، ومن تشركه في مالك، وتطلععه على دينك وسرك وأمانتك...»^(٦٧١).

ومن هنا يتضح أن الملاءمة ليست أمراً شكلياً، بل هي حقيقة عميقة تتعلق بجوانب متعددة من حياة الزوجين، نذكر أهم جانبين منها:

أولاً: الملاءمة في الجانب الديني

إن أعظم ما تقوم عليه الحياة الزوجية هو وحدة الدين؛ لأن الدين ليس جانباً محدوداً في حياة الإنسان، بل هو الأساس الذي يوجّه فكره وسلوكه، ويحدّد طريقه في الدنيا والآخرة. فإذا اتفق الزوجان في هذا الأصل، سهلت بقية الأمور، وإذا اختلفا فيه، بدأت المشكلات من جذورها.

فالزواج ليس مجرد ارتباط بين شخصين، بل هو شراكة طويلة في بناء الحياة وتربية الأبناء، وتحديد المنهج الذي تسير عليه الأسرة. ومن هنا، فإنّ الاتفاق في الدين ليس أمراً ثانوياً، بل هو حجر الأساس في هذه الشراكة. ولهذا شددت الشريعة على هذا الجانب، وبيّنت أحكامه بوضوح حمايةً للأسرة من التنافر. فقد جاء في منهاج الصالحين لسماحة السيد علي السيستاني (دام ظلّه):

«لا يجوز للمسلمة أن تتزوَّج الكافر دواماً أو متعة... وكذا لا يجوز للمسلم أن يتزوَّج غير الكتابية من أصناف الكفار ولا المرتدة..، وأمَّا النصرانية واليهودية فيجوز التزوَّج بها متعة، والأحوط لزوماً ترك نكاحها دواماً» (٦٧٢).

والشريعة وإن أجازت التزوَّج بالكتابية في الزواج المنقطع من حيث الأصل، إلا أن ذلك ليس على إطلاقه؛ فقد نصَّ سماحة السيد علي السيستاني على أنه لا يجوز التزوَّج بها على المسلمة ولو انقطاعاً من دون إذنها. وأمَّا مع إذنها، ففيه إشكال، والأحوط لزوماً تركه (٦٧٣).

وهذا النهي لم يأت عبثاً، بل لآثار واقعية تمس حياة الإنسان ودينه، فقد بيّنت الروايات جانباً من ذلك، ومنها ما رواه معاوية بن وهب أنه سأل الصادق عليه السلام عن الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية، فقال: إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ قلت: يكون له فيها الهوى، قال: إذا فعل فليمنعها من شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه في دينه غضاضة» (٦٧٤).

وروي عن أبي عبد الله قال: «.. وما أحبُّ للرجل المسلم أن يتزوَّج اليهودية ولا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يتنصر» (٦٧٥).

فهذه الروايات تنهى عن الزواج بالكافرة - حتى وإن كانت كتابية - لأنها لا تلتزم بأحكام الشريعة، فتقع في المحرمات كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، فيجد الزوج نفسه في جوٍّ يخالف دينه ويؤذيه، ومع الوقت قد يضطر للتساهل أو يضعف التزامه تدريجياً.

ولا يقف الخطر عند الزوج، بل يمتد إلى الأبناء؛ لأنها تنقل إليهم أفكارها وسلوكها، فينشؤون على تقليدها، فيخشى ضعف التزامهم أو انحرافهم عن الدين، كما نبهت الروايات إلى تأثير ذلك وخطر تنصر أو تهود الأولاد.

ولأجل ذلك، أكدت الشريعة على حُسن اختيار الشريك، ولم تكتفِ بمجرد كونه مسلماً أو مسلمة، بل حثت على أن يكون متديناً مستقيماً؛ لأن الانتفاء الشكلي لا يكفي، إذ قد يضعف الالتزام، أو ينحرف السلوك، أو يقصر الارتباط بمنهج أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

لذا نصح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المرأة وأولياءها بقوله: «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجه»^(٦٧٦). كما وجه الرجال إلى نفس المعيار بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «.. فعليكم بذات الدين»^(٦٧٧). فالدين هو الأساس الذي تُبنى عليه المودة والاستقرار، وبدونه تضطرب الحياة مهما توفرت بقية الصفات. وهذه النصوص تدل على أن الدين هو المعيار الأول في الاختيار، لأنه يحدد شكل الحياة بعد الزواج.

أمثلة واقعية:

◆ شاب ملتزم تزوج امرأة لا تهتم بالحجاب ولا تلتزم ببعض الأحكام، فكان يشعر بالحزن لما يراه منها، ويحاول نصحتها باستمرار، لكنها لم تتقبل ذلك، فتحوّلت النصيحة إلى خلافات متكررة. ومع مرور الوقت، لم تبق المشكلة في هذا الجانب فقط، بل امتدت إلى طريقة العيش والعلاقات وتربية الأبناء، حتى شعر أنه يعيش بمنهج مختلف عن زوجته، فتولّد لديه إحساس داخلي بالغرابة.

◆ فتاة ملتزمة تزوجت شاباً غير مهتم بالدين، فاكتشفت بعد الزواج أنها تعيش صراعاً دائماً مع سلوكياته؛ تتألم من تقصيره في الصلاة، ومن تساهله في المحرمات، وتحاول إصلاحه، لكنها لا تجد استجابة، فازدادت الضغوط النفسية عليها، وشعرت بعدم الاستقرار رغم استمرار الحياة.

◆ في المقابل، شاب وفتاة متقاربان في التزامهما الديني، فانعكس ذلك على حياتهما؛ اتفقا على الصلاة، وعلى تربية الأبناء، وعلى القيم التي يسيران

عليها، فكان بينهما انسجام واضح، وشعور بالراحة، ووحدة في الهدف، مما ساعدهما على تجاوز الصعوبات بهدوء وثبات.

النصيحة: إنَّ الملاءمة في الجانب الديني هي الأساس الذي تُبنى عليه سكينه الحياة الزوجية، ولذلك ينبغي أن يكون الدين هو المعيار الأول عند الاختيار، لا مجرد الانتفاء الشكلي. ويتحقق ذلك بعدم التهاون في هذا الجانب، والحرص على وضوح القيم الأساسية قبل الزواج من خلال الحوار الصريح، ومعالجة أي تفاوتٍ محتمل بالحكمة والتدرُّج لا بالصدام. فالتوافق الديني يجنب كثيراً من الخلافات، ويؤسس لحياة مستقرة، بينما إهماله يفتح باباً لمشكلات كان يمكن تجنبها من البداية.

ثانياً: الملاءمة في الصفات الشخصية والأخلاقية

الجانب الثاني من الملاءمة هو التوافق في الصفات الشخصية والأخلاق، وهو من أهم ما يؤثر في استقرار الحياة الزوجية؛ لأن الحياة اليومية تقوم عليه أكثر من أي شيء آخر.

والمقصود به التوافق في الطباع والسلوكيات، كالحلم وضبط الغضب، واللين في التعامل، والاعتدال في الإنفاق، والقدرة على الحوار. فهذه الصفات هي التي تصنع جو البيت، إما هدوءاً وراحة، أو توترًا وضيقًا.

ولقد أكدت الشريعة ذلك، فقد نصح الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المرأة وأولياءها قائلاً: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(٦٧٨)، وورد عن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِمَنْ اسْتَشَارَهُ فِي تَزْوِيجِ ابْنَتِهِ: «زوّجها من رجل تقيٍّ، فإن أحبّها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها»^(٦٧٩).

أما إذا كان الرجل يتّصف بصفات قبيحة كالغضب الشديد، أو البخل، أو القسوة والعنف، أو التهرّب من المسؤولية، فإن ذلك يُدخل الحياة في دائرة من الاحتكاك المستمر؛ إذ يتحوّل أبسط موقف إلى مشكلة، ويتضخّم أدنى اختلاف. وقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ألا أخبركم بشرار رجالكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: إن من شرار رجالكم البهّات الجريء الفحّاش، الآكل وحده، والمانع رفته، والضارب عبده، والملجئ عياله إلى غيره»^(٦٨٠).

وكذلك الحال بالنسبة إلى المرأة، فينبغي اجتناب الارتباط بامرأة سيئة الخلق، تتّصف بالغضب والعناد وعدم العفة، لما لذلك من أثر في اضطراب الحياة. وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في وصف بعضهن: «ألا أخبركم بشرار نساءكم؟ الذليلة في أهلها، العزيزة مع بعلمها، العقيم الحقود، التي لا تتورّع من قبيح، المتبرّجة إذا غاب بعلمها، الحصان معه إذا حضر، لا تسمع قوله، ولا تطيع أمره، وإذا خلاها بعلمها تمنّعت منه كما تمنّع الصعبة عند ركوبها، ولا تقبل منه عذراً، ولا تغفر له ذنباً»^(٦٨١).

ومن الواقع، يظهر أثر ذلك بوضوح؛ فاختلاف الطباع يورث التوتر وسوء الفهم، بينما التقارب فيها يحقق الراحة وسهولة التفاهم.

أمثلة واقعية:

◆ فتاة تزوّجت شاباً سريع الغضب، فاكتشفت أن أبسط خلاف يتحول إلى شجار، مما أدخل حياتها في توتر دائم.

◆ شاب تزوّج امرأة سيئة الخلق، كثيرة العناد وسوء الكلام، ففقد راحته في بيته، وكثرت المشاحنات بينها.

◆ في المقابل، زوجان متقاربان في أخلاقهما، يتحلّيان بالحلم وحسن التعامل،

فانعكس ذلك في هدوء حياتها وسهولة تفاهمها.

النصيحة: إنَّ الملاءمة في الصفات الأخلاقية ليست أمرًا ثانويًا، بل هي أساس في راحة الحياة اليومية؛ لأنَّ الإنسان يعيش مع الطباع لا مع المظاهر. لذلك ينبغي التأكد من أخلاق الشريك وسلوكه قبل الارتباط، لأنَّ التوافق في هذا الجانب يحقق الاستقرار، بينما إهماله يؤدي إلى كثرة الخلاف والتعب النفسي.

المطلب الثاني: الرغبة (من محبة اللباس إلى انجذاب القلوب)

من أوجه الشبه الدقيقة بين اللباس والعلاقة الزوجية (الرغبة)، بمعنى أنَّ الإنسان قد يجد لباسًا مناسبًا في مقاسه وجودته، لكن قلبه لا يميل إليه، فلا يشعر بالراحة عند ارتدائه، وقد ينفر منه رغم كونه ملائمًا في الظاهر. وفي المقابل، قد ينجذب إلى لباس آخر لمجرد إعجاب نفسي، لا لكونه الأنسب له فعلاً. وهنا يظهر دور الرغبة، فهي عنصر مهم، لكنها ليست المعيار الوحيد.

وهكذا في الحياة الزوجية، فإنَّ ميل القلب والرغبة النفسية أمر فطري لا يمكن إلغاؤه، بل أقره أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقد سُئِلَ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رجل يريد الزواج من امرأة، وأبواه يريدان غيرها، فقال: «تزوِّج التي هويت، ودع التي يهوى أبواك»^(٦٨٢).

فهذه الرواية تشير إلى أنَّ للرغبة مكانًا معتبرًا في الاختيار، لأنَّ الزواج بلا ميل نفسي قد يتحول إلى علاقة جافة خالية من الأنس. فالإنسان يحتاج أن يشعر بالقبول والارتياح تجاه شريك حياته، كما يحتاج أن يرتاح في لباسه.

ولكن، مع ذلك، لم تجعل الشريعة الرغبة وحدها أساسًا للاختيار، لأنَّ

الرغبة إذا انفصلت عن العقل قد تتحول إلى خداع خطير. فالإنسان قد ينجذب إلى مظهر جميل، أو أسلوب كلام مؤثر، أو صورة يتخيل فيها الكمال، فيغفل عن العيوب الحقيقية، ويتجاوز عن الصفات التي سيكون لها أثر مباشر في حياته بعد الزواج.

وقد نبّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خطورة هذا الانجذاب غير المنضبط بقوله: «مَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعشى بصره^(٦٨٣)، وأمْرَضَ قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة...»^(٦٨٤).

فهذه الكلمة العميقة تكشف حقيقة دقيقة؛ فالعشق إذا سيطر على الإنسان أفسد رؤيته، فلا يرى الأمور كما هي، بل كما يريد لها هو، ويصبح حكمه مختلاً، فيبرر الأخطاء، ويغفل عن العيوب، ويُحسّن الظن في غير موضعه.

ولهذا، فإنّ من يختار تحت تأثير العاطفة وحدها قد يعيش وهم الكمال في بداية الأمر، لكن مع مرور الوقت، وبعد زوال الانبهار الأول، تبدأ الحقيقة بالظهور شيئاً فشيئاً، فيكتشف أنّ ما كان يراه جمالاً مطلقاً لم يكن إلا صورة ناقصة أخفاها الحب، فيشعر حينها أنه لم يختر على أساس واقع، بل على أساس انطباع مؤقت.

ومن هنا، فإنّ الرغبة مطلوبة لكنها تحتاج إلى عقل يضبطها، حتى لا تتحول من نعمة تعين على الاستقرار، إلى سببٍ للندم والمعاناة.
أمثلة واقعية:

◆ شاب أعجب بمظهر فتاة وأناقتها، فتغاضى عن طباعها الحادة، وبعد الزواج اكتشف أن الغضب المستمر يحوّل حياته إلى توتر دائم.

◆ فتاة تعلّقت بشاب بسبب أسلوبه اللطيف وكلامه الجميل، ثم تبين لها

بعد الزواج أنه غير مسؤول ولا يُعتمد عليه في إدارة الحياة.

◆ في المقابل، شاب شعر بارتياح مع فتاة بعد التعرف عليها بوعي، فجمع بين القبول النفسي والتأكد من أخلاقها، فكانت حياته أكثر استقرارًا.

النصيحة: أن لا يُهمل الإنسان شعوره، لكنه في الوقت نفسه لا يسلم له بالكامل، بل يعرضه على العقل، ويسأل ويتثبت، ويبحث عن الحقيقة خلف المظاهر. وأن يمنح نفسه وقتًا كافيًا قبل اتخاذ القرار، حتى لا يكون اختياره نتيجة اندفاع مؤقت.

فكما أن اللباس يُختار لا لمجرد الإعجاب به، بل لمدى ملاءمته الحقيقية، كذلك شريك الحياة لا يُختار بالعاطفة وحدها، بل بعاطفة واعية يقودها عقلٌ بصير.

المطلب الثالث: الجودة (بين جمال الظاهر وأصل المنشأ)

من يختار لباسًا لا يكتفي بالنظر إلى شكله أو لونه، بل يلتفت إلى (جودته ونوعه)؛ لأن اللباس قد يكون جميلًا في الظاهر، لكن مادته رديئة، فلا يلبث أن يتمزق أو يتلف بسرعة، فيتحول من زينة إلى عبء. ولهذا يسأل العاقل: من أي قماش صنع؟ وكيف نُسج؟ وما مصدره؟ لأن الجودة الحقيقية لا تظهر من النظرة الأولى، بل تكشفها التجربة مع الزمن.

وهكذا تمامًا في الحياة الزوجية، فإن الإنسان قد يُعجب بالمظهر، أو بطريقة الكلام، أو بحضور جذاب، لكن هذه أمور ظاهرة لا تكشف حقيقة النفس. أما الجوهر الحقيقي، فيرتبط بالمنشأ والتربية والبيئة التي نشأ فيها الإنسان، لأنها هي التي تصنع أخلاقه وسلوكياته، وتظهر بوضوح بعد الزواج، حين تسقط التكاليف وتظهر الطباع على حقيقتها.

ولهذا حذر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الانخداع بالمظهر إذا كان الأصل فاسدًا، فقال: «أيها الناس إياكم وخضراء الدمن»، فقيل: يا رسول الله، وما خضراء الدمن؟ فأجاب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الفتاة الحسناء في منبت السوء» (٦٨٥).

وخضراء الدمن في اللغة تعني الوردة التي تنبت في مكان قذر كمكبّ النفايات. وهذا التعبير بليغ جدًا، فكما أن الزهرة قد تنبت في مكان قذر، فتبدو جميلة في شكلها، لكن أصلها فاسد، كذلك بعض الأشخاص قد يملكون مظهرًا جذابًا، لكنهم نشأوا في بيئة سيئة، فتتكشف آثار تلك التربية بعد الزواج في أخلاقهم وسلوكهم.

أمثلة واقعية:

◆ شاب تزوج فتاة أعجب بجمالها وأسلوبها، لكنه بعد الزواج اكتشف أنها نشأت في بيئة تفتقد للالتزام والحدود الأخلاقية، فانعكس ذلك على سلوكها حتى وصلت إلى الخيانة في الخفاء، مما سبّب له صدمة عميقة واضطرابًا في حياته الزوجية.

◆ فتاة تزوجت شابًا أنيقًا لبقًا في كلامه، ثم اكتشفت بعد الزواج أنه غصوب، يسبّ ويشتم عند أدنى خلاف، ولما تحرّرت عن الأمر تبين أنه عاش في بيئة يغلب عليها الغضب وسوء الألفاظ، فانعكس ذلك على سلوكه، مما أدخل حياتها في توترٍ دائم.

◆ في المقابل، شاب وفتاة نشأ في بيئة صالحة، فانعكس ذلك في أخلاقهما، فكان بينهما احترام، وتحمل، ووعي في التعامل، فاستقرت حياتهما رغم وجود بعض الصعوبات.

النصيحة: أن لا يكتفي الإنسان بالمظاهر عند الاختيار، بل يسأل عن البيئة والتربية، ويراقب السلوك الحقيقي في المواقف المختلفة، لأن هذه هي التي تكشف الجوهر.

وإذا وُجدت بعض النقائص، فالعلاج يكون بالتدرج والتربية المشتركة بعد الزواج، مع الصبر والحكمة، لأن بعض الطباع يمكن تهذيبها إذا وُجدت الإرادة. فكما أن اللباس الجيد يُعرف من مادته لا من شكله فقط، كذلك شريك الحياة يُعرف من أصله وتربيته، لا من مظهره وحده، لأن ما يُخفيه الشكل اليوم، تكشفه الحياة غداً.

المطلب الرابع: الجمال (بين زينة الظاهر وحكمة الاختيار)

من الصفات التي يلتفت إليها الإنسان عند اختيار اللباس (جماله)؛ فاللباس لا يُلبس للستر فقط، بل للتجمل أيضاً، لأن النفس تميل إلى الحسن، وتأنس به. ولهذا ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: «الحمد لله الذي كساني من اللباس ما أتجمل به في الناس...»^(٦٨٦). فالجمال في اللباس مطلوب، لأنه يبعث على الارتياح، ويعطي الإنسان ثقة بنفسه، ويظهره بمظهر حسن، ولذا حثت الشريعة على تجمل كل من الزوجين للآخر، لأن الإهمال في هذا الجانب يولّد النفور، بينما العناية به تعزز القبول والمحبة.

وقد أشارت النصوص إلى هذا المعنى، حيث جعلت من صفات الزوجة الناجحة أنها تُسرّ زوجها إذا نظر إليها، كما في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «... إذا نظر إليها سرته...»^(٦٨٧)، لذا ينبغي للزوجة الاهتمام بشكلها وزينتها أمام زوجها كما أشار لذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حينما قال: «عليها أن تطيب بأطيب طيبها وتلبس أحسن ثيابها وتزين بأحسن زينتها وتعرض

نفسها عليه غدوة وعشية» (٦٨٨).

وهذا لا يختص بالزوجة فقط، بل الزوج أيضًا مأمور أن يكون حسن المظهر لزوجته، لأن العلاقة قائمة على التبادل، لا على طرف واحد. لكن الشريعة تنبه العاقل عند اختيار شريك الحياة أن لا يجعل الجمال هو المعيار الوحيد، بل ينظر معه إلى الجودة والملاءمة، لأن الجمال وحده لا يكفي إذا كان اللباس غير مريح أو سريع التلف.

وهكذا الحال في الحياة الزوجية، فإنَّ الجمال في الزوجة - وكذلك في الزوج - أمر فطري مطلوب، وقد أقرته الشريعة، لأن الإنسان بطبعه يميل إلى الحسن، ويحتاج إلى القبول النفسي في شريك حياته. فقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «تنكح المرأة لميسمها» (٦٨٩)، أي جمالها ووسامتها.

وقال أيضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إذا أراد أحدكم أن يتزوج فليسال عن شعرها، كما سأل عن وجهها؛ فإن الشعر أحد الجمالين» (٦٩٠).

إلا أن الشريعة لم تجعل الجمال هو الأساس، بل حذرت من تقديمه على الدين والأخلاق، لأن الجمال أمر ظاهري، قد يزول أو يتغير، بينما الأخلاق هي التي تبقى وتُعاش كل يوم. ولهذا إذا أراد المسلم أن يتزوج ولم يجد امرأة تجمع بين معيار الجمال وبين معيار الدين والخلق، فهنا ليقدم معيار الدين والخلق على الجمال والمال؛ لأنها نصيحة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي قال: «من تزوج امرأة لا يتزوجها إلا لجمالها لم يربح فيها ما يُحِبُّ..» (٦٩١). أي من يختار الزوجة لأجل جمالها فقط قد يُفاجأ بصفات لا تعجبه، أما من يختار على أساس الدين، فإنه يضع أساسًا صحيحًا لحياة مستقرة مليئة بالطمأنينة.

نعم، إنَّ الجمال يجذب في البداية، لكن الزينة هي التي تحفظ العلاقة

وتُجدّدها. ومن هنا يتكامل معنى الجمال مع الزينة. علماً أنّ الزينة لا تقتصر على الشكل، بل تشمل حسن المظهر، ولطف التعامل، والكلمة الطيبة، والجو النفسي الذي يعيشه كل واحد مع الآخر. فقد يكون الشكل جميلاً، لكن الأسلوب قاسٍ، فيفقد الجمال أثره، بينما حسن الخلق قد يجعل الإنسان يرى شريكه أجمل مما هو عليه.

فالإنسان يأنس بمن يُشعره بالراحة، وينفر ممن يثقل عليه، ولذلك فإن الزينة الحقيقية في الحياة الزوجية هي أن يكون حضورك مريحاً، لا مصدر ضغط أو توتر.

أمثلة واقعية:

◆ شاب تزوج امرأة لجمالها فقط، ثم اكتشف سوء أخلاقها، فتحوّلت حياته إلى نزاع دائم، فلم ينفعه جمالها في تحقيق الاستقرار.

◆ فتاة تزوجت رجلاً وسيماً، لكنها عانت من قسوته وسوء تعامله، ففقدت الشعور بالراحة رغم إعجابها به في البداية.

◆ في المقابل، زوجان جمعاً بين القبول في الشكل وحسن الخلق، فكان الجمال عامل راحة، والأخلاق عامل استقرار، فاستقرت حياتهما.

النصيحة: أن يُراعى عنصر الجمال دون مبالغة، فلا يُقدّم على الدين والأخلاق، بل يُجعل تابعاً لهما. كما ينبغي أن يحرص كلٌّ من الزوجين على التزيّن للآخر ظاهراً وباطناً، بحسن المظهر ولطف الأسلوب، لأن الجمال يجذب، لكن الزينة في التعامل هي التي تُبقي العلاقة حيّة.

فكما أن اللباس الجميل مطلوب، لكنه لا يُختار على حساب راحته وجودته، كذلك شريك الحياة يُنظر إلى جماله، لكن لا يُبنى الاختيار عليه وحده، لأن ما يُبهج العين لحظة قد لا يُسعد القلب عمراً، وما يُحسن المعاشرة هو جمال الروح قبل جمال الصورة.

المطلب الخامس: الستر (من ستر الجسد إلى ستر الحياة)

من أهم وظائف اللباس أنه يستر الإنسان، فيخفي عيوبه، ويحفظ كرامته، ويمنعه من الانكشاف أمام الناس، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ (٦٩٢). فاللباس ليس زينة فقط، بل هو حماية وصيانة، يغطي ما لا يُحب الإنسان ظهوره، ويمنحه شعورًا بالأمان والاحترام.

وهذا المعنى نفسه أراد الله تعالى أن ينقله إلى الحياة الزوجية حين قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾ (٦٩٣).

أي كما أن اللباس يستر الجسد ويحفظه، كذلك ينبغي أن تقوم العلاقة بين الزوجين على الستر المتبادل؛ فيكون كلٌّ منهما ساترًا لصاحبه، لا يفضحه، ولا يكشف عيوبه، بل يحفظ كرامته، ويصون أسرارها، ويصونه في حضوره وغيبه.

وقد أشار الله تعالى أيضًا إلى هذا المعنى في مضمون قوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (٦٩٤). المقصود بـ «حافظات للغيب» أي أن المرأة الصالحة تحفظ نفسها في غياب زوجها، وتصون عفتها، وتحفظ ماله وحقوقه، كما تحفظ أسرار حياتها، فيتحقق بذلك الستر الذي تقوم عليه سكينة العلاقة واستقرارها.

ومن هنا تتأكد خطورة هتك الستر ككشف أسرار الحياة الزوجية، فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» (٦٩٥).

وهناك من لا يكتفي بعدم الستر، بل يتعمد تتبع عيوب الآخر والبحث عن زلاته، ليحتفظ بها في نفسه، ثم يُخرجها عند الخلاف أو الحاجة، فيفضحه

ويكسر كرامته أمام الناس، وهذا من أخطر ما يهدد العلاقة ويهدمها من الداخل.

وقد حذر الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الصفة بشدة، فقال: « إنَّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعتقه بها يوماً ما »^(٦٩٦). فهذا السلوك لا يدل على محبة ولا على أمانة، بل يكشف عن خلل عميق في النفس، لأن العلاقة القائمة على التربص والفضح لا يمكن أن تستمر، بل تتحول إلى ساحة خوف وانعدام ثقة.

وهذا يدل على أن كشف أسرار الحياة الزوجية ليس أمراً بسيطاً، بل هو خيانة للأمانة التي جعلها الله بين الزوجين.

ومن هنا، فإنَّ الستر في الحياة الزوجية يشمل أموراً عديدة: ستر العيوب، وستر الخلافات، وستر الأسرار، وعدم إخراجها إلى الناس، لأن إخراجها يفتح باب التدخلات، ويضعف العلاقة، ويفقد الثقة بين الزوجين، ويؤدي إلى تضخم المشكلات، وتحوّلها إلى أزمات كبيرة، وقد يصل الأمر إلى انهيار العلاقة.

أمثلة واقعية:

- ◆ زوجان يقع بينهما خلاف بسيط، فتقوم الزوجة بنقله إلى صديقاتها، فيُضخّم ويُفسّر بشكل خاطئ، فتزداد المشكلة بدل أن تنتهي.
- ◆ زوج ينقل تفاصيل بيته إلى أهله، فتدخل العائلة، وتتحول المشكلة الصغيرة إلى نزاع كبير بين الطرفين.
- ◆ في المقابل، زوجان يحافظان على أسرار حياتهما، فيناقشان مشكلاتهما بهدوء، فلا تتفاقم، وتُحل بسرعة دون تدخل أحد.

النصيحة: ينبغي للزوجين أن يُقيما بينهما منذ بداية الحياة الزوجية ميثاقًا واضحًا، قوامه أن ما يجري داخل البيت يبقى في حدوده، فلا يُنشر ولا يُذاع. كما يُستحسن أن يُعالجا ما يطرأ من خلاف بالحوار الهادئ في وقتٍ قصير، كأن لا يتجاوز أربعًا وعشرين ساعة، دون إطالة تؤدي إلى تراكم المشكلات، فإن احتاجا إلى تدخل، فليكن من شخص حكيم عاقل، بعيد عن التأثير بالعاطفة.

فكما أن الإنسان لا يرضى بانكشاف جسده أمام الناس، كذلك لا ينبغي أن يكشف ستر حياته الزوجية؛ لأن الستر هو الذي يحفظ كرامة العلاقة، ويصونها من التصدّع والانہيار.

المطلب السادس: الحماية (من وقاية الجسد إلى حماية العلاقة)

من أهم وظائف اللباس أنه يحمي الإنسان من الأخطار، فالإنسان لا يلبس في الشتاء كما يلبس في الصيف، ولا يدخل المعركة بلباس عادي، بل يختار ما يقيه من السهام والضربات، ولا يعمل في البيئات الخطرة إلا بلباس يحفظه من الضرر. فاللباس هنا ليس مجرد ستر أو زينة، بل درع واقٍ يحفظ الإنسان مما يؤذيه. ولهذا أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قصة نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَام، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾^(٦٩٧). أي إن هذا اللباس صُنِعَ ليكون وسيلة حماية، يقي الإنسان من الخطر ويحفظه من الأذى.

ومن هنا نفهم عمق التشبيه القرآني في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾^(٦٩٨). فكما أن اللباس يحمي الجسد، ينبغي أن يكون كل من الزوجين حماية للآخر، لا مصدر خطر عليه، ولا سببًا في كشفه أو إضعافه، بل يكون حصنًا له من أذى الخارج، وسندًا له في مواجهة الناس.

فالزوجة ليست مجرد شريكة حياة، بل هي مأمّن لزوجها، تحفظ سمعته، وتدافع عنه، وتصون كرامته، وكذلك الزوج، ليس مجرد معيل، بل هو حام لزوجته، يدفع عنها الأذى، ويقف معها أمام كل ما يهددها نفسياً أو اجتماعياً.

ومن الناحية العقلية، فإن الإنسان مفطور على الدفاع عن نفسه، فهو إذا تعرّض لخطر جسدي حاول حماية أعضائه الحساسة تلقائياً، وإذا هوجم بالكلام سارع إلى الرد والدفاع، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بأقرب إنسان إليه؟ إن ترك الدفاع هنا خلل في الفطرة، لا مجرد تقصير عابر.

ولهذا ينبغي أن يتحول الزوجان إلى درعين متقابلين، كل واحد يحمي الآخر كما يحمي نفسه، لا أن يكون أحدهما منفذاً للطعن في الآخر أو طريقاً لإيذائه.

أمثلة واقعية:

◆ امرأة تسمع من إحدى قريباتها كلاماً سيئاً عن زوجها، فتسارع إلى تصديقه ونقله، فتضعف صورته في قلبها، بينما الصحيح أن تدافع عنه، وتغلق باب التدخل، ثم تناقش الأمر معه بهدوء إن احتاجت.

◆ رجل يُنقل إليه أن زوجته قالت عنه كلاماً سيئاً، فيغضب ويُشهر بها، بينما الأجدر أن يكون حامياً لها، فيرفض نقل الكلام، ويحفظ كرامتها، ثم يعالج الأمر معها بعيداً عن الآخرين.

◆ زوجان يتعرضان لضغوط من العائلة أو المجتمع، فيقف كل منهما مع الآخر، لا ضده، فيتجاوزان الأزمة معاً، لأنهما تحوّلوا إلى جبهة واحدة في مواجهة الخارج.

النصيحة: ينبغي للزوجين أن يُقيما منذ بداية حياتهما مبدأً واضحاً، وهو

أنهما فريقٌ واحد، لا يُسمح لأحد أن يتسلل بينهما. فيحرص كلُّ منهما على إغلاق باب نقل الكلام، فلا يُصغي لما يُسيء إلى الآخر من خارج البيت، بل يُعالجان ما يطرأ بينهما بالحوار المباشر، بعيداً عن تدخل الآخرين.

ولتوضيح ذلك:

◇ قد تُخبر الزوجة بأن زوجها شوهد في موقفٍ مريب، فتتأثر بدايةً، لكنها لا تُسارع إلى التصديق، ولا تسمح بتضخيم الأمر، بل تحتفظ به في حدودها، ثم تطرحه عليه بهدوء قائم على حسن الظن، دون أن تفتح باب التدخل الخارجي.

◇ وقد يُنقل إلى الزوج كلامٌ يُسيء إلى زوجته، فينزعج، لكنه لا يُظهر ذلك أمام الناس، ولا يُشهر بها، بل يصون كرامتها، ويحتفظ بالأمر لنفسه، ثم يناقشه معها مباشرة، بعيداً عن الانفعال وسوء الظن.

وهذا يبيّن أن تكليف الإنسان عند سماع ما يُسيء إلى غيره هو أن لا يُصدّق ولا يُشيع، بل يحفظ كرامة أخيه، ويغلق باب الفتنة، ويعالج الأمر في إطاره الصحيح إن احتاج إلى ذلك.

وقد ورد هذا المعنى بوضوح حينما سأل محمّد بن الفضيل الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: «جعلت فداك، الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكره له، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال: يا محمّد، كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولاً فصدّقه وكذبهم، ولا تذيعنّ عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروّته ...» (٦٩٩).

المطلب السابع: الصيانة (من حفظ اللباس إلى حفظ العلاقة)

من يتأمل في معنى اللباس لا يقف عند كونه ساترًا أو جميلًا أو واقياً فحسب، بل يلاحظ أن من أهم آدابه أن يُصان ويُحفظ، فلا يُرمى عند أول خلل، ولا يُستغنى عنه عند أول عيب. فالإنسان العاقل إذا تمزق ثوبه أو فسد جزء منه، لا يسارع إلى إلقائه، بل يُبادر إلى إصلاحه وترقيعه، لأنه يدرك أن بقاءه أصلح من التفريط به. ولهذا ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من رقع جيبه... فقد برئ من الكبر»^(٧٠٠).

فهذا السلوك يكشف عن عقلية المحافظة، لا عقلية الاستهلاك، وعن روح الصيانة لا روح التخلي.

وهذا المعنى العميق أراد القرآن أن ينقله إلى الحياة الزوجية من خلال تشبيه الزوجين باللباس، فالعلاقة الزوجية ليست شيئاً يُستبدل عند أول خلل، بل هي بناء يحتاج إلى صيانة دائمة، وحفظ مستمر، وعناية واعية. وهذا يفتح أمامنا باب التأمل في كيفية صيانة هذه العلاقة وحمايتها من الخلل، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: صيانة النفس لتعزيز الثقة

كما أن الإنسان يحافظ على لباسه من الأوساخ والتلف، ينبغي لكل من الزوجين أن يصون نفسه بما يعزز ثقة الآخر به، فلا يضع نفسه في مواضع الشبهة، ولا يتساهل في سلوك قد يجرح الثقة. فقد قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا غنى بالزوجة فيما بينها وبين زوجها عن... صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة بها في حال المحبوب والمكروه»^(٧٠١)، وعن النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «خير نسائكم... الحصان على غيره

﴿أي غير الزوج﴾^(٧٠٢). أي التي تحفظ نفسها عن غير زوجها

وهذا المعنى يشمل الزوج أيضاً، فكما تحرص الزوجة على صيانة نفسها، ينبغي للرجل أن يكون موضع ثقة، يحفظ بصره وسلوكه، لأن الثقة هي أساس الاستقرار.

ثانياً: صيانة الآخر قبل الوقوع في الخطأ

ومن معاني الصيانة أن لا يترك الإنسان لباسه حتى يتلف، بل يحافظ عليه قبل ذلك، وكذلك الزوجان، ينبغي أن يكون كل منهما حارساً للآخر، يذكره، وينبّهه، ويمنعه من الوقوع في الخطأ بلطف وحكمة، لأن الوقاية أسهل من العلاج.

ثالثاً: صيانة الآخر بعد الخطأ

فإذا وقع الخلل، لا يكون الحل هو الهدم أو التخلي، بل الإصلاح. فكما يُرَقَع اللباس إذا تمزق، ينبغي أن تُرمم العلاقة إذا حصل فيها خلل. فالخطأ لا يعني نهاية الحياة، بل هو اختبار لطريقة التعامل.

ومن المتعارف عليه أن كل علاقة إنسانية لا تخلو من الخطأ، فإذا بُنيت على مبدأ الإلغاء عند أول زلة، فلن تستمر أي علاقة، بل ستدخل في دوامة من اهتزاز الثقة، وتراكم الأخطاء، وتضخم المشكلات الصغيرة، حتى تصبح مهددة بالانهيار عند أول أزمة، ويصاحبها شعور دائم بعدم الأمان. أمّا إذا بُنيت على الصيانة والإصلاح، فإنها تقوى مع الزمن، لأن التجارب تُنضجها، وتحوّل نقاط الضعف إلى فرص للنمو والتماusk.

أمثلة واقعية:

◆ زوجة تلاحظ على زوجها تقصيراً في بعض التصرفات، فتنصحه بهدوء

قبل أن تتفاهم المشكلة، فتحفظ العلاقة من التدهور.

◆ زوج يرى من زوجته خطأ، فلا يفضحها ولا يتركها، بل يحاول إصلاحها بالحكمة، فتتغير ويستمر التفاهم بينهما.

◆ في المقابل، زوجان يتعاملان مع كل خطأ كأنه نهاية، فيتبادلان الاتهام، حتى تتراكم الجراح وتضعف العلاقة تدريجيًا.

النصيحة: أن يُدرك الزوجان أن العلاقة تحتاج إلى عناية مستمرة، لا إلى اهتمام مؤقت. وأن يُعتمدا أسلوب النصح الهادئ بدل التوبيخ، والإصلاح بدل الإلغاء. وأن يتعلما فنَّ التغافل عن بعض الأخطاء، لأن التدقيق في كل صغيرة يهدم أكثر مما يصلح.

فكما أن اللباس يُحفظ ويُرَقَّع ليبقى، كذلك الحياة الزوجية تحتاج إلى صيانة دائمة، لأن ما يُهمل يُفقد، وما يُصان يبقى ويقوى.

المطلب الثامن: النقاء (من نظافة اللباس إلى طهارة العلاقة)

من الصفات التي لا يستغني عنها الإنسان في لباسه هو (النقاء)، أي أن يكون نظيفًا وطاهرًا؛ فالنظافة تمنحه مظهرًا حسنًا وراحة نفسية، والطهارة تمنحه القبول الحقيقي، حتى في أعظم العبادات. فقد يكون اللباس جميلًا في شكله، لكنه متسخ فينفر منه الإنسان، أو نظيفًا في ظاهره لكنه غير طاهر فلا يصلح للصلاة ولا للطواف. ومن هنا يتضح أن الكمال في اللباس لا يتحقق إلا باجتماع النظافة الظاهرة والطهارة الباطنة.

وقد أشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أثر النظافة النفسي بقوله: «غسل الثياب يذهب الهم والحزن»^(٧٠٣)، مما يدل على أن للنظافة أثرًا يتجاوز الشكل إلى داخل النفس.

وهذا المعنى ينتقل بنا إلى فهم أعمق لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾^(٧٠٤)، فكما يُطلب من اللباس أن يكون نظيفاً وطاهراً، كذلك يُطلب من العلاقة الزوجية أن تقوم على النقاء بجانيه: النقاء الظاهر والنقاء الباطن.

إنّ النظافة والطهارة في الحياة الزوجية لا تقتصران على المظهر الخارجي، بل تمتدان إلى تفاصيل العلاقة كلها، وتشمل جوانب متعددة تُشكّل أساس الراحة والاستقرار بين الزوجين.

فمن مصاديق (النظافة الحسية) العناية بالنظافة الشخصية، ونظافة الملابس، ونظافة البيت، لأن إهمال هذه الأمور يولّد نفوراً تدرّجياً، حتى مع وجود المحبة، بينما الاهتمام بها يبعث على الراحة والانجذاب.

ومن مصاديق (النظافة السلوكية) نظافة الكلام، وذلك باجتناّب الألفاظ الجارحة، والسخرية، والتقليل من شأن الآخر، لأن الكلمة الجارحة تترك أثراً عميقاً قد لا يُنسى، بينما الكلمة الطيبة تُنعش العلاقة وتُقوّيها.

أما (الطهارة المعنوية)، فهي الأعمق أثراً، ومن أبرز مصاديقها:

◇ طهارة النظر، بعدم التطلع إلى ما لا يحل، لأن ذلك يُضعف الثقة ويهزّ الاستقرار.

◇ طهارة السلوك، بالابتعاد عن العلاقات المحرّمة أو المريبة التي تُدخل الشك إلى قلب الطرف الآخر.

◇ طهارة القلب، بتنقيته من الحقد، وسوء الظن، وتتبع الزلات، لأن القلب المليء بالضغائن لا يستطيع أن يُحب بصفاء.

◇ طهارة النيّة، بأن تكون العلاقة قائمة على الإخلاص لا على الاستغلال أو المصلحة.

كما تشمل الطهارة أيضًا (طهارة البيئة) التي يعيش فيها الزوجان، كاختيار الأجواء النظيفة أخلاقيًا، والابتعاد عن البيئات المنحرفة التي تضعف الالتزام تدريجيًا.

وعند غياب هذه المصاديق، تبدأ آثار سلبية بالظهور، مثل النفور، وضعف الثقة، وتراكم المشاعر السلبية، حتى مع بقاء العلاقة ظاهريًا. أما عند تحققها، فإنها تُثمر راحة نفسية، وطمأنينة، وثقة متبادلة، وتجددًا مستمرًا في العلاقة.

ومن هنا يتضح أن النظافة والطهارة ليستا أمرين شكليين، بل هما روح تسري في تفاصيل الحياة الزوجية، تحفظها من التآكل، وتُعينها على الاستمرار بثبات وهدوء.

أمثلة واقعية:

❖ زوج يهتم بنظافته خارج البيت، لكنه يُهمل نفسه داخله، فيظهر بمظهر غير لائق، مما يولد نفورًا تدريجيًا لدى زوجته، رغم وجود المحبة بينهما.

❖ زوجة تحافظ على نظافة بيتها ومظهرها، لكنها تستخدم كلمات جارحة عند الغضب، فتُفسد صفاء العلاقة، لأن نظافة الظاهر لم تُرافقها نظافة في الكلام.

❖ زوج يتساهل في النظر أو في بعض العلاقات المريبة، فيشعر الطرف الآخر بعدم الأمان، فتبدأ الثقة بالاهتزاز، ولو لم يقع خطأ صريح.

❖ في المقابل، زوجان يحرص كلُّ منهما على نظافته الشخصية، ونظافة كلامه، وطهارة سلوكه وقلبه، فينعكس ذلك راحةً نفسية، وثقةً متبادلة، واستقرارًا واضحًا في حياتهما.

النصيحة: إن تحقيق النظافة والطهارة في الحياة الزوجية يحتاج إلى وعيٍ

مستمر، يبدأ بالعناية بالظاهر ولا يقف عنده، بل يمتد إلى تهذيب الباطن. فيحرص كلُّ من الزوجين على نظافته ومظهره داخل البيت كما خارجه، ويُراعي أثر كلماته على الطرف الآخر، فيجتنب ما يجرح أو يُنقص من الاحترام.

كما ينبغي صيانة السلوك من كل ما يثير الشك أو يُضعف الثقة، وغلق الأبواب التي تُلوِّث القلب، كالعلاقات غير المنضبطة أو الأجواء المنحرفة. ويعمل كلُّ منهما على تنقية قلبه من الضغائن بالتغافل والتسامح، لأن الصفاء لا يجتمع مع التراكمات.

فكما أن الإنسان لا يرتاح في لباس متسخ أو غير طاهر، كذلك لا يستقر في علاقة تفتقد إلى النظافة والطهارة، لأنهما الأساس الذي يحفظ المودة، ويمنح العلاقة دوامها وطمأنيتها.

المطلب التاسع: الراحة (من راحة اللباس إلى سكينة العلاقة)

من أبرز ما يطلبه الإنسان في لباسه أن يكون مريحًا، لأن اللباس مهما كان جميلًا أو ثمينًا، إذا كان ضيقًا أو خشنًا أو يقيّد الحركة، فإنه يتحول إلى مصدر تعب لا وسيلة راحة. ولهذا يختار الإنسان لباسًا يناسب جسده، ويساعده على الحركة، ويمنحه شعورًا بالانسيابية والهدوء، حتى يكاد لا يشعر بوجوده من شدة انسجامه معه.

وهذا المعنى العميق هو نفسه الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾^(٧٠٥). فكما أن اللباس المريح يمنح الجسد راحة، ينبغي أن يكون كلُّ من الزوجين مصدرًا للراحة للآخر، لا سببًا في تعبهِ وضغطه. فالزوجة ليست مجرد شريكة، بل هي سكن، وكذلك الزوج، وقد

عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله: ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾^(٧٠٦). أي لتجدوا عندها الراحة والهدوء، لا القلق والتوتر.

ومن هنا، حينما وصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خير النساء، بدأ بأهم صفة فقال: «خير نساءكم... الهينة اللينة»^(٧٠٧). أي السهلة في التعامل، اللطيفة في أسلوبها، التي لا تُثقل الحياة بالتعقيد، ولا تحوّل الأمور الصغيرة إلى أزمات. وهذه الصفة لا تختص بالمرأة فقط، بل هي مطلوبة في الرجل أيضًا، لأن الراحة في العلاقة متبادلة، لا أحادية.

إنّ الإنسان بطبعه يهرب من مصدر الضغط، ويبحث عن مصدر الراحة، فإذا كان البيت مليئًا بالتوتر، والكلام فيه حادًا، والمتابعة فيه مرهقة، فإنه يفقد دوره كماوى نفسي، ويصبح مكانًا يُتجنّب لا يُشتاق إليه.

فالزوجة التي تلاحق زوجها في كل حركة وتدقق في كل كلمة، وتفتح معه سجلًا دائمًا من الأسئلة والملاحظات، تحوّل نفسها - دون أن تشعر - إلى مصدر ضغط، وكذلك الزوج إذا كان كثير الانتقاد، سريع الغضب، يربط حضوره بالتوتر، فإنه يفقد العلاقة معناها.

أمثلة واقعية:

◆ زوجة تراقب زوجها في كل تفصيل، تسأله أين ذهب؟ ولماذا تأخر؟ وماذا قال؟ فتتحول الحياة إلى تحقيق دائم، فيشعر بالاختناق.

◆ زوج يدخل البيت متوترًا، فيبدأ بالانتقاد واللوم على كل صغيرة، فتشعر الزوجة بثقل وجوده، وتفقد الراحة معه.

◆ في المقابل، زوجان يتعاملان ببساطة ومرونة، يتغافلان عن الهفوات، ويتعاملان بلطف، فيشعر كل منهما أن وجود الآخر راحة له لا عبئًا عليه.

النصيحة:

◇ أن يتعلم كل من الزوجين فنّ التخفيف لا التعقيد، واللفظ لا القسوة.

◇ أن يُعطي كل طرف مساحة للآخر، دون مراقبة مرهقة أو تضيق مستمر. أي على المؤمن أن يوازن بين (الفطنة والحذر والانتباه) من جانب، و (التغافل) من جانب آخر. وقد ورد في الحديث عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَلاحُ التَّعايشِ والتَّعاشرِ مِلاءُ مِكيالٍ، ثلثاهُ فِطْنَةٌ، وثلثه تغافل» (٧٠٨).

◇ أن يُقدِّم حسن الظن على سوء الظن، لأن كثيراً من التوتر سببه الشك لا الواقع.

وقد عبّر أحد البلغاء عن هذه الصفة بأجمل تعبير حين قال في مدح زوجته: «إنها طيبة العشرة»، أي لا تثقل الحياة، بل تُيسرها، وهذه الكلمة البسيطة تختصر سر السعادة الزوجية.

فكما أن الإنسان لا يتحمل لباساً يقيده أو يخنقه، كذلك لا يتحمل شريكاً يرهقه أو يثقل عليه، لأن الراحة ليست رفاهية في الزواج، بل هي أساس بقائه واستمراره.

المطلب العاشر: التقوى (من لباس الجسد إلى لباس القلب)

يصل بنا القرآن الكريم في حديثه عن اللباس إلى أعمق معنى يمكن أن يبلغه الإنسان، حين يقول: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۗ﴾ (٧٠٩). فبعد أن بيّن الله تعالى وظائف اللباس من سترٍ وزينةٍ وحماية، نقلنا إلى معنى أعلى، وهو أن هناك لباساً أعظم من كل لباس، ليس للجسد، بل للقلب، وهو لباس التقوى.

والتقوى في أصل معناها تدور حول الوقاية والصيانة، لأنها الملكة المانعة من ارتكاب المعاصي، أي أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يضره حاجزاً يحميه، لكن هذا الحاجز هنا ليس مادياً، بل هو داخلي، يحفظ القلب من الانحراف، ويضبط السلوك، ويوجه الإنسان نحو الله تعالى. ولهذا جعل الله التقوى غاية الخلق، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٧١٠). وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٧١١). فالتقوى هي الهدف الذي تُبنى عليه حياة الإنسان، وهي التي تمنحه الاستقامة والثبات.

وقد بين القرآن أن محلّ هذه التقوى هو القلب، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٧١٢). والقلب سُمّي قلباً لتقلّبه، فهو سريع التأثر، يتغير بحسب الظروف، فاحتاج إلى ما يثبته ويحميه، فجعل الله من وسائل ذلك تعظيم الشعائر، أي ربط الظاهر بالباطن، حتى يكون السلوك الخارجي وسيلة لحفظ الداخل.

ومن هنا نفهم دلالة اللباس في هذا السياق، فهو ظاهر يراه الناس، لكنه يمكن أن يكون وسيلة لتربية الباطن، فإذا كان منضبطاً بأمر الله، انعكس ذلك على القلب.

وهذا المعنى يبلغ ذروته في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (٧١٣).

فالنزوح هنا ليس مجرد علاقة اجتماعية، بل هو وسيلة عظيمة لتحسين القلب وبناء التقوى، فقد روي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الباقي» (٧١٤)؛ لأن الإنسان إذا عاش وحده قد يضعف، أما إذا كان له شريك يذكره بالله، ويعينه على الطاعة، فإنه يثبت ويرقى.

فأجمل ما في العلاقة الزوجية أن يتحول كلُّ من الزوجين إلى لباس تقوى للآخر؛ يرفعه إذا ضعف، ويذكره إذا نسي، ويعينه إذا تعب، لا أن يكون سبباً في انحرافه أو غفلته.

إنَّ الإنسان يتأثر بأقرب الناس إليه، فإن كان شريكه صالحاً، جذبته إلى الصلاح، وإن كان غافلاً، سحبه إلى الغفلة، لأن المعاشة اليومية أقوى من أي تأثير خارجي.

أمثلة واقعية:

◆ زوجة تذكّر زوجها بالصلاة بلطف، وتشجعه على الطاعة، فيثبت على التزامه ويزداد قريباً إلى الله.

◆ زوج يدعم زوجته في التزامها، ويهيئ لها بيئة صالحة، فتزداد تقوى واستقامة.

◆ في المقابل، زوجان يجرّ كل منهما الآخر إلى الغفلة، فيضيعان معاً، لأن كل واحد منهما كان سبباً في إضعاف الآخر.

النصيحة:

◇ أن يحرص كل من الزوجين على إصلاح نفسه أولاً، لأن فاقده الشيء لا يعطيه.

◇ أن يكون بينهما تواصل بالخير، لا بأسلوب قاسٍ، بل بلطف وحكمة.

◇ وأن يجعلوا في حياتهما المشتركة أعمالاً تقرّبهما إلى الله، كالصلاة، والذكر، ومجالس العلم.

فكما أن اللباس يحفظ الجسد من الانكشاف، فإن التقوى تحفظ القلب من الانحراف، وإذا اجتمع الاثنان في العلاقة الزوجية، أصبح كلُّ من الزوجين

لباسًا ظاهرًا وباطنًا للآخر، وصدق قول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذُلُكَ خَيْرٌ﴾ (٧١٥).

وحيثما نتأمل في سيرة البشرية، لا نجد نموذجًا تجسّدت فيه التقوى، وتكاملت فيه أوجه الشبه بين اللباس والعلاقة الزوجية، كما تجسّدت في حياة نبي الرحمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع زوجته خديجة، ولا كما ظهرت في سيرة عليّ وفاطمة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم امتدّ هذا النور في بيوت الأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومنهم صاحب الذكرى الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ مع زوجته السيدة حميدة.

فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ - مع تعدد زوجاته من الحرائر، كالسيدة فاطمة بنت الحسين بن الإمام زين العابدين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهي ابنة عمّه (٧١٦)، إضافة إلى ما كان من ملك اليمين - بقيت للسيدة حميدة عَلَيْهَا السَّلَامُ خصوصية متميزة، ومكانة بارزة، لما اتصفت به من صفاءٍ وتقوى، وانعكاسٍ واضحٍ لمعاني السكن والمودة في حياتها المشتركة.

فقد رزقها الله من الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأيضًا إسحاق ومحمد وفاطمة (٧١٧).

وقد لقبها الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمحمودة، حيث قال لها: «أنت حميدة في الدنيا، محمودة في الآخرة» (٧١٨)، وبالمصفاة من الأدناس، حيث قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حميدة مصفاة من الأدناس كسبيكة الذهب، ما زالت الأملاك تحرسها، حتى أدت إليّ كرامة من الله لي، والحجة من بعدي» (٧١٩).

وروي في قصة زواجها ما مضمونه: أن ابن عكاشة بن محصن الأسدي اقترح على الإمام محمد الباقر أن يزوّج ابنه الإمام جعفر الصادق، فأخبره أن جاريةً معيّنة ستأتي، وسيتم اختيارها له بهالٍ مُعدّ.

وبالفعل، جاء بائع الجواري، لكن لم يبقَ عنده إلا جارتان مريضتان، فاخترت إحداهما، وعند فتح الصرة وُجد المال مطابقاً تماماً للثمن دون زيادة أو نقص، وهذا أول وجه من وجوه العناية.

ثم لما سُئلت الجارية عن حالها، أخبرت أنه كلما حاول أحد الاعتداء عليها، كان يظهر رجل أبيض يمنعه ويضربه حتى يتعد عنها، فبقيت محفوظة طاهرة، وهذا هو أوضح مظاهر العناية الإلهية.

فقال الإمام الباقر لابنه: خذها، فتزوجها، فكانت السيدة حميدة، وأنجبت لاحقاً الإمام موسى الكاظم^(٧٢٠).

وكانت السيدة حميدة فقيهة بمذهب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وكان الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يرجع النساء إليها في تعلم الأحكام الشرعية والسؤال عن المسائل الفقهية وما أشبهه.

وكانت مهتمة برعاية زوجها الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٧٢١)، وتواسيه لما يتعرض له من ظلم طواغيت زمانه ومنهم المنصور الدوانيقي (عليه لعائن الله) الذي كان يرسل خلف الإمام مرات عديدة بقصد قتله. ولكن لم يتمكن من قتله بنفسه لذا قرر قتله بالسم.

فقد روى صاحب كتاب جنات الخلود: بأن الإمام سُقي السم مرارا عديدة وفي آخر مرة سقي سما نقيعاً^(٧٢٢) في عنب ورمان^(٧٢٣) فمرض مرضاً شديداً وعارضه وجع شديد في بطنه وأحشائه وأمعائه.

قال عمرو بن زيد: دخلت عليه أعوده فرأيتُه متكئاً وقد أدار وجهه إلى الحائط والباب وراء ظهره فلما دخلت عليه قال: وجهني إلى القبلة، فوجهته وأردت أن أسأله عن الإمام بعده وعن الحجة فقال: لا أجيب الآن وستعلمن نبأه بعد حين ثم عرق جبينه وسكن أنينه وقضى نحبه ولقي ربه مسموماً

شهيدا صابرا محتسبا، أي وإماماه، وأسيداه، وأصادقا^(٧٢٤).

(نصاري)

رده الیثرب او آمر بسمه عگب ذیچ الهظیمه او فوگ همّه
گضه مسموم وابنه اینوح یمه او نصب له للعهزه ابفرگاه ماتم

ثم غسله ولده الإمام الكاظم وحنطه وكفنه في خمسة أثواب وصلى عليه
ثم دفنه عند والده وجده في البقيع وكان يوماً عظيماً على المسلمين^(٧٢٥).

أقول وقد راحوا به يحملونه على كاهل من حاملية وعاتق
أتدرون ماذا تحملون إلى الثرى ثبيرا ثوى من رأسِ علياءِ شاهق
غداة حثا الحاثون فوق ضريحه ترابا وأولى كان فوق المفارق

السلام عليك

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعلنا
من عباده المرسلين
الذين نزلنا عليهم
الكتاب والفرقان
والسلام على من
بعثنا من عباده
المرسلين



۳۰ شَوَّال

وَفَاةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكُمْ

الْمُنَاسِبَةُ:

وَفَاةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

القصيدة للشاعر: سلمان بن فهد العودة

وإِن كَانَ فِي قَلْبِي عَلَيْكَ لظَى الْجَمْرِ	وداعاً حبيبي لا لقاء إلى الحشر
إِلَيْكَ وَمَا مِنْ حِيلَةٍ لِي سِوَى الصَّبْرِ	صبرت لأنني لم أجد لي مخلصاً
عَلَى وَجْهِكَ الْمَكْدُودِ أَوْ سَمَةِ الطَّهْرِ	تراك عيني في السرير موشحاً
وفاضت بأنهارٍ من الدمع في شعري	براءة عينيك استثارت مشاعري
وحيناً على كتفي وحيناً على صدري	وكفناك حيناً تعبثان بلحيتي
كما اعتدت هذا الحب من أول البر	أرى فمك الحلو المعطر في فمي
وتجتاح أعماقي وإن كنت في الأسر	تحاصرني ذكراك يا ساكن القبر
في معشبة فيحاء طيبة النsher	أراك جميلاً رافلاً في حريرة
مضمخة شكراً لأطيافك الخضر	وتفرحني أطيافك الخضر إن بدت
غيابك عنها ميتا وهي لا تدري	والعابك اشتاقت إليك وهالها
ولما يصل أسماعها فاجع السر	يتامى يكسرن القلوب هوامداً

المُحَاضِرَةُ الحَادِيَةُ عَشْرَةَ إثباتُ المعادِ بِالْعَقْلِ وَالْوَحْيِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٧٢٦).

المبحث الأول: المعاد وأثره في الإنسان

المطلب الأول: المعاد في وجدان الإنسان

عندما يبدأ الإنسان أولى خطواته في الوعي والإدراك، يلتفت إلى نفسه قبل كل شيء. ينظر إلى هذا الجسد الذي يحمله، إلى دقته وتعقيده؛ إلى قلبه الذي ينبض، وعقله الذي يفكر، وروحه التي تشعر وتحب وتخاف. يتأمل في نفسه، فيجد أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أصبح إنساناً حياً عاقلاً، فيقف أمام هذا التحول العجيب متسائلاً: من الذي أوجدني بعد أن لم أكن؟ وإلى أين ستكون نهايتي؟

هذا السؤال لا يأتي من الخارج، بل ينبعث من أعماق الإنسان، يفرض نفسه عليه فرضاً، فلا يستطيع تجاهله مهما حاول. ثم لا يلبث هذا التساؤل أن يتوسع، فينظر الإنسان إلى ما حوله؛ إلى السماء الواسعة، والأرض الممتدة، والجبال، والبحار، وكل ما يحيط به من مخلوقات لا حصر لها. يرى الكون بنظامه ودقته، فيتساءل مرة أخرى: من الذي أوجد كل هذا؟ وهل لهذا الوجود نهاية كما كانت له بداية؟

وهكذا يرتبط في قلب الإنسان سؤالان لا ينفصلان: من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟ فكما أن لكل بداية سبباً، فلا بد لكل مسير من نهاية. وهذه الحقيقة ليست مجرد فكرة فلسفية، بل هي شعور فطري يعيشه كل إنسان، ويلزمه في كل مراحل حياته.

ومن هنا ندرك أن تسليط الضوء على هذه الأسئلة العقدية ليس أمراً ثانوياً، بل هو أساس في بناء الإنسان. لأن الإنسان إذا لم يعرف من خلقه، ولم يعرف إلى أين سيصير، فإنه يعيش حائرًا، لا يملك ميزانًا يضبط به سلوكه، ولا هدفًا واضحًا يسير نحوه.

ولهذا نجد أن السبب الحقيقي وراء انحراف الإنسان ووقوعه في المعصية ليس فقط ضعف الإرادة أو غلبة الشهوة، بل هو في عمقه ضعف الإيمان بهذه الحقائق الكبرى. فالإنسان إذا لم يكن مؤمنًا بالله إيمانًا واعيًا، ولم يكن مستيقنًا بأنه سيعود إليه يومًا ما، وبأنه سيحاسب في يوم القيامة ويثاب ويعاقب في محكمة العدل الإلهي، فإنه لن يجد في داخله قوة تمنعه من الخطأ.

ولو أردنا أن نقرب الصورة، فإننا لو خاطبنا إنسانًا لا يؤمن بالله، وقلنا له: لماذا تفعل هذا الخطأ؟ ألا تخاف من الله؟ ألا تخجل من الرسول وآله؟ ألا تخشى الحساب؟ فإنه سيقول ببساطة: أنا لا أؤمن بالله حتى أخافه، ولا أؤمن بالرسول حتى أستحي منه، ولا أؤمن بالآخرة حتى أخشى نارها أو أرجو جنتها. وهنا يتضح أن المشكلة ليست في معرفة الحكم، بل في أصل الاعتقاد.

وهذا المعنى لا يختص بمن لا يؤمن أصلاً، بل يمتد بدرجات مختلفة حتى إلى المسلمين، لكن إيمانهم ضعيف أو تقليدي لم يصل إلى مرحلة اليقين. فقد يؤمن الإنسان بالآخرة بلسانه، لكنه لا يعيشها في قلبه، ولذلك لا ينعكس هذا الإيمان على سلوكه بشكل واضح.

وقد حذّر القرآن الكريم من هذا النوع من الإيمان الموروث الذي لا يقوم على وعي، فقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾^(٧٢٧) فالمطلوب من الإنسان أن يصل إلى القناعة بنفسه، وأن يبني إيمانه على المعرفة والتفكير، لا على مجرد التقليد.

وقد بيّن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذه الحقيقة بوضوح، حيث رُوي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما خلق الله العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه»^(٧٢٨)، فالمعرفة هي الأساس، والعمل ثمرة لها.

ومن هنا، فإن الحديث عن المعاد ليس موضوعاً نظرياً نمّر عليه مروراً سريعاً، بل هو أصل عظيم من أصول الدين، له أثر مباشر في حياة الإنسان. لأن الإنسان إذا أيقن يقيناً حقيقياً بأنه سيقف يوماً بين يدي الله، وسيُسأل عن كل صغيرة وكبيرة، فإن هذا اليقين سيغيّر سلوكه، ويجعله أكثر حرصاً على الطاعة، وأكثر ابتعاداً عن المعصية. وقد أشار الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذه الحقيقة بقوله: «طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ، وَقَنَعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ»^(٧٢٩).

المطلب الثاني: دور الإيمان بالمعاد في حياة الإنسان

إن الإيمان بالمعاد ليس مجرد فكرة نظرية، بل هو أساس عميق يُصلح داخل الإنسان، لأنه يزرع في نفسه الشعور بالمسؤولية، ويجعله يعيش وهو يراقب أعماله، ويحسب حساب عواقبها. ومن أهم آثار الإيمان بالمعاد في داخل الإنسان ما يأتي:

◆ في الرقابة الذاتية والشعور بالمحاسبة:

إنّ الإيمان بالمعاد يزرع في داخل الإنسان رقابةً دائمةً، تجعله يستحضر

نظر الله إليه في كل حال، فيحذر من الخطأ حتى في الخفاء. فلا يكون التزامه تابعاً لوجود الناس، بل تابعاً من يقين داخلي بالحساب. قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾. (٧٣٠)

◆ في استشعار المسؤولية والخوف من العاقبة:

يجعل الإيمان بالمعاد الإنسان يشعر بثقل المسؤولية عن أفعاله، لأنه يعلم أن كل تصرف سيُعرض عليه يوم القيامة، فيخاف من العاقبة ويحسب لكل عمل حساباً. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. (٧٣١).

◆ في ترسيخ دافع الخير في النفس:

ينمّي الإيمان بالمعاد في داخل الإنسان رغبة صادقة في الخير، لأنه يوقن أن كل عمل محفوظ له، فيندفع نحو الإحسان بدافع داخلي، لا انتظاراً لمدح أو مكافأة. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾. (٧٣٢).

◆ في تهذيب النفس ومجاهدة الشهوات:

يجعل الإنسان أكثر قدرة على ضبط شهواته، لأنه ينظر إلى نتائج الأفعال في الآخرة، فيقدّم العاقبة البعيدة على اللذة القريبة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾. (٧٣٣).

◆ في تحقيق الطمأنينة والصبر الداخلي:

يمنح الإيمان بالمعاد الإنسان سكينَةً داخلية، لأنه يعلم أن ما يفوته في الدنيا لن يضيع، وأن الجزاء الحقيقي ينتظره، فيصبر ويثبت أمام الابتلاءات. قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. (٧٣٤).

وإذا ترسّخ هذا الإيمان في داخل الإنسان على هذا النحو، فإنه لا يبقى أثراً نفسياً فحسب، بل ينعكس على سلوكه في مختلف جوانب الحياة، فيُنشئ

إنساناً مستقيماً في تصرفاته، عادلاً في تعامله، ملتزماً بعلاقاته، ويؤسس لمجتمع قائم على الحق والإنصاف.

ومن هنا تظهر أهمية الاعتقاد بالمعاد في مختلف جوانب الحياة، ومن أبرزها ما يأتي (٧٣٥):

١. في النظرة إلى الحياة

الإيمان بالمعاد يغيّر نظرة الإنسان إلى الدنيا تغييراً جذرياً، فهو لا يراها نهاية المطاف، بل مرحلة عابرة ووسيلة لغاية أعظم، فيتعامل معها بوعي وهدف، ويجعل أعماله موجهة نحو ما ينفعه في الآخرة.

أما من ينكر المعاد، فإنه يحرص وجوده في هذه الحياة المحدودة، فتغلب عليه النظرة المادية، ويصبح همه تحقيق اللذة بأي وسيلة، ولو على حساب القيم والمبادئ. قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٧٣٦).

مثال: نرى من يتنازل عن مبادئه في صفقة تجارية ظالمة، أو يوقع عقداً فيه استغلال واضح، لأنه يرى أن الفرصة لا تتكرر، وأن النجاح هو في المكسب السريع. وفي المقابل، نجد من يرفض ذلك رغم حاجته، لأنه يرى أن الخسارة الحقيقية ليست في الدنيا، بل في الآخرة، فيقدم رضى الله على الربح العاجل.

٢. في الجانب الاقتصادي

الإيمان بالمعاد يجعل الإنسان يتعامل مع المال بوصفه أمانة لا ملكاً مطلقاً، فيضبط مصادر كسبه، ويتحرى الحلال، ويتجنب الظلم، لأنه يعلم أنه سيُسأل عن كل درهم. فقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تزول قدمًا ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره ما عمل به، وعن ماله فيما اكتسبه وفيما أنفقه...» (٧٣٧). قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ... أَلَا يَظُنُّ

أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٧٣٨﴾.

مثال: مدير شركة يملك القدرة على التلاعب في الحسابات أو إخفاء بعض الحقوق، لكنه يرفض ذلك بدقة شديدة، لا خوفاً من القانون، بل لأنه يؤمن بأن هناك حساباً لا يمكن التهرب منه، بينما غيره قد يستغل موقعه ما دام بعيداً عن الرقابة.

٣. في الجهاد والتضحية

الإيمان بالمعاد يمنح الإنسان شجاعة نادرة، لأنه لا يرى الموت نهاية، بل انتقالاً إلى حياة أكمل، فيثبت في المواقف الصعبة، ويقدم ما يملك في سبيل الحق. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ (٧٣٩).

مثال: في المواقف المصيرية، نجد من يثبت على الحق رغم التهديد والخسارة، لأنه يؤمن أن ما يفوته في الدنيا سيعوّض في الآخرة، بينما ينهار غيره لأنه يرى أن كل شيء ينتهي بالموت.

٤. في الحياة الاجتماعية والسياسية

الإيمان بالمعاد يشكّل رقابة داخلية أقوى من أي نظام قانوني، لأنه يجعل الإنسان يلتزم بالعدل حتى في غياب الرقابة، ويعتبر المنصب مسؤولية لا وسيلة للهيمنة. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٧٤٠)، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ (٧٤١).

مثال: مسؤول يُعرض عليه تمرير قرار يخدم فئة على حساب أخرى، فيرفض رغم الضغوط، لأنه يرى نفسه محاسباً أمام الله، بينما آخر يستغل موقعه لأنه لا يرى إلا هذه الحياة.

٥. في البعد الأخلاقي

الإيمان بالمعاد يزرع في النفس شعورًا دائمًا بأن كل عمل محفوظ، وأن الخير لن يضيع، فيدفع الإنسان إلى الرحمة، والإنصاف، والإحسان، حتى في المواقف التي لا يُنتظر فيها مقابل. قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾^(٧٤٢)، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾^(٧٤٣).

مثال: شخص يتحمل أذى الآخرين في موقعه، ويضبط نفسه عند الغضب، ويختار العفو بدل الانتقام، لا لأنه عاجز، بل لأنه يرى أن العدل الحقيقي مؤجل إلى يوم القيامة.

قد يُقال إن بعض الملحددين لديهم أخلاق حسنة، لكن هذه الأخلاق غالبًا تكون ظاهرية، لأنها لا تقوم على إيمان داخلي ثابت، بل تعتمد على أسباب خارجية مثل: الحياء من الناس، والخوف من القوانين، والحفاظ على الصورة الاجتماعية.

فإذا غابت هذه الأمور، قد يندفع الإنسان وراء شهواته؛ لأنه لا يؤمن بحساب ولا عقاب. أي إن القوانين تضبط الظاهر، أما الإيمان بالله والآخرة فيضبطان الإنسان من الداخل.

الخلاصة: إن الإيمان بالمعاد ليس مجرد فكرة تُذكر، بل هو قوة تُغيّر الإنسان من الداخل، فتجعله أكثر التزامًا، وأكثر عدلاً، وأكثر وعيًا بمسؤوليته. فبقدر ما يرسخ هذا الإيمان في قلب الإنسان، بقدر ما تستقيم حياته، لأنه لا يرى الدنيا نهاية، بل يرى ما بعدها هو الحقيقة الكبرى التي يُبنى عليها كل شيء.

المبحث الثاني: حقيقته وكيفية الإيمان به

المطلب الأول: تعريف المعاد، وكيفيته، ومراحله

الفرع الأول: تعريف المعاد

يُعرّف المعاد لغةً بأنه الرجوع، ومن هنا جاء معناه الاصطلاحي في الفكر الإسلامي عمومًا بأنه رجوع الإنسان إلى الحياة بعد الموت.

لكنّ المعاد في المذهب الاثني عشري يتمتع بخصوصية في تفسيره وتفصيله، حيث يُعتبر الركن الخامس من أصول الدين^(٧٤٤). وهو الاعتقاد بعودة أرواح الإنسان إلى الأبدان بعد مفارقتها يوم القيامة، وذلك بأن يحيي الله سبحانه جميع الناس بعد موتهم، بإعادة أبدانهم بجميع أجزائها الأصلية الباقية من أوّل العمر إلى آخره، ثم يُنشئها في صور مخصوصة، ويُفيض أرواحهم عليها، ويجمعهم جميعًا في موقف الحساب. ثم يكون الجزاء، فيُدخل الكافرين وبعض العصاة في جهنّم التي خلقت لإيصال العذاب جزاءً على أعمالهم، ويُدخل المؤمنين الجنّة التي جعلت لإيصال الثواب على ما قدّموه في حياتهم. ويجب على المكلف الاعتقاد بذلك والإقرار به^(٧٤٥).

وقد أيد الاعتقاد بالمعاد جميع الشرائع الإلهية والأديان السماوية وعدّوا الاعتراف بعودة الإنسان إلى الحياة ركنًا أساسيًا في أديانهم.

الفرع الثاني: كيفية المعاد

السؤال الذي ينبغي علينا طرحه: **ما هي كيفية المعاد؟ هل المعاد روحي فقط، أم جسدي وروحي معًا؟**

الجواب:

لقد أجمع علماء الشيعة الاثني عشرية على أن المعاد يتم بالجسد والروح، أي أن مورد الإعادة هو الجسم والروح معاً، وفي نفس قالب الدنيوي، والأدلة العقلية والنقلية من الكتاب والسنة تدلّ على هذا الموضوع، والمشهور من العلماء والمحققين من المتكلمين يرون هذا النوع من المعاد هو الحق، فمثلاً تقول الآية: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٧٤٦)، وأيضاً: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾^(٧٤٧)، وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(٧٤٨).

وورد في نهج البلاغة: «أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكار الطيور، وأوجرة السباع، ومطارح المهالك، سراعاً إلى أمره، مهطعين إلى معاده»^(٧٤٩)، «وأخرج من فيها فجددهم بعد أخلاقهم، وجمعهم بعد تفريقهم»^(٧٥٠)، «وأعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار، فارحموا نفوسكم»^(٧٥١)، فنرى في جميع الفقرات الإشارة إلى الجسد الدنيوي في الإعادة، فلا يحصى من الإذعان بهذا الرأي وقبوله^(٧٥٢).

الفرع الثالث: مراحل المعاد

إنّ للمعاد مراحل متعددة يمرّ بها الإنسان، تبدأ بانتقاله من دار الدنيا إلى عالم الآخرة بالموت، وتنتهي بمصيره النهائي في الجنة أو النار، وفيما يلي نذكر أبرز هذه المراحل:

(الموت): وهو انتقال الإنسان من الدنيا، ويُعدّ آخريوم من حياته الدنيوية، وأول خطوة في عالم الآخرة.

(البرزخ): وهو المرحلة بين الموت ويوم القيامة، يعيش فيها الإنسان حالة من النعيم أو العذاب بحسب أعماله.

(أشراط الساعة): وهي العلامات التي تسبق قيام يوم القيامة، وتدلّ على قرب انتهائها.

(النفخ في الصُّور وفناء الدنيا): حيث يُنفخ في الصُّور^(٧٥٣) فتفنى الموجودات وتنتهي الحياة الدنيا بأمر الله.

(البعث): وهو إحياء الناس بعد موتهم بإرجاع أرواحهم إلى أجسادهم.

(النشر): وهو خروج الناس من قبورهم وانتشارهم متوجهين إلى موقف القيامة.

(الحشر): وهو جمع الناس جميعاً في موقف واحد للعرض على الله والحساب.

(الحساب): وفيه يُسأل الإنسان عن أعماله، ويُجازى على ما قدّم.

(الميزان): وهو مقياس توزن به أعمال الإنسان، لمعرفة حسناته وسيئاته.

(الصراط): وهو طريق يمرّ عليه الناس، فمنهم من ينجو ويصل، ومنهم من يسقط.

(الشفاعة): وهي تدخل من أذن الله له من أوليائه، كالنبي وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لإنقاذ بعض المؤمنين.

(الجنة أو النار): وهي النهاية الخالدة، فإما نعيم دائم للمؤمنين، أو عذاب للكافرين وبعض العصاة، وهو المصير الأخير يوم القيامة.

وقد وردت هذه المراحل في النصوص الشرعية من القرآن الكريم وروايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي حق يجب الاعتقاد به والإيمان به يقيناً، كما نُقرّ بذلك في أدعيتنا المأثورة، حيث نقول عند قراءة زيارة آل ياسين:

«...وَأَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ وَأَنَّ نَاكِرًا وَنَكِيرًا حَقٌّ وَأَشْهَدُ أَنَّ النَّشْرَ حَقٌّ وَالْبَعْثَ

حَقٌّ وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ وَالْمِرْصَادَ حَقٌّ وَالْمِيزَانَ حَقٌّ وَالْحُسْرَ حَقٌّ وَالْحِسَابَ حَقٌّ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَقٌّ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ بِهِمَا حَقٌّ».

المطلب الثاني: حكم التقليد في المعاد

من التساؤلات الأساسية في باب أصول الدين:

هل يجوز التقليد في العقائد كما في العبادات؟ وإذا كان الجواب: لا يجوز، ما هو السبب؟

الجواب:

المشهور بين علمائنا: عدم جواز التقليد في أصول العقائد، كما يجوز في العبادات^(٧٥٤)، لأن العقيدة ليست مجرد عمل نقوم به، بل هي إيمان يحتاج إلى قناعة واطمئنان في القلب. في حين أن التقليد يعني أن يأخذ الإنسان كلام غيره من دون أن يفهم الدليل أو يقتنع به، وهذا قد يكفي في الأعمال، لكنه لا يكفي في الإيمان.

فالإنسان في الصلاة والصوم يمكنه أن يقلد المرجع ويعمل بما يقول، حتى لو لم يعرف التفاصيل، لأن المطلوب هناك هو العمل. أما في أصول الدين فلا يكفي أن يقول: «أنا أؤمن لأن غيري يؤمن»، بل لا بد أن يصل إلى قناعة بنفسه، ولو كانت قناعة بسيطة تناسب فهمه.

ولهذا يجب على الإنسان أن يفكر بعقله في أصول الدين الرئيسية، فيؤمن بوجود الله، ويقتنع أنه واحد لا شريك له، وأنه حكيم وعادل، وأنه لا يترك الناس بلا هداية، لذلك أرسل الأنبياء. كما يؤمن بأن هذه الحياة ليست النهاية، بل هناك عالم آخر بعد الموت يرجع إليه الإنسان ليحاسب على أعماله. وهذه الأمور يمكن للعقل أن يدركها بشكل عام. وقد تقدّم بيان ما

يرتبط بإثبات وجود الله في محاضرتين من سلسلة زاد المبلّغات^(٧٥٥)، وكذلك ما يتعلق بضرورة بعثة الأنبياء^(٧٥٦)، وأما إثبات المعاد عقلاً فسيأتي بيانه تفصيلاً في المبحث القادم من هذه المحاضرة.

لكن هذا لا يعني أن العقل يعرف كل شيء، فهو لا يستطيع أن يعرف تفاصيل عالم الآخرة، مثل: كيف يكون الصراط، وكيف يكون الميزان، وكيف تُعطى الكتب، وما هي تفاصيل الجنة والنار. هذه الأمور لا تُعرف إلا من خلال الدليل النقلى، أي القرآن الكريم وكلام أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لأنها من عالم الغيب.

وبذلك يتضح أن المطلوب من الإنسان هو أن يقتنع بأصل العقيدة بعقله، أما تفاصيلها فيأخذها من الوحي.

وباختصار: في العبادات يجوز التقليد لأن المطلوب هو العمل، أما في العقائد فلا بد من القناعة، لأن المطلوب هو الإيمان، والعقل يدرك الأصول، والنقل يبيّن التفاصيل.

وإليكم رأي سماحة السيد السيستاني دام ظلّه في الجواب عن السؤال الآتي:

السؤال: هل يجوز التقليد في العقائد؟

الجواب: لا يجوز التقليد في أصول الدين، ولكن من اعتقد بها تقليداً وأظهر ذلك كان مؤمناً وترتّب عليه أحكام المؤمنين، وبذلك يختلف عن أصحاب العقائد الأخرى^(٧٥٧).

المبحث الثالث: أدلة المعاد في ميزان العقل

بعد أن تبين أن الإيمان بالمعاد لا يقوم على التقليد، بل لا بد فيه من قناعة عقلية راسخة، كان من الضروري عرض الأدلة التي يدركها العقل، وتثبت هذه الحقيقة بوضوح. وسنطرح أبرزها في المطالب الآتية::

المطلب الأول: دليل الحكمة الإلهية على المعاد

هذا الدليل بسيط جداً، ويمكن لأي إنسان أن يفهمه بسهولة. نحن نؤمن أن الله حكيم، والحكيم لا يفعل شيئاً بلا هدف، ولا يخلق شيئاً عبثاً. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٧٥٨).

فإذا نظرنا إلى الإنسان وإلى هذا الكون، رأينا نظاماً دقيقاً في كل شيء؛ فالقلب ينبض بانتظام، والليل والنهار يتعاقبان بدقة، والشمس تشرق وتغرب بنظام ثابت، وكل شيء يسير وفق ترتيب محسوب. ولو اختل هذا النظام قليلاً لتعطلت الحياة، وهذا يدل بوضوح على أن هذا الخلق لم يكن عشوائياً، بل وُجد بحكمة ولغاية، وليس بلا معنى.

الآن نسأل سؤالاً مهماً: هل هذه الحياة القصيرة هي كل شيء؟

الجواب: لا؛ لأن الإنسان يتعب طوال حياته، يدرس ويعمل ويجاهد، ثم يموت، وكأن كل هذا التعب يضيع! هل هذا يعقل؟

مثال بسيط: طالب يدرس سنوات طويلة، ثم في النهاية لا يأخذ نتيجة ولا شهادة، هل هذا مقبول؟ طبعاً لا.

إذن، كما أن تعب الطالب لا يضيع، كذلك تعب الإنسان في حياته لا يمكن أن يضيع. بل لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تظهر فيها النتيجة.

ومن هنا نفهم: بما أن الله حكيم، فلا يمكن أن يخلق الإنسان ثم ينتهي كل شيء بالموت، بل لا بد من وجود حياة أخرى بعد الموت، وهي المعاد.

الخلاصة: إذا سُئِلنا: لماذا نُؤمن بالمعاد؟

نقول ببساطة: لأن الله حكيم، والحكيم لا يخلق إنساناً يتعب طوال حياته ثم ينتهي كل شيء بلا نتيجة، فلا بد من يوم آخر يُحاسب فيه الإنسان ويأخذ جزاءه الكامل.

المطلب الثاني: دليل العدل الإلهي على المعاد

من أوضح الأدلة العقلية على المعاد ما يُعرف بدليل العدل الإلهي.

فنحن نُؤمن أن الله عادل، والعدل يعني أن كل إنسان يأخذ حقه كاملاً، ولا يضيع عمل أحد، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٧٥٩).

ولو نظرنا إلى الحياة الدنيا نجد أن الناس فيها مختلفون في أعمالهم، فمنهم من يقضي عمره في الطاعة والإحسان وخدمة الآخرين، ومنهم من يقضي حياته في الظلم والاعتداء وارتكاب الجرائم. وقد أعطى الله الإنسان القدرة على الاختيار، وجعل هذه الدنيا ساحة امتحان، يختار فيها الإنسان طريقه بإرادته، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧٦٠).

لكن السؤال المهم: هل يأخذ كل إنسان جزاءه كاملاً في هذه الدنيا؟

الجواب:

لا، فكم من إنسان صالح يتعب ويصبر، ولا ينال حقه كاملاً، وكم من ظالم يعيش في راحة، ويأخذ حقوق الناس دون أن يُعاقب على كل ما فعل.

مثال واضح: لو أن شخصاً قتل عدداً كبيراً من الناس، فإن أقصى عقوبة

في الدنيا أن يُقتل مرة واحدة، فماذا عن بقية الجرائم؟ هل تضيع بلا حساب؟ لو كانت الدنيا هي النهاية، لكان الظالم قد نجا، والمظلوم قد ضاع حقه، وهذا لا ينسجم مع عدل الله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٧٦١)، أي أن كل إنسان مسؤول عن عمله، فلا بد أن يرى نتيجته.

ومن هنا يفهم العقل أن هذه الدنيا ليست نهاية الطريق، بل لا بد من عالم آخر يظهر فيه العدل كاملاً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (٧٦٢).

ويمكن تقريب هذه الفكرة بمثال واضح، فالدنيا تشبه قاعة امتحان، يكتب فيها الطالب إجاباته ويتعب في الحل، لكنه لا يحصل على النتيجة داخل القاعة، بل تظهر النتيجة بعد انتهاء الامتحان. كذلك الإنسان في هذه الحياة يعمل ويختار، أما الجزء الكامل فيكون بعد انتهاء هذه المرحلة (٧٦٣).

الخلاصة: لأن الله عادل، فلا بد من وجود المعاد، حتى يأخذ كل إنسان جزاءه كاملاً دون ظلم.

المطلب الثالث: دليل الفطرة على المعاد

إذا تأمل الإنسان في نفسه بصدق، سيكتشف حقيقة عميقة، وهي أن في داخله أموراً ثابتة مغروسة في فطرته، لا يمكن أن تتحقق بالكامل في هذه الدنيا، مهما عاش ومهما امتلك. وهذه ليست مجرد رغبات عابرة، بل هي فِطْرٌ أودعها الله في كل إنسان، تدلّه على أن هناك حياة أخرى أوسع وأكمل.

ومن أهم هذه الفطر:

أولاً: فطرة حبّ البقاء

من أوضح ما يكشف عن فطرة الإنسان ميله العميق إلى البقاء والخلود،

فكل إنسان بطبيعته لا يحب الفناء، بل يتمنى أن تستمر حياته أطول ما يمكن. ولو تأمل الإنسان في نفسه، لوجد أنه يتمسك بالحياة، ويخاف من الموت، ويتمنى لو عاش أكثر، حتى لو كان يمرّ بظروف صعبة. وهذا ليس شعورًا عابرًا، بل أمر ثابت في أعماق النفس.

ولو سئل الإنسان: هل تريد أن تنتهي حياتك نهائيًا وتفنى بلا رجعة؟ فإنه يرفض ذلك، ويشعر في داخله أن وجوده لا ينبغي أن ينتهي بهذه الصورة. وهذا يدل على أن في داخله فطرة تدفعه نحو الاستمرار، لا نحو العدم. ومن شواهد ذلك: أن الإنسان يخطط لمستقبله، ويُدّخر المال، ويتعب في التعلم والعمل، وكأنه يريد أن يمتد في الحياة، لا أن تنتهي فجأة بلا غاية. بل حتى لما يشيخ، يبقى متعلقًا بالحياة، ويتمنى البقاء، وهذا يكشف عن أن حبّ البقاء مغروس في أعماق النفس.

وهنا يطرح العقل سؤالاً مهمًا: هل يُعقل أن يزرع الله في داخل الإنسان هذا الميل القوي إلى البقاء، ثم يكون مصيره الفناء التام؟ إن هذا لا ينسجم مع الحكمة، لأن الفطرة الصادقة لا تُخلق عبثًا. ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ ^(٧٦٤)، فالتعبير بـ «ارجعي» يدل على أن هناك رجوعًا بعد هذه الحياة، لا فناءً مطلقًا.

ومن هنا نفهم أن هذه الفطرة تشير إلى وجود حياة أخرى بعد الموت، تتحقق فيها هذه الرغبة في البقاء، وهي حياة الآخرة.

ثانيًا: فطرة حبّ الراحة الكاملة

كل إنسان في هذه الحياة يسعى وراء الراحة. فالطالب يدرس ليرتاح في المستقبل، والعامل يتعب ليعيش حياة أفضل، والغني يجمع المال ليشعر بالطمأنينة.

ولو سألت أي إنسان: لماذا تتعب؟ سيقول لك: أريد أن أرتاح.

لكن السؤال المهم: هل وجد أحد في هذه الدنيا راحة كاملة بلا تعب؟

الجواب: لا. فكل راحة في الدنيا معها تعب. فالطعام اللذيذ قد يسبب ألماً أو مرضاً، والمال يحتاج إلى تعب وخوف من فقدانه، حتى النوم، لا يدوم، ويعقبه تعب جديد... بل لا توجد لذة إلا ومعها ألم، ولا نعمة إلا ويخالطها نقص. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٧٦٥).

وهنا نصل إلى حقيقة عميقة: الإنسان يبحث عن راحة كاملة لا نقص فيها، لكن هذه الراحة غير موجودة في الدنيا.

فهل يُعقل أن الله يضع في داخل الإنسان رغبة عميقة بشيء لا وجود له؟

العقل يقول: لا.

إذن لا بد أن تكون هناك دار أخرى، تتحقق فيها هذه الراحة الكاملة، بلا تعب ولا حزن، وهي الآخرة. وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى، فقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا لُغُوبٌ﴾^(٧٦٦). أي لا تعب ولا إرهاق في الجنة أبداً.

وقد أشار الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى بقوله: «لا راحة لمؤمن على الحقيقة إلا عند لقاء الله تعالى»^(٧٦٧).

ثالثاً: فطرة حب الحرية الكاملة

كل إنسان يحب أن يكون حرّاً، يفعل ما يريد، ويحقق ما يتمنى. فالطفل يكره القيود، والشاب يريد أن يختار بنفسه، وكل إنسان يتمنى أن يحقق إرادته دون عوائق.

لكن في هذه الدنيا قوانين تمنعه، وهناك ضعف في جسده، وهناك ظروف

تضطره، فلا يستطيع أن يحقق كل ما يريد.

وهنا نسأل: إذا كانت فطرة الإنسان تطلب حرية كاملة، فلماذا لا تتحقق في الدنيا؟

الجواب: لأن هذه الدنيا ليست موطن الكمال، بل دار نقص وحدود.

إذن لا بد من عالم آخر، تتحقق فيه الإرادة بشكل أوسع، ويصل الإنسان فيه إلى ما يتناسب مع فطرته.

مثال: لو رأيت طفلاً يبحث عن شيء معين في كل مكان، ويسأل عنه باستمرار، فهذا يدل على أن هذا الشيء موجود، وإلا لما وجد هذا الطلب في داخله. وكذلك الإنسان طالما أنه يبحث عن راحة كاملة وحرية تامة، فهذا دليل على أن هناك مكاناً تتحقق فيه هذه الأمور، وهو الآخرة^(٧٦٨).

بعد طرح هذه النماذج الثلاثة من الفطرة يتبين أن الله تعالى خلق الإنسان وفي داخله شوق إلى راحة لا تعب بعدها، وحرية لا يقيدّها شيء، وسعادة لا حزن معها، وعدل لا ظلم فيه... وهذه الأمور لا يمكن أن تتحقق في الدنيا، فدل ذلك على وجود عالم آخر، هو الآخرة، حيث تتحقق هذه الفطرة بشكل كامل. فالمعاد حقيقة تشهد لها الفطرة قبل العقل.

المطلب الرابع: دليل القدرة الإلهية على المعاد

يقوم هذا الدليل على فكرة واضحة وسهلة، وهي أن الله سبحانه إذا كان قادراً على خلق الإنسان أول مرة، فهو قادر على إعادته بعد موته. فالذي أوجد الإنسان من العدم، ومرّبه في مراحل متعددة حتى أصبح حياً عاقلاً، لا يعجز عن إرجاعه مرة أخرى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ

مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴿٧٦٩﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٦٩).

ولتقريب الفكرة، إذا رأينا إنساناً استطاع أن يصنع شيئاً معقداً من مواد متفرقة، فإننا لا نستبعد قدرته على إعادة صنعه مرة أخرى، فكيف بالله تعالى الذي خلق الإنسان من لا شيء، ويعلم كل جزء فيه؟

ولهذا يلفت القرآن نظر الإنسان إلى خلقه الأول، ليُدرِك أن الإعادة ليست أمراً مستبعداً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧٧٠)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (٧٧١).

ويؤكد القرآن هذا المعنى بمثال قريب يراه الناس كل عام، وهو إحياء الأرض بعد موتها. فالأرض تكون يابسة لا حياة فيها، ثم ينزل عليها المطر، فتنبت النباتات وتعود خضراء، وكأن الحياة دبَّت فيها من جديد. وهذا المشهد الواضح أمام أعيننا يدل على قدرة الله على إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لُمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ (٧٧٢). فكما تعود الحياة إلى الأرض الميتة، كذلك يعيد الله الإنسان بعد موته.

ومن جهة أخرى، يذكرنا القرآن بخلق السماوات والأرض، وهي أعظم من خلق الإنسان، فإذا كان الله قد خلق هذا الكون الواسع بنظامه الدقيق، فكيف يُستبعد عليه أن يعيد الإنسان؟ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (٧٧٣)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ (٧٧٤).

ولهذا فإن إنكار المعاد غالباً يرجع إلى استبعاد الإنسان لإعادة الأجساد بعد تفرّقها، لكن هذا الاستبعاد لا قيمة له أمام القدرة الإلهية المطلقة، لأن الله لا يعجزه شيء، ولا فرق عنده بين الخلق الأول والإعادة، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (٧٧٥).

والنتيجة: أن من قدر على الخلق أول مرة، وأحيا الأرض بعد موتها، وخلق السماوات والأرض، فهو قادر بلا شك على بعث الإنسان بعد الموت، وبذلك يثبت المعاد بدليل القدرة الإلهية.

المبحث الرابع: المعاد ومنشأ إنكاره

المطلب الأول: جذور إنكار المعاد في فكر الإنسان

من خلال التأمل في آيات القرآن الكريم، نلاحظ أن جانباً كبيراً من دعوة الأنبياء وحواراتهم مع الناس كان يدور حول مسألة المعاد، بل يمكن القول إنهم بذلوا جهداً كبيراً في تثبيته في نفوس الناس، وذلك لأن كثيراً من الناس كانوا يجدون صعوبة في قبوله، ويقابلونه بالإنكار والتشدد.

فلماذا كان هذا الرفض الشديد لمسألة المعاد؟

يمكن تبسيط الجواب في سببين رئيسيين:

أولاً: إن من أسباب استبعاد بعض الناس للمعاد أن الإنسان بطبيعته يميل إلى إنكار ما لا يراه بعينه، فيتصور أن ما لا يُحسّ ولا يُشاهد لا يمكن أن يكون موجوداً، وهذا تصور غير صحيح، لأن عدم الرؤية لا يعني عدم الوجود.

فالإنسان في حياته اليومية يؤمن بكثير من الأمور التي لا يراها، ولكنه يصدق بها لوجود آثارها أو لقيام الدليل عليها. فهو يؤمن بالعقل مع أنه لا يراه، ويؤمن بالروح التي بها حياته، مع أنه لا يشاهدها، ويؤمن بالجاذبية التي تمسك الأشياء بالأرض، مع أنه لا يراها، بل يرى آثارها فقط. وكذلك يؤمن بوجود التيار الكهربائي، فلا أحد يرى الكهرباء بعينه، لكنه يوقن

بوجودها عندما يرى آثارها.

بل إن الإنسان يؤمن بأمور لم يرها أصلاً، اعتماداً على خبر الثقات، كإيمانه بوجود بلدان لم يزرها، أو أحداث تاريخية لم يشهدها، ومع ذلك لا يشك فيها.

فإذا كان الإنسان يقبل كل هذه الأمور مع أنه لا يراها، فلا يصح أن يجعل عدم رؤية المعاد سبباً لإنكاره، لأنه من الغيب الذي يُعرف بالدليل، لا بالمشاهدة.

وقد تقدّم في المبحث السابق أننا أثبتنا المعاد بالأدلة العقلية الواضحة، التي تدل على إمكانه ووقوعه، فإذا ثبت ذلك بالعقل، وجاءت النصوص الشرعية تؤكده، لم يبق مجال لاستبعاده لمجرد أنه غير محسوس.

وعليه، فإن الغيب لا يُنكر لكونه غيباً، بل يُقبل إذا قام عليه الدليل، وقد قام الدليل على المعاد، فكان الإيمان به هو الموقف الصحيح الذي ينسجم مع العقل والفطرة.

ثانياً: وهو السبب الأهم، أن الإيمان بالمعاد يعني تحمّل المسؤولية، فالإنسان إذا آمن بأن هناك يوماً سيُحاسب فيه على كل أعماله، فإنه سيضطر إلى ضبط سلوكه، وترك الظلم، والابتعاد عن المعاصي. أما إذا أنكر المعاد، فإنه يشعر أنه حرّ بلا حساب، فينطلق وراء شهواته ورغباته دون قيد أو رادع.

ولهذا أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بوضوح، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ
الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسُوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ
لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٧٧٦). (٧٧٧)

أي أن المشكلة ليست في عدم القدرة على الإيمان، بل في أن الإنسان يريد

أن يعيش بلا قيود، فيرفض المعاد حتى لا يُحاسب.

ومن هنا نفهم أن إنكار المعاد ليس دائماً ناتجاً عن دليل علمي، بل كثيراً ما يكون سببه رغبة الإنسان في الهروب من المسؤولية.

المطلب الثاني: تساؤلات وردود حول المعاد

فيما يرتبط بمسألة المعاد، سنقف - بقدر ما يتسع لنا الوقت - عند سؤالين: أحدهما يطرحه المنكرون للمعاد، والآخر يردده المؤمنون به، لنبين من خلالها حقيقة هذا الأصل وأبعاده.

السؤال الأول: هو من أسئلة منكري المعاد:

كيف يُعاد الإنسان بعد موته، وقد فني جسده وصار عدماً، مع أن إعادة المعدوم محال، فكيف يكون هو نفس الإنسان الأول؟

الجواب:

إن هذه الشبهة ناشئة من تصور غير دقيق لحقيقة المعاد، ومن قياس قدرة الله تعالى على قدرة الإنسان المحدودة، والجواب عنها يتضح من وجوه متعددة:

أولاً: إن المعاد ليس إعادةً للمعدوم، بل هو إعادة تركيب لما تفرّق من أجزاء البدن، فإن جسم الإنسان مركّب من ذرات وعناصر متعددة، وهذه الذرات لا تنعدم بالموت، بل تتحول من صورة إلى صورة، وتبقى محفوظة في نظام الوجود، داخله في علم الله تعالى، لا تخرج عنه لحظة واحدة.

وقد ورد في أحاديث عن المعصومين بأن النطفة التي تولد منها الإنسان تبقى لوحدها في القبر حتى لو بليت العظام فهي لا تبلى بل تبقى محفوظة

ولا تتأثر بالعوامل الطبيعية المؤدية إلى التحلل والاندثار.. فقد رُوي عن عمّار السَّاباطيّ أنّه قال: سئل ابو عبد الله صلوات الله عليه عن الميت هل يبلى جسده؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: « نعم حتّى لا يبقى لحم ولا عظم إلاّ طينته التي خلق منها فإنّها لا تبلى، تبقى في القبر مستديرة حتّى يُخلق منها كما خلق أوّل مرّة» (٧٧٨).

(ولعل المقصود من الطينة الأصلية في الرواية أن الإنسان بعد خروج الروح منه يتحلل إلى أجزائه الأصلية التي خلق منها ذلك الجسد فإن هذه العناصر لا تتحلل بل تبقى ومنها يعاد ذلك الجسد) (٧٧٩).

وقال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: « إذا أراد الله عز وجل أن يبعث الخلق، أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم» (٧٨٠).

وهذا المعنى يقرب لنا صورة البعث، حيث لا ينعدم بدن الإنسان تماماً، بل يبقى منه أصل محفوظ، فإذا جاءت إرادة الله عاد إليه كما كان.

ويمكن تشبيه ذلك بالبذرة التي تُدفن في الأرض، فتبدو كأنها انتهت، لكنها في الحقيقة تبقى محفوظة، فإذا نزل عليها الماء نبتت من جديد. فكذلك الإنسان، يُعاد بناء جسده من ذلك الأصل المحفوظ بقدرة الله تعالى.

ثانياً: إن الإنسان نفسه يمرّ في نشأته الأولى بما هو أعجب من ذلك، فإنه قبل وجوده كان أجزاءً متفرقة في عناصر الطبيعة، ثم اجتمعت هذه الأجزاء بقدرة الله تعالى عبر مراحل متعددة، فصارت نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، حتى تكوّن منها إنسان كامل. بل إن هذه الأجزاء نفسها قد تفرقت أكثر من مرة قبل أن تستقر في صورتها النهائية، ومع ذلك لم يكن في اجتماعها أدنى استحالة. فإذا كان الله تعالى قد جمع هذه الذرات المتفرقة أول مرة، فلا موجب لاستبعاد جمعها مرة أخرى، بل الإعادة أهون في نظر الإنسان من

الابتداء، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧٨١).

ثالثاً: إن استبعاد إعادة الأجزاء المتفرقة ناشئ من الغفلة عن سعة العلم والقدرة الإلهية، فإن الله تعالى محيط بكل شيء علماً، لا تغيب عنه ذرة في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٧٨٢)، كما أن قدرته مطلقة لا يعجزها شيء، فجمع هذه الذرات مهما تفرقت وتبدلت ليس أمراً صعباً بالنسبة إليه، بل هو داخل تحت قدرته المطلقة التي لا حد لها.

رابعاً: إن وقوع الشيء في الخارج أقوى دليل على إمكانه، وقد أخبر القرآن الكريم بوقوع إحياء الموتى في موارد متعددة، منها:

قصة أصحاب الكهف

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرْبَنَا عَلَىٰ أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (٧٨٣).

لقد نام أصحاب الكهف سنوات طويلة تجاوزت القرون، ثم استيقظوا وكانهم لم يناموا إلا ساعات قليلة.

هذا المشهد يضع الإنسان أمام حقيقة عميقة: أن الانتقال من حال إلى حال بعد انقطاع طويل ليس أمراً مستحيلاً. فالإنسان الذي ينام ثم يستيقظ بعد زمن طويل، هو صورة مصغرة عن الموت والبعث. ومن هنا جاء التعقيب القرآني الصريح: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (٧٨٤)، أي أن هذه القصة ليست مجرد حادثة تاريخية، بل دليل على حقيقة القيامة.

❖ قصة النبي حزقيل

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۗ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۗ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۗ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۗ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۗ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۗ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٨٥﴾ .

هذا الرجل تعجب من إحياء الموتى حين رأى عظامًا متفرقة، فأراد الله أن يجيبه بالفعل لا بالقول فقط. فأماته مائة سنة، ثم أحياه، وأراه بعينه كيف تُجمع العظام المتناثرة، ثم تكسى باللحم، فتعود حيّة كما كانت.

وهنا يتحول الشك إلى يقين عملي؛ لأن القضية لم تعد فكرة ذهنية، بل مشاهدة حسّية. فالذي جمع هذه العظام بعد تفرقتها، قادر بلا شك على جمع الناس يوم القيامة.

❖ قصة النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۗ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُونَ ۗ قَالَ بَلَىٰ ۗ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۗ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۗ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٨٦﴾ .

طلب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يشاهد كيفية إحياء الموتى ليزداد اطمئنانًا، فأمره الله أن يذبح الطيور ويفرق أجزاءها على الجبال، ثم يدعوها، فعادت حيّة مجتمعة.

هذه القصة تزيل أعظم شبهة في المعاد، وهي: تفرّق الأجزاء. فالقرآن يبيّن أن تفرّق الجسد لا يمنع من إعادته، لأن الذي خلقه أول مرة،

قادر على جمعه مرة أخرى مهما تفرّق.

✽ معجزة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال تعالى: ﴿وَأَحْيِي الْمُوتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٧٨٧). لقد أجرى الله على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إحياء الموتى أمام الناس، ليكون ذلك دليلاً عملياً يشاهده الجميع. فإذا كان الإحياء قد وقع فعلاً في هذه الدنيا، وعلى مرأى من الناس، فكيف يُستبعد وقوعه يوم القيامة؟

إن وقوع الشيء مرة واحدة يكفي لإثبات إمكانه، فكيف إذا تكرر في أكثر من موضع؟

وخلاصة الجواب: إن هذه النماذج القرآنية ترسم لنا حقيقة واضحة وهي أن إحياء الموتى ليس أمراً غريباً ولا مستحيلاً، بل هو واقع قد تحقّق في الدنيا مراراً.

وأن المعاد ليس إعادةً للمعدوم كما يتوهمون، بل هو إعادة تنظيم لما هو موجود، وجمع لما تفرّق، وقد ثبت إمكان ذلك عقلاً ووقوعه خارجاً، مع قيام الدليل على سعة علم الله تعالى وقدرته، فلا يبقى مجال لاستبعاد البعث أو إنكاره.

السؤال الثاني:

ما هو مصير الأطفال يوم القيامة؟ هل يُحاسبون كما يُحاسب الكبار، أم تشملهم رحمة الله فيدخلون الجنة بدون حساب؟

الجواب:

فيما يرتبط بأطفال المؤمنين، اتفق علماء الإمامية على أنهم في رحمة الله،

وأنهم يلحقون بأبائهم المؤمنين في الجنة. وقد استدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (٧٨٨)، حيث تُحمل الذرية على إطلاقها، فتشمل الصغار والكبار، ويؤيده ما ورد في الروايات عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (٧٩٠). (٧٨٩)

كما دلَّت بعض الروايات على أن هؤلاء الأطفال يُراعون بعناية خاصة، ويُربّون تربيةً ربانيةً إلى أن يلتحقوا بأبائهم، سواء في البرزخ أو يوم القيامة. وأما من يتكفل برعايتهم، فقد وردت روايات على نحوين:

فمنها ما يدل على أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يتكفل بهم، وتشاركه في ذلك سارة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ومنها ما يشير إلى أن هذه الرعاية تكون بإشراف فاطمة الزهراء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وقد جمع العلماء بين هذه الروايات، بأن تكون الرعاية موزعة، أو يكون الإشراف لفاطمة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مع قيام غيرها بمهمة التربية. (٧٩١)

ومن أصدق الشواهد التي تُقرب هذا المعنى إلى القلوب، ما وقع عند وفاة إبراهيم بن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، من زوجته مارية القبطية. حيث توفي في اليوم الثامن عشر من شهر رجب، وقيل في آخر يوم من شهر شوال في السنة العاشرة للهجرة (٧٩٢)، وكان عمره سنةً وعشرة أشهر.

فقد روي عن أسماء بنت يزيد، أنها قالت: لما توفي ابن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إبراهيم، بكى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال له المعزّي: أنت أحق من عظم الله حقه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الربّ، ولولا أنه وعد حقّ، وموعد جامع، وأنّ الآخر للأول تابع، لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل ممّا وجدناه، وإنّا بك لمحزونون (٧٩٣).

فهنا يظهر بوضوح أن الإيمان بالمعاد لا يمنع الحزن، لكنه يضبطه ويمنحه أفقاً أوسع، لأن المؤمن يعلم أن الفراق ليس نهاية، بل هو انتقال إلى رحمة الله.

وروي أيضاً عن ابن عباس قال: كنتُ عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعلى فخذة الأيسر ابنه إبراهيم، وعلى فخذة الأيمن الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهوتارة يقبل هذا، وتارة يقبل هذا، إذ هبط جبرائيل بوحي من رب العالمين، فلما سُري عنه قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أتاني جبرائيل من ربي فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: لست أجمعهما لك، فافد أحدهما بصاحبه. فنظر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى إبراهيم فبكى، ونظر إلى الحسين فبكى، وقال: «إن إبراهيم أمه أمة ومتى مات لم يحزن عليه غيري، وأم الحسين فاطمة، وأبوه علي ابن عمي لحمي ودمي، ومتى مات حزنت ابنتي وحزن ابن عمي وحزنت أنا عليه، وأنا أوتر حزني على حزنهم»، قال: فقبض بعد ثلاث.

فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا رأى الحسين قبله وضمه إلى صدره، ورشف ثناياه وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فديتُ من فديته بابني إبراهيم» (٧٩٤).

إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد اختار ما يرضي الله، وأثر بقاء الحسين لما له من دور في حفظ الدين... فإذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد قدم ابنه إبراهيم فداءً للحسين، فإن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم عاشوراء قد قدم في سبيل الله كل أهل بيته وأصحابه، حتى أولاده، بل حتى رضيعه علي الأصغر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يا ترى كيف قدم الطفل الرضيع؟ وكيف قتلوه؟

روي أن الحوراء جاءت به إلى أخيها الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ تحمله فدفعته إليه وهي باكية وقالت: أخي خذ طفلك. قيل: فأجلسه في حجره يقبله، ويقول: بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدك المصطفى خصمهم. ثم أتى به نحو القوم

يطلب له الماء قائلاً: يا قوم قد قتلتم إخواني، وأولادي، وأنصاري، وما بقي غير هذا الطفل، وهو يتلظى عطشا من غير ديب أتاه إليكم فاسقوه شربة من الماء. فاختلف العسكر فيما بينهم، فمنهم من قال: إذا كان ذنب للكبار فما ذنب هذا الطفل؟ ومنهم من قال: أقتلوه ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية... فلما رأى ابن سعد ذلك صاح بحرمة: ويلك يا حرمة اقطع نزاع القوم، قال: فما أصنع؟ قال: ارم الطفل بسهم، قال حرمة: فرأيت رقبتك تلمع على عضد أبيه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرميت الطفل بسهمي، فذبحته من الوريد إلى الوريد فلما أحس الطفل الرضيع بحرارة السهم أخرج يديه من القماط واعتنق أباه، وجعل يرفرف كالطير المذبوح.

فملاً الحسين كفه من دمه، ورمى به نحو السماء، قائلاً: اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح (٧٩٥). (٧٩٦)

(نصاري)

اشحاله اليچتل ابحضنه اوليده	تلگه احسين دم الطفل بيده
او ذبّه للسمه او للارض ما خرّ	سال او ترس كفه من وريده
عبد الله انذبح من فوگ زنده	اشلون احسين يوم الطفل عنده
يدفنه لو يجيبه للصواوين	ظل مختار بيه احسين وحده
اشيگل العمته اشيعتذر لخته	على خدّ الطفل سالت دمعتة
ذبه للسمه او ظل بالسمه اسنين	كف ايده انترس من دم رگبتة
حنّ او دمعتة امن العين سالت	نظر طفله او رگبتة اشلون مالت
ذبح او عطش بويه ضگت الاثنين (٧٩٧)	بيويه من السهم روحك اشگالت

الهوامش

- (١) الأحزاب / ٣٩.
- (٢) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ٧ - ص ١٨٣.
- (٣) يونس / ٥٨.
- (٤) الأنعام / ١٦٢.
- (٥) يونس / ٥٨.
- (٦) تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ١ - ص ٣١٣.
- (٧) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - ص ٣٦٦.
- (٨) سفينة البحار - الشيخ عباس القمي - ج ٤ - ص ١٢٥.
- (٩) بحار الأنوار - المجلسي - ج ٣١ - ص ٦٥٣.
- (١٠) يونس / ٥٨.
- (١١) الكافي - الكليني - ج ٤ - ص ٦٥.
- (١٢) الروم / ٤.
- (١٣) مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي - ص ٧٣٧.
- (١٤) الكافي - الكليني - ج ٢ - ص ١٨٨ - ح ١.
- (١٥) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر - حسين بن محمد الحلواني - ص ٩٢.
- (١٦) القصص / ٧٦.
- (١٧) آل عمران / ١٢٠.
- (١٨) الأنعام / ١٦٢.
- (١٩) الأعراف / ٣٢.
- (٢٠) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / الاختلاط.
- (٢١) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / مجالس الأعراس.
- (٢٢) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / مجالس الأعراس.
- (٢٣) الأحزاب / ٣٣.
- (٢٤) النور / ٣١.
- (٢٥) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / الزينة - بتصرف.

- (٢٦) الكافي-الكليني-ج ٥-ص ٥٠٧.
- (٢٧) مجالس الأفرح-مركز نون للتأليف والترجمة-ص ٥٤.
- (٢٨) الإسرائاء / ٢٦-٢٧.
- (٢٩) الفرقان / ٦٧.
- (٣٠) منهاج الصالحين-السيد السيستاني-ج ٣-مسألة ٤٢٠.
- (٣١) الطلاق / ٧.
- (٣٢) آداب الاسرة في الإسلام-إصدار مركز الرسالة-ص ٦٤. نقلا عن مكارم الاخلاق: ٢٠٢.
- (٣٣) الأنعام / ١٤١.
- (٣٤) الكافي-الكليني-ج ٤-ص ٥٣.
- (٣٥) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ١٧-ص ٣١٤.
- (٣٦) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / الرقص.
- (٣٧) م.ن.
- (٣٨) م.ن.
- (٣٩) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / الغناء.
- (٤٠) فقه المغتربين وفق فتاوى السيد السيستاني-عبد الهادي الحكيم-أحكام الموسيقى والغناء والرقص-م ٥٣٩-م ٥٤٠-م ٥٤١.
- (٤١) م.ن-أحكام الموسيقى والغناء والرقص-م ٥٦١.
- (٤٢) الكافي-الكليني-ج ٦-ص ٤٣١.
- (٤٣) فقه المغتربين وفق فتاوى السيد السيستاني-عبد الهادي الحكيم-أحكام الموسيقى والغناء والرقص-م ٥٤٥.
- (٤٤) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج ٤-ص ٥٨.
- (٤٥) فقه المغتربين وفق فتاوى السيد السيستاني-عبد الهادي الحكيم-أحكام الموسيقى والغناء والرقص-م ٥٤٥.
- (٤٦) لقمان / ٦.
- (٤٧) الكافي-الكليني-ج ٦-ص ٤٣٢.
- (٤٨) الحج / ٣٠.
- (٤٩) الوسائل-الحر العاملي-ج ١٢-ص ٢٢٧ ح ٨.
- (٥٠) الفرقان / ٧٢.
- (٥١) عيون أخبار الرضا-الشيخ الصدوق-ج ٢-ص ١٢٨.

- (٥٢) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ١٢-ص ٢٣١.
- (٥٣) مكتب سماحة السيد السيستاني/sistani.org/ الاستفتاءات/ مجالس الأعراس.
- (٥٤) كسماحة السيد الخوئي وسماحة السيد الخامنئي قدس الله سرهما.
- (٥٥) مجالس الأفراح-مركز نون للتأليف والترجمة-ص ٣٤-نقلًا عن أجوبة الاستفتاءات، الإمام علي الخامنئي-ج ٢-ص ٢٢.
- (٥٦) الإسرائ/ ٨٥.
- (٥٧) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٦-ص ٤٣١.
- (٥٨) البقرة/ ٢١٩.
- (٥٩) زاد المبلغات-مياسة شيع-ج ٤-المحاضرة الأولى بعنوان: «الغناء سعادة أم شقاء».
- (٦٠) يس/ ٨-٩.
- (٦١) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٧٩-ص ٢٤٧.
- (٦٢) الذنوب الكبيرة-عبد الحسين دستغيب-ج ١-ص ٢٧٦.
- (٦٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٦-ص ٤٣١.
- (٦٤) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٦-ص ٤٣٣.
- (٦٥) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ١٢-ص ٢٢٦.
- (٦٦) دعائم الإسلام-القاضي نعمان-ج ٢-ص ٢١٠.
- (٦٧) النساء/ ١.
- (٦٨) جامع السعادات-الملا مهدي النراقي-ج ٣-ص ٧٥.
- (٦٩) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٢-ص ٣٧٤.
- (٧٠) مكتب سماحة السيد السيستاني/sistani.org/ الاستفتاءات/ الغناء.
- (٧١) الرعد/ ١١.
- (٧٢) الكافي-الكليني-ج ٦-ص ٤٣٢.
- (٧٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٢-ص ٤٣٥.
- (٧٤) المائة/ ٣٩.
- (٧٥) الكافي-الكليني-ج ٢-ص ٦١٤.
- (٧٦) التحريم/ ٦.
- (٧٧) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج ٦-ص ١٤٩.
- (٧٨) الفِطْر: هو الإفطار بعد الصيام، أي الانتهاء من الصوم والرجوع إلى الأكل.
- (٧٩) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج ٦-ص ١٥٤.

- (٨٠) الشاعر هو مثنى ابراهيم دهام.
- (٨١) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٤ - ص ١٧٠.
- (٨٢) مجمع مصائب أهل البيت ع - الشيخ الهنداوي - ج ٤ - ص ١٤١.
- (٨٣) مجمع مصائب أهل البيت ع - الشيخ الهنداوي - ج ٤ - ص ١٤١.
- (٨٤) الحجرات / ١٣.
- (٨٥) الحقوق الاجتماعية - مركز الرسالة - ص ١٧ - بتصرف.
- (٨٦) الإسرائء / ٧٠.
- (٨٧) الحجرات / ١٣.
- (٨٨) المنافقون / ٨.
- (٨٩) نهج البلاغة: الحكمة ١١٣.
- (٩٠) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ٢٠ - ص ٩٩.
- (٩١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ - ص ٤٢٥.
- (٩٢) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ٢٠ - ص ٩٩.
- (٩٣) النور / ٣١.
- (٩٤) الأحزاب / ٥٩.
- (٩٥) ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - ص ٢٠٠٩.
- (٩٦) ميزان الحكمة - الريشهري - ج ٣ - ص ٢٠٠٨.
- (٩٧) البروج / ١١.
- (٩٨) كنز العمال - المتقي الهندي - ج ٣ - ص ٤٢١.
- (٩٩) الأحزاب / ٥٣.
- (١٠٠) الأحزاب / ٥٩.
- (١٠١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ - ص ٢٠٥.
- (١٠٢) مستدرک الوسائل - الميرزا النوري - ج ١٥ - ص ١١٥.
- (١٠٣) الواقعة / ٢٣، رغم إن هذه الآية هي وصف لحوار العين، إلا أن هناك نصوصاً روائية تثبت بأن الزوجة الصالحة ستكون في الجنة أجمل من حوار العين، ولذا أقل وصف ينطبق على الزوجة الصالحة هو أنها كأمثال اللؤلؤ المكنون.
- (١٠٤) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق - ص ١٤٤ / ١.
- (١٠٥) ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٤ - ص ٣٢٨١.
- (١٠٦) التين / ٤.

- (١٠٧) غافر/ ٦٤.
- (١٠٨) غرر الحكم: ٤٧٤٧. مروى عن أمير المؤمنين عليه السلام.
- (١٠٩) غرر الحكم: ٤٧٤٨. مروى عن أمير المؤمنين عليه السلام.
- (١١٠) مأخوذ من بحث بعنوان (عوامل الإثارة في صورة المرأة وأثرها في تكوين مستويات مختلفة من الاستهلاكات الإعلانية) قد شارك البحث في مؤتمر الفن وثقافة الآخر، محور أخلاقيات الصورة- للدكتور فيصل العمري - جامعة فيلادلفيا-الأردن.
- (١١١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ١١ - ص ٨٣.
- (١١٢) الكهف/ ١٨.
- (١١٣) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق - ج ٣ - ص ٣٩٠.
- (١١٤) الطلاق/ ٢-٣.
- (١١٥) U.N.: ٢.٤ million human trafficking victims". USA Today. USA Today. ٤
- أبريل ٢٠١٢. مؤرشف من الأصل في ٢٠١٧-٠٨-٢٨. اطلع عليه بتاريخ ٢٠١٥-٠٣-١٧.
- (١١٦) «ILO ٢٠١٢ Global estimate of forced labour - Executive summary» International Labour Organization (PDF). مؤرشف من الأصل (PDF) في ٢٠١٩-٠٥-٢١. اطلع عليه بتاريخ ٢٠١٥-٠٣-٢٨.
- (١١٧) نهج البلاغة: الحكمة: ٢٣٤.
- (١١٨) نهج البلاغة- الحكمة: ٤٧٤.
- (١١٩) الأحزاب/ ١٠.
- (١٢٠) صحيح البخاري- البخاري- ج ٤ - ص ٢٢٥.
- (١٢١) ينابيع المودة- القندوزي- ج ١ - ص ٢٨١.
- (١٢٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب- ج ٢ - ص ٣٢٥.
- (١٢٣) أحكام القرآن- ابن العربي- ج ٣ - ص ٥٤٦.
- (١٢٤) تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي- ج ١٣ - ص ١٩.
- (١٢٥) ينابيع المودة- القندوزي- ج ١ - ص ٤١٢.
- (١٢٦) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب- ج ٢ - ص ٣٢٥.
- (١٢٧) ٣٢.
- (١٢٨) كمال الدين وتمام النعمة- الشيخ الصدوق- ص ٤٨١-٤٨٢.
- (١٢٩) التوبة/ ٣٣.
- (١٣٠) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري- ج ٤ - ص ٤٦٤-٥٥٧.

- (١٣١) ينابيع المودة-القندوزي-ج ٣-ص ٢٩٦.
- (١٣٢) «الْبَاء» هو جمع لبيب، ومعناه: العقلاء الفُطَنَاء أصحاب اللبِّ (العقل).
- (١٣٣) الأسباط هم: ذرية الأنبياء أو جماعات من نسل يعقوب عليه السلام.
- (١٣٤) يوسف/ ٩٠.
- (١٣٥) الغيبة-النعمان-ص ١٦٧.
- (١٣٦) الكافي-الشيخ الكليني-ج ١-ص ٣٣٣.
- (١٣٧) الكافي-الكليني-ج ١-ص ٤٤٠-ح ٣٠.
- (١٣٨) راجع: موسوعة الإمام المهدي (ع) — تاريخ الغيبة الكبرى — الفصل السابع-بتصرف.
- (١٣٩) البحار-المجلسي-ج ٥٢-ص ٩٣-ح ٨.
- (١٤٠) راجع: زاد المبلِّغات-مياسة شعب-ج ٧-المحاضرة المعنونة ب: الفائدة من غيبة الإمام المهدي عج.
- (١٤١) ميزان الحكمة -محمد الريشهري-ج ١-ص ١١٨.
- (١٤٢) النساء/ ١٦٥.
- (١٤٣) الاحتجاج -الشيخ الطبرسي-ج ٢-ص ٢٨٣.
- (١٤٤) الاحتجاج -الشيخ الطبرسي-ج ٢-ص ٣٢٣.
- (١٤٥) التوبة/ ١٠٥.
- (١٤٦) الاحتجاج -الشيخ الطبرسي-ج ٢-ص ٣٢٣.
- (١٤٧) بصائر الدرجات -محمد بن الحسن الصفار-ص ٣٥١.
- (١٤٨) بحار الأنوار -العلامة المجلسي-ج ٢-ص ٦.
- (١٤٩) النازعات/ ٥.
- (١٥٠) الغيبة -محمد بن إبراهيم النعماني-ج ١-ص ٢١٢.
- (١٥١) النور/ ٥٥.
- (١٥٢) كمال الدين وتمام النعمة-الشيخ الصدوق-ص ٤٨١-٤٨٢.
- (١٥٣) أغلب الأسباب مضمونها مأخوذ المصدر التالي: المكتبة المهديّة / m-mahdi.net
- البحوث والمقالات/ أسباب غيبة الإمام المهدي (عجل الله فرجه) -بقلم: الشيخ علي الفياض- بتصرف.
- والمصادر الأخرى سنشير إليها في الأسباب.
- (١٥٤) البقرة/ ٤٩.
- (١٥٥) الغيبة-الشيخ الطوسي-ص ٣٣٢.

- (١٥٦) كمال الدين وتمام النعمة-الشيخ الصدوق-ص ٣٦١.
- (١٥٧) الشعراء/ ٢١.
- (١٥٨) القصص/ ٢١.
- (١٥٩) فقه علائم الظهور-الشيخ محمد السند-ص ٥٩.
- (١٦٠) النساء/ ٦٥.
- (١٦١) وزدناهم هدى-إعداد مركز نون للتأليف والترجمة-ص ٤٤.
- (١٦٢) بحار الأنوار-الشيخ محمد باقر المجلسي-ج ٤٤-ص ٣٨٢.
- (١٦٣) كنز العمال-المتقي الهندي-ج ١٤-ص ٥٩١.
- (١٦٤) النساء/ ٦٥.
- (١٦٥) الشيخ الكليني-الكافي-ج ١-ص ٣٩٠.
- (١٦٦) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٤٧-ص ١٢٣.
- (١٦٧) العنكبوت/ ٢.
- (١٦٨) البقرة/ ٢.
- (١٦٩) الزؤان: ما ينبت غالباً بين الحنطة.
- (١٧٠) الغيبة-النعمانى-ص ٢١٣.
- (١٧١) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٥٢ ص ١٤٥.
- (١٧٢) الإمامة والتبصرة- بن بابويه القمي-ص ١١٦.
- (١٧٣) كمال الدين تمام النعمة-الشيخ الصدوق-ص ٣١٦.
- (١٧٤) م.ن-ص ٣٢٢.
- (١٧٥) م.ن-ص ٤٨١-٤٨٢.
- (١٧٦) الشورى/ ٢٧.
- (١٧٧) شمس خلف السحاب-الشيخ الكوراني-ص ٣٠-بتصرف.
- (١٧٨) تحف العقول عن آل الرسول (ص)-ابن شعبة الحراني-ص ٤٤٨.
- (١٧٩) إبراهيم/ ٢٨.
- (١٨٠) الكافي-الشيخ الكليني-ج ١-ص ٢١٧.
- (١٨١) يس/ ٣٠.
- (١٨٢) الغيبة-الشيخ النعماني-ص ١٤٤.
- (١٨٣) الأنفال/ ٢٥.
- (١٨٤) وسائل الشيعة-الحرّ العاملي-ج ١٦-ص ١٤٦.

(١٨٥) نُسب مضمون مثال «المصاييح» إلى السيد الخوئي رحمه الله، وقيل إنه نُقل عن الشيخ محسن قرائتي حفظه الله.

(١٨٦) الأعراف / ١٢٨.

(١٨٧) الغيبة-الشيخ الطوسي-ص ٤٧٢.

(١٨٨) الغيبة-النعمانى-ج ١-ص ٢٨٠-رقم الحديث ٥٣.

(١٨٩) بريد: أي رسول يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه.

(١٩٠) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٥٢-ص ٣٣٦.

(١٩١) مختصر بصائر الدرجات-ص ١٨١.

(١٩٢) الرعد / ١١.

(١٩٣) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٥٢-ص ٣٣٩.

(١٩٤) مناقب آل أبي طالب-ابن شهر آشوب-ج ٣-ص ٣٦٣.

(١٩٥) شمس خلف السحاب-ماهر آل شبر-ص ٥٣-٦٧-بتصرف.

(١٩٦) راجع: زاد المبلِّغات-مياسة شعب-ج ١٢-المحاضرة المعنونة ب: «دور المكلفين في التمهيد

للظهور».

(١٩٧) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج ١-ص ٢٦٠-٢٦١.

(١٩٨) الشهيد مسلم بن عقيل للمقرم ص ٢١٠ (فائدة) من البيت الأول إلى البيت الخامس

للمرحوم قاسم الملا الحلي، وما عدا ذلك فهو للسيد باقر الموسوي الهندي.

(١٩٩) أطائب الكلم في بيان صلة الرحم-الشيخ حسن الكركي-ص ٣٠.

(٢٠٠) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية /

أحكام صلة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع.

(٢٠١) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / صلة الأرحام.

(٢٠٢) ذلك تعني: طلق.

(٢٠٣) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٢-ص ١٥٦.

(٢٠٤) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٢-ص ١٥١.

(٢٠٥) تحف العقول-ابن شعبة البحراني-ص ٥٧.

(٢٠٦) الكافي-الشيخ الكليني-ج ٢-ص ١٥١.

(٢٠٧) سنن الترمذي-الترمذي-ج ٢-ص ٣٩-٦٥٨.

(٢٠٨) الميزان في تفسير القرآن-العلامة الطباطبائي-ج ١٣-ص ١١٨.

(٢٠٩) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٧١-ص ٣١٠.

- (٢١٠) الكافي-الكليني-ج٢-ص ١٥٢.
- (٢١١) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص ٢٢٥.
- (٢١٢) أمالي الطوسي-ص ٤٨١.
- (٢١٣) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج٤-ص ١٦.
- (٢١٤) أصول الكافي-الشيخ الكليني-ج٢، ص ١٥٥.
- (٢١٥) الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص ٣٤٧-ج٧.
- (٢١٦) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج١٢-ص ٢٧٣-ج١٦٢٨٧.
- (٢١٧) كنز العمال-المتقي الهندي-ج٣-ص ٣٦٧-ج٦٩٧٤.
- (٢١٨) الكافي، الشيخ الكليني-ج٢-ص ١٥١.
- (٢١٩) أصول الكافي-الشيخ الكليني-ج٢-ص ١٥٥-ج١١.
- (٢٢٠) الرعد/ ٢٥.
- (٢٢١)
- (٢٢٢) راجع: صلة الرحم-موفق هاشم الرحال-ص ٣١-٣٨-بتصرف.
- (٢٢٣) سنن الترمذي-الترمذي-ج٤-ص ٦٥٩.
- (٢٢٤) موسوعة شهادة المعصومين (ع)-لجنة الحديث في معهد باقر العلوم (ع)-ج٣-ص ١٣٨.
- (٢٢٥) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية / أحكام صلة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع-بتصرف في صياغة السؤال.
- (٢٢٦) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية / أحكام صلة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع-بتصرف في صياغة السؤال.
- (٢٢٧) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية / أحكام صلة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع-بتصرف في صياغة السؤال.
- (٢٢٨) مرآة الكمال-الشيخ المامقاني-ج١-ص ٧٠.
- (٢٢٩) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج٢-ص ٦٨-ج١٧٤٠.
- (٢٣٠) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / صلة الأرحام
- (٢٣١) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية / أحكام صلة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع.
- (٢٣٢) الخصال-الشيخ الصدوق-١٨٣.
- (٢٣٣) الكافي-الكليني-ج٢-ص ٤٨٤.
- (٢٣٤) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية /

- أحكام صلاة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع-بتصرف في صياغة السؤال.
 (٢٣٥) شبكة السراج / alseraj.net / فتاوى سماحة السيد السيستاني / أحكام العلاقات الأسرية /
 أحكام صلاة الأرحام-استفتاءات موقع مكتب المرجع-بتصرف في صياغة السؤال.
 (٢٣٦) الذنوب الكبيرة-دستغيب-ج١-ص١٦٤.
 (٢٣٧) جرت هذه الحادثة في إحدى مناطق عامرية الفلوجة المطلّة على نهر الفرات بحسب ما نقل لنا
 بعض الأشخاص عن ينتمي إلى تلك المناطق جغرافياً واجتماعياً وعشائرياً. نقلاً عن كتاب: كتاب:
 صلة الرحم-موفق هاشم الرحال-ص٣٧.
 (٢٣٨) فصلت / ٣٤.
 (٢٣٩) آل عمران / ١٥٩.
 (٢٤٠) حديث « ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله.
 المصدر: مجموعة ورام-الشيخ ورام-ج١-ص٥١.
 (٢٤١) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / صلة الأرحام.
 (٢٤٢) الإمام الجواد ع-عبد الرزاق المقرم-ص٧٥.
 (٢٤٣) بعض الوصايا مضمونها مستنتج من كتاب: صلة الرحم-موفق هاشم الرحال-١٥-٢٠-
 بتصرف.
 (٢٤٤) تلخيص التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف-السيد علي الحسيني الميلاني-ص٧٧.
 (٢٤٥) تفسير العياشي-العياشي-ج٢-ص٢١٨.
 (٢٤٦) م.ن.
 (٢٤٧) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٣٦-ص٩.
 (٢٤٨) الشورى / ٢٣.
 (٢٤٩) تفسير الإمام العسكري (ع)-المنسوب إلى الإمام العسكري (ع)-ص٣٣٣.
 (٢٥٠) م.ن.
 (٢٥١) العوالم، السيدة الزهراء (س)-الشيخ عبد الله البحراني-ص٨٦٧.
 (٢٥٢) البرهان في تفسير القرآن-السيد هاشم البحراني-ج٤-ص٣٠٧.
 (٢٥٣) م.ن.
 (٢٥٤) تاريخ النهضة الحسينية-معهد سيد الشهداء عليه السلام للمنبر الحسيني-ص٨٥-١٠٠-
 بتصرف.
 (٢٥٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص٢٥٢-٢٥٣.
 (٢٥٦) الأعراف / ٢٠١.

- (٢٥٧) فاطر/ ٦.
- (٢٥٨) المائة/ ٩١.
- (٢٥٩) مركز الأبحاث العقائدية/aqaed.net/ الأسئلة والأجوبة العقائدية / الشيطان/ معنى الشيطان، وحقيقة النفس الأمانة.
- (٢٦٠) مركز الرصد العقائدي/ alrasd.net / الأسئلة والأجوبة/ ما هو الفرق بين الجن والشيطان؟-بتصرف.
- (٢٦١) تفسير الكاشف-محمد جواد مغنية-ج٢-ص٢٠٧-٢٠٨.
- (٢٦٢) الأنعام/ ١١٢.
- (٢٦٣) الذاريات/ ٥٦.
- (٢٦٤) الجن/ ١١.
- (٢٦٥) الجن/ ١٤.
- (٢٦٦) الرحمن/ ١٥.
- (٢٦٧) الاعراف/ ٢٧.
- (٢٦٨) الحجر: ٢٦.
- (٢٦٩) «بنيانهم الجسمي في منتهى اللطافة» المقصود أن أجسامهم ليست مادية كثيفة، بل خفيفة غير محسوسة كالأجسام المعتادة.
- (٢٧٠) النمل/ ٣٩.
- (٢٧١) الاستعاذة-عبد الحسين دستغيب-ص١٦-بتصرف.
- (٢٧٢) الأمالي-الشيخ الطوسي-ص٤.
- (٢٧٣) مناقب أبي طالب-ابن شهرآشوب-ج٣-ص٢٧٧.
- (٢٧٤) مركز الأبحاث العقائدية/aqaed.net/ الأسئلة والأجوبة العقائدية / الشيطان/ هل يتمثل إبليس بهيئة البشر؟-بتصرف.
- (٢٧٥) مركز الأبحاث العقائدية/aqaed.net/ الأسئلة والأجوبة العقائدية / الشيطان/ معلومات عن الشيطان -بتصرف.
- (٢٧٦) الكهف/ ٥٠.
- (٢٧٧) الأعراف/ ١٢.
- (٢٧٨) ص/ ٧٦.
- (٢٧٩) الكهف/ ٥٠.
- (٢٨٠) البقرة/ ٣٤.

- (٢٨١) ص / ٧٧-٧٨.
- (٢٨٢) ص / ٧٩.
- (٢٨٣) الأعراف / ١٥.
- (٢٨٤) الأعراف / ٢٠.
- (٢٨٥) البقرة / ٣٦.
- (٢٨٦) الأنعام / ١١٢.
- (٢٨٧) الإسراء / ٢٧.
- (٢٨٨) البقرة / ١٤.
- (٢٨٩) النساء / ٧٦.
- (٢٩٠) إبراهيم / ٢٢.
- (٢٩١) يس / ٦٠.
- (٢٩٢) فاطر / ٦.
- (٢٩٣) الروم / ٣٠.
- (٢٩٤) فصلت / ٣٠.
- (٢٩٥) الأنعام / ١٦٠.
- (٢٩٦) الزمر / ٥٣.
- (٢٩٧) إبراهيم / ٢٢.
- (٢٩٨) العنكبوت / ٢.
- (٢٩٩) إبراهيم / ٥١.
- (٣٠٠) العنكبوت / ٦٩.
- (٣٠١) الأعراف / ٢٧.
- (٣٠٢) التكاثر / ٥-٦.
- (٣٠٣) الإسراء / ٦٤.
- (٣٠٤) طه / ٧٤.
- (٣٠٥) التوبة / ٨١.
- (٣٠٦) مواقف الشيعة-علي الأحمدي الميانجي-ج ٢-ص ٢٩٢-٢٩٣.
- (٣٠٧) الاستعاذة-دستغيب-ص ٣٣.
- (٣٠٨) النحل / ٦٣.
- (٣٠٩) لقمان / ٣٣.

- (٣١٠) المنافقون / ١٠.
- (٣١١) الحديد / ٢١.
- (٣١٢) النور / ١٥.
- (٣١٣) المجادلة / ١٩.
- (٣١٤) الزبدة الفقهية في شرح الروضة البهية- السيد محمد حسن الترحيني العاملي- ج ٢- ي ٢٦٤.
- (٣١٥) الزمر / ٥٣.
- (٣١٦) يوسف / ٨٧.
- (٣١٧) ميزان الحكمة- الريشهري- ج ١- ص ٢٦٩.
- (٣١٨) النحل / ٤٣.
- (٣١٩) الأمالي- الطوسي- ص ٣٣٩.
- (٣٢٠) نهج الفصاحة- أبو القاسم پاينده- ص ٤٨١.
- (٣٢١) غرر الحكم: ح ٩٥٠.
- (٣٢٢) دعائم الإسلام- القاضي النعمان- ج ٢- ص ٢١٤.
- (٣٢٣) عقاب الأعمال- الشيخ الصدوق- ٢٣٠.
- (٣٢٤) تحف العقول- بن شعبة الحراني- ص ٣٠٢.
- (٣٢٥) تحف العقول- بن شعبة الحراني، ص ٣٠٢.
- (٣٢٦) مسند الإمام الصادق ع- عزيز الله العطاردي- ج ٦- ص ٢٨.
- (٣٢٧) الفجر / ٢٠.
- (٣٢٨) شرح أصول الكافي- المولى محمد صالح المازندراني- ج ٩- ص ٣٣٧.
- (٣٢٩) التغابن / : ١٥.
- (٣٣٠) نهج البلاغة- الكتاب: ٥٣.
- (٣٣١) نهج البلاغة- الكتاب: ٦٩.
- (٣٣٢) نهج البلاغة- الكتاب: ٧٦.
- (٣٣٣) آل عمران / ١٣٤.
- (٣٣٤) زاد المبلغات- مياسة شيع- ج ١- المحاضرة السابعة، بعنوان «كيف نتحكم بالغضب؟».
- (٣٣٥) النساء / ٥٤.
- (٣٣٦) أربعون حديثاً في مكارم الأخلاق- والد البهائي العاملي- ص ٨١.
- (٣٣٧) بحار الأنوار- المجلسي- ج ٧٠- ص ١٥٥.
- (٣٣٨) البقرة / ٣٤.

- (٣٣٩) موسوعة الكسنزان-الشيخ محمد الكسنزاني الحسيني-ج ١٩-ص ٢١.
- (٣٤٠) النحل / ٢٣.
- (٣٤١) شرح نهج البلاغة-السيد عباس علي الموسوي-ج ٢-ص ١٥.
- (٣٤٢) محاسن الكلم-مركز نون للتأليف والترجمة-ص ٥٠.
- (٣٤٣) الأعراف / ٢٠١.
- (٣٤٤) الأعراف / ٢٠١.
- (٣٤٥) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج ٣-ص ٢٩٦.
- (٣٤٦) النحل / ٩٩.
- (٣٤٧) الزمر / ٢.
- (٣٤٨) ص / ٨٢-٨٣.
- (٣٤٩) الأعراف / ٥٥.
- (٣٥٠) العنكبوت / ٤٥.
- (٣٥١) تفسير العياشي-العياشي-ج ١-ص ٤٣.
- (٣٥٢) النور المبين في فضل الصلاة على محمد وآله الطاهرين-سيد حسين طالب-ص ١٣٢.
- (٣٥٣) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٥-ص ٣١٨،
- (٣٥٤) الكافي-الكليني-ج ٤-ص ٦٢.
- (٣٥٥) البقرة / ٢٦٨.
- (٣٥٦) نوادر وطرائف النساء-عبد الرسول زين الدين-إبليس والنساء-بتصرف.
- (٣٥٧) موسوعة معارف الكتاب والسنة-محمد الريشهري-ج ٣-ص ١٣٤. نقلا عن حلية الأولياء-ج ٨-ص ١٤٨-الرقم ٤٠٦.
- (٣٥٨) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج ٢-ص ٦٨-ح ٢٦٩.
- (٣٥٩) وقعة صفين-نصر بن مزاحم المنقري-ص ٤٨٩.
- (٣٦٠) موقع الشيعة / ar.al-shia.org / النبي وأهل بيته / الإمام علي (ع) / حروبه وغزواته / معركة صفين ومساعي الإمام علي (ع)-بتصرف.
- (٣٦١) المنتخب-فخر الدين الطريحي-ص ٤٨٧.
- (٣٦٢) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج ٣-ص ١٧٢-١٧٣.
- (٣٦٣) البقرة / ٢٠٦.
- (٣٦٤) الكافي-الكليني-ج ٨-ص ٢٣٤.
- (٣٦٥) الأخلاق البيتية-الأستاذ مظاهري-ص ١٨١-١٨٣.

- (٣٦٦) البقرة/٢٠٦.
- (٣٦٧) النمل/١٤.
- (٣٦٨) الأنفال/٣٢.
- (٣٦٩) غرر الحكم: ح ٣٥٨.
- (٣٧٠) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٧٤-ص ٦٧.
- (٣٧١) غرر الحكم ٣٧٣٨.
- (٣٧٢) هود/١١٢.
- (٣٧٣) آل عمران/٢٠٠.
- (٣٧٤) المائدة/٤٤.
- (٣٧٥) آل عمران/١٣٩.
- (٣٧٦) آل عمران/١٠٣.
- (٣٧٧) الأحزاب/٢٣.
- (٣٧٨) البقرة/٢٠٦.
- (٣٧٩) البقرة/٢٠٦.
- (٣٨٠) المنافقون/٨.
- (٣٨١) البقرة/٢٠٦.
- (٣٨٢) إبراهيم/١٥.
- (٣٨٣) ق/٢٤.
- (٣٨٤) المدثر/١٦.
- (٣٨٥) لمسات تربوية-مياسة شبع-ج ٣-قيمة التحكم بالغضب في مرحلة الطفولة المبكرة.
- (٣٨٦) موسوعة أحاديث أهل البيت ع-الشيخ هادي النجفي-ج ٥-٣٠٥ ص.
- (٣٨٧) غرر الحكم-الأمدي التميمي-ح ٣٥٨.
- (٣٨٨) غرر الحكم-الأمدي التميمي-ح ٣٥٨.
- (٣٨٩) غرر الحكم-الأمدي التميمي-٨١١٥، ٤٧٩٥.
- (٣٩٠) غرر الحكم-الأمدي التميمي-ح ٣٥٨.
- (٣٩١) نزهة الناظر وتنبیه الخاطر-الحلواني-ص ١٤٠.
- (٣٩٢) غرر الحكم-الأمدي التميمي-ح ٣٥٨.
- (٣٩٣) الراكس: هو الذي انتكس وانقلب عن الحق إلى الباطل، أي تراجع عن الهداية بعد أن ظهرت له، فصار حاله أسوأ مما كان عليه.

- (٣٩٤) دائرة السوء: أي أن البلاء والشر يجيطان به ويلازمانه، فيدور في دائرة من النتائج السيئة والآثار المؤلمة بسبب عناده وتماديته في الخطأ.
- (٣٩٥) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ١ - ص ١٤٢.
- (٣٩٦) غرر الحكم - الأمدي التميمي - ح ٣٥٨.
- (٣٩٧) غرر الحكم - الأمدي التميمي - الحكمة ٧٠٨٧.
- (٣٩٨) غرر الحكم - الأمدي التميمي - ٢٤٧٢.
- (٣٩٩) لمسات تربوية - مياسة شيع - ج ٢ - عن الثقة بالنفس.
- (٤٠٠) البقرة / ٢٨٥.
- (٤٠١) البقرة / ٩٣.
- (٤٠٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - قطب الدين الراوندي - ج ٣ - ص ٣٧٤.
- (٤٠٣) الجاثية / ٢٣.
- (٤٠٤) الأحزاب / ٣٦.
- (٤٠٥) لمسات تربوية - مياسة شيع - ج ٢٢ - أساليب التربية بالعقاب.
- (٤٠٦) غرر الحكم ودرر الكلم - عبد الواحد الأمدي - ج ١ - ص ٣٦٤.
- (٤٠٧) الحجرات / ١٣.
- (٤٠٨) الملكة هي صفة راسخة وثابتة في النفس، تصبح معها الأفعال تصدر بسهولة ومن غير تكلف.
- (٤٠٩) يس / ١٢.
- (٤١٠) غرر الحكم - الأمدي التميمي - ١٠٧٨.
- (٤١١) إبراهيم / ١٥.
- (٤١٢) وسائل الشيعة - الحر العاملي - ج ٨ - ص ٤٢٥.
- (٤١٣) م.ن - ج ٨ - ص ٤٢٦.
- (٤١٤) إبراهيم / ٥.
- (٤١٥) شبكة المعارف الإسلامية / almaaref.org / محطات إسلامية / مناسبات الأشهر الهجري / شوال / مناسبات شهر شوال.
- (٤١٦) حنين واد قرب الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال، أو بضعة عشر ميلاً.
- (٤١٧) التوبة / ٢٥-٢٦.
- (٤١٨) موسوعة أهل البيت ع - السيد علي عاشور - ج ١٠ - ص ١٣.
- (٤١٩) مجمع مصائب أهل البيت ع - الشيخ الهنداوي - ج ٢ - ص ١٢٩.

- (٤٢٠) الكهف/ ٢١.
- (٤٢١) لسان العرب: مادة (بقع).
- (٤٢٢) فاجعة البقيع-الشيخ جلال معاش-ص٧٧.
- (٤٢٣) عثمان بن مظعون: كان من أوائل مَنْ أسلم، وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة، وشهد بدرًا، وكان شجاعاً مقداماً، عنيداً في نصره الحق، وعُرف بعبادته فكان في النهار صَوَّاماً، وفي الليل قَوَّاماً. توفي في شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة، فكان أول مَنْ دُفن في البقيع.
- (٤٢٤) الكافي-الكليني-ج ٣-ص ٢٦٣.
- (٤٢٥) الكافي-الكليني-ج ٣-ص ٢٤١.
- (٤٢٦) مركز الإشعاع الإسلامي / islam4u.com / المجيب / متى تأسست مقبرة البقيع الغرقدا؟ -بقلم الشيخ صالح الكرياسي-بتصرف.
- (٤٢٧) إحياء العلوم-الغزالي-ج ٤-ص ٥٢١.
- (٤٢٨) موقع الشيعة / ar.al-shia.org / الشيعة / ما يتعلق بالشيعة / أهمية زيارة القبور ومشروعيتها خلافا لابن تيمية.
- (٤٢٩) البراهين الجلية في رفع تشكيكات الوهابية-السيد محمد حسن القزويني الحائري-ص ٦٤.
- (٤٣٠) التوبة/ ٨٤.
- (٤٣١) التوبة/ ٨٤.
- (٤٣٢) مركز الإشعاع الإسلامي / islam4u.com / شبهات وردود/ القرآن وجواز زيارة قبور المؤمنين-بقلم الشيخ ناصر مكارم الشيرازي-بتصرف.
- (٤٣٣) سنن ابن ماجه-ابن ماجه-ج ١-ص ١١٤.
- (٤٣٤) صحيح ابن حبان-ابن حبان-ج ٣-ص ٢٦١-رواية رقم: ٩٨١.
- (٤٣٥) التوبة/ ١١٣.
- (٤٣٦) وفاء الوفاء-السمهودي-ج ٤-ص ١٣٤٠.
- (٤٣٧) م.ن-ج ٤-ص ١٣٤٢.
- (٤٣٨) صحيح مسلم-مسلم النيسابوري-ج ٣-ص ٦٤-باب ما يقال عند دخول القبور.
- (٤٣٩) م.ن-ج ٣-ص ٦٥-باب ما يقال عند دخول القبر.
- (٤٤٠) م.ن-ج ٣-ص ٦٥-باب استئذان النبي ربّه عزّ وجلّ في زيارة قبر أمّه.
- (٤٤١) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج ٢-ص ٥٧٤، في الهامش.
- (٤٤٢) الأحزاب/ ٢١.
- (٤٤٣) من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج ١-ص ١٨٠.

- (٤٤٤) بحار الأنوار-المجلسي-ج٢٧-ص١١٢.
- (٤٤٥) المقنعة-الشيخ المفيد-ص٤٦٢.
- (٤٤٦) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٩٨-ص٧٢.
- (٤٤٧) كامل الزيارات-ابن قولويه القمي-ص٣١٣.
- (٤٤٨) م.ن-ص٣١٩.
- (٤٤٩) بحار الأنوار-المجلسي-ج١٠٢-ص٢٩٥.
- (٤٥٠) المستدرک علی الصحیحین-الحاکم النیسابوری-ج٤-ص٥١٥.
- (٤٥١) كشف الارتياب-الأمين-ص٤٣٦، نقلًا عن تحفة ابن عساكر.
- (٤٥٢) «فنودي من القبر»، أي صدر نداءً من جهة القبر.
- (٤٥٣) وفاء الوفاء-السمهودي-ج٢-ص١٣٦١.
- (٤٥٤) موقع الشيعة/ar.al-shia.org/ الشيعة/ ما يتعلق بالشيعة/ أهمية زيارة القبور ومشروعيتها خلافا لابن تيمية.
- (٤٥٥) صحيح مسلم-مسلم النيسابوري-ج٤-ص١٢٦-كتاب الحج، باب لا تشد الرحال.
- (٤٥٦) صحيح البخاري-محمد بن إسماعيل البخاري-ج٢-ص٧٦.
- (٤٥٧) مركز الأبحاث العقائدية/aqaed.net/ الأسئلة والأجوبة العقائدية / زيارة القبور وزيارات الأئمة (عليهم السلام)-بحث حول حديث (لا تشد الرحال الآ...)-بتصرف.
- (٤٥٨) البراهين الجلية في رفع تشكيكات الوهابية-السيد محمد حسن القزويني الحائري-ص٦٥.
- (٤٥٩) مستدرک الوسائل-الميرزا النوري-ج١٢-ص٣٢٤.
- (٤٦٠) التوحيد والشرك في القرآن الكريم-الشيخ جعفر سبحاني-ص٧١.
- (٤٦١) ^٥ الاعراف/١٨٨.
- (٤٦٢) ^٥ الأسماء الثلاثة-الشيخ جعفر سبحاني-ص٦١.
- (٤٦٣) يوسف/٩٧.
- (٤٦٤) يوسف/٩٨.
- (٤٦٥) النساء/٦٤.
- (٤٦٦) المائدة/٣٥.
- (٤٦٧) المعجم الصغير-الطبراني-ج١-ص٣٠٧، ومجمع الزوائد-الهيثمي-ج٢-ص٢٧٩.
- (٤٦٨) صحيح البخاري-البخاري-باب صلاة الاستسقاء-ج٢-ص٣٢-ح٩٤٧.
- (٤٦٩) آل عمران/١٦٩-١٧١.
- (٤٧٠) يس/٢٦-٢٧.

- (٤٧١) ق/٢٢.
- (٤٧٢) الميزان في تفسير القرآن-السيد الطباطبائي-ج١٨-ص٣٧٩.
- (٤٧٣) الأعراف/٧٨-٧٩.
- (٤٧٤) الصافات/٧٩
- (٤٧٥) الصافات/١٠٩
- (٤٧٦) الصافات/١٢٠
- (٤٧٧) الصافات/١٣٠
- (٤٧٨) الصافات/١٨١.
- (٤٧٩) سنن أبي داود-السجستاني-ج١-ص٤٧٠-كتاب الحج.
- (٤٨٠) كنز العمال-المتقي الهندي-ج١٣-ص٦٥٦-ح٤٢٦٠١.
- (٤٨١) صحيح البخاري-البخاري-ج٩-ص٩٨-باب ما جاء في عذاب القبر من كتاب الجنائز.
- (٤٨٢) وفاء الوفاء-السمهودي-ج٤-ص١٩٦-١٩٧.
- (٤٨٣) النساء/٦٤
- (٤٨٤) بحوث قرآنية في التوحيد والشرك-السبحاني-ص٩٨-بتصرف.
- (٤٨٥) زاد المعاد-ابن القيم-ص٦٦١.
- (٤٨٦) التوحيد والشرك في القرآن الكريم-الشيخ جعفر سبحاني-ص٢٠٠.
- (٤٨٧) الكهف/٢١.
- (٤٨٨) الكهف/٢١.
- (٤٨٩) الكهف/٢١.
- (٤٩٠) التوحيد والشرك في القرآن الكريم-الشيخ جعفر سبحاني-ص٢٠١-بتصرف.
- (٤٩١) الشورى/٢٣.
- (٤٩٢) الحج/٣٠.
- (٤٩٣) الحج/٣٢.
- (٤٩٤) النور/٣٦.
- (٤٩٥) الأعراف/١٥٧.
- (٤٩٦) موسوعة الأسئلة العقائدية-مركز الأبحاث العقائدية-ج٣-ص٢٧-بتصرف.
- (٤٩٧) تهذيب الأحكام-الشيخ الطوسي-ج٦-ص١٠٧
- (٤٩٨) التوحيد والشرك في القرآن الكريم-الشيخ جعفر سبحاني-ص٧١.
- (٤٩٩) ^٥ مفاتيح الجنان-عباس القمي-دعاء التوسل.

- (٥٠٠) ^٥ الصحيفة السجادية الجامعة لأدعية الإمام زين العابدين (ع) - مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام) - دعاؤه عليه السلام في كل صباح ومساء المعروف بالحرز الكامل - ص ٦٤.
- (٥٠١) البقرة / ٣٤.
- (٥٠٢) يوسف / ١٠٠.
- (٥٠٣) البقرة / ١٢٥.
- (٥٠٤) الإسراء / ٢٤.
- (٥٠٥) الشورى / ٢٣.
- (٥٠٦) الحج / ٣٢.
- (٥٠٧) مواهب الرحمن - السيد عبد الأعلى السبزواري - ج ٢ - ص ٢١٤.
- (٥٠٨) النحل / ١٦.
- (٥٠٩) مسند الإمام الصادق أبي عبد الله جعفر بن محمد (ع) - ج ٧ - ص ٥٢١.
- (٥١٠) الاعراف / ١٥٧.
- (٥١١) تفسير الميزان - السيد الطبطبائي - ج ٨ - ص ٢٨٢.
- (٥١٢) الحجرات / ٢.
- (٥١٣) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج ٩ - ص ٢١٧.
- (٥١٤) راجع: زاد المبلِّغات - مياسة شبع - ج ٥ - المحاضرة العاشرة، بعنوان: «التوحيد العبادي» - بتصرف.
- (٥١٥) سنن ابن ماجة - ابن ماجة - ج ١ - ص ٥٠١ - باب ٤٧ - ح ١٥٧١.
- (٥١٦) إبراهيم / ٥.
- (٥١٧) العنكبوت / ٢.
- (٥١٨) الإسراء / ٢٠.
- (٥١٩) الزلزلة / ٤.
- (٥٢٠) محمد / ٧.
- (٥٢١) نص الرواية مع الأشعار مأخوذ من كتاب: مجمع مصائب أهل البيت ع - الشيخ الهنداوي - ج ٢ - ص ٨٤ - ٨٥.
- (٥٢٢) البقرة / ١٩٠.
- (٥٢٣) الحشر / ٢٣.
- (٥٢٤) الرعد / ٢٨.
- (٥٢٥) البقرة / ٢٠٨.

- (٥٢٦) الكافي-الكليني-ج ٢-ص ٢٣٤.
- (٥٢٧) الفرقان/ ٦٣.
- (٥٢٨) الأنعام/ ١٢٧.
- (٥٢٩) الواقعة/ ٢٥-٢٦.
- (٥٣٠) الرعد/ ٢٣-٢٤.
- (٥٣١) البقرة/ ٢١٦.
- (٥٣٢) الحج/ ٣٩-٤٠.
- (٥٣٣) البقرة/ ٢٥١.
- (٥٣٤) الحج/ ٣٩-٤٠.
- (٥٣٥) النساء/ ٧٥.
- (٥٣٦) البقرة/ ١٩٠.
- (٥٣٧) آل عمران/ ١٤٢.
- (٥٣٨) فقه الجهاد في الإسلام-حسين الخشن-ص ١٢٨-بتصرف.
- (٥٣٩) الحجرات/ ٩.
- (٥٤٠) قال السيد محمد الشيرازي: ان حروب رسول الله ص كانت كلها دفاعية ليس فيها شيء من العدوان. المصدر: فقه الجهاد في الإسلام-حسين الخشن-ص ١٢٨-نقلاً عن الفقه-السلم والسلام-ص ٢٧٢.
- (٥٤١) البقرة/ ١٩٤.
- (٥٤٢) شرح نهج البلاغة-ابن ابي الحديد-ج ١٥-ص ١٠٤.
- (٥٤٣) الأنفال/ ٦١.
- (٥٤٤) الأنفال/ ٥٨.
- (٥٤٥) فقه الجهاد في الإسلام-حسين الخشن-ص ١٢٨-بتصرف.
- (٥٤٦) المعاهدة: هي المرأة غير المسلمة التي لها عهد وأمان مع المسلمين، فتكون محمية في نفسها ومالها، ولا يجوز الاعتداء عليها.
- (٥٤٧) حجلها: الخلخال.
- (٥٤٨) قلبها: السوار.
- (٥٤٩) الرعات: الأقراط.
- (٥٥٠) التوبة/ ٧٣.
- (٥٥١) التوبة/ ١٢٣.

- (٥٥٢) الأنفال/ ٦٥.
- (٥٥٣) التوبة/ ٢٩.
- (٥٥٤) التوبة/ ٣٦.
- (٥٥٥) الممتحنة/ ٨.
- (٥٥٦) التوبة/ ٣٦.
- (٥٥٧) البقرة/ ١٩٠.
- (٥٥٨) ٨.
- (٥٥٩) التوبة/ ٧٣.
- (٥٦٠) ، محمد، ميزان الحكمة- محمد الريشهري- ج ١- ص ٦٥٦.
- (٥٦١) الفرقان/ ٥٢.
- (٥٦٢) فقه الجهاد في الإسلام- حسين الخشن- ص ١٧-١٩- بتصرف.
- (٥٦٣) الأنفال/ ٦٥.
- (٥٦٤) تفسير الأمل- ناصر مكارم الشيرازي- ج ٥- ص ١١٣- بتصرف.
- (٥٦٥) إنجيل متى- الإصحاح الخامس- ص ٣٨.
- (٥٦٦) فقه الجهاد في الإسلام- حسين الخشن- ص ٤٠- بتصرف.
- (٥٦٧) البقرة/ ١٩٠.
- (٥٦٨) البقرة/ ١٧٩.
- (٥٦٩) فقه الجهاد في الإسلام- حسين الخشن- ص ٤١- بتصرف.
- (٥٧٠) البقرة/ ٢٠٨.
- (٥٧١) الحراة: هي البروز لأخذ مال أو لقتل أو إرعاب مكابرة اعتماداً على الشوكة مع البعد من الغوث. المصدر: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية- محمود عبد الرحمن عبد المنعم- ج ١- ص ٥٥٩.
- بعبارة أخرى: الحراة هي الخروج بالسلاح لترويع الناس أو الاعتداء عليهم اعتماداً على القوة، مع عدم قدرتهم على دفعه أو الاستغاثة.
- (٥٧٢) المائة/ ٣٢.
- (٥٧٣) النساء/ ٢٩-٣٠.
- (٥٧٤) الكافي- الكليني- ج ٧- ص ٤٥- ح ١.
- (٥٧٥) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق- ج ٤- ص ١٥ باب ذكر جل من مناهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم- ح ٤٩٦٨.

- (٥٧٦) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج٩-ص ١٤٨.
- (٥٧٧) م.ن-ج٩-ص١٤٧-ح ١٠٥١١.
- (٥٧٨) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)-الشيخ الصدوق-ج٢-ص٧٠-٧١.
- (٥٧٩) الكافي-الكليني-ج٢-ص٣٦٨-باب من أخاف مؤمنًا ح٢.
- (٥٨٠) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج٨-ص٤٢٢-ح٩٨٧٢.
- (٥٨١) القصص / ٤.
- (٥٨٢) المنافقون / ٨.
- (٥٨٣) المنافقون / ٨.
- (٥٨٤) تهذيب الأحكام-الشيخ الطوسي-ج٦-ص ١٧٩.
- (٥٨٥) م.ن.
- (٥٨٦) اثبات الوصية-المسعودي-ص ١٦٦.
- (٥٨٧) الإرشاد-المفيد-ص ٢٥٣-٢٥٥.
- (٥٨٨) زاد المبلغات-مياسة شبع-ج٨-مناسبة ١٧ رمضان-عنوان المحاضرة: الجهاد درب العزة والكرامة.
- (٥٨٩) فقه الجهاد في الإسلام-حسين الخشن-ص ١٠٣.
- (٥٩٠) أعيان الشيعة-السيد محسن الأمين-ج١-ص ٢٥٧.
- (٥٩١) بحار الأنوار-العلامة المجلسي-ج٢٠-ص ٦٣.
- (٥٩٢) السيرة الحلبية-علي بن برهان الدين الحلبي-ج٢-ص ٥٣٤.
- (٥٩٣) الكامل في التاريخ-ابن الأثير-ج٢-ص ١٦٣.
- (٥٩٤) موقع الشيعة/ ar.al-shia.org / النبي وأهل بيته/ النبي محمد (ص)/ حروبه وغزواته/ معركة أحد واستشهاد حمزة.
- (٥٩٥) أدب الطف-جواد شبر-ج٧-ص ٢٢٩.
- (٥٩٦) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج١-ص ١٣٩.
- (٥٩٧) الأعراف / ٨-٩.
- (٥٩٨) الملك / ٢.
- (٥٩٩) الأعراف / ٨.
- (٦٠٠) الأعراف / ٨.
- (٦٠١) الأعراف / ٩.
- (٦٠٢) هود / ٨٥.

- (٦٠٣) الرحمن: ٧.
- (٦٠٤) يس/ ٤٠.
- (٦٠٥) الحديد: ٢٥.
- (٦٠٦) مؤسسة الإمام الصادق / imamsadeq.org / المقالات / ميزان الأعمال - بقلم الشيخ جعفر سبحاني - بتصرف.
- (٦٠٧) الحج / ٦٢.
- (٦٠٨) المائدة/ ٨٤.
- (٦٠٩) النساء/ ١٠٥.
- (٦١٠) البقرة/ ١١٩.
- (٦١١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - الجزء: ١٨ - ص ٧٢.
- (٦١٢) المعرفة والتاريخ - أبو يوسف الفسوي - ج ١ - ص ٥٣٦.
- (٦١٣) الكافي - الكليني - ج ١ - ص ١١.
- (٦١٤) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٣ - ص ١٨١.
- (٦١٥) الأنبياء/ ٤٧.
- (٦١٦) المؤمنون/ ١٠٢-١٠٣.
- (٦١٧) الرعد/ ٦-٩.
- (٦١٨) الأعراف/ ٨-٩.
- (٦١٩) الكهف/ ١٠٥.
- (٦٢٠) راجع: رحلة الآخرة، إعداد ونشر جمعية المعارف الثقافية - ص ٨١-٩١ - بتصرف.
- (٦٢١) الكهف/ ١٠٥.
- (٦٢٢) الكليني - الكافي - ج ٨ ص ٧٥.
- (٦٢٣) الأنبياء/ ٤٧.
- (٦٢٤) الأعراف/ ٨.
- (٦٢٥) الأعراف/ ٩.
- (٦٢٦) انظر كشف المراد - العلامة الحلي - ص ٢٩٧.
- (٦٢٧) الأعراف/ ٨.
- (٦٢٨) راجع: الميزان في تفسير القرآن - السيد الطباطبائي - ج ٨ - ص ١١.
- (٦٢٩) الأعراف/ ٨.
- (٦٣٠) الاحتجاج - الطبرسي - ص ٣٥١.

- (٦٣١) الأنبياء/٤٧.
- (٦٣٢) م.ن.
- (٦٣٣) بحار الأنوار-المجلسي-ج٧-ص٢٤٩.
- (٦٣٤) الكافي-الكليني-ج٢-ص٣٠٦.
- (٦٣٥) محمد/٢٨.
- (٦٣٦) رحلة الآخرة-إعداد ونشر جمعية المعارف الثقافية-ص٨١-٩١.
- (٦٣٧) م.ن.
- (٦٣٨) الكليني-الكافي-ج٨ ص١٩.
- (٦٣٩) البقرة/٢٦١.
- (٦٤٠) مسند الإمام الصادق (ع)-الشيخ عزيز الله عطاردي-ص٤٧.
- (٦٤١) منازل الآخرة-الشيخ عباس القمي-ص٢٠٢.
- (٦٤٢) بحار الأنوار-المجلسي-ج٢-ص٤٩٤.
- (٦٤٣) ثواب الأعمال-الصدوق-ص١٨٦.
- (٦٤٤) ميزان الحكمة-محمد الريشهري-ج١-ص٥١٨.
- (٦٤٥) م.ن-ج١-ص٧٩٩.
- (٦٤٦) الأمالي-الشيخ المفيد-ص٧٧.
- (٦٤٧) بحار الأنوار-المجلسي-ج٢-ص١٤.
- (٦٤٨) مستدرك الوسائل-الميرزا النوري-ج١٠-ص٢٢٢.
- (٦٤٩) شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد-ج١٨-ص٧٢.
- (٦٥٠) معجم المعاني، مادة «فرق».
- (٦٥١) بصائر الدرجات-الصفار-ص٧٤.
- (٦٥٢) سلسلة الغدير الموضوعية-الشيخ عبد الحسين الأميني-ج١-ص٣١٢.
- (٦٥٣) الرعد/٤٣.
- (٦٥٤) راجع: تفسير نور الثقلين-الحويزي-ج٢-ص٥٢٣.
- (٦٥٥) المائة/٥٥.
- (٦٥٦) آل عمران/٤٩.
- (٦٥٧) الخصال-الصدوق-ص٥٨٠.
- (٦٥٨) أنظر: البحار-المجلسي-ج٩٧-ص٣٨٤.
- (٦٥٩) قرب الإسناد-عبد الله بن جعفر الحميري القمي-ص١٧٥.

- (٦٦٠) البداية والنهاية-ابن كثير-ج ٦-ص ٩١.
- (٦٦١) راجع كتاب: من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج ١-ص ٢٠٣.
- (٦٦٢) بشارة المصطفى-الأملي-ص ٢٣٤.
- (٦٦٣) الإمام علي بن أبي طالب ع-أحمد الرحمانى الهمداني-ص ١٧٨. نقلا عن مناقب آل أبي طالب-ابن شهر آشوب-ج ٢-ص ٣٢٠-٣٢٣.
- (٦٦٤) المجالس السنية-السيد محسن الأمين العاملي-ج ٢-ص ٥١٦.
- (٦٦٥) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج ٤-ص ٢٢١-٢٢٢.
- (٦٦٦) البقرة/١٨٧.
- (٦٦٧) م.ن.
- (٦٦٨) تم أخذ عناوين أوجه الشبه من كتاب: سعادة الزوجين في ثلاث كلمات-أكرم بركات-ص ٩-٣٥-بتصرف.
- (٦٦٩) البقرة/١٨٧.
- (٦٧٠) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٦٢.
- (٦٧١) م.ن-ج ٢٠-ص ٤٥.
- (٦٧٢) منهاج الصالحين-السيستاني-ج ٣-كتاب النكاح-مسألة ٢٠٥.
- (٦٧٣) م.ن-مسألة ٢٠٧.
- (٦٧٤) بحار الأنوار-المجلسي-ج ١٠٠-ص ٣٧٦.
- (٦٧٥) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٥٣٤.
- (٦٧٦) م.ن-ج ٢٠-ص ٦٢.
- (٦٧٧) ميزان الحكمة، محمدي الريشهري-ج ٢-ص ١١٨١.
- (٦٧٨) الكافي-الكليني-ج ٥-ص ٣٤٧-ح ٢.
- (٦٧٩) مكارم الأخلاق-الشيخ الطبرسي-ص ٣١٨.
- (٦٨٠) البحار-المجلسي-ج ٧٢-ص ١١٥-ح ١٣.
- (٦٨١) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٥٣.
- (٦٨٢) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ١٤-ص ٢٢٠.
- (٦٨٣) أعشى بصره أي أضعف رؤيته وجعلها غير دقيقة بسبب التعلق.
- (٦٨٤) نهج البلاغة-خطبة: ١٠٨.
- (٦٨٥) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٦٤.
- (٦٨٦) الكافي-الكليني-ج ٦-ص ٤٥٨.

- (٦٨٧) جامع أحاديث الشيعة-البروجردي-ج ٢٠-ص ٥٢.
- (٦٨٨) الحدائق الناضرة-المحقق البحراني-ج ٢٣-ص ١١٩.
- (٦٨٩) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٥٢.
- (٦٩٠) بحار الأنوار-المجلسي-ج ١٠٠-ص ٢٣٧.
- (٦٩١) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٥٠.
- (٦٩٢) الأعراف/ ٢٦.
- (٦٩٣) البقرة/ ١٨٧.
- (٦٩٤) النساء/ ٣٤.
- (٦٩٥) كنز العمال-المتقي الهندي-ج ١٦-ص ٣٧٥-٣٧٦.
- (٦٩٦) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٧٢-ص ٢١٥.
- (٦٩٧) الأنبياء/ ٨٠.
- (٦٩٨) البقرة/ ١٨٧.
- (٦٩٩) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٧٢-ص ٢١٤-٢١٥.
- (٧٠٠) ثواب الأعمال وعقابها-الشيخ الصدوق-ص ١٧٨.
- (٧٠١) بحار الأنوار-المجلسي-ج ٧٥-ص ٢٣٧.
- (٧٠٢) الكافي-الكليني-ج ٥-ص ٣٢٤.
- (٧٠٣) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٥-ص ٤١.
- (٧٠٤) البقرة/ ١٨٧.
- (٧٠٥) البقرة/ ١٨٧.
- (٧٠٦) الروم/ ٢١.
- (٧٠٧) وسائل الشيعة-الحر العاملي-ج ٢٠-ص ٢٩.
- (٧٠٨) تحف العقول-حسن بن شعبة الحراني-ص ٣٥٩.
- (٧٠٩) الأعراف/ ٢٦.
- (٧١٠) الذاريات/ ٥٦.
- (٧١١) البقرة/ ٢١.
- (٧١٢) الحج/ ٣٢.
- (٧١٣) البقرة/ ١٨٧.
- (٧١٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل-ناصر مكارم الشيرازي-ج ١١-ص ٩٧.
- (٧١٥) الأعراف/ ٢٦.

(٧١٦) سيرة الإمام جعفر الصادق ع - حسين الشاكري - ج ١ - ص ٣١. نقلاً عن كشف الغمة ٢: ١٦١.

(٧١٧) بحار الأنوار - المجلسي - ج ٤٨ - ص ٧.

(٧١٨) راجع: الكافي - الكليني - ج ١ - ص ٤٧٦ باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) ضمن ح ١.

(٧١٩) الكافي - الكليني - ج ١ - ص ٤٧٧ - ح ٢.

(٧٢٠) مضمون الرواية من كتاب: الكافي - الكليني - ج ١ - ص ٤٧٧ باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) ح ١ - بتصرف.

(٧٢١) كتاب أمهات المعصومين - محمد الحسيني الشيرازي - ص ٢٤٥ - ٢٥٥.

(٧٢٢) «سُقي سُمًّا نقيعاً في عنب ورمان»: أي سُمُّ مُذاب أو منقوع داخل عصير العنب والرمان، بحيث امتزج به وخفي أثره.

(٧٢٣) وفاة الإمام جعفر الصادق - الشيخ حسين بن الشيخ محمد البحراني - ص ٣٧.

(٧٢٤) مجمع مصائب أهل البيت ع - الشيخ الهنداوي - ج ٤ - ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٧٢٥) م. ن - ص ٢٢٥.

(٧٢٦) المؤمنون / ١١٥.

(٧٢٧) الزخرف / ٢٢.

(٧٢٨) الكافي - الكليني - ج ١ - ص ١٨٣.

(٧٢٩) نهج البلاغة - شرح ابن أبي الحديد - ج ١٨ - ص ٣٢٢.

(٧٣٠) الحديد / ٤.

(٧٣١) المدثر / ٣٨.

(٧٣٢) الزلزلة / ٧.

(٧٣٣) النازعات / ٤٠ - ٤١.

(٧٣٤) القصص / ٦٠.

(٧٣٥) الحياة الآخرة - دروس في المعاد والآخرة - مركز نون للتأليف والترجمة - ص ١٩ - ٢٦ - بتصرف.

(٧٣٦) القيامة: ٥.

(٧٣٧) تاريخ دمشق - ابن عساكر - ج ٢ - ص ١٦٠.

(٧٣٨) المطففين / ١ - ٤.

(٧٣٩) آل عمران / ١٦٩.

- (٧٤٠) النحل / ٩٠.
- (٧٤١) القصص / ٨٣.
- (٧٤٢) البقرة / ٢٧٢.
- (٧٤٣) الماعون / ١-٢.
- (٧٤٤) ويكيبيديا العربية، «المعاد عند الاثني عشرية»، الموسوعة الحرة، تاريخ الاطلاع: ٢٥ أبريل ٢٠٢٦، الرابط: https://ar.wikipedia.org/wiki/المعاد_عند_الاثني_عشرية - بتصرف.
- (٧٤٥) البراهين القاطعة في شرح العقائد الساطعة - محمد جعفر الاسترآبادي - ص ٢١٦-٢١٨ - بتصرف.
- (٧٤٦) يس / ٧٩.
- (٧٤٧) العاديات / ٩.
- (٧٤٨) يس / ٥١.
- (٧٤٩) شرح نهج البلاغة - ج ٦ - ص ٢٤٩.
- (٧٥٠) المصدر السابق - ج ٧ - ص ٢٠١.
- (٧٥١) المصدر السابق - ج ١٠ - ص ١٢٢.
- (٧٥٢) مركز الأبحاث العقائدية / aqaed.net / الأسئلة والأجوبة العقائدية / المعاد / المعاد الجسائي.
- (٧٥٣) الصور: هو القرن الي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام عند بعث الموتى إلى المحشر، عن علي بن الحسين عليه السلام: ((للصور رأس واحد وطرفان، وبين طرف رأس كل منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض... قال: فينفخ (اسرافيل عليه السلام) فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض فلا يبقى في السماوات ذو روح إلا صعق ومات إلا إسرافيل، قال: فيقول الله لإسرافيل: يا إسرافيل مُت، فيموت إسرافيل... الحديث.
- (٧٥٤) إن الأحكام الفقهية كثيرة ومتفرعة وتحتاج إلى علم واسع، لذلك يرجع الناس فيها إلى العلماء المتخصصين بالتقليد، كما يرجع المريض إلى الطبيب، وهذا ليس تقليدًا أعمى، بل رجوع إلى أهل الخبرة.
- (٧٥٥) راجع: زاد المبلغات - مياسة شبع - ج ٢ - المحاضرة الأولى. وال جزء ٣ - المحاضرة الثانية.
- (٧٥٦) راجع: زاد المبلغات - مياسة شبع - ج ١٠ - بعنوان ضرورة بعثة الأنبياء.
- (٧٥٧) مكتب سماحة السيد السيستاني / sistani.org / الاستفتاءات / التقليد.
- (٧٥٨) المؤمنون / ١١٥.

- (٧٥٩) المدثر/ ٣٨.
- (٧٦٠) الملك/ ٢.
- (٧٦١) الأنعام/ ١٦٤
- (٧٦٢) السجدة/ ١١.
- (٧٦٣) دروس في العقيدة الإسلامية-إعداد ونشر جمعية المعارف الإسلامية-ص ٢٣١-٢٣٥-
بتصرف.
- (٧٦٤) الفجر/ ٢٧-٢٨.
- (٧٦٥) البلد/ ٤.
- (٧٦٦) الحجر/ ٤٨.
- (٧٦٧) مصباح الشريعة-منسوب لإمام الصادق ع-ص ١١٥.
- (٧٦٨) فهم القرآن دراسة على ضوء المدرسة السلوكية-جواد علي كسار-ص ٦٨٧-٦٨٨-بتصرف.
- (٧٦٩) الحج/ ٥-٦.
- (٧٧٠) الواقعة/ ٦٢.
- (٧٧١) الروم/ ١١.
- (٧٧٢) الروم/ ٥٠.
- (٧٧٣) غافر/ ٥٧.
- (٧٧٤) يس/ ٨١.
- (٧٧٥) لقمان/ ٢٨.
- (٧٧٦) القيامة/ ٣-٥.
- (٧٧٧) الحياة الآخرة- دروس في المعاد والآخرة-مركز نون للتأليف والترجمة-ص ٣٤-بتصرف.
- (٧٧٨) الكافي-الكليني-ج ٣-ص ٢٥١-ح ٧.
- (٧٧٩) مركز الأبحاث العقائدية/ aqaed.net / الأسئلة والأجوبة العقائدية / الخلق والخلقية/ لا
تعارض بين روايات الطينة مع قوله تعالى (كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَان).
- (٧٨٠) أمالي الصدوق-الصدوق-ص ٢٤٣.
- (٧٨١) الواقعة/ ٦٢.
- (٧٨٢) الطلاق/ ١٢.
- (٧٨٣) الكهف/ ١٠-١٢.
- (٧٨٤) الكهف/ ٢١.
- (٧٨٥) البقرة/ ٢٥٩.
- (٧٨٦) البقرة/ ٢٦٠.

- (٧٨٧) آل عمران/ ٤٩.
- (٧٨٨) الطور/ ٢١.
- (٧٨٩) راجع: من لا يحضره الفقيه-الشيخ الصدوق-ج٣-ص٤٩٠.
- (٧٩٠) موقع سماحة الشيخ حسين الخشن/ al-khechin.com / مقالات/ عقائدية/ مصير الأطفال يوم القيامة (١)-بتصرف.
- (٧٩١) مركز الأبحاث العقائدية/ aqaed.net / الأسئلة والأجوبة العقائدية / المعاد/ من يرعى الأطفال بعد موتهم؟-بتصرف.
- (٧٩٢) شبكة المعارف الإسلامية/ almaaref.org / محطات إسلامية/ مناسبات الأشهر الهجري/ شوال/ مناسبات شهر شوال.
- (٧٩٣) مناقب آل أبي طالب-ابن شهر آشوب-ج٢-ص٢٣٥.
- (٧٩٤) م.ن.
- (٧٩٥) نفس المهموم-عباس القمي-ص٣٤٩.
- (٧٩٦) مجمع مصائب أهل البيت ع-الشيخ الهنداوي-ج٢-ص٢١-٢٢.
- (٧٩٧) م.ن-ص٢٢.



مَجَلَّةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ الشَّرِيحِ | مَعْهَدُ الْأَسْرَةِ الْمُسَلِّمَةِ